

روايات الهلال

خوسيه ساراماجو

الطوف الحجرى

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال
الإصدار الأول:
يناير ١٩٤٩

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة – لبنان ٧٥٠٠ ليرة – الاردن ٣ دينارات – الكويت ٢ دينار – السعودية ٢٠ ريالا – البحرين ٢ دينار – قطر ٢٠ ريالا – دبي/ أبو ظبي ٢٠ درهما – سلطنة عمان ٢ ريال

العدد ٦٢٢
أكتوبر ٢٠٠٠ ● رجب ١٤٢١هـ
No - 622 - OCT - 2000

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - امريكا واروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا - باقي دول العالم ٦٠ دولار .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك في الكويت السيد عبدالعال بسيوني زغلول الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ٤٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب . ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج . م . ع
تلكس TELEX 92703 hilal u n
فاكس FAX 3625469

عنوان البريد الإلكتروني •
darhilal@idsc . gov . eg

الطوف الحجرى

تأليف

خوسيه ساراماجو

جائزة نوبل ١٩٩٨

ترجمة

لبنى الريدى

●

دار الهـــلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

LE RADEAU DE PIERRE

تأليف

JOSE SARAMAGO

(نوبل ١٩٩٨)

الغلاف للفنان:

جودة خليفة

عندما خربشت جوانا كاردا الأرض بفرع من شجرة دردار، شرعت كل كلاب بلدة سيربير فى النباح، فأشاعت الرعب والهلع بين السكان لأن اعتقادا يرجع إلى الأزمنة السحيقة مفاده أن نهاية العالم ستكون قريبة إذا شرع النسل الكلبى، الذى كان دائما أبكم، فى النباح فجأة. كيف تكونت هذه الخرافة الثابتة، أو باستخدام تعبير مكافىء، هذا الاعتقاد الراسخ، لا أحد يتذكر ذلك الآن، مع أن بفضل اللعبة المعروفة التى ترتكز على سماع حكاية وروايتها مع تعديل فاصلة فقط، اعتادت الجدات الفرنسيات تسلية أحفادهن بأن تروى لهم أن فى زمن اليونانيين والأساطير، كان هناك فى بلدة سيربير تلك، إحدى مقاطعات البرانس الشرقية، كلب بثلاثة رؤوس، وكان يستجيب عندما ينادى عليه صاحبه، البحار روشيه، بهذا الاسم، وكان هذا الكلب ينبح، كما أنه من غير المعلوم التغيرات العضوية التى تعرضت لها هذه الفصيلة الكلبية الراعدة الشهيرة قبل أن تبلغ حد الخرس المثبت تاريخيا لذريتها ذات الرأس الواحدة، وهو مايمثل انحطاطا فى النوع، غير أن هذا الكلب نفسه سيربيرو، كما ينطق ويكتب بالبرتغالية، كان يحرس مدخل جهنم بافتراس يثير رعب الأرواح التى كانت تحاول الهروب منها، لكن الآلهة المحتضرة، الراغبة ، دون شك ، فى أن ترى الهدوء والصمت يمحوان، هذا المكان من الذاكرة، أخرست، بحركة رخمة أخيرة الأجيال التالية من الكلاب لباقى الزمان، ومن النادر وجود من ينكر هذه النقطة من العقيدة، خاصة إذا كان ينتمى إلى الجيل القديم، لكن أفضل الأشياء لها نهاية، كما علمتنا الأزمنة الحديثة ذلك بوضوح، وكان يكفى أن تقوم امرأة اسمها جوانا كاردا بخربشة الأرض بفرع من شجرة دردار، فى نهار أحد هذه الأيام، على بعد مئات من الكيلومترات

من بلدة سيربير، فى ركن من البرتغال سيأتى ذكره فيما بعد، لكى تجتاح كل كلاب البلدة الشوارع فجأة، وهى تنبح، إننا نكرر، هذه الكلاب لم تنبح قط من قبل، وإذا سأل أحد جوانا كاردا ما الذى خطر لها لكى تقوم بخربشة التربة بفرع شجرة، إنها حركة جديرة بمراهقة غريبة الأطوار وليس بامرأة متزنة؟.. أو كيف استطاعت ألا تفكر فى عواقب فعل يبدو فى ظاهره غير رشيد لهذه الدرجة، والكل يعرف أن مثل هذه الأفعال هى الأكثر خطورة،؟.. كانت بدون شك سترد قائلة: «إننى لا أفهم ما الذى حدث، كانت العصاة، على الأرض، فالتقطتها ورسمت خطا»، «لم يدر بخلدك أنها قد تكون عصاة سحرية؟»، «إنها كبيرة قليلا بالنسبة لعصاة سحرية، ثم إننى سمعت دائما أن العصى السحرية تكون مصنوعة من الذهب والبللور وأنها تسبح فى هالة من النور وتحمل نجمة عند طرفها»، «أكنت تعلمين أن الأمر يتعلق بفرع شجرة دردار؟»، «أنا لا أعرف الكثير عن الأشجار، لقد قيل لى منذ ذلك الحين إن شجرة الدردار مثل صفير الدردار وهو نفسه مثل شبيه الدردار، لكن حتى لو تم تبديل أسمائها فلا أحد منها لديه قوة سحرية، على أى حال، فى هذه المسألة، أعتقد أن عود ثقاب كان كفيلا بإحداث الأثر نفسه»، «لماذا تقولين ذلك؟»، «لأنه لايحدث إلا ماهو مقدر له أن يحدث، وبقوة كبيرة بحيث لايمكن منع حدوثه، لقد سمعت ألف مرة كبار السن يقولون ذلك»، «تؤمنين بالقدر؟»، «أؤمن بما يجب أن يحدث».

وفى باريس، أثارت توسلات عمدة سيربير الضحك، إذ بدا وكأنه يتصل هاتفيا من حظيرة للكلاب ساعة تقديم الطعام لها، ولم يتقرر فى نهاية الأمر إرسال اثنين من الأطباء البيطريين الأكفاء التابعين لجهاز المخابرات إلى الجنوب، إلا بناء على إلحاح أحد نواب الأغلبية، الذى ولد وتربى فى البلدة، وكان يعرف جيدا حكايات

وأساطير هذا الركن، وكانت المهمة الخاصة الموكلة إلى هذين الطبيبين هى دراسة هذه الظاهرة الغريبة وتقديم تقرير عنها تتبعه اقتراحات التدخل. وأثناء ذلك، ألقى سكان البلدة البائسون الذين كانوا على وشك الصمم، العشرات من كريات اللحم المسمم فى شوارع وساحات بلدتهم الساحلية الحبيبة التى أصبحت لا تطاق، وهى طريقة شديدة البساطة، ولقد تأكدت فاعليتها بالتجربة فى جميع العصور وكل المناطق، ولم يمت بعد كل ذلك سوى كلب واحد فقط، فسرعان مافهم الأحياء الدرس، واختفوا فى لحظة واحدة فى الحقول المجاورة، وهى تنبح وتعوى وتصيح، وهناك سكتت على الفور تقريبا، دون مبرر ظاهر، وعندما وصل أخيرا الطبيبان البيطريان، قدم لهما ميدور، الذى بدا مسكينا وباردا ومنتفخا، ولا يشبه فى شىء ذلك الحيوان المرح الذى كان يرافق سيدته أثناء قيامها بالتسوق، والذى كان بحكم دنو الشيخوخة يحب أن ينعس بكسل فى الشمس، وبما أن العدالة لم تغادر هذا العالم نهائيا بعد، فإن الله قرر، كشاعر، أن يموت ميدور مسموما بكرية اللحم التى أعدتها سيدته الحبيبة لكلبة معينة من الجوار كانت لاتغادر حديقتها، وأمام الجثة الكئيبة، أعلن أكبر الطبيبين البيطريين سنا، «سنجرى عملية تشريح للجثة»، الحق يقال، لم تكن هناك حاجة لذلك، فأى واحد من سكان سيربير كان يمكنه، إذا أراد ذلك، أن يشهد بأسباب الوفاة، لكن كانت النية الخفية لجهاز المخابرات هى القيام سرا بفحص الأحبال الصوتية لذلك الحيوان، الذى عرف، بالرغم من كل شىء، بضع ساعات من التعبير، مابين خرس الموت الذى أصبح نهائيا، وصمت كان يعتقد أنه يتعين أن يستمر، وهو ما جعله كلبا مثل الكلاب الأخرى، إنه جهد ضائع، فلم يكن لدى ميدور أحبال صوتية، ذهل الجراحان بينما أبدى العمدة رأيه، وهو رأى إدارى وعاقل، لايوجد مايدهش فى ذلك، لقد ظلت

كلاب سيربير لقرون طويلة لاتعرف النباح بحيث ضمر عضو الصوت لديهم، «لكن كيف حدث الأمر فجأة؟»، «ذلك ما أجهله»، أنا لست طبيبا بيطريا، على أى حال انتهت همومنا، لقد اختفت الكلاب ولايسمعها أحد حيثما كانت، وأعيد ميدور، مشقوق البطن وقد تم رتق جرحه بشكل ردىء، إلى سيدته المكلومة مثل الندم الحى، الذى يشبه كل أنواع الندم، حتى بعد موتها، وفى طريقهما إلى المطار، ليستقلا الطائرة إلى باريس، قرر الطبيبان البيطريان ألا يذكرا فى تقريرهما تلك القصة العجيبة للأحبال الصوتية المختفية، ويبدو أنها اختفت. بشكل نهائى، لأن فى تلك الليلة بدأ يطوف فى سيربير كلب ضخم عال كما الشجرة وبثلاثة رؤوس، لكنه أخرس.

وخلال أحد هذه الأيام، قبل أو ربما بعد أن خربشت جوانا كاردا التربة بفرع شجرة الدردار الخاص بها، كان هناك رجل يتمشى على الشاطىء عند غروب الشمس، فى تلك اللحظة التى يكون فيها صوت الأمواج، الذى لايكاد يدرك، قصيرا ومكبوتا مثل تنهيدة لاسبب لها، وكان هذا الرجل، الذى سيعلن بعد ذلك ان اسمه جواكيم ساسا، يمشى على الخط الفاصل بين الرمل المبلل والرمل الجاف، وينحنى من وقت لآخر لكى يلتقط قوقعة، أو كلابة سرطان بحر، أو خيطا أخضر لطحلب، إنه يتنزه بمفرده، وكثيرا مانقضى نحن الوقت بتلك الطريقة، لم يكن لديه جيب ولاكيس ليضع فيه نفائسه، ولذلك كان عندما تمتلىء يداه يرمى البقايا الميتة، يلقى إلى البحر مايخص البحر، وإلى الأرض ماينتمى للأرض، لكن لكل قاعدة استثناءاتها، وهكذا رأى جواكيم ساسا، حجرا ثقيلا، بعيدا عن متناول الأمواج، عريضا مثل القرص، وغير منتظم، وقام برفعه ولو كان مثل الأحجار الأخرى، تلك الأحجار الناعمة سهلة الاستعمال التى يمكن الإمساك بها بحرية، لكان جواكيم

ساسا قد قذف به على مستوى سطح المياه لكى يراه وهو يقفز بعد أن يلمس وجه الماء، سعيدا بمهارته مثل طفل، ثم يشاهده وهو يغوص فى البحر بعد أن استنفد اندفاعه، حجر مصيره مرسوم بالكامل، جففته الشمس وبللته الأمطار، حجر يختفى فى الأعماق المظلمة لكى ينتظر فيها مليون عام كى يتبخر البحر أو يتراجع، معيدا إياه إلى اليابسة لمدة مليون عام أخرى، مانحا بذلك للزمن الوقت الكافى لكى ينزل جواكيم ساسا آخر بدوره إلى الشاطىء ليكرر دون أن يعرف الحركة نفسها، والسلوك نفسه، ويجب ألا يقول أحد، «أنا لن أفعل ذلك»، لايوجد حجر راسخ أو يمكن الاعتماد عليه.

كانت تلك هى الساعة العذبة على شواطىء الجنوب، حيث يأخذ البعض حماما أخيرا، أو يسبحون، أو يلعبون بالكرة، أو يغطسون بين الأمواج، أو ينجرفون ببطء مع التيار على حاشية هوائية، مستشعرين على جلدهم نسائم الغروب الأولى، يعرضون أجسادهم للمداعبة الأخيرة للشمس التى ستستقر هناك، على البحر، لمدة ثانية، أطول الثوانى جميعا، تلك التى تتيح رؤيتها وتسمح بتأملها، لكن على هذا الشاطىء الشمالى حيث يرفع جواكيم ساسا حجرا ثقيلا جدا لدرجة أنه آلم يديه، الهواء بارد والشمس تغوص لنصفها، ولايوجد طائر نورس واحد يطير فوق الماء، رمى جواكيم ساسا الحجر، كان يتوقع أن يسقط ثانية أبعد قليلا، بعد قدميه بقليل، لابد أن يعرف كل شخص حدوده، ولم يكن هناك شاهد ليسخر من رامى القرص الحانق، وكان يستعد ليهزأ من نفسه عندما تحولت الأمور بالكامل، ارتفع الحجر ثقيلا، وداكنا فى الفضاء، وسقط ضاربا الماء ضربة خاطفة، وارتد تحت الصدمة، ثم تحليق عظيم، وقفزة كبيرة، وسقط من جديد لكى يرتفع مرة أخرى ويغرق أخيرا فى عرض البحر، إلا إذا كان البياض الذى يتم تمييزه على البعد

ليس سوى هدب الزبد المتولد من الموجة المتكسرة. «كيف أمكن حدوث مثل هذا الأمر، كان جواكيم ساسا يفكر حائرا، كيف استطعت، وأنا لست قويا على الإطلاق، أن أقذف حجرا ثقيلا لهذا الحد إلى تلك المسافة البعيدة، بينما بدأ الظلام يهبط على البحر ولايوجد من يقول لي: «براڤو ياجواكيم ساسا، يجب ألا يبقى مثل هذا الإنجاز مجهولا، سأشهد لصالحك في موسوعة چينس للأرقام القياسية، لست محظوظا، لو رويت بنفسي ماحدث فسيعتبرونني كاذبا»، وتكسرت على الشاطيء موجة ضخمة مزبدة، لقد لمس الحجر الماء، فمن المعروف منذ أنهار الطفولة، على الأقل بالنسبة لمن كان لديهم أنهار فى طفولتهم، تأثير الموجة المتحدة المركز التي يحدثها الحجر المقذوف، ركض جواكيم ساسا نحو أعلى الشاطيء، تلاشت الموجة، تاركة على الرمل قواقع وكلابات سرطان البحر وطحالب خضراء، ولكنها تركت أيضا سراجس ومشطورات واشتات، وحجرا صغيرا، من تلك الأحجار التي يسهل الإمساك بها بين الإبهام والسبابة، حجرا لم ير الشمس منذ سنوات.

إن الكتابة عملية صعبة بشكل فظيع، فهي مسئولية ضخمة، يكفى التفكير فى العمل المضنى الذى يتطلبه سرد الأحداث تبعا لترتيبها الزمني، هذا يأتى أولا، ثم يليه ذلك أو تقديم مغامرة اليوم قبل واقعة الأمس والعديد من الألعاب البهلوانية التى لاتقل خطورة، لو كان ذلك يناسب أكثر الأثر المطلوب، الماضى وكأنه وقع فى التو، والحاضر وكأنه مستمر دون بداية ولا نهاية، لن ينجح المؤلفون قط، أيا كانت الطريقة التي يستخدمونها، فى أن يسجلوا فى ذات الوقت حدثين وقعا معا فى آن واحد. يعتقد البعض أنهم تغلبوا على هذه الصعوبة عندما قسموا الصفحة إلى عمودين متساويين، إنها حيلة ساذجة، لأنه يتعين ملء أحد العمودين قبل الآخر،

مع الأخذ فى الاعتبار أن القارىء سيقرأ أحد العمودين أولا والاخر بعد ذلك أو العكس، إلا أن حظ مغنى الأوبرا أفضل فإن كلا منهم يلتزم بالجزء الخاص به، ويغنون ثلاثة وأربعة وخمسة وستة فى آن واحد، مابين تينور وجهير وسوبرانو وجهير أول، ولكل منهم نصه، نص الساخر الوقح والمتضرعة الساذجة أو نص العاشق الذى يتأخر فى الإسراع لنجدة الحبيبة، أما بالنسبة للمشاهد، فإن مايهمه هو الموسيقى، غير أن الأمر يختلف تماما بالنسبة للقارىء، إذ يجب شرح كل شىء له، كل مقطع لفظى الواحد تلو الآخر، كما تمت مشاهدته، لذلك، بعد الحديث عن جواكيم ساسا، سوف نستدير نحو بيدرواورس، فبين البرهة التى قذف فيها جواكيم ساسا حجره فى البحر وتلك التى قام فيها بيدرواورس من مقعده، لم تمر سوى لحظة، وإن كانت الساعات تسجل فارقا زمنيا قدره ساعة. فذلك لأن أحدهما يعيش فى إسبانيا والآخر فى البرتغال.

لكل معلول علة، يعرف الجميع هذه الحقيقة الكلية، ومع ذلك يستحيل تفادى بعض أخطاء الحكم أو المطابقة، وبالتالى، فقد يبدو أن أثرا معينا قد نتج عن سبب محدد، بينما الحقيقة أن سببا مختلفا تماما هو الذى أحدثه، سبب يتجاوز فهمنا والمعارف التى نتصور أننا نملكها، كان الاعتقاد الثابت أن كلاب سيربير شرعت فى النباح فى اللحظة المحددة التى خربشت فيها جوانا كاردا التربة بفرع شجرة الدردار الخاص بها، وفى هذه الحالة فلن يقبل بتصديق ذلك سوى طفل شديد السذاجة، لكن ألا يزال هناك مثل هذا الطفل الآن، وقد مضى زمن السذاجة المبارك، أو طفل برىء، لو كان مسموحا بذكر اسم البراءة المقدس هباء، طفل قادر على تخيل أن بإمكانه الإمساك بنور الشمس عندما يحكم قفل قبضته، هذا الطفل فقط يقبل أن يصدق أن الكلاب التى لم تنبح قط حتى الآن، لأسباب تاريخية

وفسيولوجية، قد أخذت فجأة في النباح، وفي عشرات الآلاف من تلك الأكواخ، والقرى والبلدات والمدن، سيوجد الكثيرون ممن يقسمون أنهم سبب نباح الكلاب الباقي، لأنهم أشعلوا سيجارة، أو قطعوا ثمرة فاكهة، أو أزاحوا ستارة، أو لأن ظفرا لهم قد انكسر، أو ارتطموا بباب، أو لأنهم ماتوا أو ولدوا في تلك اللحظة، ولكن بالطبع ليس هؤلاء هم أنفسهم أولئك، غير أنه من الصعب القبول بالفرضين الأخيرين، فالوليد لايتكلم عند خروجه من بطن أمه، وكذلك الحال عند الموت والدخول في بطن الأرض، وبالتالي فإن التعبير عنهما يرجع إلينا، ولاجدوى من إضافة أن كل واحد منا لديه مبررات وجيهة في أن يعتقد أنه السبب في النتائج والآثار المذكورة والكثير غيرها الذي يمثل إسهامنا في سير العالم، أود بشدة أن أعرف ما الذي سيحدث لهذا العالم عندما يختفي البشر والتأثيرات التي هم وحدهم قادرون على إحداثها، إن فراغا مماثلا يصيب المرء بالدوار، على أي حال، سيبقى على قيد الحياة شيء ما، حيوانات صغيرة، حشرات، سيستمر عالم النملة في الوجود، وكذلك عالم زيز الحصاد، ولايهم، أن تلك الكائنات لن تجعل الستائر تتحرك، ولن تتطلع في المرايا، فإن الحقيقة الكبيرة الوحيدة في نهاية المطاف هي أن العالم سيستمر في الدوران.

كان يمكن لبيدرواورس أن يقول، لو كان يجرؤ على ذلك، إن الأرض بدأت تهتز في تلك اللحظة بالذات التي وضع فيها قدميه على الأرض، وهو يقوم من على مقعده، افتراض مذهل، لكن لماذا، إذا كان كل واحد منا يترك علامته في الكون، فإنه يمكن تصور أن بيدرواورس اختار أن يترك هذه العلامة، ولذلك فهو يعلن، «ما إن وضعت قدمي على الأرض حتى اهتزت الأرض من تحتي»، لم يشعر أحد بالهزة العجيبة، ولا حتى الآن بعد مرور دقيقتين، وبعد أن توافر للموجة الوقت لكي

تنسحب وقال جواكيم ساسا لنفسه، «إذا رويت ذلك، فسيعتبروننى كاذبا، الأرض تهتز مثل الوتر الذى تم التوقف عن سماعه، يشعر بها بيدرواورس تحت باطن قدميه، عند خروجه من صيدليته، ويشعر بها أيضا فى الشارع حيث لايدرك أحد شيئا، ما أشبه ذلك بالتحديق فى نجم هاتفا، «ما أروع هذا النور، ياله من نجم بديع»، جاهلا أن النجم انطفأ فى وسط الجملة، وسيكرر الأبناء والأحفاد الكلمات نفسها، الصغار المساكين، يتحدثون عن ماهو ميت كما لو كان لايزال حيا، ومثل تلك الأخطاء لاتقع فقط في مجال الفلك. الأمر هنا على نقيض ذلك، سيقسم الجميع أن الأرض ثابتة، وسيستمر بيدرواورس وحده فى تأكيد أنها تهتز، ولحسن الحظ، أنه لم يقل شيئا أو لم ينطلق راكضا وقد أصابه الرعب، لأن بعد التفكير لاتهتز الجدران، وتتدلى الفوانيس مثل ميزان البناء، وتنام الطيور فى القفص هادئة على مجاثمها، ورأسها تحت جناحها، وهى عادة أول من يطلق الإنذار، ورسمت إبرة آلة تسجيل الزلازل، وترسم دائما، خطا مستقيما، أفقيا، على الورق المقسم إلى ملليمترات.

وفى صباح اليوم التالى، كان يعبر السهل المجدب رجل يسير على امتداد الدروب الضيقة، وكانت تنمو بين أشجار بضخامة الأسماء التى تحملها، دردار وصفصاف، أشواك وأعشاب رديئة وأدغال من الطرفاء ذات الأريج الأفريقى، لم يكن بوسعه أن يختار وحدة أكثر اتساعا من ذلك ولا سماء أكثر صفاء، وكانت هناك سحابة من الزرازير تحلق فوق المكان فى ضوضاء كريهة وبأعداد كبيرة حتى أنها كانت تكون ما يشبه سحابة عاصفة ضخمة وداكنة. وعندما كان يتوقف، كانت الطيور تحلق فى دائرة أو ترتمى بجلبة على إحدى الأشجار، وتختفى بين الفروع، لتبدأ الأوراق فى الارتجاف، وتهتز قمة الشجرة بأصوات حادة وعنيفة،

كما لو كانت معركة شرسة تدور هناك، ثم كان خوسيه أنايسو، ذلك هو اسمه، يعاود السير وفجأة تطير الزرازير جميعها فى وقت واحد، ڤرووووووووو، إن من يجهل هوية هذا الرجل وراودته الرغبة فى أن يخمنها، كان سيقول إنه مربى طيور متخصص بالطبع أو أنه يملك قوة تأثير وملكات مغناطيسية على الطيور كما يحدث بالنسبة للثعابين، إلا أن خوسيه أنايسو، فى الحقيقة، كان فى حيرة مثلنا بالنسبة لأصل هذا المهرجان المجنح، وتساءل «ما الذى تريده منى هذه الكائنات؟»، يجب ألا يدهشنا هذا التعبير النادر، ففى بعض الأيام تصبح الكلمات العادية غير كافية.

كان الرجل المتنزه يسير بلا قصد، من الشرق إلى الغرب، ثم يمشى بمحاذاة ضفة أرض سبخة واسعة، وينحرف نحو الجنوب، وقرب نهاية الصباح هبطت حرارة على المكان فجأة، لكن ظلت هناك نسمة باردة خفيفة لايمكن للأسف الاحتفاظ بها فى الجيب تحسبا للقيظ. ولاحظ خوسيه أنايسو فجأة، وهو مستغرق فى أفكار مبهمة وعفوية لدرجة أنها بدت وكأنها لاتنتمى له، أن الطيور ظلت فى الخلف، وكانت تحلق بعيدا، هناك حيث يتطابق منحنى الطريق مع البحيرة، سلوك غريب، لكن كما يقال، كل يفعل ما يحلو له»، «وداعا يازرازير»، وبعد نصف ساعة من السير الشاق بين أدغال شائكة ونباتات مائية كثيفة، كان خوسيه أنايسو قد أنهى محيط المستنقع، واستأنف اتجاهه الأصلى من الشرق إلى الغرب مثل الشمس، عندما عادت الزرازير فجأة، «ڤروووووووووووو» اللعنة، أين أمكنهم الاختباء، من غير المجدى محاولة فهم أى شىء فى هذه القصة، إذ كانت مجموعة كبيرة من الزرازير تصاحب رجلا فى نزهته الصباحية، كما يفعل الكلب الوفى مع سيده منتظرا إياه أن ينهى جولته حول البحيرة لكى يعاود مرافقته من جديد، فلن

يطلب من الطيور تقديم سبب لذلك، فليس للطيور مبررات وإنما غرائز شديدة الغموض والعفوية، بحيث تبدو وكأنها لاتنتمى لأحد، إننا نتكلم بالطبع عن الغرائز، ولكن أيضا عن المبررات والأسباب، ومن غير المجدى أيضا سؤال خوسيه أنايسو لمعرفة من هو وما الذي يفعله في الحياة، ومن أين هو قادم وإلى أين يذهب، لأن ما نريد معرفته عنه هو الذى سيقوله لنا، وذلك صحيح أيضا بالنسبة لجوانا كاردا وفرع شجرة الدردار الخاص بها، وجواكيم ساسا والحجر الذى قذف به فى البحر، وبيدرواورس والمقعد الذى قام منه، فالحياة لاتبدأ عند ميلاد الشخص، لو كان الأمر كذلك لكان كل يوم له أهمية، إنها تبدأ بعد ذلك بكثير، وغالبا ماتبدأ متأخرة جدا، ناهيك عن تلك التى تنتهى بمجرد أن تبدأ، لذلك صاح شخص ما، «من سيكتب تاريخ ما كان يمكن أن يكون».

والآن جاء دور هذه المرأة، ماريا جافيرا، هذا هو اسمها، اسم غريب، التى صعدت إلى علية بيتها حيث اكتشفت جورب صوف قديم، أحد تلك الجوارب التى كانت تستخدم قديما فى إخفاء النقود، بشكل أفضل من أية خزانة، النقود الرمزية الفائضة، والمدخرات القليلة، وعندما وجدته فارغا، أخذت فى فك غرزه، وهى طريقة مميزة لقضاء الوقت عندما لايعرف الشخص مايفعله بأصابعه العشرة، مرت ساعة ثم أخرى، وثالثة أيضا، كان خيط الصوف الأزرق الطويل ينحل دائما والجورب لاينقص، لم تكن الألغاز الأربعة التى سبق ذكرها كافية، فمجرد مرة واحدة لاتعتبر عادة، وهذا اللغز يبرهن على أن المحتوى قد يكون أهم من الحاوى لايصل صوت الأمواج إلى البيت الهادىء، ولاتعتم النافذة أية سحابة طيور، وإذا كان هناك كلاب، فهى لاتنبح، وإذا كانت الأرض قد اهتزت، فإنها لم تعد تهتز، وجبل الخيط يكبر عند أقدام حلالة الغزل، إن ماريا جافيرا لاتحمل اسم اريان، وهذا الخيط لن يسمح لنا بالخروج من المتاهة لكنه ربما يسمح لنا بأن نتوه، ولابد أيضا من العثور على طرف هذا الخيط.

ظهر أول صدع على بلاطة طبيعية كبيرة مصقولة مثل مائدة الرياح، تقع فى مكان ما من جبال البير التى تهبط فى انحدار خفيف نحو البحر، عند الطرف الشرقى للسلسلة الجبلية، وحيث تهيم فى تلك اللحظة كلاب سيربير البائسة وهى اشارة أقل غرابة مما تبدو، فبرغم ظاهر الأمور ترتبط كل هذه الأشياء فيما بينها. وأحد هذه الكلاب، الذى طرد مع أقرانه، كما رأينا، بعيدا عن زاده اليومى، واضطر إلى اللجوء إلى عقله الباطن لاستعادة حيل أجداده الصيادين واقتناص أحد الأرانب البرية الصغيرة التى ضلت طريقها، سمع بلاشك هذا الكلب، واسمه اردون، انقصاف الحجر، فلقد وهبت الكلاب حاسة سمع ممتازة، واقترب، دون أن ينبح طالما أنه لم يعد يستطيع ذلك، وخطمه يختلج، وشعره منتصب من الخوف والفضول، إن الصدع الدقيق، يشبه فى عيون مراقب آدمى، خط قلم رصاص حاد السن أكثر من خربشة عصا على التربة الصلبة، سواء كانت فى التراب الناعم الخفيف أو فى الطين، ويمكن الاستمرار طويلا لو كان هناك وقت لإضاعته فى الهزر، فبينما كان الكلب يقترب، اتسع الصدع وتجوف وتقدم بسرعة، فالقا البلاطة من أولها إلى آخرها، ولو وجد فى المكان رجل شجاع، بما يكفى ليتبارى مع الظاهرة، لأمكنه ادخال يده بل وذراعه كاملة فى الشق، كان أردون يدور حول الشق قلقا، دون أن يتمكن من الفرار، مبهورا بهذا الثعبان الذى لم يعد يميز منه الرأس ولا الذيل، لايعرف، وقد فقد الاتجاه، إلى أى جانب يذهب، إلى فرنسا، فهو هناك بالفعل، أم إلى إسبانيا، البعيدة الآن بمسافة ثلاثة أشبار، لكن حمدا لله فقد عبر الكلب الهاوية فى قفزة، عذرا للمبالغة فى التعبير، ووجد نفسه فى الناحية الأخرى، فهو لم يكن من النوع الذى يتوافق مع المواقف، لقد فضل الجحيم، لن نعرف أبدا الأحلام والحنين والرغبات التى تسكن روح كلب.

الفلق الثانى، الأول فى نظر العالم، حدث على بعد كيلومترات من هناك، من ناحية خليج بيسكاى، غير بعيد من مكان يسمى رونسيڤو، وهو ذو شهرة حزينة فى تاريخ شارلمان وأنداده الاثنى عشر، بما أن رولان مات فى هذا المكان وهو ينفخ فى بوقه، دون أن تهرع انجليك أو دورندال لنجدته، فى ذلك المكان بالتحديد، وعلى السفح الشمالى الغربى لسلسلة جبال أبودى، يجرى نهر الإيراتى. وينبع هذا النهر من فرنسا لكى يصب من نهر الإيرو، الرافد الإسبانى لنهر الأراجون، الذى هو نفسه رافد لنهر أيبر، وهذا الأخير ينقل مياهها جميعا قبل أن يلقى بها فى البحر المتوسط. فى قاع الوادى، على ضفاف الإيراتى، تنتصب مدينة أوربيستا، مع سد أعلاها.

ولنوضح أن كل ما قيل هنا، وكل ما سيقال، هو الحقيقة الحقة، والتى يمكن التأكد منها على أية خريطة شريطة أن تكون دقيقة بما يكفى لتحتوى على معلومات تافهة ظاهريا لهذا الحد، ولكن أليس ذلك بالتحديد فضل الخرائط وهو أن تبين شفور الحيز القابل للتبدل، وهو ما يعنى إمكانية حدوث كل شىء، وهذا هو مايحدث بالفعل، لقد سبق أن تكلمنا عن فرع القدر، وأثبتنا أن حجرا، حتى ولو كان بعيدا عن أقصى مد، يمكن أن يسقط فى البحر ويعود بعد ذلك إلى الشاطىء، والآن جاء دور أوربيستا، إحدى مدن إقليم ناڤار، الراقدة بين جبالها، والتى انتهت باسترداد هدوئها بعد انتهاء الهياج الصحى الذى سببه بناء السد، منذ سنوات سابقة، لقد شهدت أوربيستا، ولعدة أيام، تدفق أعضاء حكومات مختلفة وسياسيين وقادة مدنيين وعسكريين وچيولوچيين وجغرافيين ورجال الصحافة ومتخصصين فى مجال المعادن ومصورين وفنيى التليفزيون والسينما ومهندسين من جميع التخصصات ومتنزهين وفضوليين، وبدت كمركز حساس

لأوروبا، إن لم يكن للعالم كله، ولم يكن لشهرة المدينة أن تدوم أكثر من عمر ورود مليـــرب★، ولكن هل يمكن أن يكون الأمـر خـلاف ذلك مع هذا العـشب الضـار، وأخيرا، فيما يتعلق بشهرة أوربيستا، فإنها دامت إلى أن ظهر حدث أهم فى مكان آخر، وهكذا يذهب كل مجد.

لم يحدث شىء مماثل قط فى تاريخ الأنهار، الماء الذى كان يسيل ويسيل بلا نهاية توقف فجأة، كما لو كان أحد قد قفل فجأة صنبور الحوض الذى كان يغسل فيه يديه، ونزع السدادة، تاركا الماء يتسرب، وأخذ الماء عندئذ فى الانسياب والنزول قبل أن يختفى فجأة، وسرعان ما تبخر المتبقى منه، فى قاع الحوض المطلى بالمينا، وبعبارة أخرى، انسحبت مياه الإيراتى، مثل تدفق الإضراب الذى يبتعد، تاركة مجرى النهر بلا ماء، الصمت المفاجىء والأحجار والطين والطحالب، والأسماك التى تحتضر وتموت وهى تقفز.

لم يكن المهندســون فى مكان الحـدث عندمـا وقع هذا الأمـر الذى يصــعب تصديقه، ولكنهم لاحظوا، بالنظر إلى مقاييس مركز المراقبة، أن النهر توقف عن تغذية حوض الاحتجاز الكبير وأدركوا أن شيئا غير عادى قد حدث، ورغبة فى الوقوف على حقيقة الأمر، قفز الفنيون الثلاثة فى سيارتهم الچيب، وأخذوا أثناء سيرهم بمحاذاة السد يفحصون كل الافتراضات الممكنة، وأتاح لهم الطريق الذى يمتد خمسة كيلومترات الوقت لذلك، الفرض الأول، هو حدوث انهيار أو انزلاق أرضى فى الجبل أدى إلى انحراف مجرى النهر، والفرض الثانى، أن تكون للأمر صلة بتدخل الفرنسيين، هؤلاء الغاليين الغادرين، الذين لايحترمون الاتفاق الثنائى حول الاستغلال الكهرومائى للمياه النهرية، أما الفرض الأخير والأكثرها جذرية،

★ مليرب: اسم كاتب فرنسى ومعناه عشب ضار (المترجم)

هو أن يكون المصدر، النبع العرق، قد انتهى به الأمر بأن جف، كان الاعتقاد أنه أبدى لكنه لم يكن كذلك، وانقسمت الآراء، وكان أحد المهندسين، وهو رجل هادىء من النوع المتـأمل، يحب أن يعيش فى أوربيستا، ويخشى أن يرسلوه بعيدا، أما المهندسان الآخران فكانا يفركان أيديهما من السرور، ربما سيتم أخيرا نقلهما إلى أحد سدود نهر التاج، ليكونا أقرب مايمكن من مدريد. وكانوا يتحدثون معا عن مشكلاتهم الشخصية، عندما وصلوا إلى طرف السد قرب المصب، لقد اختفى النهر، بينما كان خيط ماء هزيل لايزال يرشح من الصلصال اللين، وكانت هناك قرقرة ماء موحل ضعيفة للغاية لاتستطيع تشغيل ولا حتى طاحونة طفل، وصاح سائق السيارة الچيب مندهشا، «أين ذهب هذا النهر العاهر؟»، ولم يكن من الممكن اختيار تعبير أفضل من ذلك، وأصيب المهندسون بالارتباك والذهول وشعروا بالاضطراب والقلق أيضا، واستعرضوا مرة أخرى الافتراضات التى سبق التعبير عنها، ثم، وبعد أن أدركوا أنه لا جدوى من استمرار الجدل، عادوا إلى مكاتبهم على السد وهرعوا مباشرة إلى أوربيستا حيث كان رؤساؤهم فى انتظارهم، بعد أن علموا بالاختفاء السحرى للنهر. وأعقبت التوقعات والحسابات مناقشات عنيفة واتصالات هاتفية بمدريد وبمبلون، وظهرت النتيجة النهائية لهذا الباليه المنهك فى شكل أمر بسيط، فى ثلاثة أجزاء متتالية ومتكاملة، «سيروا نحو عالية النهر، اكتشفوا ماحدث، ولاتقولوا شيئا للفرنسيين».

وفى صباح اليوم التالى، قبل شروق الشمس، اتخذت البعثة الطريق إلى الحدود، دون أن تترك النهر الجاف يغيب عن نظرها قط، وعندما بلغ المفتشون المتعبون الهدف أخيرا، أدركوا أنه لن يكون هناك إيراتى أبدا، كانت مياه النهر تندفع داخل الأرض من خلال صدع لايتجاوز عرضه ثلاثة أمتار، هادرة مثل

نياجرا صغيرة، وكانت هناك مجموعة من الفرنسيين يقفون بالناحية الأخرى، وكان تصور أن الجيران، المنهجيين والماكرين لم يلحظوا شيئا، يتطلب قدرا كبيرا من السذاجة، غير أنهم كانوا بدورهم مذهولين وفى حيرة، مثل الإسبان، فأخوة الجهل تقتضى ذلك، وانتهى الأمر بأن تبادل المعسكران الحديث، لكن الحوار لم يكن طويلا ولا مثريا، إنها بالكاد بعض تعبيرات التعجب التى كان يبررها الاندهاش وعدد من الفروض الجديدة قدمها الإسبان بلهجة مترددة، ثم ساد التوتر الجميع، لأنه لايوجد من يمكن توجيه الهجوم إليه، لكن سرعان ما ابتسم الفرنسيون من جديد، ففى النهاية، لايزالون هم أسياد النهر حتى الحدود، ولا حاجة هناك إلى تعديل الخرائط.

وخلال فترة بعد الظهيرة، حلقت فوق المكان طائرات مروحية تابعة للبلدين، وتم التقاط بعض الصور، ونزل المراقبون بمساعدة الروافع، ولكنهم عندما وصلوا فوق الشلال نظروا ولم يروا شيئا سوى الهاوية المظلمة وظهر الماء المقوس اللامع، واجتمعت السلطات المحلية لاوربيستا من الجانب الإسبانى وللارو من الجانب الفرنسى، رغبة منها فى الاستفادة من القضية، من أجل المصلحة المشتركة بالطبع، ودار الاجتماع فى خيمة أقيمت لهذا الغرض على شاطىء النهر، ورفرفت عليها الأعلام الثلاثة، الثنائى اللون، والثلاثى الألوان، وعلم إقليم نافار، وقام المجتمعون بتقويم إمكانيات الاستغلال السياحى لهذه الظاهرة الطبيعية الفريدة فى العالم بلا أدنى شك، ونظرا لعدم كفاية البيانات وطابعها المؤقت بلا ريب، لم يصل الاجتماع إلى أية نتائج، ولم تصدر عنه أية وثيقة تسمح بتحديد حقوق وواجبات الأطراف المعنية، غير أنه تم تشكيل لجنة مشتركة مهمتها وضع برنامج لقاء رسمى لاحق، لكن التدخل شبه المتزامن، فى مدريد وباريس، لممثلى الدولتين

فى اللجنة الدائمة للحدود قلب فى الدقيقة الأخيرة الاجماع النسبى الذى تم التوصل إليه، لقد أثار هؤلاء السادة فى الواقع مشكلة خطيرة، وهى معرفة فى أى جانب تنفتح الهاوية، الجانب الفرنسى أم الإسبانى، كان يبدو ظاهريا أن الأمر يتعلق بتفصيلة تافهة، لكن بعد تقديم الشرح والتفسير ظهر تعقيد الموقف واضحا للعيان. لقد أصبح نهر الإيراتى من الآن فصاعدا ملكا بالكامل لفرنسا، وفى مقاطعة البرانس الأطلنطية، وهو أمر لم يعد قابلا للجدل، لكن لو كان الصدع قد حدث فى ناڤار بالجانب الإسبانى، فإن المفاوضات ما كانت لتنتهى فى وقت قريب، لأن كل بلد منهما سيكون معنيا بالأمر بالقدر نفسه، أما فى الجانب المقابل، لو اتضح أن ذلك الصدع نفسه فرنسى، فإن القضية عندئذ تعنيهم وحدهم، ويكون النهر ومكوناته والفراغ ملكا لهم، وفى مواجهة هذا الموقف الجديد وانتظارا لحل اللغز، قررت السلطات الموجودة، وهى تخفى تحفظها، أن تظل على اتصال. ومن جانبهما، أعلن وزيرا خارجية البلدين فى بيان مشترك تم إعداده بعد عناء، عن نيتهما مواصلة المفاوضات داخل اللجنة الدائمة للحدود، وبمساعدة فرق متخصصة فى علم مساحة الأرض.

وعندئذ ظهرت أعداد من الچيولوچيين القادمين من كل الأنحاء، وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، كان يوجد من قبل بعض الوافدين بين أوربيستا ولارو، والآن هاهم علماء الأرض وكل البلدان، الاخصائيون فى الحركة والحوادث والطوارىء، وفى الطبقات والصخور المجروفة بفعل الجليد أو المياه، يصلون بكثرة، وفى يد كل منهم مطرقته الصغيرة، يضرب بها على كل ماهو حجر أو يبدو كذلك، وفى مدريد، أعلن صحفى إسبانى رزين اسمه ميجيل، أن الصدع إسبانى با-لكا-مل، أو لمزيد من الدقة، ناڤارى، وهو ما تقتضيه الجغرافيا والنزعة القومية. وبوقاحة رد عليه

زميله الفرنسى، ميشال، وهو من النوع الذى يستخف بالاخرين، قائلا: «احتفظوا به إذن طالما أن ذلك يسركم لهذه الدرجة وانكم، على مايبدو، فى حاجة ماسة له، فى مدرج جافارنى، وذلك مجرد مثال واحد، يبلغ ارتفاع شلالنا ٤٢٠ مترا، ما حاجتنا إلى بئر ارتوازية تسيل مقلوبة، لقد نسى ميجيل أن يرد عليه بأن مساقط المياه والشلالات متوافرة بكثرة فى الجانب الإسبانى من جبال البرانس، المرتفعة الجميلة.

لكن القضية مختلفة، فى هذه الحالة، إذ لايوجد أى غموض فى مسقط مياه أو شلال فى الهواء الطلق، فذلك أمر تتم مشاهدته كل يوم، في حين أن صدع الإيراتي يختلف لأنه مثل الحياة تعرف بدايتها ولاتعرف نهايتها، لكن صحفيا آخر عابر سبيل من إقليم جاليزا، وهو شأن أهل جاليزا فى أغلب الأحيان، طرح السؤال الجيد، «أين يذهب هذا الماء؟» عندما وصل هذا السؤال المطروح على استحياء، كما يفعل الأطفال، إلى چيولوچيى المعسكرين كانوا يتناقشون، ويتنافسون فى إظهار علمهم، فلم يسمع أحد السؤال إلا من يحكى ذلك الآن. خنق التسرع الفرنسى والاندفاع الإسبانى الرنة الجاليزية الخاصة، المعتدلة والرزينة، لكن سرعان مارددت أصوات أخرى ماقيل توا، وادعوا بغير حق شرف أن يكونوا أول من صاغ السؤال، لا أحد يسمع الشعوب الصغيرة، إنه واقع تاريخى وليس عقدة اضطهاد، وأصبحت مناقشة العلماء شبه غامضة بالنسبة لغير المتخصصين، بيد أنه كان يفهم أن هناك طرحين، وكل منهما غير قابل للاختزال أو التحليل وبالتالى لايمكن أن يلتقيا، مثل ديانتين متناقضتين، الأولى توحيدية والأخرى تؤمن بتعدد الآلهة. كانت بعض التصريحات تبدو مثيرة للاهتمام، خاصة تلك التى

تفترض أن التشوهات، بعض التشوهات، يمكن أن تنجم عن ارتفاع تكتونى★ أو عن التعديل التضاغطى ★ للانجراف. وتضيف تلك التصريحات أن ذلك افتراض محتمل لأن فحص الأشكال الحالية للسلسلة الجبلية يسمح بالجزم بأنها ليست شديدة القدم، من المنظور الچيولوچى، بالطبع، كل هذه العناصر كان لها دون شك علاقة بالصدع، وإذا كان الجبل قد تعرض لمثل عمليات الشد والجذب تلك، فليس هناك فى النهاية مايثير الدهشة فى أن يستسلم الجبل فى نهاية المطاف بأن ينهار أو يتحطم، أو ينفلق كما فى هذه الحالة التى تهمنا، لم يحدث شىء من ذلك بالنسبة للبلاطة الكبيرة الساكنة على جبال البير، فقد كانت بعيدة، قابعة فى الوحدة الموحشة، لم يرها چيولوچى واحد، ولم يقترب أحد منها، حتى الكلب أردون تعقب ارنبا بريا ولم يرجع.

وبعد ذلك بيومين، وبينما كان أعضاء لجنة الحدود يعملون فى الموقع، يقيسون بالمزولات، ويراجعون بواسطة الجداول، ويحسبون بالآلات الحاسبة ويقارنون نتائجهم مع الصور الجوية، وبينما كان الفرنسيون ساخطين، لأنه لم يعد هناك شك فى أن الصدع إسبانى، كما قال الصحفى ميجيل، الذى كان أول من اكتشف ذلك، أعلن فجأة عن حدوث صدع جديد فى قشرة الأرض، ولم يعد أحد يسمع عن أوربيستا الهادئة، ولا عن إيراتى النهر المبتور.

وهكذا انتقل المجد من ناڤار، وانطلق مسئولو الإعلام، وكان بعضهم من النساء، وهاجروا نحو المنطقة الحرجة الواقعة فى البرانس الشرقية، والمزودة لحسن الحظ بالعديد من الطرق ووسائل المواصلات الممتازة، مما جعل كل سلطة العالم تتمركز هناك فى غضون بضع ساعات، وجاء البعض حتى من تولوز أو من

★ جزء من علم الأرض يبحث فى بنية القشرة الأرضية وما ينشأ فيها من تغيرات بفعل القوى الباطنة (المترجم).

★ أى المتعلق بتوازن قشرة الأرض الناتج عن اختلاف كثافة أجزائها . (المترجم).

برشلونة. وسرعان ما أصبحت الطرق مشبعة، وعندما أراد رجال الشرطة تحويل تدفق السيارات، جاء ذلك بعد فوات الأوان، وكانت السيارات تمتد على مدى كيلومترات وكيلومترات، فوضى حقيقية من الآلات، وعندئذ كان لابد من استخدام الوسائل الكبرى، ولإجبار الناس على أن يتراجعوا للخلف ويسلكوا الطريق الآخر، تم إغلاق الطريق بالحواجز المعدنية، وردم الجزء المنخفض بين الطريقين، كان الإغريق على حق ألف مرة عندما وضعوا الجحيم فى ذلك الركن، ولحسن الحظ، كانت هناك طائرات مروحية، طيور كبيرة قادرة على أن تحط في أى مكان، وعندما لاتكون هناك وسيلة أخرى، فإنها تقلد العصفور الطنان الذى يقترب من الزهرة حتي يلامسها، ولايحتاج الركاب إلى سلم، فبقفزة صغيرة يصبحون فى التويج بين السداة والمدقة، يستنشقون بلذة الأريج، وهو فى أغلب الأحيان أريج نابالم ولحم محروق.

ثم يركضون خافضين رؤوسهم، ويندفعون إلى أماكن الحدث، ويصل بعضهم من الإيراتى مباشرة، وقد أثرتهم تجربة تكتونية سابقة، ولكنها ليست نفسها.

يقطع الصدع الطريق ومساحة موقف السيارات الضخمة، ثم يصبح أرفع عند الحواف، ويتمدد نحو الوادى حيث يضيع لكى يظهر من جديد على مسافة أبعد قليلا، متعرجا على سطح التل قبل أن يختفى أخيرا فى أشواك الغابات، نحن فى موقع الحدود ذاته، الحدود الحقيقية، خط الحدود الفاصل، بين نقطتى الشرطة فى منطقة لاوطن لها، ولافتة مكتوب عليها كلمة جمرك بالفرنسية من ناحية وبالإسبانية من الناحية الأخرى، بينما يرفرف على كل جانب علم البلد الخاص به، ولأن الانهيارات ممكنة دائما على جانبى التمزق الأرضى، تتبادل السلطات والفنيون،

على مسافة حذرة، جملا خالية من المعنى وبدون أية فاعلية، فى ضوضاء من الأصوات لايمكن وصفها بأنها حوار، فكل جانب مسلح بمكبرات للصوت، فى حين يوجد داخل الخيام أشخاص أكثر كفاءة يتحدثون هاتفيا سواء مع بعضهم البعض، أو مع مدريد وباريس. أما الصحفيون. فبمجرد وصولهم، ركضوا ليستعلموا عن ظروف وملابسات الحدث، وبالرغم من أنهم جمعوا كلهم نفس القصة، مزينة بروايات مصطنعة متنوعة، فإن خيالهم سيتولى إثراءها بالمزيد، لنقل، لتبسيط الأمور، إن شخصا كان يقود سيارته عند هبوط الليل هو الذى أعلن النبأ، فعندما انحرفت سيارته، نزلت العجلات فى شلم عرضى وخرجت منه على الفور، فذهب ليلقى نظرة على الطريق معتقدا أن هناك أعمال إصلاح للطريق وربما أغفلوا الإشارة إلى ذلك، فى هذه اللحظة بالتحديد، كان طول الشق حوالى أربعة أمتار وعرضه نصف شبر، وكان الرجل، وهو برتغالى اسمه سوزا، يسافر مع زوجته وحماه وحماته، عاد إلى السيارة وهو يصيح متعجبا، «غير معقول، لم أر أبدا مثل هذه الحفرة، وكأننا عدنا إلى البرْتغال، كان يمكن أن أتسبب فى إتلاف الإطارات أو أكسر المحور»، لم تكن حفرة، فلم يكن فيها شىء من الضخامة، ولكن الشىء الطيب مع الكلمات، أنها بمجرد نطقها تحررنا من مخاوفنا وانفعالاتنا، ألسنا نحن من يخترعها، لماذا، لأن الكلمات تمسح هذه المخاوف، ودون أن تعير أى اهتمام لما كان يقوله أجابت الزوجة، «اذهب اذن لترى»، ومع أن اقتراح السيدة ما كان ليدفعه قط، فهو تعبير جاهز أقرب للتعجب منه للنصيحة حتى المقتضبة والتى تقوم أحيانا مقام الرد، لكنه رأى من المفيد اتباع رأيها وخرج مرة ثانية ليفحص الإطارات، التى لايبدو عليها لحسن الحظ، أى تلف ظاهر، وفى غضون بضعة أيام، وبعد عودته إلى الأراضى البرتغالية،

ستتم معاملته كبطل وستجرى لقاءات فى التليفزيون والإذاعة والصحافة، «ياسيد سوزا، لقد كنتم أول من رأى، قل لنا انطباعاتكم عن تلك اللحظة المرعبة»، وسيكرر قصته مع بعض المغالاة عددا لاحصر له من المرات، منهيا حديثه دائما بالسؤال نفسه، الذى يطرحه بشكل بلاغى ومتوتر، سؤال يصيب بالقشعريرة ويعطيه هو رعشات لاتقل اثارة عن رعشات النشوة، «هل تدركون ان الحفرة لو كانت باتساعها الآن، لكنا سقطنا فى قاعها والله وحده يعلم إلى أى عمق»، كان ذلك تقريبا ما أراد أن يقوله مواطن جاليزا – أتتذكرون ـ عندما سأل، «أين تذهب هذه المياه؟».

إلى أين، هذا هو السؤال، كان أول اجراء موضوعى يتعين اتخاذه هو سبر الجرح، وتقييم عمقه ثم محاولة تحديد وتنفيذ الوسائل الهادفة إلى سد الثغرة، وهو تعبير فى محله أكثر من أى تعبير آخر، ولكن أليس هذا التعبير فرنسيا، ومن الممكن الاعتقاد بأنه قد ابتكر خصيصا لليوم الذى ستتفتح فيه الأرض، وكشفت عمليات السبر التى تمت على الفور عن عمق يقدر بحوالى عشرين مترا، وهو مايعتبر امرا تافها بالنسبة للأساليب الحديثة لهندسة الأشغال العامة، وشوهدت خلاطات الخرسانة تصل من فرنسا وإسبانيا، من قريب كما من بعيد، وهى آلات غريبة، تذكر حركاتها المتزامنة، من دوران وحركة انتقالية، بحركات الأرض فى الفضاء، وبمجرد وصول هذه الآلات إلى الهدف شرعت فى صب شلال من الخرسانة، خليط من الحصى والأسمنت سريع التماسك، وفى غمرة عملية الحشو اقترح خبير ماهر وضع كلابات من الصلب، من النوع الذى كان يستخدم قديما لجروح البشر، لتثبيت حافتى الصدع، بحيث تساعد وتسارع عملية الالتئام، ووافقت على الفكرة اللجنة الثنائية التى تشكلت، وعلى الفور بدأ

اخصائيو صناعة الحديد الفرنسيون والإسبان دراسة السبيكة، والسمك، والشكل العام لتلك الكلابات، والنسبة بين حجم الظفر الذى يجب أن يظل ملتصقا بالتربة والفراغ المغطى، وكل التفاصيل التقنية التي هى وقف على المتخصصين والتى نذكرها بشكل عابر. كان الصدع يلتهم شلال الحجر والطين الرمادى كما لو كان نهر الإيراتى يسقط بكامله داخل الأرض، وكان الصدى يسمع وهو يدوى فى القاع ويبدأ التفكير فى احتمال وجود كهف في الأسفل، حفرة مهولة، نوع من الشدق الذى لايشبع، «إذا كان الأمر كذلك، فلا داعي للاستمرار، والحل الاقتصادى الأكثر بساطة هو بناء معبر فوق الحفرة، ولنستدعى الإيطاليين، فهم خبراء فى مجال الجسور»، وأخيرا، بعد أطنان وأطنان من الأمتار المكعبة، أشار المجس إلى أن القاع أصبح على بعد سبعة عشر مترا، ثم على بعد خمسة عشر مترا، وعلى بعد اثنى عشر مترا، وكان مستوى الخرسانة يرتفع، ويرتفع، لقد تم الانتصار فى المعركة، وتعانق الجميع، الفنيون والمهندسون والعمال ورجال الشرطة، ولوحوا بالأعلام، وكان مقدمو برامج التليفزيون، منفعلين ومتأثرين بشدة، يقرأون البيان الأخير تاركين العنان لمشاعرهم، كانوا يشيدون بالمعركة الجبارة، والسلوك الجماعى والتضامن الدولى، «حتى البرتغال، هذا البلد الصغير، أرسل قطارا من عشر خلاطات خرسانة، ذلك رائع حقا، ويالها من رحلة، ألف وخمسمائة كيلومتر، لم تعد خرسانتهم ضرورية، لكن التاريخ سيروى بادرتهم الرمزية».

ويمجرد ردم الحفرة، كان هناك فرح جماعى جنونى، مثل فرح سباق الثيران ويوم رأس السنة بألعابه النارية، وشرع سائقو السيارات الذين لم يتحركوا، حتى بعد أن فتحت الطرق، يمزقون الهواء بصوت آلات تنبيه سياراتهم، ودوت الأصوات

القوية الأجشة لآلات تنبيه الشاحنات وفوق كل ذلك كانت الطائرات العمودية تدور حول نفسها باعتزاز مثل الملائكة، فقدرتها كانت سماوية ولاشىء أقل من ذلك، وبينما كانت آلات التصوير تطقطق دون توقف اقترب مصورو التليفزيون، متحكمين فى أعصابهم، من حافة الصدع الذى لم يعد كذلك وقاموا بفحص سطح الخرسانة غير المنتظم، علامة انتصار الإنسان على نزوة الطبيعة، وبعيدا عن المكان، كان المشاهدون المقيمون فى أمان ببيوتهم يتابعون على الهواء مباشرة الصورة التي تم التقاطها عند الحدود الفرنسية الإسبانية لمر بيرتوس الجبلى، ويضحكون ويصفقون، محتفلين بالحدث وكأن الأمر يتعلق بانتصار شخصى، ومن ثم لم يصدق هؤلاء المشاهدون أعينهم عندما رأوا سطح الخرسانة الذى لايزال لينا يتحرك فجأة ثم يغوص، كما لو كان يتم شفط الكتلة الضخمة ببطء ولكن بشكل لايقاوم إلى أسفل، إلى أن ظهر من جديد الصدع الفاغر، لم يكن الصدع أكثر اتساعا مما كان، وهو ما يعنى شيئا واحدا فقط أن انضمام الجدران لم يعد يتم على عمق عشرين مترا ولكن على مسافة أعمق من ذلك بكثير والله وحده يعلم إلى أى عمق. تراجع مصورو التليفزيون مرعوبين، لكن حلت الغريزة محل الضمير المهنى، واستمرت آلات التصوير، التى انتابتها عدة رجفات، فى العمل، واستطاع العالم كله رؤية الوجوه المتشنجة، والفزع الذى يصعب التحكم فيه، وسماع صيحات الدهشة، والصرخات، ومشاهدة الهروب العام، حيث اصبحت منطقة موقف السيارات خالية فى لمح البصر، ولم يبق سوى خلاطات الخرسانة المهجورة والتى كان بعضها لايزال يعمل وكانت مليئة بخرسانة لم تعد هناك حاجة إليها منذ ثلاث دقائق مضت وأصبحت الآن عديمة الجدوى.

لأول مرة، سرت رجفة رعب فى شبه الجزيرة وفى أوروبا القريبة، وكان

الناس فى سيربيير، القريبة من هناك، يجرون فى الشارع بطريقة النذير والتحذير نفسها التى فعلتها كلابهم، ويعنفون أنفسهم قائلين، «كان مكتوبا، انه إذا نبحت الكلاب فمعنى ذلك أن نهاية العالم غدت قريبة»، لم يكن ذلك صحيحا تماما، فلم يكتب أبدا شىء من هذا القبيل، لكن المرء يحتاج إلى كلمات كبيرة فى المناسبات الكبيرة، ولذلك تحتل جملة «كان مكتوبا» مكانا مميزا فى الأسلوب القدرى، وبدأ سكان سيربير فى مغادرة المدينة، فهم يخشون أكثر من الآخرين، وعن حق، مايمكن أن يحدث، مهاجرين بكثافة نحو أراض أكثر صلابة بمنأى ربما عن نهاية العالم، ولم تبق روح حية فى قرى بانيول سعرمير وبور ـ فندر وكوليور، لكى لانذكر سوى قرى الساحل فقط، أما بالنسبة للأرواح الميتة فلقد بقت مكانها بتلك اللامبالاة التى لاتتزعزع والتى تميزهم عن باقى الانسانية، ولو ادعى شخص ذات يوم عكس ذلك، وأن فرناندو قام بزيارة لريكاردو، بينما كان أحدهم حيا والاخر ميتا، فالأمر لايخرج عن كونه هذيانا خارقا، ولاشىء أكثر من ذلك، ومع ذلك، تحرك فى قرية كوليور، أحد هؤلاء الموتى حركة خفيفة جدا، كما لو كان لايزال مترددا، «اذهب، لا أذهب، على أى حال، لن أعود قط إلى داخل فرنسا»، هو وحده يعرف أين سيذهب، وربما نعرف ذلك نحن أيضا يوما ما.

وسط آلاف التعليقات والموائد المستديرة والمعلومات والآراء التى شغلت منذ اليوم التالى الصحف، والتليفزيون والإذاعة، مرت الملاحظة المقتضبة التى أعلنها أحد علماء الزلازل التقليديين دون أن يفطن لها أحد تقريبا، حيث قال، «أود أن أفهم كيف يمكن أن يحدث كل ذلك دون أن تهتز الأرض»، وأجابه عالم زلازل آخر، ماهر وبرجماتى، ينتمى إلى المدرسة الحديثة، «سيتم شرح ذلك عندما يحين

الأوان»، لكن فى إحدى قرى جنوب إسبانيا، توجه رجل، بعد سماعه هذا الجدل، إلى غرناطة لكى يقول لناس التليفزيون إنه منذ أكثر من ثمانية أيام يشعر بأن الأرض تهتز، وأنه إذا لم يكن قد قال شيئا حتى تلك اللحظة، فذلك خوفا من ألا يصدقه أحد، ومع ذلك فلقد حرص على أن يتقدم شخصيا لكى يثبت أن انسانا فانيا بسيطا يمكن أن يكون أحيانا أكثر حساسية من كل أجهزة قياس الزلازل فى العالم مجتمعة وأراد قدره أن يسمعه أحد الصحفيين، ويلخص النبأ فى أربعة أسطر، سواء بدافع التعاطف، أو لأن الجانب الشاذ فى القضية قد جذبه، ونشر النبأ فى صحيفة المساء، بدون صورة، ولكن مصحوبا بتحفظ باسم، وفى اليوم التالى ، روى التليفزيون البرتغالى النبأ، نظرا لنقص المادة المحلية، وضخمه، حتى أن أحد المتخصصين فى الظواهر غير الطبيعية أعلن من خلال التليفزيون «أن فى هذه الحالة بالتحديد، كما فى العديد من الحالات الأخرى، يتوقف كل شيء، فى الواقع على الحساسية»، تصريح نابغ لايضيف شيئا بالنسبة لفهم الظاهرة.

لقد جرى الحديث طويلا حتى الآن عن الأسباب والنتائج، وتمت دائما مراعاة عدم تجاوز الحدود، واحترام المنطق، والانصياع للعقل السليم وارجاء اصدار الأحكام، لأنه من البديهى لكل الناس أن الطريق المسدود لايمكن أن يفضى إلى ساحة كبيرة، فلنقبل إذن الفرض القائل بأن خربشة جوانا كاردا على التربة بفرع شجرة الدردار هو سبب صدع جبال البرانس، على أنه فرض طبيعى ومشروع، كما نلمح بذلك منذ البداية، لكن علينا ألا نهمل هذا الحدث الآخر، المطابق للواقع أيضا، ألا وهو أن جواكيم ساسا رحل بحثا عن بيدرواورس بعد أن سمع عنه فى نشرة المساء.

لقد أحزن أوروبا ، الأم المحبة ، مصير هذه الأراضى الضائعة فى أقصى الغرب . وعلى امتداد سلسلة جبال البرانس كان الجرانيت يتفجر ، وتعددت الصدوع ، وقطعت الطرق ، وغرقت انهار وجداول وشلالات فى غير المرئى . وكان ينفتح على القمم المغطاة بالثلج، عند مشاهدتها من السماء ، خط أسود لامع مثل نثار البارود ويسيل الثلج فى هذا الخط ويختفى فى ضوضاء بيضاء لجرف ثلجى صغير . وكانت الطائرات العمودية تأتى وتذهب دون توقف ، متفحصة القمم والوديان ، وتحمل على متنها اخصائيين من كل نوع ممن يمكن أن يكونوا ذوى نفع ما ، چيولوچيين ، فذلك مكانهم على كل حال ، خاصة بعد أن أصبح محظورا عليهم العمل على الأرض ، وعلماء زلازل متحيرين ومرتبكين ، فالأرض تصر على ألا تهتز ، ولا حتى أقل رعشة ، ولا أصغر ذبذبة ، وكان هناك أيضا اخصائيون فى علم البراكين يمنون أنفسهم سرا ، بالرغم من السماء الصافية ، الخالية من أى أثر لدخان أو نار ، وزرقة السماء المثالية التى تميز شهر أغسطس ، فلم يكن نثار البارود الذى ذكر توا سوى تشبيه ، ومن الخطير ، بادىء ذى بدء ، ألا نتعلم الحذر من أخذ هذا التعبير المجازى وكل التعبيرات المماثلة الأخرى بمعناها الحرفى .

لم تكن القوة البشرية تستطيع شيئا لهذه السلسلة الجبلية التى تشبه ثمرة رمان نضجت وأزف وقتها ، وتنفتح ببساطة ودون ألم ، لكن من نحن لنعرف ذلك. وبعد ثمان وأربعين ساعة فقط من ذهاب پيدرواورس إلى التليفزيون لكى يروى ما نعرفه ، كان مستحيلا عبور الحدود من الاطلنطى إلى البحر المتوسط ، سواء على الأقدام أو فى عربات ذات عجلات . وفى أراضى الساحل المنخفضة ، بدأت البحار، كل من ناصيته ، تتغلغل من خلال القنوات الجديدة ، والشعب الخفية

والمجهولة ، والأكثر ارتفاعا دائما ، بجدرانها العمودية ، طبقا للخط العمودى للبندول ، ويوضح مقطعهم الكامل ترتيب الطبقات القديمة والحديثة، والطيات المقعرة ، والطبقات الصلصالية ، والقضات ★، والثلمات الواسعة للكلس والرمل الصلصالى سهل التفتت ، وطبقات من النضيد★★، والصخور الصوانية السوداء ، والجرانيت والباقى الذى يستحيل ذكره ، نظرا لقلة الوقت ونقص معارف الراوى . الآن بدأت معرفة الاجابة التى كان يتعين اعطاؤها لمواطن جاليزا الذى سأل ، «أين تذهب هذه المياه؟» ، قد نجيب ، «إلى البحر، فى شكل مطر خفيف أو غبار أو شلال، يتوقف الأمر على الارتفاع الذى تسقط منه هذه المياه وعلى شكلها ، لا ، الموضوع لا يتعلق بنهر الإيراتى ، فهو بعيد» ، لكن يمكن المراهنة على انه بمجرد أن تتغلغل الشمس فى الأعماق المظلمة ، فإن كل شىء سيحدث طبقا للمرات الأخرى، مع ألعاب مائية وقوس قزح .

هجر السكان بيوتهم على مدى مائة كيلو متر من كل جانب من الحدود ، لكى يلجأوا إلى الأمن النسبى للأراضى الداخلية ، باستثناء سكان قرية اندور، فحالتها أكثر تعقيدا ، وسوف ننساها بشكل لا يغتفر ، وهذا هو مصير البلدان الصغيرة التى كان عليها أن تكون كبيرة . فى البداية ، كان هناك تردد وحيرة كبيران بالنسبة للعواقب النهائية لكل هذه الصدوع ، وبما أن بعض السكان إسبانى والبعض الآخر فرنسى ، كان كل واحد منهم يميل إلى طموحاته الخاصة ، أو يقرر طبقا للعقل أو مصلحة اللحظة ، مع خطر انقسام الأسر والتجمعات الأخرى . وأخيرا ، استقر فجأة خط الشق على امتداد الحدود مع فرنسا ، وتم اخلاء بضعة آلاف من الفرنسيين عن طريق الجو عبر عملية انقاذ بارعة اطلق عليها

★ صخر مركب من حطام صخور . (المترجم).

★★ حجر متبلر ينفلق إلى طبقات . (المترجم).

الاسم الكودى «تاج الأسقف» ، وهى تسمية اغاظت بشدة اسقف بلدة أورجل ، فهو الملهم اللاارادى لها ، ولكن ذلك لم يمنعه قط من الاغتباط بأن يكون ، بالنسبة للأجيال القادمة ، الأمير الوحيد لإمارة ستجد نفسها ، إذا لم ينته بها الأمر فى البحر ، مرتبطة بإسبانيا فقط . وفى الصحراء التى خلفها الاجلاء العام، لم يعد يشاهد سوى بعض المفرزات العسكرية ، التى كانت تسير والصلاة على الشفاه ، وتحلق فوقهم بشكل مستمر طائرات عمودية مستعدة لالتقاطهم جميعا عند ظهور أدنى علامة تنم عن عدم استقرار چيولوچى ، وكان يشاهد اللصوص أيضا وهو أمر لا مفر منه ، إنهم معزولون عادة ، لكن الكوارث تخرجهم من أوكارهم أو من بيض الثعابين الخاص بهم ، وكانوا يتقدمون ، فى هذه الحالة بالذات ، مثل العسكريين الذين كانوا يطلقون عليهم الرصاص دون رحمة أو شفقة، والصلاة على شفاههم ، لكل منهم صلاته حسب ايمانه ، فمن حق كل كائن حى أن ينعم بحب وحماية ربه ، لاسيما وانه يمكن الادعاء ، لتبرئة ذمة اللصص ، بأن من يهجر منزله يفقد حقه فى العيش فيه أو الاستفادة منه ، لأنه وفقا للمثل الذى يقول، «كل الطيور تأكل القمح ، والدورى فقط هو الذى يدفع الحساب» ، ولكل واحد منكم أن يقرر مدى التطابق بين الدرس العام والحالة الخاصة .

لقد سبق التعبير عن الأسف لأن هذه القصة الحقيقية ليست كتيب أوبرا ، وهذه هى اللحظة لتكرار هذا الأسف هنا ، لأنها لو كانت كذلك ، لاعتلت مقدمة المسرح جوقة غناء لم يسبق لها مثيل ، تتكون من عشرين مغنيا ، يمثلون ويغنون ، ابتداء من طبقة الجهير إلى أعلى الأصوات ، ويتعاقبون بشكل تبادلى أو فى غناء جماعى ، فى أعقاب بعضهم أو بشكل متزامن ، إننا نريد أن نتحدث عن اجتماع الحكومتين الإسبانية والبرتغالية ، وعن قطع خطوط التيار الكهربى ، وبيان

الجماعة الاقتصادية الأوروبية ، والموقف الذى اتخذته منظمة معاهدة شمال الاطلنطى ، وهروب السياح الذين انتابهم الهلع ، والطائرات التى اقتحمت ، واختناقات الطرق ، ولقاء جواكيم ساسا وخوسيه انايسو ، ولقائهما مع بيدرواورس، وقلق الثيران فى إسبانيا ، وعصبية المهر فى البرتغال ، والرعب على شواطىء البحر المتوسط ، واضطراب المد والجزر ، وهروب رؤوس الأموال الوفيرة والقوية ، لن نلبث أن نحتاج إلى مزيد من المغنين . إن عقولا فضولية ، لكى لا نقول متشككة ، تريد أن تعرف سبب هذه الاثار شديدة التعدد والاختلاف والخطورة ، كما لو كان لا يكفيهم مجرد انغلاق السلسلة الجبلية ، وتحول الانهار إلى شلالات ، وتغلغل المحيطات من جديد فى عدة كيلو مترات من اليابسة ، بعد أن كانت قد انسحبت منها منذ ملايين السنين . إن اليد تتردد عند الوصول الى هذه اللحظة الحاسمة ، إذ كيف يمكن كتابة الكلمات التالية وجعلها معقولة ، تلك الكلمات التى ستعرض كل شىء للخطر ، بينما يصبح التمييز بين الحقيقة والكذب صعبا للغاية ، ولكن هل اختلف الأمر يوما ما . علينا أن ننهى ما ظل معلقا ، وذلك بفضل الجهد الكبير الذى يتمثل فى ان تقوم الكلمة بتحويل ما لا يمكن تحويله إلا بواسطتها فقط ، لقد حانت لحظة القول ، نعم ، الآن ، وقد ابتعدت فجأة شبه جزيرة ايبريا بكاملها وقطعة واحدة ، مسافة عشرة أمتار مرة واحدة ، من الذي سيصدقني ، انفتحت جبال البرانس من أعلى إلى أسفل كما لو كانت بلطة غير مرئية قد نزلت من الأعالى ، مندسة فى الشقوق العميقة ، فالقة الحجر والأرض حتى البحر ، الان نعم ، سنتمكن من رؤية نهر الإيراتى يسقط من ارتفاع ألف متر، فى سقوط حر ، مثل اللانهائى ، وتتفتح للهواء والشمس ، مروحة من البللور أو ذيل عصفور من عصافير الجنة ، أنه أول قوس قزح معلق فوق الهاوية ، وأول

حالة دوار للصقر الذى يتجمد مكانه، بينما كل اجنحته ذات الألوان السبعة مبللة. كما ستتم مشاهدة الڤيزورين والجبل «المفقود» ، وقمة پرديجر ، وقمة استاتس، ألفى متر ، وثلاثة آلاف متر من الانحدارات الوعرة التى يصعب تحمل رؤيتها، والتى لا يمكن تمييز فاعلها الذى يغلفه البعد والماء بالضباب ، ثم سيتسع الفضاء، يقينا، وستأتى سحب جديدة ، باليقين نفسه بوجود القدر .

وتمر الأيام، وتختلط الذكريات ، ويتعذر فى النهاية التمييز بين الحقيقة والحقائق، التى كانت فى السابق شديدة الوضوح ، وشديدة التحديد ، وبالتالى ، وللسيطرة على ما يسمى طموحا ، دقة الوقائع ، سيتم الرجوع إلى شهادات تلك الفترة ، والمستندات المختلفة ، الصحف ، والأفلام ، وأشرطة الڤيديو ، ومجموعات الأخبار، والمذكرات الخاصة ، والرقوق ، وبشكل خاص الطروس ، وهى رقوق مسحت ثم كتب عليها من جديد ، وسيتم سؤال الأحياء ، ومع قليل من الاستعداد، من هنا وهناك ، قد نصل حتى إلى تصديق ما يرويه العجوز عما رآه وسمعه فى طفولته وفى النهاية سيتم استخلاص شىء ما من كل ذلك ، فالمرء إذا افتقد الاعتقادات الراسخة فانه يخترع لنفسه يقينه الخاص ، غير أن ما يبدو مؤكدا بشكل ايجابى، حتى لو قيل عكس ذلك ، هو أن شبه الجزيرة لم تعرف الخوف ، إلى أن تحطمت كابلات الكهرباء .

لقد عرفت الرعب نعم ، لكن ليس الخوف الذى هو إحساس من وزن آخر . وبالرغم من أن الكثير من الناس مازالوا يتذكرون المشهد المثير لمر بيرتوس الجبلى ، عندما اختفت الخرسانة على مرأى من الذين صرخوا ، «لقد انتصرنا ، لقد انتصرنا» ، لكن الواقعة لم تؤثر إلا على الذين كانوا هناك ، أما الآخرون فقد شاهدوها من على بعد ، من منازلهم ، امام المسرح المنزلى أى التليفزيون ، هذا

المستطيل الزجاجي الصغير ، ساحة المعجزات حيث تطرد الصور بعضها البعض دون أن تترك آثارا ، وحيث يقدم كل شيء على مستوى مصغر ، حتى الانفعالات والأحاسيس . أما بالنسبة للمشاهدين الحساسين، لا يزال يوجد منهم بعد ، اولئك الذين يبكون من أجل لا شيء أو يخفون أصواتهم ، فإنهم فعلوا ما يفعل عادة عندما يصعب تحمل رؤية الجوع في افريقيا والكوارث الأخرى ، لقد اداروا عيونهم كي لا يروا شيئا ، وبالإضافة إلى ذلك ، يجب ألا ننسى أن في اماكن عديدة من شبه الجزيرة ، في الزوايا البعيدة ، حيث لا تصل الصحف ويصعب التقاط التليفزيون ، كان هناك ملايين ، نعم ، ملايين من الناس لا يفهمون شيئا مما يجري ، أو كانت لديهم فقط فكرة مبهمة تكونت من بضع كلمات لم يدركوا معناها إلا جزئيا ، وبشكل مشكوك فيه أيضا بحيث لم يكن هناك فرق كبير بين ما كان أحدهم يعتقد معرفته وما كان الآخر يجهله .

ولكن عندما انطفأت كل أنوار شبه الجزيرة في لحظة واحدة ، وانمحى من على سطح العالم خمسمائة وواحد وثمانون ألف كيلو متر مربع من الأراضي ، لم يعد هناك أدنى شك ، كانت تلك هي النهاية. لحسن الحظ ، لم يستمر اطفاء الأنوار التام سوى أقل من ربع ساعة ، إلى أن قاموا بتشغيل مولدات الطوارئ وأداروا مجموعات توليد الكهرباء ، وهي غير قوية بالمرة في تلك الفترة من العام ، في قلب الصيف ، في منتصف شهر أغسطس ، جفاف ، وبحيرات ناضبة ، وقدرة المحطات الحرارية ضعيفة ، أما بالنسبة للمحطات النووية ، فهي ملعونة ، لقد كان جحيما حقيقيا على امتداد شبه الجزيرة ، إنها نهاية العالم ، وساد الخوف البارد، لم يكن الزلزال ليحدث آثارا أسوأ من ذلك . كانت بداية الليل ، حين يكون أغلب الناس قد عادوا إلى بيوتهم ، بعضهم يشاهد التليفزيون ، والنساء في المطبخ،

يحضرن العشاء ، وأب أكثر صبرا ، وإن كان غير واثق تماما من نفسه ، يشرح مسألة حساب ، لا ينم كل ذلك قط عن السعادة ، غير أنه تم ادراك قيمة ذلك فى النهاية ، هذا الرعب ، وهذا الظلام الذى لا يقل قتامة عن قلب فرن ، بقعة الحبر تلك التى سقطت على ايبيريا ، وكان الآثمون التائبون الذين يبالغون دائما يقولون، «يارب ، لا تنزع عنا النور ، اعده الينا ، واعدك الا اطلب منك شيئا قط حتى نهاية ايامى» . وظن من كان يعيش فى السهل أنه أصبح فجأة فى قاع بئر مسدودة، وصعد من كان يعيش بالمرتفعات حتى القمة ولم يستطع تمييز ادنى ضوء على بعد عدة فراسخ وفى جميع الاتجاهات ، وبدا الأمر وكأن الأرض قد غيرت مدارها وتسافر حاليا فى فضاء دون شمس . وفى المنازل ، تم بأيد مرتجفة اشعال الشموع ، والفوانيس ، ومصابيح البترول المحتفظ بها لاستخدامها عند الحاجة، ولكن ليس لتلك المناسبة ، والشمعدانات المصنوعة من الفضة وتلك المصنوعة من البرونز التى كانت تستخدم للزينة ، وكذلك الشمعدانات الصغيرة المصنوعة من النحاس الأصفر ، ومصابيح الزيت المنسية ، أنوار هزيلة كانت تملأ الظل نفسه بالظلال وتكشف عن وجوه مرعوبة، متشنجة ، وكأنها منعكسة على الماء. وصرخت نساء ، وارتجف رجال ، أما بالنسبة للأطفال فسيقال إنهم بكوا جميعا . وبعد خمس عشرة دقيقة ، التى بدت كما يقال ، وكأنها دامت خمسة عشر قرنا ، مع أن أحدا لم يعش قط بما فيه الكفاية لكى يمكنه المقارنة ، عاد التيار الكهربى ببطء، وامعنا فى أول الأمر ، وكل مصباح كهربى مثل عين غافية تلقى حولها نظرة غامضة ، وتستعد للعودة إلى النوم من جديد قبل أن تستقر تماما ، بعد أن ادركت طبيعتها وانها نور .

وبعد ذلك بنصف ساعة ، استأنف التليفزيون والاذاعة برامجهما وعلقا على

الحدث ، وهكذا عرف أن كل كابلات الضغط العالى بين فرنسا واسبانيا قد تحطمت ، وأن عدة ابراج كهرباء قد سقطت، لأنه لم يفكر مهندس واحد فى قطع الخطوط التى كان لا يمكن بالطبع انزالها أرضا ، وهو سهو لا يغتفر . لحسن الخط ، لم تسفر الألعاب النارية للتماس الكهربى عن أية ضحايا ، إنها طريقة للتعبير تتسم نسبيا بالأنانية ، فإذا كان حقيقيا أنه لم تحدث اصابة لأى آدمى ، فان ذئبا ، لم يتمكن من الهروب من الانفجار ، قد تحول إلى فحم متوهج . غير أن تحطم الكابلات لا يفسر غياب النور إلا بشكل جزئى ، أما النصف الآخر ، الذي ذكر فى عبارات قصد أن تكون غامضة ، لم يمر وقت طويل قبل أن يصبح جليا وواضحا ، ويقدم كل جار المساعدة لجاره ، «ما لا يريدون الاعتراف به ، هو أن القصة لم تعد مجرد قصة شقوق فى الأرض ، إذا كانت كذلك ، لما تحطمت الكابلات» ، «لكن ماذا حدث باعتقادك ياجارى» ، «لا توجد بيضة بدون دجاجة ، لكن الأمر هذه المرة لا يتعلق ببيضة ، لقد تحطمت الكابلات لأنها كانت مشدودة أكثر من اللازم ، وإذا كانت مشدودة أكثر من اللازم فذلك لأن الأراضى قد انفصلت ، وإن لم يكن ذلك ما حدث ، فاننى مستعد للتخلى عن الاسم الذى أحمله» ، «هذا غير معقول» ، «بل معقول ، بل معقول ، وسترى أنهم سيعترفون بذلك فى النهاية» . وهكذا كان ، وإن لم يتم ذلك إلا فى اليوم التالى ، عندما انتشرت الشائعات لدرجة أن أية معلومة إضافية ، حتى لو كانت صادقة ، لا يمكنها أن تزيد الارتباك والفوضى . ومع ذلك لم يقولوا الأشياء بشكل شديد الوضوح ولم يكشفوا كل الحقيقة ، فقط تلك الكلمات القليلة ، «تسبب تغير فى البنية الچيولوچية لسلسلة جبال البرانس فى حدوث تصدع فى خط مستقيم ، وعدم اتصال مادى ، ونتيجة لذلك ، فإن المواصلات البرية بين فرنسا وشبه

الجزيرة متوقفة مؤقتا ، وتتابع السلطات باهتمام تطور الموقف ، والخطوط الجوية مستمرة ، وكل المطارات مفتوحة وتعمل بكامل طاقتها ، ومن المحتمل مضاعفة الرحلات منذ الغد» .

وحدث ذلك فى أوانه ، فعندما أصبح واضحا أن شبه الجزيرة الأيبيرية قد انفصلت تماما عن أوروبا ومن المتعذر دحض ذلك ، كان يقال ، «لقد انفصلت» ، ولأن الموسم السياحى كان فى ذروته كما سبق أن ذكرنا ، غادر مئات الآلاف من السياح فى عجلة كبيرة الفنادق ، والنزل ، والمنازل المفروشة ، والموتيلات ، والبنسيونات ، والمنازل والغرف المؤجرة ، وأراضى المخيمات ، والخيام ، والمخيمات المتنقلة ، دون أن يسددوا حساباتهم ، وأثاروا على الفور اختناقات . مرورية هائلة، زادت خطورتها عندما بدأ الجميع يتركون السيارات فى كل مكان ، لقد استغرق ذلك بعض الوقت لكن سرعان ما انتشر بعد حين ، فالناس بشكل عام يستغرقون وقتا قبل أن يدركوا خطورة المواقف ويقبلوا بها ، مثلا حقيقة أن السيارة تصبح عديمة الجدوى عندما تكون الطرق مقطوعة بين فرنسا وأسبانيا . وحول المطارات ، كانت تمتد ، مثل الفيضان ، كتلة ضخمة من السيارات من جميع الأحجام والموديلات والماركات ، ومن كل الألوان وتسد الشوارع وطرق الوصول ، مما سبب خللا تاما فى نظام حياة السكان المحليين . وكان الأسبان والبرتغاليون ، بعد أن استعادوا روعهم من الاظلام التام ، يشاهدون هذا الرعب ويعتبرونه عبثيا ، «ففى النهاية ، لم يمت أحد ، حتى الآن ، هؤلاء الأجانب يفقدون عقولهم عندما يخرجون من حياتهم الروتينية ، هذا ما يؤدى إليه التقدم العلمى والتقنى» ، وكانوا يشرعون ، بمجرد نطق هذا الحكم بالإدانة ، فى اختيار السيارة التى يفضلونها من بين السيارات المتروكة والتى تكلل أحلامهم .

وفى المطارات ، انقضت الجموع الهائجة على شبابيك شركات الطيران ، فى جلبة هائلة واختلاط الصرخات والإشارات ، ولم تحدث من قبل محاولات وعمليات رشوة مماثلة للحصول على تذكرة سفر ، كان كل شيء يباع ، وكل شيء يشترى مجوهرات ، أجهزة ، ملابس ، كان التفاوض على المخدرات يتم فى وضح النهار ، «السيارة هناك فى الخارج ، وهاهى المفاتيح والأوراق» ، «إذا لم يكن لديك مكان لبروكسل ، فسأذهب إلى أى مكان ، إلى اسطنبول ، وحتى إلى الجحيم» ، إن هذا السائح شارد الذهن ، كان فى القرية ولا يرى منازلها . واقترفت أجهزة الحاسوب أخطاء بعد أن زادت حمولتها ، حتى تشبعت ذاكرتها الوافرة ، وتضاعفت تلك الأخطاء حتى توقفت تماما . وتوقف بيع التذاكر ، وتم الاستيلاء على الطائرات عنوة ، بربرية ، الرجال أولا ، لأنهم الأقوى ، ثم النساء الضعاف وأخيرا الأطفال الأبرياء ، ولقد هلك الكثيرون منهم ، سحقوا بين باب محطة الطيران وسلم الدخول، وسرعان ماتلى الضحايا الأول آخرون وآخرون ، وعندما خطرت لأحدهم الفكرة المأساوية بأن يفتح لنفسه الطريق شاهرا سلاحه فى يده ، أردته الشرطة قتيلا . وكان تراشقا حقيقيا بالرصاص، لأن وسط الجمع كانت هناك أسلحة أخرى، وأطلق الجميع النار ، ولا داعى لتحديد المطار الذى دارت فيه هذه المأساة التى أسفرت عن وفاة ثمانية عشر شخصا وتكررت فى مكانين أو ثلاثة أماكن أخرى ، وإن كانت بعواقب أقل بشاعة .

وفجأة تذكر أحدهم أنه يمكن أيضا الهروب بحرا ، ويبدأ سباق آخر نحو النجاة . وارتد الهاربون مرة أخرى بحثا عن سياراتهم التى تركوها ، ولقد وجدوها أحيانا ولم يجدوها فى أحيان أخرى ، لكن ما أهمية ألا يكون لديهم المفاتيح وأنها لم تعد تصلح ، كان يتم سريعا تشغيل أداة التماس ، ومن لا يعرف

سرعان ما تعلم كيف يقوم بذلك ، وأصبحت البرتغال واسبانيا جنة لصوص السيارات . وبمجرد وصولهم إلى الموانىء يبدأون فى البحث عن مركب صغير أو زورق بمجداف يمكنه أن ينقلهم ، أو حتى قارب لصيد السردين أو للصيد، بالجوابى أو صندل أو مركب شراعى ، تاركين على الأرض الملعونة آخر ما يملكون، كانوا لا يحملون معهم سوى الملابس التى يرتدونها ، لا شىء أكثر من ذلك ، منديلا لم يعد نظيفا ، ولاعة بدون غاز ولا قيمة ، رابطة عنق لم تعجب أحدا، إنه لشىء سيىء حقا الاستفادة من مصائب الآخرين ، لقد تصرفوا مثل قراصنة الساحل الذين ينهبون الغرقى . وكان المساكين يغادرون المراكب حيثما يتسنى لهم ذلك ، وحيثما يتم اقتيادهم ، لقد ألقى ببعضهم فى ابيزا ، وفى مايوركا ومينوركا، وفي فورمنترا وفى جزر كبريرا وكونخيرا ، تحت رحمة الحظ ، حيث كان التعساء معرضين لخطر الموت ، فرغم أن الجزر لم تتحرك بعد حتى الآن ، إلا أنه ليس بإمكان أحد توقع ما سيحدث غدا ، كان الجميع يعتقدون أن جبال البرانس ستظل منتصبة إلى الأبد ، وأخيرا ، أن الآلاف المؤلفة من الناس الذين فروا سواء من الجرف أو من الساحل الأسبانى ووجدوا تحت رأس پالوس رحلوا إلى المغرب، أما الآخرون ، الذين كانوا أعلى رأس پالوس ، ففضلوا ، فى حدود الممكن ، أن يتم إرسالهم مباشرة نحو أوروبا ، وكانوا يسألون، «كم تريد لإيصالى إلى أوروبا»، وكان معاون صاحب القارب يعبس ، ويقطب جبينه ، ويقدر مقتنيات الهارب ، قبل أن يرد قائلا ، «إن أوروبا بعيدة جدا ، كما تعرفون ، إنها نهاية العالم» ، وكان من غير المجدى الرد ، «إنكم تبالغون ، لا يوجد سوى عشرة أمتار من المياه» ، ذات مرة ، غامر مواطن هولندى بأن قال هذه الملحوظة ، وأكدها مواطن سويسرى ، وكان الرد قاسيا ، «ياه ، عشرة أمتار فقط ، حسن ، فلتذهب إذن سباحة» ،

واضطر إلى الاعتذار ودفع الضعف . كانت الأعمال مزدهرة حتى اليوم الذى أقامت فيه البلدان المختلفة ، بعد تشاور ، جسورا جوية لإعادة رعاياها إلى وطنهم، لكن بعد اتخاذ هذا الإجراء الإنسانى ، كان لا يزال هناك بحارة وصيادون يمكنهم تحقيق مكاسب وملء جيوبهم بالمال إذ يجب ألا ننسى أن الوضع القانونى للمسافرين لا يكون دائما سليما ، وكان البعض مستعدا للمطالبة بأى ثمن ، من جهة أخرى لم يكن لديهم الخيار ، نظرا لأن القوات البحرية البرتغالية والاسبانية كانت تقوم بدوريات مستمرة على السواحل ، وهى فى حالة تأهب ، تحت المراقبة الحذرة من جانب أساطيل القوى المختلفة .

ومع ذلك كان هناك سياح فضلوا عدم الرحيل ، متقبلين التصدع الچيولوچى على أنه قضاء لا مفر منه ، وكانوا يفسرون على أنه إشارة حاسمة من القدر ، وكتبوا إلى أسرهم ، وهى لفتة رقيقة من جانبهم ، لكى يرجوهم أن ينسوهم ، لقد غيروا عالمهم ، وحياتهم أيضا، ولم يكونوا مسئولين عن ذلك ، إنهم بشكل عام أشخاص بلا إرادة ، من أولئك الذين يؤجلون قراراتهم ودائما ما يقلون غدا ، غدا، ولا يعنى ذلك أنهم بلا أحلام ولا رغبات ، مأساتهم أنهم يموتون قبل أن يتمكنوا أو يعرفوا أن يعيشوا القليل من تلك الرغبات والأحلام . وآخرون ، وهم اليائسون ، كان رد فعلهم هو الصمت ، وببساطة تامة اختفوا ، اختاروا النسيان وجعلوا الآخرين ينسونهم ، ومع ذلك، فإن أيا من تلك الحيوات كان يمكن أن تشكل رواية، قصة ، شيئا ما، وهذا الشيء الذي كان يمكن أن تكونه ، حتى لو كان لا شيء ، فإنه سيكون لا شيء مختلف ، إذ لا يوجد شيئان متماثلان .

يحمل البعض عل أكتافهم أثقل المسئوليات ، ولا يقبل منهم الهروب منها ، لأن بمجرد أن تسوء قضايا الوطن ، فإن أول سؤال تنطق به الشفاه هو ، «وهم ، ماذا

يصنعون إذن ، ماذا ينتظرون» ، ويتضمن هذا السخط قدرا كبيرا من الظلم، فهم فى نهاية الأمر ، هؤلاء المساكين ، لا يستطيعون هم أيضا الهروب من القدر ، وأقصى ما يمكنهم فعله هو مطالبة الرئيس بالتنحى ، لكن فى مسألة مثل تلك ، يصبح ذلك غير وارد ، وإذا حدث فسيمثل خزيا كبيرا ، وسيحكم التاريخ بقسوة على رجال الدولة الذين يتخذون مثل هذا القرار فى اللحظة التى يذهب فيها كل شىء مع التيار ، وهذه هى الحالة التى يصدق عليها هذا الوصف . وأصدرت الحكومة فى كل من البرتغال وأسبانيا ، كل من جانبه ، بيانات مطمئنة، مؤكدة بشكل رسمى أن الموقف لا يدعو إلى القلق الشديد ، حديث غريب ، وانه قد تم اتخاذ كل الوسائل لحماية الأشخاص وممتلكاتهم ، ثم ظهر رؤساء الحكومات على شاشة التليفزيون ، وبعدهم رئيس الجمهورية هنا والملك هناك ، وهو إجراء يهدف إلى تهدئة النفوس القلقة ، وقالوا ، «أيها الأصدقاء، أيها الكاثوليك، أيها المواطنون، أعيرونى آذانكم» ، وأجاب البرتغاليون الأسبان المجتمعون فى ميادينهم فى صوت واحد ، «نعم ، بالطبع ، نعم ، بالطبع ، كلمات ، كلمات ، لا شىء سوى كلمات» . وفى مواجهة سخط الرأى العام ، اجمع رئيسا حكومتى البلدين فى مكان سرى ، وحدهما فى بادىء الأمر ، ثم كل مع أعضاء حكومته ، معا وبشكل منفصل، واستمرت المحادثات المتواصلة يومين ، وتقرر أخيرا فى نهايتها تشكيل لجنة أزمة متعادلة التمثيل هدفها الرئيسى تنسيق أعمال الدفاع المدنى فى البلدين، من أجل زيادة الفاعلية المتبادلة للوسائل التقنية والموارد البشرية لمواجهة التحدى الجيولوچى الذى أبعد شبه الجزيرة عن أوروبا بحوالى عشرة أمتار، وكانوا يتهامسون فى الأروقة قائلين، «إذا لم تزد الحالة خطورة ، فإن الأمر لن يكون شديد الفظاعة، بل يمكننا القول إن ذلك سيكون مقلبا قويا بالنسبة

لليونانيين ، قناة أكثر اتساعا من قناة كورينث الشهيرة»، «غير أنه لا يمكن تجاهل مشكلات الاتصال مع أوروبا ، وهى مشكلات شديدة التعقيد ، إذا تكلمنا من المنظور التاريخى ، وتوشك أن تصبح متفجرة» ، «حسن ، سيتم تشييد جسور» ، «إن ما يشغلنى هو احتمال اتساع القناة لدرجة أن تسمح بمرور السفن فيها ، خاصة ناقلات البترول ، سيكون ذلك بمثابة ضربة قاسية للموانىء الايبيرية ، ناهيك عن العواقب الناجمة عن تغيير ما يتعين تغييره بالطبع ، مثل تلك التى نجمت عن فتح قناة السويس ، أى أن يكون لدى شمال أوروبا وجنوب أوروبا اتصال مباشر سيستبعد بطريقة ما طريق رأس الرجاء الصالح» . وقال مواطن برتغالى معلقا، «ونحن سننظر إلى البواخر وهى تمر»، واعتقد الآخرون أن البواخر المعنية هى تلك التى ستمر فى القناة الجديدة ، نحن البرتغاليون فقط نعرف أن الأمر يتعلق بسفن مختلفة تماما ، سفن تحمل شحنات من الأوهام ، والطموحات ، والإحباطات ، والأخطاء وخيبة الأمل ، كما يشهد على ذلك حالات الفقر والإملاق ، وصرخ أحدهم ، «هناك رجل فى البحر» ، ولم ينقذه أحد .

وخلال الاجتماع ، اعلنت الجماعة الاقتصادية الأوربية ، حسب اتفاق سابق ، بيانا رسميا ، تؤكد فيه أن حركة البلدان الايبيرية نحو الغرب لا تطرح ثانية لبحث الاتفاقيات السارية، لاسيما وأن الأمر يتعلق بتباعد لا يعتد به ، بضعة أمتار فقط، مقارنة مع المسافة التى تفصل انجلترا عن القارة ، ناهيك عن ايسلندا أو جرينلاند اللتين لا يربطهما بأوروبا إلا أقل القليل . وكان هذا البيان ، الواضح تماما ، نتيجة نقاش حاد فى قلب اللجنة ، أظهرت خلاله بعض البلدان الأعضاء نوعا من الانفصال ، وهو تعبير مختار بشكل جيد ، حيث ذهبت هذه البلدان إلى حد التلميح بأنه إذا كانت شبه الجزيرة الايبيرية تريد أن ترحل ، فلتذهب إذن ، فلقد كان الخطأ في تركها تدخل . كانت تلك مزحة ، بالطبع ، فأثناء هذه الاجتماعات

الدولية الصعبة ، يحتاج الناس أيضا إلى التسلية والترفيه، إذ لا يمكن أن يعملوا طوال الوقت ، لكن المندوب البرتغالى والمندوب الإسبانى أدانا بقوة هذا الموقف الخشن ، والمستفز ، والمناهض بلا ريب لروح الجماعة الأوروبية ، واستشهد ، كل منهما بلغته ، بالمثل الأيبيرى المعروف ، «يعرف الصديق وقت الضيق» . كما طلب من منظمة حلف شمال الأطلنطي أن تصدر بيان تضامن أطلنطى ، غير أن الرد ، وإن لم يكن سلبيا ، تلخص فى جملة لا يمكن نشرها★ Wait and See، غير أن ذلك لم يكن يعبر عن الحقيقة كاملة ، حيث وضعت قواعد بيجا ، وروتا ، وجبل طارق ، والفيرول ، وتورجون دى اردوز ، وقرطجنة، وسان جورجو دى فنزويلا ، بصرف النظر عن المنشآت الأقل أهمية ، فى حالة تأهب ، تحسبا لجميع الاحتمالات .

عندئذ ، تحركت شبه الجزيرة الأيبيرية من جديد لمسافة صغيرة ، متر ، مترين، لاختبار قواها . وانقطعت الحبال الملقاة من جانب إلى آخر ، كما يفعل رجال المطافىء على الجدران المتصدعة والتى تهدد بالانهيار ، هذه الحبال التى تقوم مقام الشهود ، انقطعت مثل أشرطة بسيطة ، ومن كان منها أكثر متانة، اقتلع الأشجار بجذورها والأعمدة التى كان مربوطا إليها . وساد الصمت، وشعور بأن نفسا عظيما قد مر فى الهواء ، التنفس الأول والعميق لمن يستيقظ من النوم ، وبدأت تتحرك كتلة الحجر والأرض المغطاة بالمدن والقرى والأنهار والغابات والمصانع والأدغال الكثيفة والحقول المزروعة بسكانها وحيواناتها ، مركب يبتعد عن المرفأ ويتجه نحو المحيط ، ذلك المجهول .

★ فلننتظر ونرى «المترجم»

تسمى شجرة الزيتون تلك «كوردوڤيل» ، أو «كوردوڤيزا» أو «كوردوڤيا» ، لا يهم ، لأنهم يطلقون عليها تلك الأسماء الثلاثة على السواء فى الأراضى البرتغالية، أما بالنسبة للزيتون الذى تنتجه ، فإن حجمه وجماله كانا كفيلين بأن يطلق عليه عندنا لقب الزيتون الملكى ، لكن ليس القرطبى بكل تأكيد ، بالرغم من أن هذه الشجرة أقرب لقرطبة منها للحدود . إن تلك التفاصيل والأشياء التافهة ، وتلك التنغيمات الغنائية ، التى هى زخارف لحن مسطح كان يحلم بأن تكون له أجنحة الموسيقى الثرية ، تبدو غير ضرورية حيث كان الأهم هو التحدث عن هؤلاء الرجال الثلاثة الجالسين تحت شجرة الزيتون ، أحدهم هو بيدرو أورس، والآخر جواكيم ساسا ، والثالث خوسية انايسو ، وهم قد اجتمعوا هنا بمصادفة معجزة بل وأكثرها إعجازا أو بأكثر المناروات والحيل تعمدا . لكن القول بان شجرة الزيتون تلك هى «كوردوڤيل» يسمح لنا على الأقل بأن نلفت النظر إلى مدى إهمال مؤلفى الأناجيل عندما اكتفوا بكتابة أن المسيح لعن شجرة التين ، وكان من المفترض على ما يبدو أن تكفينا تلك المعلومة ، غير أن الأمر كان خلاف ذلك ، لا ياسيدى ، لأننا فى نهاية الأمر ، وبعد مرور عشرين قرنا ، لا نزال نجهل إذا كانت الشجرة البائسة تعطى تينا أبيض أم بنفسجيا، تينا مزهرا أم خريفيا ، تعطى ثمارا حلوة أم تلك التى ينفجر جلدها ، إن هذا النقص فى الدقة لم يضر قط العلم المسيحى ، لكن عانت منه بالطبع الحقيقة التاريخية . إذن فشجرة الزيتون هى «كوردوڤيل» ، ويجلس تحتها ثلاثة رجال . وتقع خلف تلال القرية التى عاش فيها بيدرو أورس ، ولكنها لا ترى من المكان الذي يوجد فيه الآن ، ولقد أرادت المصادفة ، وهى الأولى إذا كانت كذلك بالفعل ، أن يحمل الرجل والقرية نفس الاسم ، وهو ما لا يقلل من مصداقية القصة، كما لا يضيف إلى مصداقيتها ، فمن الممكن أن يكون اسم رجل ما «رأس البقرة» أو «الجو الردىء» ولا يكون جزارا أو عالم أرصاد جوية . لقد

سبق القول ، وبكل صدق ، إن الأمر كله لم يكن سوى صدف وتلاعب . ويرتفع وسطهم ، وهم جالسون على الأرض ، صوت مذياع أخن تشير بطارياته إلى قرب نضوبها، ويعلن المذيع ، «لقد استقرت سرعة تحرك شبه الجزيرة ، طبقا لآخر التقديرات ، عند حوالى ٧٥٠ مترا فى الساعة أى حوالى ثمانية عشرة كيلو مترا فى اليوم ، قد يبدو الأمر غير ذى بال ، لكن بعملية حسابية دقيقة فإن ذلك يعنى أننا نبتعد عن أوروبا مسافة ٥ر١٢ متر فى كل دقيقة ، ومع رفض الاستسلام لمخاوف تضعف الهمم ولا داعى لها ، فإن الموقف يثير القلب حقا» ، وعلق خوسيه انايسو قائلا ، «وسيكون الأمر أكثر مدعاة للقلق إذا قلت إنها تقطع فى كل ثانية سنتيمترين ونيف» ، إنه ماهر فى الحساب الذهنى ، غير أنه لم يتمكن من أن يصل إلى جزء من عشرة وجزء من مائة لأن جواكيم ساسا أسكته لكى يستمع إلى المذيع ، وكان الأمر يستحق ، «وطبقا للأنباء التي ترد فى اللحظة نفسها إلى محررينا ، فلقد حدث صدع كبير بين لالينيا★ وجبل طارق ، ومع الأخذ فى الاعتبار أن تأثير هذه الصدوع غير قابل للانعكاس حتى الآن ، فإن ذلك يعنى إمكانية توقع أن تجد البنون نفسها معزولة وسط البحر ، وإذا حدث ذلك ، يجب عدم اتهام البريطانيين ، لأن الخطأ لا يقع على عاتق أحد غيرنا ، نحن وإسبانيا ، التى لم تعرف كيف تستعيد فى الوقت المناسب هذه القطعة المقدسة من الوطن ، فات الأوان الان. إنها هى التى تركتنا من نفسها» ، علق بيدرو أورس قائلا، «هذا الرجل بليغ» ، لكن نبرة المذيع تغيرت ، وتابع، وهو يسيطر على انفعاله ، «أصدر مكتب رئيس الوزراء البريطانى مذكرة تؤكد فيها حكومة ملكة بريطانيا مجددا ما تسميه حقوقها على جبل طارق ، والتى تأكدت حاليا ، وأنا أنقل عن المذكرة ، وبناء

★ لالينيا : خط الحدود عند جبل طارق

على الواقع الذي لا يقبل المناقشة وهو أن الصخرة تنفصل الآن عن اسبانيا، فإن كل المفاوضات التى تهدف إلى انتقال متوقع للسيادة ، وإن كان مشكوكا فيه ، قد علقت من طرف واحد بشكل نهائى ، وصاح خوسيه انايسو ، «لن نرى هذه المرة أيضا سقوط الإمبراطورية البريطانية»، «ولقد طالبت المعارضة ، فى بيان فى البرلمان ، أن يتم على وجه السرعة تحصين ما سيكون الجانب الشمالى للجزيرة الجديدة، بحيث يمثل محيط الصخرة ، وقد اتسع حاليا ، حصنا بارزا منيعا ، معزولا بكبرياء وسط الأطلنطى، كرمز لقوة انجلترا الخالدة» . همس پيدرو أورس، «إنهم مجانين» ، وهو ينظر إلى ارتفاعات سلسلة جبال ساجرا ، أمامه، «ومن جانبها ، ردت الحكومة البريطانية ، وهى تهدف إلى التقليل من الأثر السياسى لهذه المطالبة ، بأن جبل طارق ، نظرا لظروفه الجغرافية والاستراتيجية الجديدة، يظل إحدى درر تاج ملكة بريطانيا ، والميزة الفائقة لهذه الصيغة ، مثل الماجنا كارتا ، إنها ترضى الجميع»، وكان المذيع هو الذي قال هذه الخلاصة الساخرة، وأضاف لكى يختم ، «سوف نواليكم بأخبار اخرى فى غضون ساعة ، مالم يجد طارىء». مر سرب زرازير مثل الإعصار على الرابية الجرداء ، فرووووووو، سأل جواكيم ساسا ، «هؤلاء أصدقاؤك» ، أجاب خوسيه انايسو ، دون حتى أن يرفع عينيه، «نعم ، إنهم أصدقائى» هو فى وضع يمكنه من معرفة ذلك ، لأنهم منذ أن غادروا مراعى ريباتجو الخضراء وهم لا يفترقون أبدا ، إلا ساعة الأكل والنوم ، فالإنسان لا يتغذى على الديدان أو الحبوب الضائعة ، وتنام الطيور على الأشجار بدون غطاء . ويرسم السرب دائرة كبيرة فى الهواء ، تتذبذب الأجنحة ، وتشرب المناقير الهواء والشمس والسماء الصافية ، وتسبح سحب نادرة ، بيضاء ومرقطة ، فى الفضاء مثل الغلايين ، وينظر الرجال ، هؤلاء وكل الآخرين ، إلى

هذه الأشياء ، ومثل العادة ، لا يفهمونها .

لم يلتق پيدرو أورس وچواكيم ساسا وخوسيه أنايسو هناك ، وهم القادمون من أماكن مختلفة جدا ، لكي يستمعوا معا إلى الترانزستور . لقد عرفنا منذ ثلاث دقائق أن پيدرو أورس يعيش فى القرية المختفية وراء التلال ، وعلمنا منذ البداية أن جواكيم ساسا قادم من شاطىء فى شمال البرتغال ، أما بالنسبة لخوسيه أنايسو ، فإننا نعرف عن يقين الآن ، أنه كان يتنزه فى مراعى ريباتجو عندما قابل الزرازير ، وكان يمكننا أن نعرف ذلك على الفور ، لو كنا أولينا مزيدا من الانتباه إلى تفاصيل المشهد الطبيعى . يبقى معرفة ماذا فعلوا كى يلتقوا ثلاثتهم ولماذا يجلسون فى سرية تحت شجرة زيتون ، وحيدة من نوعها فى هذه النواحى ، بين أشجار قزمة نادرة ترى بالكاد وتتشبث بالتربة البيضاء ، وتلمع الشمس بكل نيرانها ، ويرتعش الهواء ، إنها الحرارة الأندلسية ، بالرغم من أننا وسط مدرج من الجبال ، وهانحن ندرك فجأة هذه الماديات ، لقد دخلنا فى العالم المادى ، أو بالأحرى هو الذى دخل علينا عنوة .

وبعد إعمال الفكر ، لا توجد بداية ، لا بالنسبة للأشياء ولا بالنسبة للناس ، إن كل ما بدأ يوما هو كان قد بدأ قبل ذلك ، ولنأخذ المثال الذى فى متناول يدنا مباشرة ، فقصة هذه الورقة مثلا إذا أريد لها أن تكون واقعية وكاملة ؛ يتعين الرجوع إلى بدايات العالم ، ولقد تم استبدال المفرد بالجمع ، لكن حتى فى هذه الظروف ، يمكن التشكك فى أن تلك المبادى الأولى لم تكن سوى مجرد ممرات، ومنصات انطلاق ، يالها من رأس مسكينة رأسنا تلك التى تتعرض لمثل هذه الضغوط الهائلة ، وبالرغم من كل شىء ، فهى رأس رائعة قادرة على فقدان العقل لكل الأسباب ، باستثناء ذلك السبب .

إذن لا توجد بداية ، لكن هناك تلك اللحظة الذى غادر فيها جواكيم ساسا

المكان الذى كان يوجد فيه ، شاطىء في شمال البرتغال ، ربما افيف ، ذو الأحجار اللغز، أو ربما شاطىء أ- ڤير - أو - مار (★) ، الذى قد يكون الأفضل، هل يمكن تصور اسم شاطىء أكثر امتيازا ، حتى الشعراء والروائيون أنفسهم ماكانوا ليفكروا أبدا فى ذلك . إن جواكيم ساسا جاء من هناك ، لأنه سمع أن شخصا يدعى پيدرو أورس من إسبانيا شعر أن الأرض تهتز ، بينما الأرض لم تكن تهتز ، وهذا الفضول طبيعي تماما بالنسبة لرجل ، قذف حجرا فى البحر ، بكل القوة التى لا يملكها ، وفصل بذلك شبه الجزيرة عن أوروبا ، بدون زلزال أو ألم ، مثل شعرة تسقط فى هدوء ، بأمر من إرادة الله وحدها ، كما يقال . قطع الطريق فى سيارته القديمة ، دون أن يودع أسرته بحزن ، لأنه لم تكن له أسرة ، وبدون أن يخطر صاحب المكتب الذى يعمل فيه . إنها فترة الاجازات ، ويمكنه الذهاب والمجيء دون طلب تصريح ، ولم يعد حتى لزاما تقديم جواز السفر عند الحدود ، يتم تقديم بطاقة الهوية فقط وتصبح شبه الجزيرة لنا . وعلى المقعد المجاور له يوجد جهاز الترانزستور ، الموسيقى تسلية ، لكن ثرثرة المذيع ، اللطيفة والمهدئة مثل مهد صوتي ، تثيره أحيانا ، كل ذلك بالطبع فى الوقت الطبيعى ، لأن فى هذه اللحظة تجوب الأثير كلمات محمومة ، وأنباء قادمة من جبال البرانس ، هجرة جماعية ، عبور البحر الأحمر ، انسحاب نابليون . هنا ، على الطرق الداخلية ، حركة المرور قليلة ، لا مقارنة إطلاقا مع الجرف ، تلك الفوضى والارتباك ، وذلك التشنج ، أو لشبونة ، بطرقها السريعة الجنوبية والشمالية ، ومطار بورتلا ، الذى هو أشبه بالمكان المحاصر ، الذى يهاجمه النمل ، برادة حديد يجذبها مغناطيس . يتقدم جواكيم ساسا بهدوء على طول طرق الساحل

★ معناها الحرفى: انظر إلى البحر

الظليلة ، وغايته قرية اسمها أورس ، فى مقاطعة غرناطة بإسبانيا ، حيث يعيش الرجل الذى تحدثوا عنه فى التليفزيون، «سأذهب لأرى إذا كان يوجد ارتباط بين ماحدث لى وكونه يشعر بأن الأرض تهتز تحت قدميه» ، عندما يبدأ الناس فى تخيل أشياء ، فإنهم يربطونها مع بعضها البعض ، وكثيرا ما يخدعون، لكن يحدث أحيانا أن يكونوا على حق ، حجر قذف فى البحر ، والأرض التى تهتز ، وسلسلة جبال تنشق . ويتقدم جواكيم ساسا هو أيضا وسط جبال لا علاقة لها بتلك الأطواد الشامخة ، وفجأة هاهو يشعر بالقلق ، «وإذا حدث الشىء نفسه هنا ، وتنشق الاستريلا هى أيضا ، ويختفى المندجو فى الأعماق ، عندئذ لن يكون لدى أشجار الصفصاف مرآة لكى تنعكس فيها ، وأصبحت الفكرة شاعرية، وابتعد الخطر .

فى هذه اللحظة ، توقفت الموسيقى ، وبدأ المذيع يقرأ الأنباء التى لم تتغير ، وكان النبأ الجديد الوحيد ، وإن كانت جدة نسبية تماما ، من لندن ، حيث ذهب رئيس الوزراء إلى مجلس العموم ليؤكد بشكل حاسم أن السيادة البريطانية على جبل طارق لا تقبل أى نقاش ، مهما كانت المسافة التى قد تفصل شبه الجزيرة الايبيرية عن أوروبا ، وأضاف زعيم المعارضة إلى ذلك تضامنا صريحا ، حيث أكد على «التعاون الصادق لمجموعتنا وحزبنا فى هذه اللحظة التاريخية» ، ولكنه وضع فى هذا الخطاب الرسمى سخرية أثارت ضحك كل النواب، «لقد اقترف السيد رئيس الوزراء خطأ خطيرا فى التقدير عندما وصف بشبه الجزيرة ما قد أصبح من الآن فصاعدا جزيرة دون أدنى شك ، حتى وإن لم تكن فى صلابة جزيرتنا ، بالطبع» . صفق نواب الأغلبية لهذه الخاتمة وتبادلوا ابتسامات مجاملة مع أعدائهم ، لا يوجد مثل مصلحة الوطن لتوحيد السياسيين ، إنها حقيقة

أكيدة. ابتسم جواكيم ساسا هو أيضا ، «ياله من سيرك» ، لكنه حبس أنفاسه فجأة ، لقد نطق المذيع اسمه ، «مطلوب من السيد جواكيم ساسا المسافر فى البلد، إننا نكرر ، مطلوب من السيد جواكيم ساسا أن يتكرم ، لقد قالوا يتكرم ، بالتقدم على وجه السرعة للحاكم المدنى الأقرب للمكان الموجود فيه ، من أجل التعاون مع السلطات لتوضيح أسباب التصدع الجيولوجى لجبال البرانس ، إن الكيانات المختصة مقتنعة بالفعل بأن السيد جواكيم ساسا لديه معلومات ذات أهمية قومية ، سنكرر النداء ، مطلوب من السيد جواكيم ساسا» ، لكن السيد جواكيم ساسا لم يعد يستمع ، كان عليه أن يوقف السيارة لكى يسترد هدوءه ، ورباطة جأشه ، فطالما أن يديه ترتعشان بهذه الصورة ، فلن يتمكن من القيادة ، كانت أذنـــاه تطنان مثل بوق رومانى ، «إنه حظّى بعينه ، كيف علموا بقصة الحجر ، لم يكن هناك أحد على الشاطىء ، على الأقل ، لم أشاهد أحدا ، ولم أتكلم عن هذه القصة مع أحد ، لأننى إن فعلت كنت سأعتبر كاذبا ، فى النهاية ، لابد أن شخصا كان مختبئًا هناك ، وكان يراقبني ، لا أحد عموما يهتم بشخص يرمى أحجارا فى الماء ، أما أنا فلقد تم الاستدلال علىّ فى الحال ، ياسوء الحظ، وبعد ، من المعروف كيف تسير الأمور ، هناك دائما شخص لكى يروى القصة مع إضافة تفاصيل من بنات أفكاره وأشياء لا يمكن أن يكون قد رآها ، ولابد أن الحجر كان فى حجمى على الأقل عندما وصلت القصة إلى آذان السلطات ، والآن، ماذا سأفعل . لن يرد على النداء ، ولن يقدم نفسه لأى حاكم مدنى أو عسكرى ، أتتخيلون قليلا المحادثة العبثية ، المكتب ، وكل الأبواب مغلقة ، وجهاز التسجيل يقوم بعمله ، «سيد جواكيم ساسا ، لقد قذفت بحجر فى البحر» ، «نعم»، «فى تقديركم ماوزن هذا الحجر» ، «لا أعلم ، ربما كيلو جرامان أو ثلاثة كيلو

جرامات»، «أو أكثر» ، «نعم ، من الممكن» ، «هاك عدة أحجار، زنها وقل لنا أى حجر منها أقرب للحجر الذى رميته» ، «ذلك الحجر» ، «سنقوم بوزنه ، لنرى ، حسن ، هل تسمح ، من فضلك ، بالتحقق بنفسك» ، «لم أتصور قط أنها ثقيلة لهذه الدرجة، خمسة كيلو جرامات وستمائة» ، «والآن ، قل لى ، هل حدثت لك من قبل مغامرة مماثلة» ، «إطلاقا» ، «أنت متأكد» ، «تماما» ، «أنت لا تعانى من أى اضطراب نفسى أو عصبى ، صرع مثلا ، أو السير والتكلم أثناء النوم ، ذعر من أى نوع كان» ، «لا ياسيدى» ، «وهل حدثت فى أسرتك حالات مماثلة» ، «لا ياسيدى» ، «سنجرى فورا رسم مخ ، لكن حاليا تفضل بتشغيل هذا الجهاز» ، «ماهذا» ، «إنه أداة لقياس القوة الميكانيكية ، استخدم كل القوة التى فى إمكانك»، «لا أستطيع أكثر من ذلك» ، «هذا كل شيء»، «لم أكن يوما من ذوى العضلات فائقة القوة» ، «سيد جواكيم ساسا ، إنك لم تتمكن من قذف هذا الحجر» ، «أوافقك الرأى تماما ولكنى قمت بذلك» ، «نعم إنك قذفته ، فهناك شهود على ذلك وهم أهل للثقة ، ومن ثم يجب أن تقول لنا كيف فعلتها» ، «لقد سبق أن قلت ذلك ، كنت أتنزه على الشاطيء ، رأيت الحجر ، أخذته وقذفته» ، «هذا مستحيل» ، «الشهود يؤكدون ذلك» ، «هذا صحيح ، لكن الشهود لا يمكنهم معرفة من أين تأتيك هذه القوة ، أما أنت فلابد أنك تعرف» ، «لقد سبق أن قلت لك إننى لا أعرف» ، «إن الموقف شديد الخطورة ياسيد جواكيم ساسا ، ولا يوجد سبب طبيعى واحد يمكنه تفسير تصدع جبال البرانس ، أو نكون عندئذ قد غرقنا فى كارثة كونية ، وانطلاقا من هذه البداهة ، بدأنا فى تحليل الحالات المخالفة للمألوف التى وقعت فى غضون تلك الأيام الأخيرة ، ومغامرتك إحدى هذه الحالات» ، «أشك كثيرا فى أن واقعة قذف حجر فى البحر يمكن أن تكون وراء تصدع قارة»،

«لا أريد أن أدخل فى فلسفات غير مجدية ، ولكن قل لى إذا كنت ترى علاقة بين واقعة نزول قرد من شجرة ، منذ عشرين مليون عام ، وصناعة القنبلة النووية» ، «العلاقة هى بالتحديد تلك العشرين مليون عام» ، «رد جيد ، لكن لنتخيل الآن أن يكون ممكنا تخفيض الوقت إلى بضعة ساعات بين المسبب ، وهو فى هذه الحالة بالتحديد ، قذفك للحجر ، ونتيجته ، ألا وهى الانفصال عن أوروبا ، بعبارة أخرى، لنتخيل أن هذا الحجر المقذوف في البحر لن يحدث أثره ، فى الظروف الطبيعية ، إلا بعد عشرين مليون عام ، لكن فى ظل ظروف أخرى ، وبالتحديد ظروف غير طبيعية ، مثل تلك التي نقوم بتحليلها الآن ، يمكن أن يتحقق الأثر أو النتيجة فى مدى بضع ساعات، أو بضعة أيام»، «مجرد تخمين صرف ، من الممكن أن يكون السبب مختلفا تماما» ، «ويمكن أيضا أن يكون الأمر متعلقا بمجموعة متلازمة ومتزامنة من الأسباب» ، «إذن ، سيتعين عليكم دراسة حالات غير مألوفة أخرى» ، «هذا هو ما نفعله . والإسبان كذلك ، مع ذلك الرجل الذى يشعر أن الأرض تهتز»، «سيتعين عليكم بهذه الطريقة فحص الحالات المألوفة بعد الانتهاء من الحالات غير المألوفة» ، «الحالات ماذا» ، «المألوفة» ، «ماذا تريد أن تقول» ، «المألوفة هى عكس غير المألوفة ، نقيضها» ، «إذا اقتضى الأمر ذلك سننتقل من الحالات غير المألوفة إلى الحالات المألوفة ، يجب أن نكتشف السبب» ، «فى هذه الحالة ، سيكون لديكم عمل كثير» ، «فلنبدأ إذن ، قل لى أين ذهبت تلتمس قوتك» . لم يرد جواكيم ساسا، وأسكت خياله ، لأن الحوار كان يوشك أن يدور فى حلقة مفرغة ، إذ كان عليه أن يكرر ، «لا أعرف» ، وهم جرا ، مع بعض التغيرات الطفيفة ذات الطابع الشكلى ، مع أخذ أقصى الاحتياطات بالرغم من كل شىء ، فمن المعروف أن الشكل يؤدى للمضمون ، والحاوى للمحتوى ، ورنة الكلمة إلى معناها .

أدار جواكيم ساسا محرك سيارته ، وانطلق بسرعة الخطوة إذا كان من

الممكن التحدث هكذا عن سيارة ، كان يريد أن يتأمل ، فهو فى حاجة إلى أن يفكر بجدية . لم يعد مجرد مسافر بسيط على الطريق نحو الحدود ، مجرد رجل عادى، لا أهمية له ولا صفة ، لقد انتهى ذلك ، ربما كانوا يقومون حاليا بطبع ملصقات تحمل اسمه وأوصافه ، مكتوب عليها بحروف حمراء غليظة «مطلوب» ، إنها المطاردة إذن . نظر فى مرآة السيارة ورأى سيارة شرطة الطرق ، وكانت مسرعة بشدة حتى أنها بدت وكأنها تريد الدخول من الزجاج الخلفى للسيارة ، قال لنفسه، «لقد انتهيت» ، وزاد من سرعته لكنه سرعان ما استدرك ، دون أن يفرمل، وكل ذلك من أجل لا شيء ، لأن سيارة الشرطة مرت كالإعصار ، لابد أنها فى عجلة شديدة بدون شك لأن العساكر لم ينظروا حتى اليه ، لو عرفوا من هو ، إذ يوجد أعداد كبيرة من نوع سيارته الستروين القديمة ، قد يبدو أن هناك تناقضا رياضيا غير أن الأمر ليس كذلك . ألقى جواكيم ساسا نظرة فى مرآة السيارة ، لكى ينظر إلى نفسه هذه المرة ، وشاهد تعبير الانفراج فى عينيه ، وتعرف على طرف صغير من الوجه ، فالمرآة لا تسمح أبدا برؤية المزيد ، وبالتالى يصبح من الصعب ، فى ظل هذه الظروف ، معرفة إلى من ينتمى هذا الوجه ، لجواكيم ساسا بالطبع ، لكن من هو جواكيم ساسا ، هو رجل لا يزال بعد شابا ، ثلاثون ويضع سنوات ، أقرب للأربعين منه للثلاثين ، الحواجب سوداء ، العيون بنية ، برتغالية صميمة ، وعظمة الأنف مستقيمة ، قسمات الوجه شائعة جدا ، سنعرف المزيد عندما يستدير نحونا . فهو يفكر ، فى الوقت الراهن ، فالأمر يتعلق بالتحديد بنداء فى الإذاعة ، الأصعب سيكون عند الحدود ، وبالإضافة إلى كل ذلك، فهناك هذا الاسم ساسا ، كنت أفضل اليوم أن أكون أىّ سوزا، مثل ذلك الذي كان في ممر برتوس الجبلى ، لقد بحثت ، ذات يوم ، فى قاموس لكى أرى إذا كانت هذه الكلمة موجودة ، ساسا، وليس سوزا، وعلمت أن الكلمة اسم شجرة

ضخمة من أشجار النوبة ، اسم جميل ، اسم امرأة ، النوبة ، قرب السودان ، فى شرق افريقيا ، الصفحة الثالثة، والتسعين من الأطلس، «وأين سأنام هذه الليلة ، فى الفندق، لامجال للتفكير فى ذلك ، ففى هذه الساعة ، تكون أجهزة المذياع مفتوحة فى الفنادق، ولابد أن كل الفندقة البرتغالية تحدق بعيونها فى كل طالب لغرفة ، التى هى ملجأ المضطهدين، ولكم أن تتصوروا المشهد» ، «بالطبع ياسيدى، لدينا غرفة ممتازة شاغرة ، فى الطابق الثانى، غرفة ٢٠١، يا بيمنتا، رافق السيد ساسا»، وبينما سيرقد ، مرتديا ملابسه كاملة، سيتصل المدير بالهاتف ويقول فى هياج وعصبية، «الشخص هنا ، تعالوا سريعا».

ركن سيارته على جانب الطريق ، وخرج لينشط ساقيه ، وينعش ذهنه ، الذى لم يقدم له نصيحة طبية لأنه اقترح عليه أن يقترف مخالفة ، «أتوجد مدينة أكثر ازدحاما وتعرض هذا النوع من الراحة، ابحث لك عن فندق دعارة لقضاء الليلة مع إحدى بنات الهوى، اطمئن ، لن تطلب منك بطاقة هويتك ، فأنت ستدفع ، وإذا كان لايعنيك أن تتسلى قليلا ، مع كل الهموم التى لديك ، فيمكنك على الأقل أن تنام ، وربما أيضاً قد يكلفك ذلك أقل من الفندق»، «هراء، أجاب جواكيم ساسا، الحل هو النوم فى السيارة ، على طريق صغير منعزل»، «وإذا جاء متشردون أو غجر، وإذا هاجموك وسرقوك عنوة ، وإذا قتلوك»، «المكان هادىء»، «وإذا وصل أحد مشعلى الحرائق ، واحد من أولئك الذين يعانون من هوس حرق غابات الصنوبر، إنه الموسم ، ستجد نفسك محاطا باللهب ، وستموت محروقا، ولابد أنها أسوأ ميتة، طبقا لما سمعته ، تذكر شهداء محاكم التفتيش»، «هراء كرر جواكيم ساسا ، سأنام فى السيارة، حسم الأمر» ، وصمتت الفكرة ، إنها تصمت دائماً عندما تكون الإرادة قوية ، كان الوقت لايزال مبكراً، يمكنه أن يقطع أربعين أو خمسين

كيلو مترا، عبر طرق غير مباشرة ، وسيخيم قرب تومار، أو سنتاريم، فى إحدى تلك الدروب غير المرصوفة المطلة على الحقول ، بأثلامها العميقة، التى كان يرسمها المحراث فى السابق والآن تقوم الجرارات بذلك، لا أحد يمر فى هذه الدروب أثناء الليل ، ويمكن إخفاء السيارة فى أى مكان، «يمكننى حتى أن أنام فى العراء ، مع هذه الحرارة»، لم يحر التفكير جوابا على هذه الفكرة ، لكنه لا يوافق ، هذا شيء مؤكد.

لم يتوقف فى تومار ، ولم يذهب حتى سنتاريم ، لكنه تناول عشاءه متخفيا فى بلدة على ضفة التاج ، الفلاحون بطبيعتهم فضوليون، لكن ليس لدرجة أن يسألوا المسافر فجأة، «قل لنرى ، ما اسمك»، غير أنه لو بقى طويلا هنا ، عندئذ نعم، سرعان ماسيسألونه عن حياته الماضية وعن مستقبله . كان التليفزيون مفتوحاً أثناء تناوله العشاء، وبالتالى استطاع جواكيم ساسا مشاهدة نهاية فيلم عن الحياة فى قاع البحار، مع أسراب عديدة من الأسماك الصغيرة، والشفنين البحرى المتموج والشيق المتذبذب، ومرساة قديمة ، ثم بدأت الإعلانات ، بعضها تم إخراجه بطريقة سريعة وصارخة، والبعض الآخر بطريقة بطيئة ورصينة مثل متعة صقلتها التجربة، وكانت تتعالى أصوات أطفال كثيرى الصراخ، وأصوات مراهقين بنبرتها غير الواثقة، وأصوات نسائية أجشة بعض الشيء، وأصوات رجال من درجة الجهير الأول، وفى الفناء الخلفى للمنزل ، كان الخنزير ، الذى يتغذى على مياه غسيل الصحون وبقايا الأكل ، يشخر . وأخيراً بدأت نشرة الأخبار، وبدأ جواكيم ساسا يرتجف ، لو عرضوا صورته، لانتهى الأمر بالنسبة له، ثم قراءة النداء، لكن لم يكن هناك أية صورة ، إنهم لايبحثون عن مجرم، فى نهاية الأمر، إنهم يطلبون منه فقط ، وبإصرار شديد وبشكل رسمى حسب الأصول، أن يقدم

نفسه ، لأن في ذلك المصلحة العليا للأمة ولا يستطيع أى وطنى جدير بهذا الاسم أن يتهرب من أداء واجب بسيط لهذه الدرجة والذى يتلخص فى التقدم للسلطات من أجل تقديم شهادته. كان هناك ثلاثة أشخاص آخرين يتناولون عشاءهم معه ، زوج عجوز وزوجته ، وعلى طاولة أخرى ، الرجل الوحيد الذى يقال عنه، فى كل مرة، «إنه وكيل متجول».

توقفت الأحاديث عند ظهور الصور الأولى لجبال البرانس، وإن كان الخنزير قد استمر في الشخير لكن لم يلتفت إليه أحد ، وبعد لحظة ، صعد صاحب المطعم على مقعد لكى يرفع الصوت ، وتوقفت على الفور الفتاة الشابة التى كانت تقوم بالخدمة ، وجحظت عيناها ، ووضع الزبائن أدوات المائدة برفق على حافة أطباقهم، وكان ذلك أقل الأشياء، فلقد ظهرت على الشاشة طائرة عمودية تصور طائرة عمودية أخرى، وكلتاهما تدخلان فى القناة المرعبة التى كانتا تعرضان جدرانها المهولة ، والشديدة الارتفاع لدرجة أن السماء لا يمكن تمييزها إلا بالكاد، مجرد خيط صغير من الزرقة الصافية، «ياإلهى، إن ذلك يصيب بالدوار»، قالت الفتاة مندهشة، «اصمتى»، أجاب صاحب المطعم ، كانت الكشافات القوية تضىء الآن المضيق الفاغر فاه ، لابد أن مدخل الجحيم الإغريقى كان يشبه ذلك بكل تأكيد ، أما الآن فإن خنزيرا يشخر حيث كان ينبح فى سيربير ، لم يعد علم الأساطير كما كان ، وبينما كان المذيع يتلو ، «هذه الصورة المثيرة التى التقطوها مجازفين بحياتهم»، أصبح الصوت ثقيلا وغير منتظم ، وتحولت الطائرتان إلى أربع ، أشباح الأشباح، «هوائى ملعون»، تمتم صاحب المطعم..

وعندما عاد الصوت والصورة إلى حالتهما الطبيعية، وأصبحت الصورة واضحة وكذلك الصوت ، كان المذيع يقرأ النداء الذى تعرفونه ، وإن كان يتوجه

الآن إلى الجميع، «مطلوب أيضاً من كل الأشخاص الذين قد يعرفون حالات غريبة، أو ظواهر غير قابلة للتفسير ، أو إشارات غامضة ، أن يتصلوا على الفور بالسلطات الأقرب لمكان وجودهم». وتذكرت الفتاة فجأة الجدى الشهير الذى ولد بخمسة قوائم ، أربعة منها سوداء وقائمة بيضاء ، معتبرة أنه مطلوب منها أيضاً، وبشكل مباشر، الإدلاء بشهادتها، لكن صاحب العمل رد عليها قائلاً ، «كان ذلك منذ عدة شهور، ياغبية، وفى كل يوم يولد جديان بخمسة قوائم وكتاكيت برأسين، لا، المطلوب قصة غير عادية، إنها قصة زرازير المدرس»، سأل جواكيم ساسا، «اية زرازير، وأى مدرس» ، «مدرس القرية ، اسمه خوسيه انايسو ، منذ عدة أيام، يتبعه سرب من الزرازير أينما يذهب ، يوجد منها حوالى مائتين على الأقل»، «أو أكثر»، صحح الوكيل المتجول ، «لقد رأيتهم هذا الصباح ، عند وصولى، كانوا يطيرون فوق المدرسة محدثين ضجة شديدة». فى هذه اللحظة ، أخذ الرجل المسن الكلمة ليقول ، «فى رأيى، يجب علينا إبلاغ رئيس المجلس بقصة الزرازير تلك»، «لقد سبق إبلاغه بالفعل»، رد صاحب المطعم معلقا، «قد يكون على علم بذلك ولكنه لا يقوم بالتقارب المطلوب، بين السروال والإليتين، إذا صح التعبير بتلك الطريقة»، «إذن ما الذى يجب علينا القيام به»، «سنذهب لمقابلته صباح الغد، فعلى أية حال، من المفيد التحدث عن منطقتنا فى التليفزيون ، هو أمر ممتاز بالنسبة للتجارة والصناعة»، «لكن يجب أن يظل السر بيننا ، وألا نتحدث به لأحد»، «وهذا المدرس، أين يسكن»، سأل جواكيم ساسا ، وكأن الإجابة لاتهمه فى شىء ، ولم يسعف الوقت صاحب المطعم ، الذى كان شارد الذهن ، لكى يمنع الفتاة من الاعتراف بكل شىء ، «أنه يسكن فى البيت المجاور للمدرسة ، إنه بيت المدرسين ، وليلا ، يظل النور مضاء حتى وقت متأخر جداً» ، وبدا كأن هناك نوعا من الحزن فى

صوتها ، وهاجم صاحب المطعم ، وهو مستاء ، الخادمة المسكينة ، «اصمتى ، ياغبية ، أولى بك أن تذهبى لترى إذا كان الخنزير جائعا» ، إنه طلب أحمق للغاية ، ففى تلك الساعة لا تأكل الخنازير لأنهم ينامون عامة، وإذا كان هذا الخنزير يحتج بهذه الشدة فربما لأنه يشعر بالقلق والاضطراب ، لأن الأفراس فى الاسطبلات والأراضى المسورة تعمل وتهز مناخيرها ، مضطربة هى أيضاً ، ونافدة الصبر لدرجة أنها تضرب بحدواتها الحديدية الأحجار التى تتدحرج على الأرض، وتمزق التبن، «كل ذلك بسبب القمر» ، هذا هو تشخيص الأغلبية.

دفع جواكيم ساسا حسابه ، وحيا ، وترك بقشيشا سخياً وهو يشكر الفتاة للمعلومة التى قدمتها له ، ولو وجد صاحب المطعم ، لكان وضعه فى جيبه، نكاية فيها، وليس لأن تلك هى عادته ، إن طيبة الأشخاص ليست أفضل منهم ، فإنها نادرا ما تكون ثابتة هى أيضاً ، فهى عرضة للاختفاء والتناقضات ، تماماً مثل طيبة الصبية ، التى لاتستطيع أن تقدم الطعام لخنزير لا يشعر بالجوع ، فقامت بمداعبة جبهته فيما بين عينيه. إن الأمسية جميلة ، والسيارة ترقد تحت أشجار الصنار ، حيث ترطب عجلاتها فى الماء الذى يسيل هدرا من النافورة ، تركها جواكيم ساسا هناك وذهب للبحث عن المدرسة وعن النافذة التى ينبعث منها الضوء ، لايستطيع الناس إخفاء أسرارهم ، حتى لو حاولوا أن يفعلوا ذلك بمساعدة الكلمات ، إذ تكشفهم حدة مفاجئة فى الصوت ، أو الاختفاء الفجائى لحرف متحرك ، بحيث يستطيع أى مراقب لديه خبرة بالأصوات وبالحياة أن يدرك على الفور أن فتاة النزل عاشقة . إن البلدة ليست سوى قرية كبيرة ، يستغرق التجول فيها من أولها إلى آخرها أقل من نصف ساعة، لكن جواكيم ساسا لن

يحتاج إلى المشى كل ذلك الوقت ، لقد سأل صبيا كان مارا أين تقع المدرسة ، لم يكن ليجد دليلا أفضل من ذلك ، «تأخذ هذا الشارع ، وعندما تصل إلى ساحة الكنيسة، تنعطف يسارا ، وبعد ذلك تسير دائماً فى خط مستقيم ، لايمكنك أن تضل الطريق ، لأن المدرسة تظهر على الفور للعيان» ، «وهل يقيم المدرس هناك» ، «نعم ، ياسيدى ، هناك ضوء من النافذة»، لكن لم يكن فى هذه الكلمات أية دلالة حب أو حماس ، ربما يكون الصبى تلميذاً سيئاً ، والمدرسة هى المكان الأول لتطهيره من ذنوبه ، لكن صوته أصبح مرحاً فجأة ، ليس لدى الأطفال ضغينة وذلك هو ما ينقذهم ، «والزرازير هناك ، إنهم لايهدأون أبداً »، إذا لم يهجر هذا الصبى الدراسة قبل الأوان فإنه سيتعلم كيف يكون الجمل بحيث لا يكرر مرتين متتاليتين الصيغ الفعلية نفسها.

لايزال نصف السماء مضيئاً ، والنصف الآخر لم يصبح معتما تماماً بعد ، ولون الهواء أزرق كما لو كان النهار سيبزغ . لكن الأنوار أضيئت داخل المنازل ، وتنبعث منها أصوات هادئة، أصوات أناس متعبين، وبكاء خافت لرضيع فى مهده، إن الشعوب لاتدرك الخطر فى الحقيقة ، فها نحن على طوف فى وسط البحر، وهم مستمرون فى التفرغ لمشاغلهم الصغيرة كما لو كانوا على الأرض الصلبة للأبد ، يهذرون مثل موسى الذى كان يلعب مع الفراشات وهو يهبط النيل فى قفته المصنوعة من الخوص ، وكان محظوظا جدا لدرجة أن التماسيح لم تلحظه. تقع المدرسة فى آخر الشارع الضيق ، المحاط بالجدران ، لو لم يتم تنبيه جواكيم ساسا لاعتبرها أحد المنازل ، ففى الليل تكون كلها رمادية ، وبعضها يكون رماديا فى النهار أيضاً ، وأثناء ذلك هبط الليل ، وبعد ذلك بقليل ستتم إضاءة أعمدة النور .

وتصديقا لحديث الفتاة المحبة والصبى ذى المشاعر الأكثر تحفظا، كان هناك ضوء من النافذة ، وتوجه إليه جواكيم ساسا ليطرق الباب، أخيراً لم تعد الزرازير تحدث ضوضاء كثيرة ، فهم يستعدون لليل ، وما يصاحب ذلك من شجار معتاد ، ونزاعات الجوار ، لكن سرعان ما يهدأون تحت أوراق أشجار التين الواسعة حيث استقروا ، غير مرئيين وسودا وسط الظلام ، بعد ذلك سيرتفع القمر ، وعندئذ سيستيقظ بعض منهم ، بعد أن تسهم الأصابع البيضاء ، ثم سرعان ما سينامون من جديد ، دون أن يتصوروا أنه سيتعين عليهم السفر بعيدا ، من داخل البيت ، سأل صوت رجل، «من بالباب»، ورد جواكيم ساسا ، «من فضلك»، كلمات سحرية، تعفى من تحديد الهوية بشكل أكثر صراحة ، تزخر اللغة بألغاز مماثلة ، وبألغاز أخرى أيضاً أكثر تعقيداً . فتحت النافذة ، يصعب من ذلك الوضع تمييز وجه ساكن هذا المنزل ، فهو يقع فى اتجاه معاكس للضوء ، ولكن على النقيض ، كان وجه جواكيم ساسا ظاهرا بالكامل ، لقد تعرفنا من قبل على بعض قسمات وجهه، وكان يتعين توقع الباقى، شعر كستنائى داكن وناعم ، ووجنات نحيلة ، وأنف عادى، وشفاه تبدو ممتلئة عندما يتكلم، «معذرة ، لإزعاجك فى هذه الساعة»، «الوقت ليس متأخرا»، قال المدرس ، ولكنه اضطر لرفع الصوت لأن الزرازير، التى استيقظت مذعورة، بدأت جوقة احتجاج أو رعب، «أريد أن أتحدث معك بخصوص موضوعهم بالتحديد»، «بخصوص ماذا» ، «الزرازير»، «ياه» ، «وبخصوص حجر قذفت به فى البحر ، وكان ثقيلاً جداً بالنسبة لى» ، «ماأسمك» ، «جواكيم ساسا»، «أنت الرجل الذى يتكلمون عنه فى التليفزيون والإذاعة» ، «نعم إنه أنا» ، «ادخل».

بعد التحدث عن الأحجار والزرازير، هاهما يعلقان على ما اتخذ من قرارات .
إنهما فى بستان الفاكهة خلف البيت، يجلس خوسيه أنايسو على عتبة الباب ، أما جواكيم ساسا، فكان له كضيف الحق فى مقعد ، وبما أن خوسيه انايسو يدير ظهره للمطبخ ، الذى يأتى منه الضوء ، فإننا لانزال نجهل تقاطيع وجهه ، وكأن هذا الرجل يختبىء ، مع أن الأمر ليس كذلك ، فكم مرة نظهر كما نحن دون أن يكون ذلك يستحق العناء لأنه لايوجد أحد ليرانا - صب خوسيه انايسو مزيدا من النبيذ الأبيض فى الأكواب ، نبيذ يشربونه دافئا كما يوصى بذلك الخبراء ، بدون حيل وزخارف التبريد الحديثة ، أما فى الحالة التى تهمنا ، فان ذلك يرجع فقط إلى عدم وجود ثلاجة فى منزل المدرس ، قال جواكيم ساسا ، «بالنسبة لى هذا يكفى ، لقد تجاوزت جرعتى بالنبيذ الأحمر الذى تناولته مع العشاء» ، «هذا الكوب للاحتفال بالرحلة» ، اجاب خوسيه انايسو وهو يبتسم ، وظهرت أسنانه ناصعة البياض، وهو حدث فذ، «أن اذهب أنا للبحث عن بيدرو اورس، هذا أمر يمكن فهمه ، فانا فى اجازة ، بدون التزامات مهنية»، «كذلك أنا، ولفترة أطول أيضاً ، حتى دخول المدارس ، أى حتى بداية اكتوبر» ، «أنا وحيد» ، «وأنا أيضاً» ، «لم يكن فى نيتى أن آتى إلى هنا لكى اطلب منك مرافقتى ، لم اكن حتى اعرفك» ، «أنا الذى أطلب منك ذلك ، بشرط ان تقبل منحى مكاناً فى سيارتك ، على اية حال ، الأمر منته، فات الأوان الآن ، ولا يمكن التراجع» ، «تخيل قليلا الهياج الشعبى عند اكتشاف اختفائك ، انهم قادرون على ابلاغ الشرطة فى غضون ساعة من ذلك ، وسيعتقدون أنك ميت ومدفون ، أو متدل من فرع شجرة أو غارق فى النهر ، وبالطبع سيشتبهون فىّ أنا ، ذلك المجهول ذى القوى الغامضة، القادم من لامكان ، والذى طرح كما كبيراً من الأسئلة قبل أن يختفى ، كل شىء مدون فى الكتب» ، «سأترك رسالة قصيرة على باب قاعة الابرشية أقول فيها أننى

اضطررت للرحيل فجأة إلي لشبونة ، واتمنى الا تطرأ لأحد فكرة الذهاب إلى المحطة للسؤال إذا كان أحد قد رآنى وأنا اشترى تذكرة».

صمتا للحظات ، ثم نهض خوسيه انايسو ، وخطا بضع خطوات فى اتجاه شجرة التين وهو يشرب باقى النبيذ ، وكانت الزرازير تواصل الزقزقة والهياج ، فلقد ايقظ حديث الرجلين أكثر من واحد منهم ، أما الآخرون فربما كانوا يحلمون بصوت عال ، بذلك الكابوس المخيف الخاص بنوعهم ، والذى يتلخص فى الاحساس بالطيران فى جو يتحول بغتة إلى سائل مثل الماء الذى يبدو أنه يعوق حركة اصطفاق الطائر المفقود، الذى انفصل عن باقى السرب ، يحدث الشىء نفسه للبشر ، عندما يريدون الجرى فى أحلامهم ، ولا يستطيعون . قال خوسيه انايسو، «سنرحل قبل الشروق بساعة ، أما الآن ، فلنذهب لننام»، قام جواكيم ساسا من مقعده ، «سأبيت فى السيارة ، وعند الفجر سأحضر لكى آخذك» ، «لماذا لاتنام هنا، لا يوجد سوى سرير واحد لكنه واسع ، يمكن لاثنين النوم عليه بدون مشاكل». كانت السماء عالية ، منقطة كلها بالنجوم التى بدت قريبة وكأنها معلقة ، تراب زجاجى، غلالة لبن ثلجى، وكانت التجمعات الكبيرة للنجوم تلمع بشكل مثير ، راعى الشاء، والدب الأكبر والدب الأصغر ، والثريا، وكان يسقط على وجهى الرجلين المرفوعين نحو السماء مطر ناعم ، من بلورات الضوء الصغيرة، التى تعلق بالجلد وتمتزج بالشعر ، لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تحدث فيها هذه الظاهرة ، لكن فجأة ، وفى اللحظة نفسها ، توقف كل همس الليل، وبزغ أول ضياء للقمر فوق الأشجار ، سيبهت الآن ضوء النجوم . عندئذ قال جواكيم ساسا، «فى ليلة كهذه ، لو أعرتنى غطاء ، يمكننى النوم تحت شجرة التين» ، «سألازمك»، وكدسا كمية كبيرة من التبن تكفى لسريرين وقاما بعد ذلك

بترتيبها ، كما هو الحال بالنسبة للماشية ، ثم فردا فوق التبن غطاء ، وتمددا عليه، وتغطيا بطرفه الآخر. وكانت الزرازير تراقب هذين الشكلين ، من خلال أوراق الأشجار ، «من هو ذلك، القابع تحت الشجرة»، وكانوا جميعا مستيقظين على الفروع ، مع مثل هذا الضوء القمرى لن يأتى النوم سريعاً. ويرتفع القمر، يرتفع سريعاً جداً ، وتحولت قمة شجرة التين المنخفضة المستديرة إلى متاهة من اللونين الاسود والأبيض، وقال خوسيه انايسو، «هذه الظلال لم تعد كما كانت» ، رد جواكيم ساسا معلقا، «لم تتحرك شبه الجزيرة سوى بضعة أمتار فقط، وتأثير ذلك لايمكن أن يكون كبيراً»، وكان سعيداً أنه فهم التلميح، «لقد تحركت وبدرجة كافية لكى تصبح الظلال مختلفة ، فهناك فروع قد لمسها ضوء القمر لأول مرة فى مثل هذه الساعة». مرت بضع دقائق، وبدأت الزرازير تهدأ عندما همس خوسيه انايسو بصوت متكسر من تأثير النوم ، وكل كلمة تنتظر الكلمة التالية وتبحث عنها ، «ذات يوم ، منذ وقت طويل ، اهدى دون خوان الثانى، ملكنا الملقب بالكامل ، وفى رأيى أنه كامل الظرف، أحد نبلاء جزيرة خيالية ، قل لى إذا كنت تعرف بلدا آخر يمكن أن يحدث فيه شيء مماثل» ، «والنبيل ، ماذا فعل النبيل»، «ركب البحر بحثا عن جزيرته» ، «اود أن يقول لى أحد كيف يمكن العثور على جزيرة خيالية» ، «لايصل علمى إلى ذلك الحد، لكن تلك الجزيرة الأخرى ، الايبيرية ، التى كانت شبه جزيرة ولم تعد كذلك، أراها وكأنها ، وللبقاء فى المقام نفسه ، قررت هى أيضاً أن تركب البحر للذهاب بحثا عن بشر خياليين» ، «الجملة جميلة ، شاعرية» ، «حسن ، لتعلم اننى لم أكتب بيت شعر واحد فى حياتى» ، «لايهم ، عندما يصبح كل البشر شعراء، سوف يكفون عن قرض الشعر» ، «هذه الجملة ليست سيئة أيضاً»، «لقد أسرفنا فى الشراب» ، «ذلك رأيى أنا أيضاً . سكون وطمأنينة وعذوبة لانهائية ،

عندئذ همس جواكيم ساسا ، كما لو كان يحلم، «ماذا ستفعل الزرازير غدا ، هل ستبقى أم ستأتي معنا»، أجاب خوسيه أنايسو، «سنعلم ذلك عند الرحيل ، إنه الشيء نفسه دائماً»، وتاه القمر بين فروع شجرة التين ، وسيحتاج إلى أن يمضى الليل بطوله لكى يجد طريقه.

لم يكن الصبح قد انبلج بعد عندما غادر جواكيم ساسا فراشه لكى يحضر سيارته التى ترقد تحت اشجار الصنار فى الساحة اسفل النافورة. ولكى لايلمحها أحد محبى الاستيقاظ المبكر ، وهم كثيرون فى الريف ، خططا ان يلتقيا عند مخرج القرية ، على مسافة كافية من آخر بيوتها . سيسلك خوسيه انايسو ، ويحرص شديد ، طرقا غير مباشرة ، مختصرة ووعرة ، أما جواكيم ساسا فسوف يسير فى الطريق العادى ، وإن كان بحرص أيضاً ، فهو ينتمى إلى ذلك النوع من المسافرين الذين لا يتراجعون أمام شيء ، لقد رحل مبكراً ليستمتع بنداوة الفجر ولكى يستفيد من نهاره ، يتشابه جميع السياح الصباحيين، فهم غامضون وقلقون، يعانون من قصر الوجود الذى لادواء له ، ولذلك ينامون فى وقت متأخر ويستيقظون مبكراً، وهو مالا يحسن صحتهم فى شيء وإن كان يطيل عمرهم . محرك السيارة هادىء ، والتشغيل من حرير ، بحيث لم يتمكن من سماعه إلا بعض الذين يعانون من الأرق وظنوا انهم يحلمون ، وسرعان مالم يعد يسمع فى الفجر الهادىء سوى صوت مضخة الماء الرتيب . خرج جواكيم ساسا من القرية ، وتجاوز أول منعطف، والثانى ، ثم أوقف السيارة وظل ينتظر.

بدأت تظهر الجذوع فى السمك الفضى لبستان الزيتون ، وكان هناك فى الهواء هالة رطبة وملتبسة كما لو كان الصباح قد خرج من بئر ماء ضبابى، ثم

غنى عصفور ، أم أنه خداع سمعى لأن حتى القبرات ذاتها لا تغرد مبكراً لهذه الدرجة. كان الوقت يمر وفاجأ جواكيم ساسا نفسه وهو يهمس، «لوحدث ان غير رأيه ولن يحضر ، وإن كان لايبدو عليه أنه من هذا النوع ، ربما اضطر إلى القيام بلغة أكبر مما هو مقدر ، بالتأكيد هذا ماحدث ، ثم ان هناك الحقيبة ، انها ثقيلة ، يالى من طائش ، كان يمكن أن احملها فى السيارة». عندئذ ، ظهر خوسيه انايسو من بين أشجار الزيتون ، محاطا بالزرازير، وكان هناك هيجان من الأجنحة ، ومن الصرخات الثاقبة والغرغرة المستمرة ، الذى قال مائتا طائر كان ضعيفا فى الحساب، فان ذلك أقرب لسرب من النحل الكبير الاسود، وتذكر جواكيم ساسا فجأة ، فيلم هتشكوك «الطيور» ، تلك الكائنات القاتلة . اقترب خوسيه انايسو من السيارة باكليله من الكائنات المجنحة ، وكان يتقدم ضاحكاً ، وربما لذلك يبدو اصغر سنا من جواكيم ساسا ، فمن المعروف أن الصرامة تضفى سنا أكبر ، وكما نعرف منذ الليلة الماضية ، فان اسنانه ناصعة البياض ، وليس هناك سمة خاصة أخرى تجدر الاشارة اليها، غير أنه يوجد انسجام فى هذا الوجه النحيف ، فالمرء ليس ملزما أن يكون جميلا. وضع حقيبته فى السيارة ، وجلس إلى جوار جواكيم ساسا ، وقبل أن يغلق الباب ألقى نظرة فى الخارج للنظر إلى الزرازير، «هيا، كنت تريد معرفة ماذا سيفعلون ، حسن هاهم»، «لو كانت معنا بندقية ، لتمكنا من طردهم ، خرطوشتان من الرصاص الصغير ، وكانت ستقع كارثة» ، «هل انت صياد» ، «لا ، اننى اتكلم عن ذلك بناء على سماعى اياه» ، «ليس لدينا بندقية» ، «ربما هناك حل آخر، سأنطلق بكامل سرعتى ولن يتمكنوا من اللحاق بنا، فأجنحتهم صغيرة ، ونفسهم قصير، «فلتحاول» . غيرت السيارة من سرعتها ، وسارت فى خط مستقيم فى سرعة

متزايدة، ثم سرعان ماتركت الزرازير وراءها مستفيدة من الأرض المسطحة . كان الفجر قد بدأ يصطبغ باللون الوردى الفاتح، ثم الوردى الفاقع، الوان ساقطة من السماء ، وأصبح الهواء أزرق، اننا نقول الهواء ، وليس السماء ، كما امكن ملاحظة ذلك بالأمس ، عند الغروب ، ان تلك الساعات تتشابه، واحدة تبدأ والأخرى تختم . أطفأ جواكيم ساسا الكشافات ، وقلل السرعة ، إنه يعرف ان سيارته ليست مؤهلة للفروسية، إذ تنقصها السلالة الأصيلة ، فضلا عن انها لم تعد بعد شابة ، فإن وداعة المحرك تلك ليست سوى زهد فلسفى، ليس أكثر، «وهكذا ، انتهت الزرازير»، هتف خوسيه أنايسو ، لكن كان هناك حزن فى صوته.

وبعد ذلك بساعتين ، توقفا فى النتيجو لتناول افطار خفيف ، قهوة باللبن ، وبسكوت بالقرفة ، ثم عادا إلى السيارة، وهما يناقشان دائماً المشكلات نفسها، «الأسوأ ليس أن يمنعونى من دخول إسبانيا وإنما أن يحتجزونى» ، «لست متهما بأى جريمة»، «سيخترعون مبررا ، وسيحتجزوننى للقيام باجراءات فحص وتحقق»، «لاتقلق ، من هنا إلى أن نصل للحدود سنجد طريقة للعبور» ، ذلك هو حوارهما الذى لا يضيف شيئاً لذكاء التاريخ ، لكن تم سرده هنا ، لنعلمكم ان جواكيم ساسا وخوسيه انايسو قد رفعا الكلفة بينهما من الآن فصاعداً ، لابد أنهما قررا ذلك فى الطريق ، قال احدهما ، «لو رفعنا الكلفة بيننا» ، اجاب الآخر، «لقد كنت أفكر فى ذلك بالتحديد»، كان جواكيم ساسا يفتح باب السيارة عندما ظهرت الزرازير من جديد، نفس السحابة الكبيرة التى كانت تشبه زوبعة اسراب النحل أكثر من أى وقت مضى ، وكانوا يحدثون طنينا مصما ، لقد كان واضحا أنهم ساخطون ، وفى الأسفل، كان الناس يتوقفون وينظرون إلى السماء ، وأكد

احدهم، «لم أشاهد فى حياتى كل هذا العدد من الطيور مجتمعا» ، وحسب مايبدو من عمر الشخص ، كان لابد ألا تكون قد فاتته هذه التجربة وتجارب أخرى أيضاً، وأضاف ، «يوجد أكثر من ألف»، وكان ذلك صحيحا، كانوا على الأقل ألفا ومائتين وخمسين طائرا تم استدعاؤهم من أجل المناسبة ، قال جواكيم ساسا «لقد لحقوا بنا فى نهاية الأمر، سنعطيهم صدمة أخرى وننتهى منهم مرة واحدة ونهائية، كان خوسيه انايسو ينظر إلى الزرازير المنتصرين الذين يحلقون فى دوائر واسعة، كان يراقبهم بانتباه وتركيز، «لنسير ببطء ، بدءاً من الآن سنسير ببطء» ، «لماذا» «لست ادرى، هاجس، لسبب ما لاتريد هذه الزرازير أن تتركنا» ، «لاتريد أن تتركك أنت»، «لايهم، هل يمكننى أن اطلب منك أن تسير ببطء، من يدرى ماسيحدث».

كان يمكن أن يشكل اجتياز الالنتيجو قصة كاملة ، ربما أكثر دقة من تلك التى رويت سابقا ، فلقد تحول إلى جمر تحت سماء بيضاء أكثر منها زرقاء وسط بقايا الحصاد التى تومض، مع بضعة أشجار بلوط خضراء ترتفع هنا وهناك على الأرض الجرداء ، وحزم تبن جاهزة للجمع ، وسط صرير زيز الحصاد المستمر . صحيح أنه لايظهر ظل آدمى، على امتداد كيلو مترات وكيلومترات من الطريق، إلا أنه قد تم حصاد القمح ، ودرس الحب ، وكلها أعمال تتطلب رجالا ونساء ، غير اننا هذه المرة لن نعلم شيئاً عن كليهما ، حيث ان الحكمة الجديدة على حق وهى الحكمة القائلة بأن «من روى قصة يعفى من رواية قصة أخرى»، بالرغم من أن القيظ كان قويا وخانقا ، فان السيارة لم تكن فى عجلة من أمرها ، وتمنح نفسها متعة التوقف فى الأركان الظليلة ، ويخرج جواكيم ساسا وخوسيه انايسو من السيارة ويتفحصان الافق، وينتظران الوقت اللازم ، وأخيراً، ها هى تصل ،

السحابة الوحيدة فى السماء، لو ان الطيور تستطيع الطيران فى خط مستقيم ، لما كانت لهذه الوقفات ضرورة ، لكن عددهم كبير جداً وكذلك عدد الارادات ، حتى وإن تجمعت هذه الإرادات غريزيا ، فلا يمكن تفادى التشتت والشرود، فقد يرغب بعضعم فى أن يحط ، فى حين يريد البعض الآخر ان يشرب ماء أو يتذوق فاكهة، وطالما لاتغلب على الجميع نفس الرغبة ، فان نظام المجموعة يختل ويصبح خط السير عشوائيا . وفى الطريق، لمح المسافران بالاضافة إلى الحداءات ، وهى من الصيادين المتفردين ، وإلى طيور أخرى تنتمى إلى جماعات أصغر، بعض الطيور التى تنتمى إلى النوع الذى يعنينا لكنهم لم يرغبوا فى الانضمام إلى السرب ، ربما لأن لونهم ليس اسود وانما منقط، أو أن مصيرهم فى الدنيا كان مختلفا . وكان جواكيم ساسا وخوسيه انايسو يركبان السيارة التى تستأنف الطريق ، وهكذا، تسير وتتوقف ، وتتوقف وتسير ، إلى ان وصلا إلى الحدود . وعندئذ قال جواكيم ساسا، «والآن، إذا لم يتركونى اعبر» ، «تقدم ، ربما ان الزرازير».

وتماما كما يحدث فى الأساطير والقصص الخيالية وروايات السحر والفرسان الرحالة أو فى تلك المغامرات الهوميرية (*) التى لاتقل روعة والتى يحدث خلالها كل شىء بشكل غير طبيعى وعلى نقيض مايجرى عادة ، وذلك بفضل خصب الشجرة الاسطورية أو جنون الآلهة وقوى أخرى اضافية ، لقد شوهد جواكيم ساسا وخوسيه انايسو وهما يتوقفان أمام كشك رجل الشرطة ، لنقل عند المركز الحدودى لكى نستخدم التعبير الفنى ، ويعلم الله بأى جزع كانا يقدمان بطاقتى هويتهما، عندما انقضت الزرازير فجأة ، مثل اعصار عمود الماء (**) العنيف،

★ نسبة إلى الشاعر هوميروس «المترجم»

★ إعصار يتخذ شكل كتلة هواء مدومة، ويبدو أشبه بعمود مائى صلب ينطح السحاب.

عاصفة لاتقاوم ، نيزك داكن ، واجسامهم مثل سهام صارخة وذات صفير ، وعندما بلغوا ارتفاع أول المبانى ، انتشروا فى جميع الاتجاهات ، اشبه مايكونون بزوبعة أصابها الجنون، وركض رجال الشرطة ، خائفين ، ليحتموا ، وهم يلوحون بإذرعتهم، والنتيجة، خرج جواكيم ساسا من السيارة لاستعادة وثائقه التى تركتها السلطات ، ولم يلحظ أحد هذه المخالفة الجمركية ، ما أكثر ماتم عبور الحدود خفية، غير ان ذلك لم يحدث ابدا بتلك الطريقة، وصفق هتشكوك الجالس في المقاعد الأمامية ، وهو تصفيق خبير فى هذا المجال . وسرعان ما تأكد تفوق الأسلوب ، وهو مايثبت ان الشرطة الاسبانية ، مثلها مثل الشرطة البرتغالية، تقدر هذا النوع من علم الطيور العام والخاص بالزرزور الأسود. عبر المسافران الحدود دون اية صعوبة ، لكن عشرات الطيور لقت حتفها ، ففى لحظة عبور جمرك الجيران ، وقعت عملية اطلاق نار جماعية ، وكان فى مقدور أى شخص اصابة الهدف حتى ولو كان اعمى، إذ يكفى اطلاق النار فى الكتلة ، وكانت مذبحة عديمة الجدوى، لأن ، كما يعلم الجميع ، لا أحد يبحث عن چواكيم ساسا فى اسبانيا. ولقد تصرف هؤلاء الحرس الاندلسيون بشكل سيء فعلا ، فالزرازير برتغالية ، ولدت ونشأت فى ريباتجو ، وجاءت لتلقى حتفها بعيدا عن موطنها ، وبالتالى كان يتعين على هؤلاء الحراس قساة القلوب ان تكون لديهم على الأقل الكياسة الكافية لدعوة زملائهم فى الألنتيجو إلى مشاركتهم طعامهم المقلى ، فى مناخ من الضيافة السليمة واخوة السلاح.

أصبح المسافران من الجانب الآخر من الحدود، فى طريقهما لغرناطة وضواحيها ، مع ظلتهم من الطيور المرافقة ، ولابد ان يسألا عند تقاطع الطرق عن سبيلهما ، لأن بلدة اورس ليست مبينة على الخريطة التى ترشدهما ، وهو مايمثل

نقصا كبيرا في الوعى من جانب الرسامين الطوبوغرافيين ، ويمكن الرهان على أنهم لم ينسوا أن يشيروا إلى قريتهم هم ، فليعرفوا، مستقبلا ، كم يكون الأمر جارحا عن التطلع إلى خريطة ، ان يجد المرء حيزا أبيض ، فراغا ، عند البحث عن المكان الذى ولد فيه، فهكذا تثار المشكلات الخطيرة للهوية الشخصية والقومية. وتمر على الطريق سيارات فيات وبيچاز ، يتم تمييزها على الفور من أصواتها ولوحاتها، وبدت البلدات التى تعبرها السيارة وكأنها نائمة ، وهى كما يقال ، صفة خاصة لأراضى الجنوب ، حيث تقول قبائل الشمال عنهم انهم «متكاسلون»، وهو احتقار سهل ، ووقاحة طبقة لم تضطر قط إلى أن تعمل ومثل تلك الشمس على ظهرها ، لكن هناك فى الحقيقة اختلافات من عالم لآخر، فالجميع يعرفون ان البشر على كوكب المريخ لونهم اخضر ، بينما هم على الأرض من جميع الألوان ، فيما عدا هذا اللون بالذات.

لن نسمع بالطبع من أحد سكان الشمال ماسوف نسمعه الآن ، إذا اوقفنا السيارة لكى نسأل هذا الرجل الذى يتقدم نحونا راكبا حماراً، ما الذى يعتقده بخصوص انفصال شبه جزيرة ايبيريا عن أوروبا الذى يصعب تصديقه ، سوف يشد على لجام الحمار، «هوه» ، وسيجيب بصراحة قاسية ، «كل ذلك خداع» ، إن روك لوزانو يحكم على الأشياء طبقا للمظاهر حوله ، وانطلاقا من هذه المظاهر يكون لنفسه رأيه الخاص به ومن المفيد التعرف على هذا الرأى ، فهو يدعونا إلى تأمل سكينة الحقول الرعوية ، وسلام السماء ، واستقرار الاحجار، وسلاسل جبال مورينا واراسينا ، التى لم تتغير منذ مولدها، أو على الأقل منذ مولدنا، «لكن التليفزيون عرض على العالم كله جبال البرانس مشقوقة مثل بطيخة»، اجبنا مدللين على حجتنا ، ومستخدمين استعارة فى متناول ذكائه الريفى، لكن روك

لوزانو رد دون حيرة أو اضطراب قائلاً ، «أنا لا أثق فى التليفزيون ، ولن أصدق ، طالما أننى لم أشاهد ذلك بعينى هاتين، اللتين ستأكلهما الأرض يوما ما» ، «ماذا ستفعل ، إذن» ، «لقد تركت اسرتى تتفرغ لشئونها، وسأذهب لأرى إذا كان ذلك حقيقيا» ، «بعينيك اللتين ستأكلهما الأرض» ، «بعينى اللتين لم تأكلهما الأرض بعد» ، «وتنوى الوصول إلي هناك راكبا على ظهر هذا الحمار» ، «عندما لن يستطيع حملى سنذهب سويا على الاقدام» ، «كيف يتسمى حمارك» ، «الحمار لايتسمى وانما تتم تسميته» ، «اذن ، كيف تسميه» ، «بلاتيرو» ، «وانت تسافر» ، «أناوبلاتيرو» ، «اتعرف اين تقع بلدة اورس» ، «لاياسيدى، لا أعرف» ، «يبدو انها بعد غرناطة بقليل» ، «اوه ، اذن أمامكما طريق طويل ، والآن إلى اللقاء ايها السيدان البرتغاليان، فأنا سفرى اطول بكثير وليس لدى سوى حمار» ، «عندما ستصل هناك ، ربما لن ترى أوروبا» ، «إذا لم ارها ، فذلك لأنها لم توجد أبداً»، ان روك لوزانو على حق تماماً فى نهاية المطاف، إذ يتعين لكى توجد الأشياء ان يتوافر شرطان ، ان يراها الانسان وان يعطيها اسما.

بات جواكيم ساسا وخوسيه انايسو فى بلدة اراسينا ، مكررين مافعله ، ملكنا، دون الفونسو أو ترسيرو ، عندما استولى عليها من الموره، وإن لم يدم ذلك طويلا ، عندئذ كانت اسحق عهود التاريخ ، تفرقت الزرازير فى الأشجار ، كان عددهم كبيرا جداً بحيث يصعب ان يتجمعوا فى سرب ، كما يحبون . وفى الفندق، رقد كل على سريره، وعلق جواكيم ساسا وخوسيه انايسو على الاحاديث والصور المنذرة بالخطر التى شاهداها وسمعاها، فى التليفزيون، «ان ڤينيسيا مهددة ، وهو أمر واضح للعيان، عند رؤية ساحة سان - مارك مغمورة بالرغم من ان الفترة ليست فترة فيضان ، فهى عبارة عن طبقة سائلة وملساء تنعكس فيها

أدق التفاصيل ، برج اجراس الكاتدرائية وواجهتها». وكان المذيع يقول بصوته الخفيض الرصين ، «كلما ابتعدت شبه الجزيرة الايبيرية ، اشتد التأثير المدمر لحركة المد والجزر ، وبالتالى فمن المتوقع حدوث اضرار كبيرة فى كل حوض البحر المتوسط ، مهد الحضارات ، يجب انقاذ ڤينيسيا، انى أوجه نداء للانسانية ، استغنوا عن صناعة قنبلة ذرية واحدة ، أو غواصة نووية واحدة ، إذا كان لايزال هناك وقت . كان جواكيم ساسا ، مثل روك لوزانو ، لم يشاهد قط درة الادرياتيكى ، وإن كان خوسيه انايسو يمكنه ضمان وجودها ، فهو بالطبع لم يطلق عليها اسمها ولا كنيتها ، ولكنه رآها بعينيه الحيتين ولمسها بيديه الحيتين ، وقال ، «يالها من كارثة لو فقدت ڤينيسيا»، وكان تأثير هذه الكلمات القلقة على جواكيم ساسا أكبر من تأثير هيجان الماء فى القنوات، وصخب أمواج البحر، والمد الصاعد إلى عتبات القصور، والموانىء التى غمرتها المياه ، هذا الاحساس ، الذى لا دواء له، لرؤية مدينة كاملة تغرق ، اطلنطس فريدة ، والكاتدرائية المغمورة ، وقد انتهت اللحظات ، وعيون الماء العمياء تقرع الجرس بمطارقها البرونزية ، انتظارا إلى أن تقوم الطحالب وحلزونيات البحر بشل حركة التروس ، واصداء سائلة ، والمسيح داعيا للكاتدرائية يجرى حواراً لاهوتيا مع ارباب البحر الثانويين ، نبتون الرومانى وبوزيدون الاغريقى، وعادت ڤينوس وامفيتريت طواعية إلى المياه التى خرجت منها ، ان رب المسيحيين هو فقط الذى ليست له زوجة . همس جواكيم ساسا، «من يدرى، قد اكون مسئولا عن ذلك» ، «لاتبالغ فى تقدير نفسك لدرجة ان تتصور انك مسئول عن كل شيء»، «اننى اتحدث عن ڤينيسيا ، وعن احتمال فقدان ڤينيسيا»، «إذا فقدت ڤينيسيا ، فإن الجميع مسئولون عن ذلك ، والذنب قديم، فلقد اضاعها الاهمال والميل إلى الربح»، «اننى لا اتكلم عن تلك الأسباب

التى هى سبب ضياع كل الناس ، انما اقصد ما فعلته ، لقد القيت بحجر فى البحر ويعتقد البعض ان لهذا السبب انفصلت شبه الجزيرة عن اوروبا» ، «إذا رزقت ذات يوم بابن ، فانه سيموت لانك ولدت ولن يبرئك أحد من هذا الجرم ، ان الايدى التى تصنع وتنسج هى ذاتها التى تحل وتفك النسيج ، ويولد الزيف من الحقيقة ، كما تولد الحقيقة من الزيف» ، «ياله من عزاء هزيل بالنسبة لمكروب»، «ياصديقى المسكين ، لا يوجد عزاء ، فالانسان حيوان غير قابل للتعزية».

ربما يكون خوسيه انايسو الذى نطق هذه الحكمة محقا فيما قاله ، قد يكون الانسان هو هذا الحيوان الذى لايستطيع أو لا يعرف أو لا يريد أن يتعزى ، لكن بعض أفعاله ، التى لا معنى لها سوى ان تبدو لامعنى لها ، تسمح بتغذية الأمل فى أن يأتى رجل ذات يوم ليبكى على كتف رجل آخر ، بعد فوات الأوان، وربما بعد الا يكون هناك شىء يمكن فعله . لقد ذكر فى نشرة أخبار التليفزيون احد هذه الأفعال بالذات ، وغدا ستكتب الصحف التفاصيل مدعمة بشهادات من مؤرخين ونقاد وشعراء ، عن عملية انزال سرى، على أحد الشواطىء الفرنسية القريبة من بلدة كوليور ، لمجموعة فدائية من المدنيين ومحبى الأدب الاسبان ، الذين هاجموا في قلب الليل ، دون خشية من صرخة البومة الصمعاء ولا من اشاعات اجسام الوسطاء المتصلين بالأرواح ، المقبرة التى دفن فيها منذ سنوات طويلة انطونيو ماشادو . واسرع رجال الشرطة ، بعد أن قام بإخبارهم أحد ساهرىْ الليل المتجولين ، لملاحقة اللصوص لكنهم اخفقوا فى القبض عليهم ، لقد قذف بالكيس الذى يحتوى على الرفات فى قارب كان ينتظر على الشاطىء ، ومحركه يعمل مصدرا صوته الآلى ، وفى خمس دقائق هرب القرصان ، بينما كان الجنود على الرمل يطلقون النار فِى الهواء ، ليس لأن هناك نقصا فى عظام

الشعراء لديهم ، لكن لانهم كانوا فى حاجة إلى اخماد غضبهم وسخطهم . وفى محاولة للتقليل من قيمة هذا الانتصار ، ذهب عمدة كوليور إلى حد التلميح ، فى تصريح لوكالة الانباء الفرنسية، بأن لا أحد يستطيع أن يضمن بعد كل هذه السنوات ان الرفات هي رفات انطونيو ماشادو ، ومن الأفضل عدم التحقق من عدد السنوات التى مرت ، وان التفسير الوحيد لأن تكون هذه العظام لاتزال هناك هو سهو مق الادارة وإن كان حدوث ذلك غير محتمل ، وذلك بالرغم من الاهتمام الخاص الذى تتعامل به عادة مع عظام الشعراء ..

ومن جانبه ، عبر الصحفى عن رأيه ، وهو رجل ذكى وقليل الارتياب حتى بدا وكأنه ليس فرنسيا ، حيث اضاف أنه يعتقد أن عبادة الرفات لاتحتاج سوى إلى العثور على الشيء المناسب ، ولا يهم اطلاقا الصدق والحقيقة ، أما فيما يتعلق بظاهر الحق ، فان الأمر لايتطلب أكثر من تشابه لطيف ، ويكفى التفكير فى كاتدرائية ڤالنس حيث كانت تثار مشاعر الايمان حتى وقت قريب بفضل الصندوق الثرى الذى يضم رفات اجساد القديسين والذخائر الدينية التى تتكون من الكأس التى استخدمها المسيح في العشاء الأخير الذى تناوله مع حوارييه قبل صلبه ، ومن القميص الذى كان يرتديه وهو طفل ، وبضع قطرات من لبن السيدة العذراء وبضع شعيرات شقراء ترجع للسيدة العذراء والمشط الذى كانت تستخدمه ، واجزاء من الصليب الحقيقى ، وقطعة يتعذر تحديدها من أحد القديسين الابرياء ، ودرهمين من الدراهم الاثنين والثلاثين الشهيرة ، نقود فى النهاية ، التى ترك يهوذا نفسه يشترى بها دون أن يكون مذنبا ، وللانتهاء احدى اسنان القديس كريستوف طولها أربعة أصابع وعرضها ثلاثة أصابع، مقاييس شديدة الافراط بلا ريب لكنها لن تدهش سوى من يجهلون الطبيعة العملاقة للقديس . سأل جواكيم

ساسا الذى لم يكن قد قرأ شيئاً للشاعر، «والآن، أين سيدفن الاسبان الشاعر ماشادو»، اجاب خوسيه انايسو، «إذا كان، بالرغم من كل فوضى العالم وصروف الدهر ، لكل شيء مكان وكل مكان يطالب بالشيء الذى ينتمي اليه ، فان أنطونيو ماشادو سيدفن في مكان ما فى حقول صوريا تحت شجرة بلوط خضراء ، بدون صليب ولا شاهد قبر ، مجرد اكمة من التراب ، ستنخفض حتى تسوى بالأرض لتنتهى بالاختلاط معها» ، «ونحن، البرتغاليون، من هو الشاعر الذى يتعين علينا احضاره من فرنسا، إذا كان يوجد أحد هناك» ، « على حد معرفتى ، لا ارى سوى ماريو دى ساكرنيرو ، لكن لا جدوى من المحاولة مع ذلك الشاعر ، أولاً لأنه بكل تأكيد لم يكن ليرغب فى العودة ، ثم لأن مقابر باريس تتم حراستها بشكل جيد ، وأخيراً لأنه مات منذ وقت طويل جداً ولن تقترف إدارة العاصمة اخطاء بلدية اقليمية ، التى بالاضافة إلى ذلك لها عذرها لأنها بحر متوسطية» ، «ثم ما فائدة نزعه من مقبرة لاعادته إلى أخرى ، بما أنه ليس من حق أحد فى البرتغال دفن الموتى حيث يريد ، فى الهواء الطلق» ، «ألن تكون عظامه أكثر اطمئنانا لو دفنت فى ظل شجرة زيتون فى منتزه ادواردو السابع»، «هل لا يزال هناك أشجار زيتون فى منتزه ادواردو السابع» ، «سؤال ممتاز، لكن لا يسعنى الاجابة عليك، والآن لننام، لابد أن نرحل غدا بحثا عن بيدرو اورس ، رجل الأرض التى تهتز» . أطفآ النور ، وانتظرا النوم وعيونهما مفتوحة، ولكن قبل أن يصل النوم سأل جواكيم ساسا من جديد، «وفينيسيا، ما الذى سيحدث لها» ، «لتعلم ان اسهل الامور الصعبة سيكون انقاذ فينيسيا ، إذ يكفى سد البحيرة الشاطئية، وربط كل الجزر معا بحيث يتم منع البحر من الدخول، وإذا كان الإيطاليون غير قادرين وحدهم على الأخذ بهذه النصيحة ، فليطلبوا العون من الهولنديين ، وقبل أن يفرك

ابليس عينه سيكونون قد جففوا فينيسيا»، «يجب علينا أن نساعدهم، إن علينا مسئوليات» ، «اننا الآن لم نعد أوروبيين» ، غير ان ذلك ليس صحيحا تماماً ، قال الصوت المجهول ، «انتما لاتزالان حالياً فى المياه الاقليمية».

فى الصباح ، وبينما كانا يسددان حسابهما ، جاء المدير ليبثهما متاعبه، «الفندق خال تقريباً ونحن فى ذروة الموسم ، إنه شىء لا يغتفر»، لم يلحظ جواكيم ساسا وخوسيه انايسو غياب الزبائن لانشغالهما كليا بهمومهما الخاصة، «والكهوف، لا أحد يأتى لمشاهدة الكهوف» ، كرر الفندقى مفزوعا، فإن عدم قدوم أحد لمشاهدة الكهوف هو أسوأ الكوارث من وجهة نظره ، وكان هناك هياج كبير يسود الشارع ، فالشباب فى ارسينا لم يكن قد رأى من قبل هذا العدد من الزرازير مجتمعا ، ولا حتى اثناء النزهات التعليمية فى الريف ، لكن سرعان ما نفد مذاق الجدة ، فبمجرد ان بدأت السيارة البرتغالية فى التحرك نحو اشبيلية طارت الزرازير ، مثل طائر واحد ، وقامت بدورتين للوداع أو الشكر قبل ان تختفى وراء قصر رهبان وجنود هيكل الرب . كان الصباح مضيئا جداً لدرجة أنه يكاد يلمس بالاصبع، ينبىء النهار أنه سيكون أقل حرارة من نهار الأمس، لكن السفر طويل . قال خوسيه أنايسو، «المسافة من هنا إلى غرناطة ، أكثر من ثلاثمائة كيلو متر وعلينا بعد ذلك البحث عن بيدور اورس ، عسى الا يكون ذلك هباء، وان نجد زجلنا»، كان عدم العثور على الرجل احتمالا لم يفكر فيه من قبل ، وسأل جواكيم ساسا بدوره، «وإذا وجدناه ، ماذا سنقول له».

وفجأة ، بدت لهما كل هذه الحوادث عبثية ، هل ذلك من تأثير اشراق النهار الجديد أم تأثير الليل ونصائحه الضارة ، ان تنشطر قارة إلى نصفين لأن شخصا ما ألقى بحجر فى البحر ، حجر يفوق وزنه قوى الذى قذفه ، لايمكن أن يكون ذلك

حقيقيا، ومع ذلك فهى حقيقة لا تقبل الجدل ، لقد ألقى الحجر وانشطرت القارة إلى نصفين ، ومواطن اسبانى يؤكد أنه يشعر بالأرض تهتز، وسرب طيور مجنونة يتبع فى كل مكان مدرسا برتغاليا ، ولا أحد يعرف ما الذى حدث أيضاً أو ماسوف يحدث عبر شبه الجزيرة تلك، «سنحدثه عن حجرك وعن زرازيرى، وسيحدثنا عن الأرض التى اهتزت أو التى لاتزال تهتز»، «وبعد ذلك»، «بعد ذلك ، إذا لم يكن هناك شيء يمكننا رؤيته أو الشعور به أو معرفته ، سنعود إلى موطننا، انت إلى عملك وأنا إلى مدرستى ، وسنتصرف وكأن كل ذلك لم يكن سوى حلم ، وبالمناسبة ، لم تقل لى بعد ماهى مهنتك» ، «اننى أعمل فى مكتب» ، «أنا أيضاً أعمل فى مكتب ، اننى مدرس» . وضحكا سويا، واعلنت السيارة ، المبادرة إلى تقديم خدماتها ، بواسطة المؤشر انها ستحتاج إلى وقود. وملآ الخزان عند أول محطة قابلاها ، لكنهما اضطرا إلى الانتظار نصف ساعة ، لقد كان طابور السيارات يمتد على طول الطريق والجميع يريدون ملء خزاناتهم . واستأنفا الطريق، يشعر جواكيم ساسا بالقلق، «إنه السباق على الوقود ، وبعد قليل سيبدأون فى اغلاق المضخات ، وماذا سيحدث بعد ذلك»، «كان يجب توقع ذلك، فالبنزين منتج حساس ، قابل للتطاير، وفى فترة الأزمة يكون هو أول سلعة يحدث فيها نقص ، لقد حدث هنا ، منذ بضع سنوات ، حظر على التزود بالوقود ، لا أعرف ان كنت تتذكر ذلك أو سمعت به، لقد عمت الفوضى حينذاك» ، «اننى ادرك الآن اننا لن نصل حتى إلى اورس» ، «لا تكن متشائما»، «لقد ولدت كذلك» .

لقد اجتازا اشبيلية دون توقف، وتأخرت الزرازير لبضع دقائق لكى يحتفلوا بتمثال الچيرالدا الذى لم يسبق لهم رؤيته من قبل. لو كانوا نصف دستة فقط لكان من الممكن ان يشكلوا اكليلا من الملائكة السود لتمثال الإيمان، لكن نظرا لأنهم آلاف من الزرازير، جرف ثلجى حقيقى، فلقد انقضوا على التمثال، وغيروه إلى شئ غير محدد المعالم، ربما لايزال هو ذاته أو نقيضه كذلك، أى شعار الكفر. لم يدم هذا التحول طويلا، «ان خوسيه انايسو يجرى الآن فى متاهة الشوارع، فلنتبعه، ايتها الأمة المجنحة». فى الطريق، شربت السيارة حيث تيسر لها ذلك، كانت بعض المحطات قد علقت لافتات كتب عليها «نفد»، لكن عمال محطات البنزين كانوا يقولون، «غدا»، انهم ينتمون إلى فصيلة المتفائلين أو تعلموا قاعدة اللباقة والكياسة. أما الزرازير فلم تعان من نقص الماء، وذلك بفضل الله الذى يهتم بالطيور أكثر من اهتمامه بالبشر، فهناك روافد نهر جاد الكيفر، والمستنقعات، والسدود، وهو أكثر مما تستطيع شربه هذه المناقير متناهية الصغر عبر كل تاريخ العالم. عندما وصلا إلى غرناطة، كان العصر قد قارب على الانتهاء، وبينما تسترد السيارة أنفاسها مرتجفة من المجهود الكبير، يذهب جواكيم ساسا وخوسيه انايسو للاستعلام، وكأنهما يحملان امرا بالحبس أو النفى وحان وقت فتحه، سنعرف الآن أين ينتظرنا القدر.

وفى مكتب السياحة سألتهم احدى الموظفات ان كانا من علماء الآثار أو الانثروبولوجيا البرتغاليين، فكونهما برتغاليين هو أمر واضح منذ الوهلة الأولى، لكن لماذا إذن علماء آثار أو انثربولوجيا، «لأن لا أحد يأتى الى اورس عموما غيرهم، فمنذ عدة سنوات تم اكتشاف اقدم «اوروبى» على مقربة من هناك، فى فنتا ميسينا» وسأل خوسيه أنايسو، «اوروبى كامل» جمجمة فقط، لكنها قديمة

جدا، لابد انها ترجع الى مابين مليون وثلاثمائة عام ومليون وأربعمائة عام «عندئذ طرح جواكيم ساسا سؤالا دقيقا، «هل من المؤكد أنه رجل»، واجابت ماريا دولور بابتسامة خبيرة «عندما يعثر على آثار آدمية قديمة لهذه الدرجة، فإنها تكون دائما لرجال، رجل كرو ـ مانيون ، ورجل نيندرثال، ورجل ستاينهايم، ورجل سوانسكومب، ورجل بكين، ورجل هيدلبرج، ورجل جاوا، فى ذلك الوقت لم تكن هناك نساء، حواء لم تكن قد خلقت بعد، فهى لم تأت الا بعد ذلك»، «انت ساخرة» لا، اننى انثروبولوجية الثقافة ومن أنصار حقوق المرأة نتيجة للسخط»، «حسن، اننا صحفيان، ونريد اجراء مقابلة صحفية مع شخص يدعى بيدور اورس، الذى شعر بان الأرض تهتز»، كيف وصل مثل هذا النبأ اليكم فى البرتغال»، «كل شىء يصل الى البرتغال ، ونحن نذهب إلى كل مكان، هذا الجزء من الحوار بالكامل لخوسيه انايسو فهو الأسرع فى الرد، يرجع ذلك بلاشك الى ضرورة التواصل مع التلاميذ. كان جواكيم ساسا قد ابتعد لينظر الى ملصقات لصور ساحة «الاسود»، وحدائق «الجزليف»، وتماثيل الملوك الكاثوليك المضجحين على شواهد قبورهم، وتساءل وهو ينظر اليهم اذا كان الامر يستحق الآن عناء مشاهدة الاشياء الحقيقية، طالما أنه شاهد صورها. لقد أضاع عليه هذا التفلسف حول الادراك الحسى للواقع سير المحادثة، ما الذى يمكن ان يكون قد قاله خوسيه انايسو لماريا دولور لكى تضحك من قلبها بهذا الشكل لو كان الدولور لم يقايضوا أسماءهم الشخصية باسم لولا، لكان هناك مبرر لفضيحة جميلة. لم يعد يلحظ عندها اى اثر لسخط نسائى على الرجال، لأن هذا الرجل القادم من ريباتيجو لديه بلاشك شىء ما أكثر من مجرد فك وضروس وجمجمة، ولأنه يوجد فى الوقت الراهن الدليل الوفير والتام على وجود النساء. وتقوم ماريا دولور، التى تعمل فى السياحة

لأنها لم تجد فرصة عمل كانثروبولجية، برسم الطريق الناقص على خريطة خوسيه انايسو، وتشير بنقطة سوداء لبلدة اورس، وبلدة فنتا ميسينا، المجاورة لها، والآن يمكنكما أيها السيدان المسافران متابعة طريقكما، فإن عرافة ملتقى الطرق دلتكما على السبيل، «انها مثل صحراء قمرية»، لكن عيونها تكشف عن اسفها لأنها لا تستطيع مرافقتهما لممارسة علمها مع هذين الصحفيين البرتغاليين، خاصة اكثرهما رزانة، الذى ابتعد لينظر الى الملصقات، كم مرة علمتنا التجربة ألا نحكم طبقا للظاهر، كما يفعل الآن جواكيم ساسا نفسه، خطأ، وتواضع من جانبه، «لو بقينا هنا، لكنت غويت الانثروبولوجية»، ولنسامحه على سوقية التعبير، فعندما يكون الرجال معا تكون لهم محادثات ماجنة، وأجاب خوسيه انايسو، معجبا بنفسه، وقد وقع فى الخطأ هو ايضا، «من يدرى» .

لن نمل من تكرار ان هذا العالم هو ملهاة المخدوعين، ان نسب اسم اورس لعظمة عثر عليها ڤنتا ميسينا وليس فى اورس، لهو دليل إضافى على هذه الحقيقة. كان من الممكن ان يكون اسم ڤنتا ميسينا عنوانا جميلا جدا لعلم الاحاثة★، لولا هذا الاسم، ڤنتا، الذى يدفع حتما الى التفكير فى تجارة فقيرة وبدائية. غريب مصير الكلمات. لو ان ميسينا، الذى لا يمكن ان يكون اسم رجل، ليس اسم امرأة مثل الجاليزية الشهيرة التى اعطت اسمها لمدينة جوليجا البرتغالية الصغيرة، فربما كان اغريق ميسين، الذين فروا من جنون الانتريد، قد وصلوا حتى هذه الأنحاء البعيدة، وبما انه كان يتعين عليهم أن يغرسوا اسم وطنهم من جديد فى مكان ما، فلماذا لا يكون هنا على مسافة بعيدة جدا من سيربير، فى قلب جهنم، ولكنه مع ذلك اقل بعدا عنا الآن ونحن نبحر. حتى وان كان من الصعب عليكم تصديق ذلك.

★ علم يبحث فى أشكال الحياة فى العصور البيولوجية السالفة كما تمثلها المتحجرات الحيوانية والنباتية . (المترجم).

لقد شيد الشيطان اول مسكن له في هذه الأنحاء، ومرقت قدماه الملفوقتان الأرض وكلست الرماد، وسط جبال انتصبت فزعا وظلت هكذا، صحراء اخيرة حيث كان يمكن للمسيح ذاته ان يستسلم للإغواء، لو لم يكن قد خبر حيل الشيطان من قبل، كما علمنا ذلك النص التوراتي. ونظر جواكيم ساسا وخوسيه انايسو الى، ماذا، الى المشهد الطبيعي، انها كلمة لطيفة تنتمي الى عوالم اخرى، ولغات اخرى، لأنه لا يمكن تسمية ما تراه العيون هنا منظرا طبيعيا، فلقد سبق وصفه بانه مسكن من الجحيم وان كان من المسموح الشك في هذا الوصف، طالما انه من المؤكد تقريبا العثور، في هذه الأماكن الملعونة مابين اللعنات والصخور، على رجال ونساء، ومعهم حيوانات ترافقهم ولم يذبحوها بعد لكي يتغذوا، ان الشاعر الذي لم يذهب قط الى غرناطة قد كتب بكل تأكيد في هذه الصحراء. هاهي اراضي اورس، التي من المفترض انها شربت دماء الموره والمسيحيين، لكن كان ذلك في أسحق عهود التاريخ، ما الفائدة من ذكر الذين ماتوا منذ تلك السنوات البعيدة طالما ان الأرض هي التي ماتت، وكفنت نفسها بنفسها.

وفي اورس، عثر المسافران على بيدرواورس، فهو صيدلاني، مسن اكثر مما تخيلاه، لو كانا فكرا في ذلك، ولكنه ليس مسنا بقدر سلفه المليونير، اننا نفترض انه ليس من الخطأ في شيء استخدام قياسات مقصورة عامة عيل النقود لتقييم الوقت، طالما ان المال لا يشترى الوقت وان الزمن يؤثر سلبا على قيمة المال . ان بيدرو اورس لم يظهر على شاشة التليفزيون، وبالتالي فاننا نجهل انه قد تجاوز الستين، وانه نحيف الوجه والجسد، وان شعره ابيض تقريبا، بالرغم من ان بإمكانه كخبير في المعالجات الكيميائية ان يدبر في سرية معمله، صبغة سوداء او شقراء، على حسب اختياره، لولا ميله للتقشف الذي يجعله يرفض تلك الحيل.

عندما اجتاز جواكيم ساسا وخوسيه انايسو عتبة صيدليته، كان منهمكا فى ملء برشام بكبريتات الكينين، طب قديم يحتقر التركيزات العالية لدساتير الصيدلة والأدوية الحديثة، لكنه، بغريزة حكيمة، ألغى التأثير النفسى لعسر الهضم، مع الاحتفاظ بفاعليته السحرية، الآن وقد مر حماس التنقيب والاكتشافات، فإن المسافرين نادرون فى اورس، وهى ممر لا مفر منه عند الذهاب الى قنتا ميسينا، ولا يعرف حتى أين انتهت جمجمة السلف العجوز مشوارها، فى متحف بلاشك، حيث تنتظر بطاقتها والصندوق الزجاجى، فى اغلب الأحيان، يشترى الزبون المار بالبلدة اقراص اسبرين أو أدوية لمكافحة الاسهال او اقراص استحلاب للهضم، اما أهل البلد فإنهم فى الأرجح يموتون من اول مرض، وهو امر لا يسمح لأى صيدلانى بالثراء. انتهى بيدرو اورس من قفل البرشام، وكأنه يقوم بأعمال الحواة، فبمجرد تبليل الاجزاء التى ستقوم بدور الاغلفة، يتم ضغط لو حتى النحاس الاصفر المثقوبتين، وتصبح الوصفة جاهزة، برشامة كينين، بالاضافة الى إحدى عشرة برشامة اخرى، وبمجرد الانتهاء سأل السيدين عما يريدانه، «اننا برتغاليان»، اقرار لا جدوى منه اذ يكفى سماعهما وهما يتحدثان لادراك ذلك على الفور، لكن هكذا البشر يعلنون دائما من هم قبل ان يقولوا الهدف من حضورهم، خاصة عندما تكون القضية مهمة مثل تلك القضية، مئات الكيلومترات لمطالبة بيدرو اورس، وان كان بعبارات مختلفة تماما واقل اثارة، «اقسم يابيدرو اورس بشرفك وبالعظمة التى تم العثور عليها، انك شعرت بالأرض تهتز بينما كانت كل أجهزة تسجيل الزلازل فى اشبيلية وغرناطة ترسم بإبرة ثابتة الخط الأكثر استقامة الذى يمكن تخيله»، ورفع بيدرو اورس يده وقال ببساطة العادلين والنزيهين، «اقسم على ذلك». واضاف جواكيم ساسا لإعلانه عن الجنسية قائلا:

«اننا نود ان نتحدث معك على انفراد»، وبما انه لم يكن هناك احد آخر فى الصيدلية، بدأ يرويان له الاحداث الشخصية والمشتركة، الحجر والزرازير، وعبور الحدود، هما لا يملكان دليلا بالنسبة للحجر، لكن فيما يتعلق بالطيور يكفى الخروج على عتبة الباب والنظر الى الخارج ، هناك على الساحة ، أو على الساحة الأخرى المجاورة، هاهو التجمع الذى لا يُخطأ، كان كل السكان ينظرون الى أعلى، مندهشين من المنظر الغريب، بينما تختفى الطيور سريعا لكى تنقض على القصر ذى الابراج السبعة، وهو قصر عربى، قال بيدرو أورس، «من الأفضل الا نتكلم هنا، اركبا السيارة واخرجا من البلدة»، «من أية ناحية» ، «سيرا فى خط مستقيم، نحو ماريا ، وبعد ثلاثة كيلومترات من آخر بيوت البلدة، ستجدان جسرا صغيرا، وعلى بعد خطوتين منه شجرة زيتون، انتظرونى هناك، سألحق بكما خلال لحظة، «كان لدى جواكيم ساسا احساس بانه يعيش من جديد حياته هو نفسه، عندما كان ينتظر خوسيه انايسو بعد آخر المنازل، عند الفجر، قبل ذلك بيومين.

انهم يجلسون على الأرض تحت شجرة زيتون كوردوفيل، وهى الشجرة التى تقول عنها الرباعية★ الشعبية انها تعطى زيتا اصفر، وكأن كل انواع الزيتون الأخرى لا تفعل ذلك، ربما تكون زيوتها مائلة للاخضرار ولو قليلا، ولم يتمكن خوسيه انايسو من حبس هذه الكلمة الأولى، «هذا المكان يخيفنى»، اجاب عليه بيدروأورس قائلا : «ان الأمر اسوأ من ذلك فى فنتاميسينا، لقد ولدت هناك»، لبس واضح يمكن أن يعنى ظاهر المعنى، لكن يمكن ان يعنى ايضا نقيض ذلك، فالأمر يتوقف على القارىء أكثر منه على القراءة مع أن القراءة تعتمد تماما على القارىء، ولذلك يصبح من الصعب جدا علينا معرفة من الذى قرأ ما تمت قراءته

(★) مقطوعة شعرية رباعية الأبيات

وكيف فسر الذى قرأ ما قرأه، المهم فى الحالة التى تهمنا الا يكون بيدرو اورس يريد ان يقول إن خبث هذه الارض نابع من كونه ولد عليها. ثم، دخلوا فى صلب الموضوع، وقارنوا طويلا تجارب كل منهم، رامى القرص، وقناص الطيور، وعالم الزلازل، وقرروا فى النهاية ان مغامراتهم كانت مرتبطة ببعضها ولازالت كذلك، لاسيما ان بيدرو اورس لا يزال يؤكد ان الأرض لا تكف عن الاهتزاز «الآن أيضا اشعر بها تهتز» ومد يده فى حركة إثبات لصحة ما يقول. وجواكيم ساسا وخوسيه انايسو، مدفوعان بالفضول، لمسا اليد التى لم تكن تتحرك وشعرا، لم يكن هناك ادنى شك، شعرا بالاهتزاز والتذبذب والازيز، لا يهم ان يلمح احد المتشككين، ان الأمر يتعلق بالاهتزاز الطبيعى للسن، فان بيدرو اورس ليس عجوزا لهذه الدرجة ومن المستحيل الخلط بين الاهتزاز والاضطراب حتى وان كانت القواميس تؤكد عكس ذلك.

ان المراقب الذى ينظر اليهم من بعيد قد يتخيل ان الرجال الثلاثة يقطعون عهدا، صحيح ان ايديهم اتحدت لبضع لحظات، وكان ذلك كل مافى الأمر، وتضاعف الاحجار من حولهم الحرارة عشرة اضعاف، والأرض البيضاء تبهر النظر، والسماء فوهة فرن ينفخ حرارته حتى فى الظل تحت شجرة الزيتون الكوردوفيل. ان الزيتون فى الوقت الراهن ليس سوى وعد ومن ثم فهو فى منأى عن نهم الزرازير، لكن بمجرد حلول شهر ديسمبر سترون الغزو، على أية حال، من المفترض الا تزور الزرازير ابدا هذه الانحاء، بما انه لا توجد بها سوى شجرة زيتون واحدة. فتح جواكيم ساسا المذياع، فجأة لم يجدوا ما يقولونه، ولا مجال للاندهاش ، فهم لم يتعرفوا على بعضهم سوى منذ وقت قصير جدا، وينطلق صوت المذيع الأخن، انهاك مهنى ام انهاك فى البطاريات، «طبقا لآخر التقديرات،

استقرت سرعة انتقال شبه الجزيرة عند حوالى ٧٥٠ مترا فى الساعة «يستمع الرجال الثلاثة بانتباه أكبر، «وطبقا للانباء الواردة فى اللحظة نفسها الى محررينا، فلقد تم ملاحظة صدع كبير بين lahinea وجبل طارق»، وتكلم، وتكلم، «سنوافيكم بأنباء أخرى فى غضون ساعة، الا اذا حدث شىء غير متوقع»، وفى تلك اللحظة بالذات مرت الزرازير فى زوبعة فروووو وسأل جواكيم ساسا، «هل هى طيورك»، ولم يكلف خوسيه انايسو نفسه عناء النظر قبل ان يرد، «نعم انها طيورى، فالأمر سهل بالنسبة له، فهو يعرفهم، وكان شرلوك هولمز سيقول فى هذا المقام : «انه امر اولى ياعزيزى واتسون، فلا يوجد سرب واحد مماثل على امتداد مسافات كبيرة» وهو على حق لأن الطيور تكون نادرة فى جهنم، باستثناء الطيور الليلية بالطبع، طبقا لما تريده الاعراف.

يتابع بيدرو اورس طيرانهم بعينه، دون أن يظهر فى البداية اى اهتمام فيما عدا نوعا من الفضول المهذب، ثم اضاءت عيونه بسماء زرقاء وسحب بيضاء، واقترح، وهو عاجز عن حبس كلماته أكثر من ذلك، «ماذا اذا ذهبنا الى الساحل لمشاهدة مرور الصخرة» قد يبدو ذلك امرا عبثيا ولا منطقيا، غير ان الأمر ليس كذلك، فعندما نسافر بالقطار نتصور ايضا اننا نرى الاشجار تمر وتتابع، فى حين أن تلك الأشجار ثابتة فى الأرض بواسطة جذورها، الآن نحن لسنا فى قطار ولكن على طوف من الحجر يبحر ببطء فى عرض البحر، بدون روابط أو قيود، الفرق الوحيد هو ذلك الفرق الذى يميز الصلب عن السائل. كم من المرات نحتاج لحياة كاملة من أجل تغيير حياتنا، اننا نفكر ، ونفكر، ونوازن الايجابيات والسلبيات، ونتردد، ثم نعود الى نقطة البداية ونبدأ من جديد فى التفكير، والتفكير مرة اخرى، اننا ننتقل على قضبان الزمن فى حركة دائرية، مثل زوابع الريح

الصغيرة التى تعبر الريف مزرية الغبار وأوراق الشجر الميتة وكل انواع الاشياء التافهة الصغيرة ، نظرا لقوتها المعتدلة، كان من الأفضل العيش فى بلد الأعاصير المدمرة. ومع ذلك ، ففى مرات أخرى تكفى كلمة واحد، «لنذهب لمشاهدة الصخرة وهى تمر»، وهاهم واقفون، مستعدون للمغامرة، انهم حتى لا يشعرون بلسعة الهواء، ونزلوا التلة ركضا وهم يضحكون، مثل اطفال اطلق سراحهم. كانت السيارة عبارة عن حمام بخار، وفى لحظة كان الرجال الثلاثة ينضحون عرقا لكنهم لم يلحظوا ذلك، لقد رحل الرجال الذين اكتشفوا العالم الآخر، من اراضى الجنوب تلك، وكانوا قساة وشرسين هم ايضا، فى دروعهم الحديدية، وعلى رأسهم خوذاتهم الحديدية، وفى ايديهم سيوفهم الحديدية، وتقدموا وهم يتصببون عرقا مثل الخيول فى مواجهة عرى الهنود الذين لايرتدون سوى ريش الطيور والوان وصبغات، صورة مثالية .

لم يجتازوا القرية مرة اخرى، لأن مرور السيارة ثانية مع بيدرو اورس والغريبين داخلها كان يمكن ان يبدو مريبا جدا، فإما انهما اختطفاه، او ان هؤلاء الثلاثة يحيكون مؤامرة ما، ومن الأفضل استدعاء الشرطة، لكن كان سيرد أحد الشيوخ الطاعنين فى السن قائلا : «لا توجد شرطة فى اورس»، لقد سلكوا طرقا أخرى، سبلا كانت الخريطة تجهلها، وما ينقص هنا، الآن، هو موظفة السياحة لكى ترسم طريق هذه الاكتشافات الجديدة على الخريطة . قال بيدرو اورس: «سوف أريكم اولا بلدة ڤانتا ميسينا، مسقط رأسى»، هكذا تفجرت الجمل، كما لو كان يريد ان يسخر من نفسه أو أن يضغط اراديا على موقع ألمه، وعبروا قرية عبارة عن اطلال اسمها فونتا ، لو صادف وكان فيها ذات يوم بعيد نافورة ماء فلقد شاخت ونضبت، ثم فى منحنى واسع للطريق، «هاهى لقد وصلنا».

وتنظر العيون، وبما انها لا تجد الا أقل القليل، فانها تبحث عما لابد انه غائب ولا تعثر عليه. وسأل خوسيه انايسو، «هناك» ويفهم انه يشك فى ذلك، لان البيوت نادرة ومتفرقة، وتختلط بلون الأرض، ويوجد فى الاسفل برج كنيسة، وعلى حافة الطريق ، صليب وجدران بيضاء، ومن المستحيل ان يخطىء المرء ، انها مقبرة . وتحت الشمس البركانية، تتموج الأرض مثل بحر تحجر مغطى بالتراب، اذا كان الأمر كذلك، منذ مليون واربعمائة عام، فليس من الضرورى ان يكون المرء متخصصا فى أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية السالفة لكى يقسم ان رجل اورس مات عطشا بلاشك، وكان العالم حينئذ يمر بمرحلة شبابه، ولابد ان الجدول الذى يجرى بعيدا كان نهرا واسعا وسخيا، وكان يوجد بالطبع اشجار كبيرة، واعشاب اطول من الانسان، كان ذلك قبل استقرار جهنم فى تلك المنطقة . عندما يأتى فصل الأمطار، لابد ان يكون هناك بعض الخضرة فى هذه الحقول الرمادية اللون، لكن فى هذه الفترة يزرع الجرف بصعوبة كبرى، وتجف النباتات وتموت، ثم تولد من جديد وتعيش مرة أخرى، الانسان فقط هو الذى لم ينجح بعد فى تعلم تكرار الدورة، فالحياة بالنسبة له هى دائما مرة واحدة. وقام بيدرو اورس بحركة عانقت البلدة البائسة، «البيت الذى ولدت فيه لم يعد موجودا الآن» ، ثم مشيرا الى اليسار فى اتجاه التلال ذات القمة المكشوفة، «انها كوفا دوس روزايس، لقد تم العثور هناك على عظام رجل اورس، كان جواكيم ساسا وخوسيه انايسو ينظران الى المنظر الكابى، عاش هنا رجال ونساء منذ مليون واربعمائة عام وأنتجوا رجالا ونساء الذين بدورهم أنتجوا رجالا ونساء، مصير، قدر، حتى اليوم وبعد مليون واربعمائة عام، سيأتى شخص ما ليقوم بعمليات تنقيب فى تلك المقبرة المسكينة وبما ان هناك رجل اورس، فربما سيتم تصحيح اسم صاحب الجمجمة بحيث

تمنح الجمجمة التى سيتم العثور عليها اسم رجل قنتا ميسينا . ولا يمر أحد، لا ينبح كلب، واختفت الزرازير، وشعر جواكيم ساسا بقشعريرة طويلة على امتداد ظهره ولا يستطيع اخفاء عدم ارتياحه، سأل خوسيه انايسو، «ما اسم هذا الجبل الذى فى الخلفية»، «انها سلسلة جبال ساجرا»، وذلك الذى على اليمين»، «انها سلسلة جبال ماريا»، «عندما مات رجل اورس، كانت تلك بالطبع هى آخر صورة حملتها عيناه»، وسأل جواكيم ساسا، «ما الاسم الذى يمكن أن يكون قد أعطاه لهذا الجبل، عندما كان يتكلم عنه مع رجال اورس الآخرين، الذين لم يتركوا جمجمة»، «فى تلك الفترة ، لم يكن لشىء اسم بعد»، قال خوسيه انايسو. «كيف يمكن النظر الى شىء دون اطلاق اسم عليه، «لابد من انتظار ان يأتى الاسم»، ظل ثلاثتهم ينظرون دون ان يقولوا شيئا ثم صاح بيدرو اورس، «هيا ، حان وقت اعادة الماضى لسلامة القلق».

ولانعاش الرحلة، اعاد بيدرو اورس سرد مغامراته، مضيفا اليها بعض التفاصيل، حيث بلغ الأمر برجال العلم الى ربطه بجهاز تسجيل الزلازل ، وذلك فى حضور السلطات، قد تكون فكرة بائسة ولكنها صحيحة تماما لأنهم استطاعوا بذلك التأكد من صدق كلامه، وسجلت ابرة الجهاز اهتزاز الأرض، دون توقف، ثم بمجرد ان عاد الخط مستقيما، فصل الجهاز من المريض، وصاح قاضى غرناطة، الذى كان حاضرا التجربة»، لقد تم تفسير ما ليس له تفسير»، لكن أحد الحكماء صحح ما قاله القاضى»، ما ليس له تفسير لابد ان ينتظر قليلا»، لقد عبر دون دقة علمية، غير أن الجميع فهموا مدلول كلامه واعتبروه محقا . وصرفوا بيدروأورس طالبين منه ان يبقى تحت تصرف العلم والسلطات والا يخفى شيئا من مواهبه الحواسية غير العادية ، ولا تختلف هذه التوصية فى شئ عن القرار الذى اتخذه

الطبيبان البيطريان الفرنسيان فيما يتعلق بقضية اختفاء الاحبال الصوتية لكلاب سيربير الغامضة .

اخذت السيارة أخيرا اتجاه الجنوب، وسلكت الطرق المأهولة، لا يوجد نقص في الوقود في تلك الانحاء، بنزين، غاز زيت، لكنها سرعان ما اضطرت الى ابطاء سرعتها لأن أمامها يتقدم ببطء طابور لا نهاية له من السيارات والشاحنات الصغيرة ، والحافلات، والدراجات النارية، والدراجات العادية، وقسبات، وعربات تجرها البغال، وحمير محملة، ولكن ليس بروك لوزانو، وكثير من النساء يسيرون على اقدامهم، يوقف البعض السيارات لتأخذهم في طريقها، في حين يعلن البعض الآخر احتقاره لوسائل النقل وكأنهم يؤدون عقوبة ، أو نذر، نذر هو الأرجح، ولا جدوى من سؤالهم اين يذهبون ، لأن الأمر لا يتطلب ان يكون المرء اسمه بيدرو اورس لكي تكون لديه فكرة أو رغبة أن يرى جبل طارق وهو يمر منجرفا بعيدا، يكفي أن يكون المرء إسبانيا، وهو مالاينقص هنا. انهم يأتون من قرطبة، ودى لينار، ودى جان، ودى كاديكس، هذا بالنسبة للمدن الكبيرة، لكنهم يأتون ايضا من هيجرا دى ارجونا، وال توكون، ودى بولار باجو، والأميديا، وجوزيس دل مونت، والما سجاس، يبدو أن وفودا تصل من كل مكان، لقد كان هؤلاء القوم شديدي الصبر، منذ عام ١٧٠٤، يمكن حساب عدد السنين، وطالما ان جبل طارق ليس لنا، نحن الذين اعتدنا على هذا البحر، فلن يكون ملكا للانجليز ايضا. ان النهر البشري عريض جدا لدرجة أن شرطة المرور اضطرت لفتح طريق ثالث اينما كان ذلك ممكنا، لأن من يتوجهون الى الشمال نادرون، الا اذا كان لديهم سبب قوي لذلك، وفاة، مرض، وحتى في هذه الحالة ينظر إليهم بارتياب، ويشتبه في أن لهم ميولا انجليزية، ربما يريدون الذهاب بعيدا لإخفاء الألم الذي يسببه لهم مثل

هذا الانحراف الجيولوجي والاستراتيجي.

لكن هذا اليوم هو يوم عيد كبير بالنسبة للجميع، والاسبوع مقدس مثله مثل الاسابيع المقدسة الأخرى، فان بعض الشاحنات الصغيرة تحمل تماثيل للمسيح وللسيدة العذراء ، خاصة نماذج لتمثالي عذراء الرجاء بأشبيليه، وفرق من عازفي الأبواق بالاتهم التي تلمع في الشمس، وعلى ظهور الحمير تظهر حزم الالعاب النارية، لو أشعل أحدهم فتيلها فسترتفع مثل كلافيلينو حتى المنطقة الثانية والثالثة من الهواء ، وحتى منطقة النار حيث شاطت لحية مانشو، الذي بسذاجته المعتادة، مستعد لأن يخدع مرة اخرى. وتعرض الفتيات اجمل زينة لديهن، أوشحتهن وعباءاتهن، اما الشيوخ، فعندما لا يستطيعون المشي، كان الشباب يحملونهم على ظهورهم، أنت الآن ابن، وستصبح أبا في الغد، ما فعلته سيفعل معك، إلى أن تتوقف مركبة ما، عندئذ يتم استئناف السير، لقد ارتاح أخيرا الجسد المتعب، ويتوجه الجميع نحو البحر، أو الساحل، أو الشواطىء، او نحو ماهو أفضل، نحو المرتفعات التي تشرف على البحر لرؤية الصخرة الملعونة بكاملها، من المؤسف ألا يكون ممكنا من هذه المسافة سماع صراخ قرود الماكاك المضطربة لكونها لن ترى الأرض بعد ذلك ابدا.

كلما اقترب البحر، يصبح المرور أكثر صعوبة، لقد تخلى البعض عن مركباتهم ويتابعون سيرا على الأقدام ، أو يطلبون من الذين لديهم عربة كارو أو من يركبون الحمير أن يأخذوهم معهم، اذ لايستطيع اصحاب هذه الحيوانات ان يتركوها في الطبيعة، لأنه يتعين الاعتناء بها ، وتقديم الماء لها لكي تشرب، وحمل ربطة التبن والفول حتى مناخيرها، وأوامر رجال الشرطة ، وكلهم ذو أصول ريفية، وهم في الهم سواء، ترك الشاحنات الصغيرة والسيارات على حافة الطريق، في حين

تستطيع الحيوانات ان تواصل طريقها، وكذلك الدراجات النارية والدراجات العادية والفسبات، فهى آلات لا تسبب ازدحاما ويمكنها ان تندس بسهولة فى أى مكان وتعزف فرقة عازفى الابواق التى نزلت الى الأرض اولى نغمات موسيقى راقصة سريعة، وأطلق صانع اسهم نارية اكثر حماسا او اكثر وطنية من الآخرين صاروخا قويا جدا قبل الأوان، لكن سرعان ما قام زملاؤه بتوبيخه فهم غير مستعدين لإحراق ذخيرتهم بدون أسباب واضحة. وتوقفت أيضا السيارة البرتغالية الوحيدة فى الموكب، وبدقة أكبر السيارة الوحيدة التى تحمل لوحة برتغالية، فإن مشاهدة جبل طارق ضائعا فى البحر لا يهمها فى قليل أو كثير، لأن ندمها التاريخى اسمه أوليفنا، ولا يشودى هذا الطريق اليه. وبدأت مشاهدة اناس تائهين، نساء تنادى على ازواجهن، واطفال تطالب باهلها، غير ان الجميع ينتهى بهم الامر ولحسن الحظ بأن يتلاقوا ، فإذا كان هذا النهار ليس نهار الضحكات فلن يكون ايضا نهار الدموع، شريطة ان يرغب فى ذلك الرب الاب وابنه كاشورو★ . وتكثر هنا الكلاب الشاردة التى تتشمم كل شىء، ولكنها لا تنبح الا نادرا، فيما عدا عند حدوث مشاجرة، ولا يرى كلب واحد من سيربير. ويتهور استولى بيدرو اورس وجواكيم ساسا وخوسيه انايسو على حمارين كان يبدو عليهما انهما تركا بدون صاحب على مدى البصر، وكان ثلاثتهم يتقدمون، ركوبا وسيرا على الأقدام بالتناوب، غير أن عمر هذه الطمأنينة كان قصيرا، لأن الحمارين كانا ملكا لمجموعة من الغجر المتوجهين نحو الشمال، فأولئك يستخفون

(★) من أشهر تماثيل المسيح فى أشبيليه، والتى تخرج مثل تماثيل السيدة العذراء خلال الأسبوع المقدس، تمثال للمسيح وهو مشرف على الموت، واشتهر هذا التمثال باسم كاشورو. ويرجع هذا الاسم إلى كنية الغجرى الذى جرح جرحا مميتا، وكان بمثابة الموديل للنحات الذى صنع وجه التمثال هذا ما ترويه الأسطورة.

تماما بجبل طارق، ولولا ان بيدرو اورس اسباني، وعجوز وحكيم، لكان من الممكن رؤية دم البرتغاليين يسيل.

انه معسكر لا نهاية له، مخيم حقيقي يمتد على طول الساحل ، آلاف مؤلفة من الناس، عيونهم مصوبة نحو البحر، لقد صعد البعض على اسقف المنازل وعلى الأشجار الأكثر ارتفاعا، ذلك فضلا عن آلاف الآخرين الذين لم يرغبوا فى ان يقطعوا كل هذه المسافة وبقوا مع نظاراتهم ومناظيرهم المقربة على مرتفعات سلسلة جبال كنترفيزا او عند سفح سلسلة جبال نيفادا، يقتصر الاهتمام هنا على البسطاء فقط، الذى يحتاجون الى لمس الاشياء للتحقق منها، انهم لن يستطيعوا الاقتراب اكثر من ذلك لكنهم فعلوا كل مافى إمكانهم. وتبعهم خوسيه انايسو وجواكيم ساسا وبيدرو اورس ، وذلك تلبية لرغبة متحمسة من جانب بيدرو اورس ولمودة صادقة من جانب الاثنين الآخرين، وهاهم يجلسون على الاحجار، وينظرون الى البحر، يكاد العصر ان يدرك نهايته، وصاح جواكيم ساسا ، وهو متشائم كما اقر هو بذلك شخصيا، قائلا : «اذا مر جبل طارق فى قلب الليل، سنكون قد حضرنا من اجل لا شىء، فرد عليه بيدرو اورس مجادلا، سنرى على الاقل الانوار، وسيكون ذلك اجمل بكثير، مشاهدة الحجر يبتعد وكانه سفينة مضيئة، عندئذ نعم ستكون الالعاب النارية مبررة، بباقاتها، وشموعها، وشموسها، ولا أعرف ماذا ايضا، بينما ستضيع الصخرة الباهتة بعيدا، وتختفى فى الليل الاسود، وداعا، وداعا، لن اراك ابدا». لكن خوسيه انايسو فتح الخريطة على ركبتيه ، وبدأ فى اجراء بعض الحسابات مستعينا بقلم وورقة، وإعاد العمليات الحسابية واحدة واحدة لكى يتأكد تماما من النتيجة، وتأكد مرة أخرى من مقياس الرسم، ثم أعلن : «اصدقائى الاعزاء، ستستغرق جبل طارق عشرة ايام حتى يصل الى هنا»، اعرب رفاقه عن اندهاش متشكك، وعندئذ عرض عليهما حساباته،

لم يكن فى حاجة الى التمسك بنفوذ المدرس المؤهل، لأن هذه العلوم الآن لحسن الحظ فى متناول الذكاء الأكثر بدائية، «اذا تحركت شبه الجزيرة، او الجزيرة، أو أى شىء تريدون، بسرعة سبعمائة وخمسين مترا فى الساعة، فإن اجتياز ثمانية عشر كيلومترا يتطلب يوما كاملا، وبقدر المسافة من خليج الجزيراس الى المكان الذى نحن فيه، فى خط مستقيم، بحوالى مائتى كيلومتر، اجريا الحسابات، فالأمر يستحق. امام هذا الاثبات المتعذر دحضه، احنى بيدرو اورس رأسه، مهزوما، «والقول بأننا جئنا، وان كل هؤلاء الناس أتوا ركضا لأن يوم المجد وصل، وفى اللحظة بالذات التى كان علينا فيها السخرية اخيرا من هذه الصخرة الملعونة، سيتعين علينا الانتصار عشرة ايام اخرى، لا يمكن لحريق أن يستمر كل هذا الوقت»، اقترح جواكيم ساسا، «ولو ذهبنا لملاقاة الصخرة عبر طريق الساحل»، «لا ، لم يعد للأمر قيمة»، اجاب بيدرو اورس «هذه الاشياء يجب ان تحدث فى اللحظة المناسبة، والحماس متوافر، كان يجب ان تمر امام اعيننا الان، الآن ونحن متحمسون ، لقد كنا كذلك، ولم نعد الآن متحمسين»، «ماذا سنفعل اذن»، سأل خوسيه انايسو، «لنرحل ، «لا تريد ان تبقى»، لا يمكن ان يعاش الحلم بعد انقضائه»، «اذا كان الامر كذلك فسنرحل غدا»، «هكذا سريعا»، «المدرسة تنتظرنى»، «وانا المكتب» «وانا الصيدلية ، كما هو الحال دائما».

وذهبوا للبحث عن السيارة، وبينما يبحثون ويتأخرون فى العثور عليها، لننتهز الفرصة للحديث عن الآلاف من الناس الذين لا صوت لهم ولا قرار فى هذه القصة، الذين لم ينجحوا حتى فى لعب دور الممثلين الصامتين فى خلفية المشهد، هؤلاء الآلاف من الأشخاص الذين لم يتحركوا خلال هذه الأيام العشرة والليالى العشر، ويأكلون المؤن التى حملوها معهم، وعندما بدأت تتناقص، اى منذ اليوم الثانى، اشتروا ما تمكنوا من العثور عليه فى هذه الناحية، ويطهون الطعام فى

الهواء الطلق على نيران مهولة تشبه محرقات عصر آخر، أما من لم يعد معهم نقود فلم يظلوا على جوعهم، فحيث كان يوجد طعام لشخص واحد كان يوجد طعام للجميع، إنه زمن الأخوة الذى عاد من جديد، بقدر ماهو ممكن انسانيا ان يوجد الشيء بعد ان كان موجودا . لن يتذوق بيدرو اورس وچواكيم ساسا وخوسيه انايسو هذه الاخوة الرائعة ، لقد اداروا ظهورهم للبحر ، وجاء دورهم الآن لكى ينظر إليهم بارتياب من جانب المستمرين فى النزول ، وهم كثيرون !

وهبط الليل اثناء ذلك ، وتم اضاءة النيران الأولى ، وقال خوسيه انايسو : «هيا بنا» يقضى پيدرو اورس الرحلة صامتا ، على المقعد الخلفى ، حزينا ، ومغمضا عينيه ، إنه الوقت المناسب تماما للاستشهاد بالدور الغنائى البرتغالى ، فمثل هذه الفرصة لن تتاح قريباً ، «إلى أين أنت ذاهب ، أنا ذاهب إلى الحفلة ، من اين انت عائد ، أنا عائد من الحفلة» ، وحتى بدون مساعدة علامات التعجب والخطوط الصغيرة ، فإن الفرق بين توقع الفرح فى الاجابة الأولى وتعب خيبة الأمل فى الاجابة الثانية واضح للعيان ، انهما لا تبدوان مكتوبتين بنفس الطريقة إلا على الصفحة فقط . لم يتبادلوا سوى ثلاث كلمات خلال كل الرحلة، «تعشوا معى» وقعت هذه الكلمات من فم بيدرو أورس ، فإن هذا واجبه كمضيف . لم ير خوسيه أنايسو جواكيم ساسا ضرورة للرد ، قد يقول بعضهم إنهما غير مهذبين ، إلا أن ذلك ينم عن جهل بالطبيعة الانسانية ، فى حين أن شخصا آخر ، أكثر خبرة ، سيكون مستعدا لأن يقسم إن هؤلاء الثلاثة اصبحوا اصدقاء .

عندما دخلوا اورس كان الليل قد تقدم جدا . والشوارع فى هذه الساعة عبارة عن صحراء من الظلال والسكون . تستطيع السيارة أن تبقى أمام باب الصيدلية، فمن المفيد أن تستريح ، ففى الغد ستستأنف طريقها مرة أخرى حاملة الرجال

الثلاثة ، وهو ما سيتقرر حول المائدة ، الطعام بسيط في الاطباق ، فبيدرو اورس يعيش وحده هو ايضا ولم يسعفه الوقت لكى يقوم بدور الخبير فى فن الطهى .
فتحوا التلفزيون ، هناك الآن نشرة انباء كل ساعة ، ورأوا جبل طارق ، الذى لم ينفصل فقط عن اسبانيا ولكنه ابتعد عنها بعدة كيلو مترات ، مثل جزيرة منجرفة وسط الامواج ، وقد تحولت ، البائسة ، إلى قمة جبل ، إلى قالب سكر ، إلى رصيف، بمدافعها الالف التى لم يعد لها هدف ولا عمل . قد ترضى كوات الرمى التى يصرون على شقها فى الجانب الشمالى الغرور الامبراطورى ، إلا أن ذلك لا يعدو أن يكون بمثابة إلقاء النقود فى البحر ، بالمعنى الحرفى والمجازى معا .
صور مؤثرة بالطبع، لكن لا سبيل إلى مقارنتها بالصدمة التى سببتها مجموعة من الصور التى التقطتها الاقمار الصناعية والتى تبين الاتساع التدريجى للقناة بين شبه الجزيرة وفرنسا، لا توجد قوة بشرية تستطيع عمل ذلك ، إنه منظر يثير القشعريرة ، ويقف شعر الرأ س عند رؤية مثل هذه الكارثة ، لأنها لم تعد قناة ولكن مجرى مائيا تبحر فيه سفن نحو بحار لم يسبق ارتيادها قط . من البديهى ألا تستطيع العين المجردة رصد مثل هذا الانتقال ، بسرعة سبعمائة وخمسين مترا فى الساعة ، من على هذا الارتفاع ، لكن بالنسبة للمشاهد ، يبدو الأمر وكأن كتلة الحجر الكبيرة تنتقل داخل رأسه ، وكاد أن يغمى على بعض الأشخاص المرهفين ، واصاب الدوار اخرين ، وكان هناك أيضا الصور التى تم التقاطها من على متن الطائرات العمودية التى لا تكل ، صور الانحدار المهول لجبال البران ، المقطوعة بميزان البناء ، وتزاحم الناس، الذين يبدو حجمهم متناهى الصغر من هذا الارتفاع ، وهم يتجهون نحو الجنوب ، هجرة فجائية ، من أجل هدف واحد ، رؤية جبل طارق وهو يغوص ، وذلك وهم بصرى لأن الواقع هو أننا نحن الذين ننزل المجرى ، ثم صورة لاحدى التفاصيل المثيرة ، سرب من

الزرازير ، آلاف ، مثل سحابة انزلقت فى مجال رؤية العدسة ، معتمة السماء، وصاح المذيع ، «الطيور أيضا اصابها حماس البشر» ، تلك هى الكلمات التى اتخدمها ، فى حين أن التاريخ الطبيعي يعلمنا أن للطيور اسبابها الخاصة للذهاب إلى حيث يحلو لها ، أو إلى حيث يجب عليها أن تذهب ، إنها لا تتبع احدا لا «انت» ولا «أنا» ولا خوسيه انايسو ، هذا الجاحد، الذى صاح «لقد كنت نسيتهم».

كما عرضوا صورا من البرتغال ، للساحل الاطلسى ، والموج الذى يضرب الصخور أو يقلب الرمل ، وكان هناك ناس ينظرون للافق ، بتلك الهيئة المأساوية التى تميز اولئك الذين استعدوا من قرون لمواجهة المجهول ويخشون الا يحدث شيء أو أن يكون هذا المجهول عاديا وسوقيا ، مثل تلاحق الساعات . الآن هم هناك مثلما وصفهم أونامونو(★)، الوجه الذى لوحته الشمس بين ايديهم cla-vas tus ojos olonde el sol so acueata solo en la men in mensa (★★) كل الشعوب التى يقع البحر على يسارها يفعلون نفس الشيء، الفرق الوحيد أن هذا الشعب داكن الشعر ، وأنه سافر بحرا . وبشكل خطابى قال المذيع الاسبانى المتحمس ، «انظروا إلى هؤلاء البرتغاليين على امتداد شواطئهم الذهبية ، هم الذين كانوا مقدمة لاوربا ولم يعودوا كذلك ، لأننا ننفصل عن الرصيف الاوروبى لكى نمخر من جديد امواج الاطلنطى ، أى امير بحر يقودنا ، وأى مرفأ ينتظرنا»، وفى آخر صورة ظهر صبى صغير وهو يرمى بحجر فى البحر بحيث يقفز الحجر بعد أن يلمس سطح الماء ، وهو فن لا يحتاج إلى تعليم ، وقال جواكيم ساسا» «إن قوته تتناسب مع سنه ، كان لا يمكن للحجر أن

★ كاتب اسبانى وجودى مسيحى (المترجم).

★ انك تغسل عينيك فى المكان الذى تختفى فيه الشمس فى البحر الشاسع (المترجم).

يلمس سطح الماء، وهو فن لا يحتاج إلى تعليم، وقال جواكيم ساسا، «إن قوته تتناسب مع سنه، كان لا يمكن للحجر أن يذهب إلى أبعد من ذلك»، ولكن شبه الجزيرة أو ما تريدون أن تسموها اعطت احساسا بأنها تتقدم بقوة أكبر على البحر الهائج ، وهو أمر غير معتاد قط فى ذلك الفصل من العام . وقرأ المذيع آخر نبأ بدون اهتمام وكأنه لا يوليه أيه عناية ، «يلاحظ على مايبدو أن هناك حركة تنقل للسكان ، إذ يغادر العديد من الناس ديارهم ، وليس فى الاندلس وحدها ، فهناك السبب معروف، وبما أن أكثرهم يتجهون نحو البحر ، فمن المفترض أن الأمر يتعلق بحركة فضول طبيعية ، على أية حال ، فإننا نضمن لمشاهدينا أنه لا يوجد شىء يمكن مشاهدته على الساحل، كما اثبتنا ذلك توا مع هؤلاء البرتغاليين الذين كانوا ينظرون ، وينظرون ولا يرون شيئاً ، علينا ألا نقلدهم» وعندئذ قال بيدرو اورس ، «إذا كان لديكما مكان لى ، سارافقكما» .

لم يرد جواكيم ساسا ولا خوسيه انايسو ، لم يفهما لماذا يريد مواطن اسبانى مطلع لهذه الدرجة التعرف على البرتغال وشواطئه. كان السؤال جيدا وملائما ، وبما أن جواكيم ساسا هو صاحب السيارة ، فعليه هو أن يطرح السؤال ، واجاب بيدرو اورس ، «لا اريد أن أبقى هنا ، مع الأرض التى لا تتوقف عن الاهتزاز تحت قدمى ، وكل هؤلاء الناس الذين يقولون إننى أنا الذى تخيلت كل ذلك»، ورد خوسيه انايسو عليه قائلا : تشعر بالشىء نفه فى البرتغال بالتأكيد ، والناس هناك سيقولون لك نفس الشىء ، ثم إن لدينا مشاغلنا الخاصة » ، «لن ازعجكما ، أننى أطلب منكما اصطحابى فقط ، وتتركانى فى لشبونة ، لم أذهب إليها من قبل، وسأعود يوما ما» ، «واسرتك ، والصيدلية» ، «فيما يتعلق بالاسرة، فلقد فهمتما بالطبع أننى لم يعد لى اسرة ، فأنا آخر افرادها ، أما بالنسبة للصيدلية فسيتم تدبر امرها ، فمساعدى سيهتم بها» لم يكن لديهما شىء يردان به ، ولا مبرر للرفض ، قال جواكيم ساسا ، «يسعدنا أن ترافقنا» ، وذكره خوسيه انايسو، «يجب الا يمسكوك عند الحدود» ، «سأقول لهم إننى ذهبت فى جولة فى اسبانيا،

ولم يمكنني أن أعرف أنه جارى البحث عنى وأننى سأتقدم على الفور للحاكم المدنى، ولكن لن اضطر على الارجح إلى تقديم أى تفسير ، فلابد أنهم يهتمون بالذين يخرجون أكثر من الذين يدخلون » ، «سنعبر من مركز حدودى آخر ، بسبب الزرازير» ، اضاف خوسيه انايسو ، وبمجرد أن قال ذلك ، فتح الخريطة على الطاولة ، وبدت شبه الجزيرة الايبيرية كاملة ، مرسومة وملونة منذ الزمن الذى كان فيه كل شىء لا يزال صلبا، وحيث كانت الجأة العظمية لجبال البرانس تكبح نزعات الحركة والتجول لديها، وفى صمت نظر الرجال الثلاثة إلى التمثيل المسطح لهذا الجزء من العالم ، وكأنهم لا يتعرفون عليه، وهم بيدرو اورس بحدة، «كان استرابا ويقول إن شبه الجزيرة لها شكل جلد ثور» ، وبالرغم من الليلة الحارة ، شعر جواكيم ساسا وخوسيه انايسو بقشعريرة ، كما لو كان الحيوان الخرافى ، الذى تم التضحية به وسلخه لكى يضاف للقارة الاوروبية جلدا سيظل ينزف لقرون وقرون ، قد انتصب امامهما .

كانت الخريطة المفرودة تظهر الجزءين ، البرتغال معلقة وصخرية، وإسبانيا منخلعة نحو الجنوب ، والمناطق والاقاليم والمقاطعات ، وكذلك الحصى الكبير الذى يمثل المدن ، والتراب الناعم الذى يمثل القرى والبلدان، إلا أنها ليست كلها ممثلة لأن التراب كثيرا ما يكون غير مرئى بالعين المجردة ، ولم تكن ڤنتاميسينا سوى مثالا . وتفرد الايدى طيات الورق وتملس عليه ، تمر على الالنتيجو وتستمر نحو الشمال ، كما لو كانت تداعب وجها ، من الوجنة اليسرى إلى الوجنة اليمنى ، إنه اتجاه عقارب الساعة ، اتجاه الزمن ، وتصل إلى بيراس، وقبلها إلى ريباتجو ، ثم إلى تراسوس – مونت ، ومينهو ، وجاليزا ، واستوريس ، وبلاد الباسك وناڤار ، وقشتالة، ودى ليون ، الأراجون ، وكاتالوينا ، وڤالنس، والاسترمادور ، خاصتنا وخاصتهم ، والاندلس ، حيث نوجد الآن ، والجرف ، عندئذ وضع خوسيه انايسو اصبعه على مصب الجاديانا وقال «سندخل من هنا» .

أصبحت الزرازير أكثر حذرا ، بعد أن احترقت برشقات الرصاص عند المعبر الحدودى ، محتفظة بذكرى دامية عن الحادث ، فقامت بعملية التفاف كبيرة فى اتجاه الشمال وعبرت حيث كان الجو خاليا والمرور مفتوحا ، على بعد ثلاثة كيلو مترات تقريبا من الجسر الذى كان قد شيد اخيرا ، فى اللحظة التى نتكلم فيها ، وكان قد آن الأوان لذلك . لم يندهش الشرطى ، على الجانب البرتغالى ، من أن أحد المسافرين كان اسمه جواكيم ساسا، لقد كان واضحا أن مشاغل اكثر خطورة كانت تستغرق تفكير السلطة ، وسرعان ما أخبرنا الحوار الذى اعقب ذلك عن تلك المشاغل ، سأل الشرطى «اين تريدون الذهاب» ، إلى لشبونة» ، اجاب خوسيه انايسو الذى كان يقود السيارة ، ثم أضاف ، «لماذا ، ياسيدى الشرطى»، «ستجدون حواجز على الطرق ، اطيعوا بدقة التعليمات التى تقال لكم ، ولا تحاولوا اجتياز المعابر عنوة أو الالتفاف للعودة على أعقابكم ، لأن ذلك قد يكلفكم غاليا» ، «هل حدثت كارثة»، «إن ذلك رهن للظروف» ، »لا تقل لنا إن الجرف تنفصل الآن هى ايضا ، لاحظ أن ذلك كان لابد أن يحدث ، عاجلا أو آجلا ، لقد كانت لديهم دائما فكرة اقامة مملكة مستقلة» ، «ليس الامر كذلك ، إنه أخطر ، يريد الناس احتلال الفنادق ، ويقولون إذا لم يكن هناك سياح ، فإنهم فى حاجة إلى منازل» ، » لم نعلم بذلك ، متى بدأ هذا الغزو» ، «مساء أمس» ، وصاح خوسيه انايسو مندهشا «هذا اذن ، ولو كان فرنسيا لقال ، «هكذا اذن»، لكل طريقته الخاصة التعبير عن الاندهاش الذى يشعر به الآخر ايضا، ولتسمعوا صوت الكارامبا* الرنانة التى اطلقها بيدرو اورس ، أما جواكيم ساسا فلقد سمع بالكاد يردد «هذا اذن» .

(*) كارامبا: آلة نفخ موسيقية

وتركهم الشرطى يتابعون طريقهم محذرا اياهم مرة ثانية ، «احذروا الحواجز»، واستطاعت السيارة اجتياز ڤيلا ريل دى سانتو انطونيو ، بينما كان المسافرون يعلقون على عملهم الباهر غير العادى ، من الذى يصدق ذلك فى نهاية المطاف أن البرتغاليين ينتمون إلى نوعين مختلفين ، نوع يتدافع نحو الشواطىء والمرتفعات لكى يتأمل الأفق بأسى وحزن ، بينما يتقدم النوع الثانى بجرأة وبسالة نحو القلاع الفندقية التى تدافع عنها الشرطة والحرس الجمهورى، والجيش ذاته ايضا على ما يبدو ، ومن المحتمل أن يكون قد سقط بعض الجرص ، وهو ما قيل لهم سرا فى مقهى توقفوا عنده لالتقاط المعلومات . وعلموا كذلك أن الموقف حرج فى ثلاثة فنادق ، يقع احدهم فى البوفيرا والآخر فى پرايا والثالث فى لاجوس، لدرجة أن قوات الأمن حاصرت المبانى التى تحصن بها المتمردون ، وسدوا عليهم الابواب والنوافذ ، وقطعوا طرق الوصول ، مثل الموره المحاصرين ، إنهم كفار لا مغفرة لهم ، لم يحترموا قانون الايمان ولا يهتمون بالنداءات ولا التهديدات، فهم يعلمون أن الغاز المسيل للدموع سيعقب الراية البيضاء ، لذلك فإنهم يرفضون التفاوض ولا يعرفون كلمة استسلام . وكرر بيدرو اورس منفعلا Caramba بصوت خفيض ، وقد بدا على وجهه نوع من الغيظ الوطنى ، الاسف على أن هذه المبادرة لم يقم بها الاسبان .

منذ الحاجز الأول ، ارادت قوات الأمن أن تغير اتجاههم نحو كاسترو ماريم ، لكن خوسيه انايسو احتج ، قائلا إن لديه قضية مهمة فى مدينة سيلڤ ، ولا يستطيع تأجيل بحثها، لقد قال سيلڤ لكى لا يثير الشكوك ، «على أية حال ، سيتعين على أن اسلك الطرق الداخلية» ، «عليك بأكثر تلك الطرق داخلية إذا رغبت فى تفادى التعقيدات» ، أوصى الضابط المسئول ، مطمئنا للهيئة المسالمة

للركاب الثلاثة ولشكل السيارة المحترم الذى لا يخلو من انهاك ، «لكن ياسيدى الضابط فى موقف كهذا ، عندما تكون البلاد فى غمرة الانجراف – ولا يمكن أن يكون التعبير أكثر ملاءمة – من الذى يمكن أن يهتم باحتلال بعض الفنادق ، إنها ليست ثورة لكى يكون اعلان التعبئة العامة ضروريا ، أحيانا تكون الجماهير نافدة الصبر ، هذا كل ما فى الأمر» كان هذا التعليق لجواكيم ساسا ، فهو قليل الدبلوماسية ، لكن الضابط لم يكن لحسن الحظ ممن يحنثون بوعدهم ، فهو وفى للتقاليد القديمة ، وإلا لكان قد ارغمهم على الذهاب إلى كاستروماريم. غير أن الوقح لم يفلت من التوبيخ العسكرى، «الجيش هنا للقيام بواجبه ، ماذا سيكون رأيكم إذا احتللنا الشيراتون أو الريتز بحجة أن الثكنات ليست مريحة » ، لابد أن هذا الضابط منزعج جدا لكى يتنازل ويرد على مواطن ريفى نكرة» «إنكن على حق تماما ياسيدى الضابط ، فصديقى هكذا دائما لا يفكر فيما يقوله ، بالرغم من أننى اطلب منه أن ينتبه» ، «اذن ، كان عليه أن يفكر ، فهو كبير بما فيه الكفاية» ، وهكذا انهى الضابط الحاسم الحوار . واشار لهم بحركة جافة أن يتقدموا ، دون أن يسمع ما كان يقوله جواكيم ساسا ، وذلك لحسن الحظ ، وإلا لانتهت المغامرة فى السجن .

ولقد تم ايقافهم عند حواجز أخرى ، وكانت حواجز الحرس الجمهورى أقل استعدادا للتجاوب ، حتى أنهم اضطروا للدوران عدة مرات والانعطاف فى طرق رديئة قبل أن يتمكنوا من العودة مرة أخرى إلى الطريق الرئيسى. كان جواكيم ساسا مستاء ، والحق معه ، لقد وجه إليه التوبيخ مرتين، «أن يؤدى الضابط دور الصرامة والشدة فهو أمر مقبول ، لكنك لم تكن فى حاجة لأن تقول إننى لا افكر فيما اقوله» ، «أنا آسف ، كان ذلك لتفادى تفاقم الحوار ، لقد

كنت تمزح مع هذا الرجل ، وهو تصرف خطأ ، لا يجب أبدا المزاح مع السلطة ، لأنهم إما لا يفهمون، وبالتالى يضيع المزاح هباء ، أو يفهمون وهو الأمر الاسوأ». طلب بيدرو أورس منهما أن يشرحا له ، ببطء ، ما كانا يقولانه ، وعندما اضطرا إلى تغيير النبرة ، وتكرار ما حدث، تبين أن القضية ليست لها أهمية ، وعندما فهم بيدرو أورس كل شيء لم يعد يتبقى شيء لكى يفهم .

بعد مفترق طرق بوليكيم ، وعلى جزء من طريق خالٍ، اطلق خوسيه انايسو السيارة عبر الحقول ، دون سابق إنذار ، «مستفيدا من وجود قناة ، وصاح جواكيم ساسا ، «أين أنت ذاهب» اجاب خوسيه انايسو» إذا تابعنا السير على الطريق مثل الاطفال المطيعين ، فلن ننجح ابدا فى الاقتراب من احد هذه الفنادق، ونريد رؤية ما يدور ، نعم أم لا» ، وكان يدير المقود غير المستقر وكله يهتز ، والسيارة تقفز مثل المجنونة على الأرض المحروثة .

وكان يلقى ببيدرو اورس بلا شفقة أو رحمة من جانب المقعد الخلفى إلى الجانب الآخر ، وجواكيم ساسا يصيح بين ضحكتين «تلك دعابة ممتازة ، دعابة ممتازة» . ولحسن الحظ ، وجدوا على بعد ثلاثمائة متر طريقا مختبئا بين أشجار التين ، خلف جدار حجرى منها ، أو أن الزمن انتصر على ملاط الجدار . كانوا تقريبا على مسرح العمليات . وكانوا يقتربون من البوفيرا .. كلها كان ذلك ممكنا، مستخدمين كل الاحتياطات وكانوا يختارون الاراضى المنبسطة ، إن أسوأ شيء هو سحب الأترابة التى تثيرها السيارة فهى ليست موهوبة فى لعب دور الكشاف أو الطليعة ، غير أن الشرطة بعيدة الآن ، فهى تحمى تقاطع الطرق ، مفارق الطرق الرئيسية ، بلغة المواصلات الحديثة ، فضلا عن أن اعداد قوات الأمن ليست بالكثرة التى تمسح لها بالتغطية الاستراتيچية لمثل هذا الاقليم الثرى

بالفنادق كثرائه بأشجار الخروب ، إذا سمح لنا بهذه المقارنة . فى الحقيقة ، عندما يكون الهدف التالى هو مدينة لشبونة ، فإنه لا حاجة للمغامرة فى هذه الانحاء التى يسود فيها التخريب ، لكن من المفيد التأكد من صحة الانباء ، فلقد اتضح فى آلاف المرات أن القصص التى تروى هى عبارة عن حواديت، قد تكون حدثت حالة أو حالتان منعزلتان ، وربما لا تكون الحواجز فى نهاية الامر سوى التطبيق العملى لهذه الفطنة الموصوفة التى تفضل الوقاية على العلاج. لكن كانت هناك عمليات تسلل . فعبر الغابات الصغيرة ، كان الرجال والنساء يتقدمون وهم يطأون بقلق الأرض الحمراء ، حاملين على ظهورهم اكياسا وحقائب وصررا، وعلى اذرعتهم الاطفال الصغار ، وهكذا بمقتنياتهم الهزيلة ، واهلهم ، وزوجاتهم ، واطفالهم كضمان يعتقدون أنهم يستطيعون أن يجدوا مكانا فى الفندق، وبعد ذلك، إذا مر كل شيء على ما يرام ، سيحضرون باقى العائلة مع السرير، والخزانة، والمائدة ، لعدم توافر ثروات اكثر تنوعا ، ولم يتذكر أحد منهم أن الاسرة والطاولات موجودة بوفرة فى الفنادق ، وإذا كانت هناك ندرة فى الخزائن فإن الدواليب تحل محلها وبشكل مفيد .

وعلى ابواب البوفيرا ، كان يجرى الاعداد لمعركة مواجهة ترك المسافرين السيارة خلفهم ، لكى ترتاح فى الظل . فمن غير المجدى الاعتماد عليها ، فى مثل هذا الموقف ، فهى كائن آلى ، بلا انفعالات ، تذهب إلى حيث تقاد ، وتبقى حيث تكون، لا يهمها فى كثير أو قليل أن تبحر شبه الجزيرة أو لا تبحر ، فلن تبدو المسافات أقصر لأن شبه الجزيرة تتحرك . وكما كان يحدث قديما ، فى العصور القديمة للحروب ، سبقت المعركة مقدمة خطابية ، مصحوبة بتحديات ، وتوجيه العظات والنصائح للجنود ، وصلوات للسيدة العذراء أو للقديس چاك ، إن الكلمات طيبة

دائما فى البداية ، ولكن نتائجها هى التى تكون مرعبة ، وفى البوفريا لم تجد مخاطبة زعيم جماعات الغزو الشعبية للجنود شيئا ، بالرغم من أن خطبته كانت جميلة ، « أيها الحرس، والجنود ، ايها الاصدقاء ، افتحوا آذانكم جيدا ، واعيرونا انتباهكم ، انكم أبناء الشعب مثلنا ، لا تنسوا ذلك ، هذا الشعب المضحى به الذى يبنى البيوت ولا يسكن فيها ، ويشيد الفنادق ولا يملك المال لكى يقيم فيها، إننا هنا مع اطفالنا وزوجاتنا ، لا لكى نطلب منكم قطعة من السماء ، لكن لكى نحصل على مسكن كريم ، سقف صلب ، غرف لكى ننام فيها بالاحترام والاحتشام الجديرين بالآدميين ، نحن لسنا حيوانات ولا آلات ، إن لدينا مشاعر ، وهذه الفنادق خالية ، وتوجد فيها مئات وآلاف الغرف ، لقد بنيت هذه الفنادق للسياح والآن رحل السياح ولن يعودوا ابدا ، لقد كنا مستسلمين لأن نعيش بشكل ردىء ، ماداموا موجودين ، الآن من فضلكم ، اتركونا ندخل ، سندفع ايجارا مماثلا للايجار الذى كنا ندفعه لبيوتنا ، ولن يكون من العدل مطالبتنا بالمزيد ، واننا نقسم لكم بكل ما هو مقدس ، وبكل ما هو غير مقدس ، أن كل شىء يكون نظيفا دائما ومرتبا ، وفى هذا المجال لا توجد امرأة تصل إلى مستوى نسائنا، إننى اعرف والحق معكم ، هناك الاطفال ، والاطفال القذرون يسببون قدرا كبير من القذارة ، لكن هؤلاء سيكونون نظيفين وانقياء ، اعدكم بذلك ، وهو أمر سهل ، فكل غرفة على حد علمنا ، لها حمام ، مزود بدش أو مغطى حسب الاختيار ، وبماء ساخن وبارد ، وبالتالى لن تكلف النظافة شيئا فى ظل هذه الظروف ، أما بالنسبة لابنائنا الذين أصبحوا كبارا ويحملون آفة القذارة فى جلدهم ، فإن كانوا لم يعتادوا بعد على النظافة ، فإن ابناءهم انفسهم يعدوكم بأنهم سيصبحون انظف مخلوقات العالم ، يكفى منحهم بعض الوقت ، وعلى أية حال ، فإن كل ما يحتاجه

البشر هو الوقت ، وهو كل ما يملكونه ، والباقى ليس سوى وهم» ، ولم يتوقع أحد ذلك ، فهاهو زعيم المتمردين يستسلم للفلسفة.

تدل قسمات الوجه على أن الجنود هم حقا من ابناء الشعب ، وتؤكد ذلك بطاقات الهوية ، أما بالنسبة لضابطهم فهو إما أنه ينتمى ايضا إلى ابناء الشعب وتخلى عن اصوله المتواضعة على مقاعد الدراسة ، أو أنه ينتمى منذ ميلاده للطبقات العليا ، التي شيدت لها فنادق الجرف ، ولا يسمح لنا رده بمعرفة اصوله الطبقية حيث قال: «تراجعوا ، وإلا ستتلقون الضربات على وجوهكم» ، لغة فظة وهى ليست وقفا على الطبقات الشعبية وحدها . كان الجنود يرون فى هذا التجمع الصورة العزيزة للأب والأم ، لكن الواجب الذى ينادى علينا هو الأقوى ، تقول الأم للابن الذى يهم بضربها بالسيف ، «أنت نور عيونى» . لكن القائد المدنى صاح ساخطا ، وقد جعل اليأس الصوت والحركة يبدوان مضحكين ، «ياسلالة الكلاب ، يامن لا تتذكرون الثدى الذى ارضحكم» ، وهو اتهام يفتقر إلى العقل والموضوع، لأنه لا يوجد ابن أو ابنة يتذكران ذلك ، وإن كانت هناك وفرة من الحجج التى تؤكد لنا أننا نحتفظ سرافى قاع وعينا بتلك الذكريات المرعبة ، وذكريات أخرى أيضا ، وأن حياتنا كلها مصنوعة من ذلك الرعب ، والعديد من أشكال الرعب الأخرى .

لم يتقبل الضابط قط وصفه بأنه كلب وصاح ، «حرس سلاح» فى اللحظة نفسها التى كان زعيم الغزاة يصيح فيها من جانبه مندفعا ، «إلىّ يامحبى الوطن»، وكان التلاحم شاملا ، جسما لجسم ، وكانت الصدمة مروعة ، وعندئذ وصل جواكيم ساسا وبيدرو اورس وخوسيه انايسو إلى موقع العمليات ، إنهم فضوليون لكن ابرياء ، وهناك وقعوا فى ورطة ، لأن الجنود فقدوا صوابهم ، ولم يعودوا يميزون بين المشاهدين والممثلين ، ويمكن القول إن الأصدقاء الثلاثة وإن

كانوا ليسوا فى حاجة إلى بيت إلا أنه تعين عليهم أن يقاتلوا من اجله . وكان بيدرو اورس، بالرغم من سنه، يقاتل كما لو كانت هذه الأرض هى أرضه ، وكان الآخران يبذلان أقصى جهدهما ، ربما ليس تماما ، لانهما ينتميان إلى سلالة مسالمة . وكان يتم سحب الجرحى إلى حافة الطريق ، وكانت النساء تنفجرن فى البكاء وصب اللعنات ، أما بالنسبة للأطفال ، فلقد تم وضعهم فى مأمن فى العربات الخاصة بهم ، لمعارك القرون الوسطى ، مفردات العصر الخاص بها . ومن على بعد ألقى مراهق اسمه داوود بحجر اسقط به الضابط جالوت الذى بدأ ينزف من جرح عميق فى الفك ، ولم تستطع خوذته الفولاذية أن تحميه ، وهكذا تكون النتيجة عندما يكف المقاتلون عن استخدام الخوذة وغطاء الخوذة ، لكن الأسوأ حدث فى فوضى الهزيمة ، عندما احاط المتمردون بالجنود ، والتفوا حولهم، تكتيك غريزى ولكنه عبقرى ، ذلك قبل أن يتشتتوا سريعا فى الشوارع الملتوية والطرق العرضية المختصرة ، بحيث يمنعون العسكريين الذين يحاصرون الفندق المحتل من أن يهرعوا لتقديم العون والتعزيز للكتيبة المهزومة ، لا أحد يتذكر مثل هذه الاهانة منذ العصور القديمة لثورة الفلاحين . وقام أحد أصحاب الفنادق الذى اختل تفكيره أو تحول فجأة وأصبح إلى جانب المصالح الشعبية ، بفتح ابواب فندقه على مصاريعها قائلا : «ادخلوا ، ادخلوا ، انتم أفضل من الصحراء».

ولقد سمح هذا الاستسلام السهل لكل من بيدرو اورس وخوسيه انايسو وجواكيم ساسا أن يحتلوا غرفة لم يحاربوا حقا من اجلها ، وتخلوا عنها بعد ذلك بيومين لاسرة محتاجة تضم جدة مشلولة وجرحى يتعين علاجهم . وفى وسط فوضى لم يسبق لها مثيل ، فقد ازواج زوجاتهم ، واطفال اهلهم ، لكن نتيجة هذه

الاحداث المثيرة ، وهى واقع لا يمكن لأحد قط اختراعه ويثبت فى حد ذاته صدق القصة ، كانت النتيجة ، كما كنا نقول ، أن اسرة واحدة ، مجزأة ولكنها مدفوعة فى كل اجزائها المضطربة بنفس الديناميكية ، احتلت عدة غرف فى فنادق مختلفة، وأصبح من الصعب نسبيا أن يجتمع تحت سقف واحد من كانوا يقولون إنهم يتطلعون إلى ذلك ، وبشكل عام انتهى الأمر بالجميع إلى الإقامة فى الفندق الذى يتمتع بعدد أكبر من النجوم . وطالب مفوضو الشرطة وكولونيلات الجيش والحرس بتعزيزات ، وبسيارات مصفحة وبتعليمات من لشبونة ، وكانت الحكومة ، التى لم تعد تعرف كيف تتصرف ، تصدر اوامر وسرعان ما تلغيها ، تهدد وتتوسل ، بل يقال إنه قد تمت إقالة ثلاثة وزراء . وفى غضون ذلك ، كان يمكن مشاهدة الاسر المنتصرة فى نوافذ الفنادق المطلة على الشاطىء وشوارع البوفيرا ، بشرفاتها الواسعة الجميلة ومائدة الافطار ومقاعد الشيزلونج المزينة بالوسائد ، وكان رب الأسرة يدق المسامير الأولى ويمد الحبال التى سيتم نشر غسيل الاسبوع عليها ، الغسيل الذى بدأت ربة الاسرة تغسله فى الحمام وهى تدندن . وكانت أحواض السباحة تضج بالغطاسين والسباحين لم يفكر أحد فى أن يقول للصبية إنه كان يتعين عليهم أن يمروا أولا تحت الدش ، وبعد ذلك فقط ، يغطسون فى المياه الزرقاء ، لن يكون من السهل جعل هؤلاء الناس يتخلون عن عادات احيائهم العشوائية .

إن النماذج السيئة تتكاثر وتزدهر اكثر بكثير من التعاليم الطيبة ، وبشكل افضل ايضا ، ولا يعرف أحد الطرق السريعة التى اعتادت هذه النماذج السيئة أن تنتقل عبرها ، لأن الحركة الشعبية لاحتلال الفنادق عبرت فى مدى بضع ساعات الحدود ، وانتشرت مثل بقعة زيت عبر كل اسبانيا ، ولكم أن تتخيلوا ما

يمكن ان ينجم عن ذلك فى ماربيلا وتورمو لينوس حيث الفنادق اشبه ما تكون بالمدن ، وحيث تكفى ثلاثة فنادق لتكوين مدينة كبيرة . وعندما علمت اوروبا بهذه الانباء المقلقة بدأت تطلق الصرخات «فوضى ، اضطراب اجتماعى ، اعتداء على الملكية الخاصة» ، وفى صحيفة فرنسية ، من تلك الصحف التى تشكل الرأى العام، كان العنوان الرئيسى الذى يحتل كل عرض الصفحة الأولى والمكتوب بشكل غامض ، يقول : «لا يمكن الافلات من الطبيعة» واصابت هذه الحكمة ، غير المبتكرة، الهدف، لأن الناس فى اوروبا عندما كانوا يتكلمون عن شبه الجزيرة الايبيرية السابقة ، كانوا يهزون الاكتاف ، ويقولون لبعضهم البعض ، «ماذا تريدون ، إنهم كذلك لا يمكن الافلات من الطبيعة» ، وجاء الاستثناء الوحيد لهذه الجوقة الشاجبة من صحيفة صغيرة ومكياڤيللية تصدر فى نابولى ، حيث اعلنت ، «لقد تم حل مشكلة الاسكان فى البرتغال واسبانيا» .

وخلال الايام القليلة التى قضاها الاصدقاء الثلاثة فى البوفيرا حاولت شرطة التدخل السريع ، تساندها قوات العمليات الخاصة ، القيام بعملية اجلاء قسرى لاحد الفنادق ، لكن رد الفعل المشترك للزبائن الجدد والملاك ، والذى جاء متطابقا، اوقف العمليات ، فالفريق الأول مصمم على المقاومة حتى آخر غرفة ، فى حين يخشى الفريق الثانى التخريب المعتاد للمنقذين ، وبالتالى تم تأجيل عملية الاجلاء إلى فرصة اخرى ، عندما يتولى الوقت والوعود تحذير اليقظة والحذر . استأنف بيدرو اورس وجواكيم ساسا وخوسيه انايسو رحلتهم نحو لشبونة، بينما كانت مجالس السكان المنتخبة ديمقراطيا ، فى المبانى المحتلة ، قد شكلت لجانا متخصصة ، وهى لجنة الصحة والصيانة، ولجنة الطهى ، ولجنة الغسيل ، ولجنة للاحتفالات والترفيه ، وأخرى للنشاط الثقافى ، والتعليم والتدريب المدنى ، ولجنة

للتربية البدنية والرياضية ، وأخيرا لجنة لكل ما لا غنى عنه لانسجام أى جماعة أو طائفة ولانتظام عملها . وكانت ترفرف فوق كل سارية مرتجلة اعلام ورايات صغيرة من جميع الألوان ، ولقد تم استخدام كل شيء ، اعلام كل البلاد ، ورايات الاندية الرياضة والجمعيات المختلفة ، كل ذلك فى ظل رمز الوطن الذى يتجاوزهم جميعا ، بل كانت هناك حاشيات معلقة فى النوافذ ، فى منافسة زخرفية صحية .

غير أن تطبيق الاجتماع الخاص بتنسيق ادوات الاضراب ، على الحالة التى تهمنا ، بما يعنيه هذا اللقاء دائما من وجود معارضة ، سواء حصرا أو اختلافا ، يذكرنا بأن ما يناسب البعض قد لا يناسب الآخرين بالضرورة ، وكان الاحتلال الهمجى للفنادق بمثابة نقطة الماء التى جعلت الكيل يطفح بالنسبة للقلق والتوتر الذى كان يعيش فيه الاغنياء والاقوياء منذ الساعات الأولى . لقد هرب اغلبهم ، حين هروب السياح ، خوفا من أن تختفى شبه الجزيرة ومعها حياتهم وممتلكاتهم، وذلك لا يعنى بالطبع انهم كانوا غرباء على أرضهم ، وإن كانت هناك درجات مختلفة للانتماء للوطن ، ذلك الوطن الذى هو طبيعيا واداريا وطننا ، كما اثبت التاريخ ذلك فى كثير من الأحيان .

الآن وقد تمت ادانة هذه الوقاحات عالميا ، بل وأكثر من عالميا ، كونيا ، ذلك إذا استثنينا رد الفعل غير اللائق لصحيفة نابولى الرديئة ، كان يتم مشاهدة موجة هجرة ثانية ، وهى هجرة كثيفة لدرجة تسمح بافتراض انها رتبت بدقة متناهية ، بعد أن أصبح جليا فى عيون الجميع أن الجروح التى اصابت ما كان ، حتى أمس، اوروبا الكاملة لا يمكن أن تندمل ابدا ، وأن البنية المادية لشبه الجزيرة اختارت الجانب الاقوى ، من كان يمكنه تصور حدوث شيء مماثل . لقد تناقضت فجأة الحسابات المصرفية ، ولم يبق فى البرتغال سوى خمسمائة اسكودة رمزية ، وفى إسبانيا خمسمائة بيزيتا بالكاد ، لقد تم سحب كل الودائع الاذنية ، وتعرضت

الودائع الآجلة لبعض الخسائر ، وجرف عصف الريح القوى الذى كسح البحر فى الاتجاهات الاثنين والثلاثين لدوارة الرياح ، كل الذهب والفضة والاحجار الكريمة والمجوهرات والأعمال الفنية والصكوك ، كلها بشكل مطلق ، وربما يستعيد الهاربون املاكهم العقارية ذات يوم ، بعون الصبر والزمن ، من الواضح أن مثل هذه التغيرات لا يمكن أن تحدث فى أربع وعشرين ساعة ، غير أن اسبوعا يكفى لتبديل السيماء الاجتماعية للبلدين الايبيريين جذريا رأسا على عقب ومن جانب إلى آخر . إن المراقب الذى يجهل الوقائع والدوافع ، والذى قد ينخدع بظاهر الأشياء ، يمكن أن يستنتج أن بين لحظة وأخرى أصبح البرتغاليون والاسبان فجأة فقراء ، فى حين أن وصف الاشياء بطريقة دقيقة ، يتطلب فى نهاية الأمر القول بأن الاغنياء فقط هم الذين رحلوا ، وإن كان علم الاحصاء يعانى ، حقيقة ، منذ أن اصبحوا غير موجودين هناك .

أننا لن نمل ابدا من أن نكرر للمراقبين القادرين أن يروا جبل الأوليمب بآلهته من ذكور واناث حيث لا يوجد سوى سحب بسيطة ، أو لأولئك الذين يرون امام اعينهم جوبيتر راعدا ويصفونه بأنه بخار جوى ، لهؤلاء واولئك ، لن نمل ابدا من تكرار أنه لا يكفى الحديث عن الظروف وعن تقسيمها إلى قطبين ما بين مقدمات ونتائج ، كما يتم ذلك عادة لتفادى أى مجهود ذهنى ، ولكن من الضرورى إن يؤخذ فى الاعتبار ما يقع حتما بين المقدمات والنتائج ، ولنذكر على هذا الاساس وبالتمام الزمان والمكان ، والدافع ، والوسائل ، والشخص ، والواقعة والاسلوب ، وإذا لم يتم وزن وتقدير كل ذلك ، فإن الخطأ المحتوم للانطباع الأول يتربص بنا ، إن الانسان كائن ذكى بلا شك ، ولكنه ليس ذكيا بالقدر المرجو ، ويتعلق الامر هنا بتقرير واقع وباعتراف بالتواضع ، لأنه يتعين علينا دائما ، قبل أن يُقذف بالحقيقة فى وجوهنا ، أن نكون قد قمنا بذلك فى مواجهة انفسنا ، كما يدعى المثل القائل بضرورة أن يبدأ البر المطلوب مع النفس اولا .

بلغوا لشبونة وقت الغروب، فى الساعة التى تقطر عذوبة السماء فى الارواح حزنا عذبا ، الآن يدرك المرء إلى أى مدى كان المترجم الرائع للاحاسيس والانطباعات على حق عندما اكد ذات يوم أن المنظر الطبيعى هو حالة نفسية ، غير أنه لم يعرف أن يخبرنا عما كان سائدا فى الأزمنة القديمة ، تلك الأزمنة التى لم يكن موجودا فيها سوى رجال جاوا ، الذين كانوا لا يتمتعون إلا بقدر قليل من النفس ، والتى كانت فضلا عن ذلك غامضة ومضطربة . وبعد ذلك بآلاف السنين ، وبفضل التحسينات ، تمكن بيدرو اورس أخيرا من أن يتعرف فى الكآبة الظاهرية للمدينة على صورة حزنه الخاص الحميم . لقد اعتاد على رفقة هذين البرتغاليين اللذين جاءا للبحث عنه فى تلك الأراضى القاحلة حيث ولد وحيث يعيش ، وسرعان ماسيتعين عليهم أن يفترقوا ، وسيرحل كل إلى حال سبيله ، إذا كانت الاسر ذاتها لا تقاوم تآكل الضرورة، فما الذى يمكن أن يحدث بالنسبة لمجرد معارف ، لا تربطهم سوى صداقة حديثة العهد ورقيقة الجذور .

تعبر السيارة الجسر ببطء ، بالحد الأدنى للسرعة المسموح به ، وذلك لإتاحة الفرصة للإسبانى لكى يتأمل جمال المناظر الطبيعية سواء على اليابسة أو فى البحر ، وكذلك البناء العظيم الذى يربط ضفتى النهر ، صياغة تلميحية ، إننا نتكلم عن الجملة بالطبع ، لقد استخدمت هذه الصياغة فقط لتفادى تكرار كلمة جسر ، وهو ما كان سيحدث خطأ نحويا من نوع اللغو والحشو والاسهاب . أن الخط المستقيم فى مختلف الفنون ، وفى فن الكتابة بشكل اساسى، ليس أفضل طريق بين نقطتين ، حتى لو قريبتين ، ولم يكن كذلك أبدا ولن يكون قط ، مطلقا وابدا ، وهى طريقة حازمة ومبالغة لاسكات الشكوك .

كان المسافرون مستغرقين تماما فى تأمل جمال المدينة وما يسببه لهم هذا العمل المعجز من نشوة حتى أنهم لم يلحظوا أن الزرازير تخلصت فجأة من

رعبـها. وانطلقت نشوانة من العلو ، تلامس بشكل خطر الأعمدة العملاقـة التى تبرز من الماء لكى تسند السمـاء ، ويبدو زجـاج نوافـذ المدينة مـتـوهـجـا من هذا المكان ، والبحـر فى البعيد، والشمس ، بينما يمر النهر الكبيـر فى الأسفل غير مكترث ، مـثـل تدفق لافـا حـارقـة تحت الرمـاد ، وكـانت الطيـور تغيـر فـجـأة من اتجاهها مطلقة ضربات اجنحة صغيرة سريعة ومتتالية ، ويدا الأمر كأن الأرض تدور حول الجسر ، بحيث يصبح الشمال شرقا ثم جنوبا ويغدو الجنوب غربا ثم شمالا ، فى أى مكان من العالم نجد أنفسنا لو قدر لنا أن نلف بـدورنا مثلهم أو حتى أكثر منهم . لقد سبق القول ، أن البشـر لا يفهـمون هذه الأشيـاء بالرغم من أنهم يشاهدونها ، وكان الأمر كذلك هذه المرة أيضا .

كانوا فى منتـصف الجسـر عندمـا تمتم بيـدرو اورس ، «مـدينة جـمـيلة» ، لا تتطلب هذه الكلمات اللطيفة ردا ، إلا إذا كان متواضـعـا ، «هذا حـقيقى فعلاً » . كان الوقت مبكرا جدا لترك بيدرو اورس فى أحـد الفنادق ومـتـابعـة الرحلة إلى قرية ريباتجو حيث يعيش خوسيه انايسـو وحيث يستطيع جواكيم ساسـا ، إذا طاب له ذلك ، أن يقضى الليلة مرة أخرى تحت شـجـرة التين ، غيـر أنه من غـيـر اللائق ترك من جاء ليزورهمـا ، لذا قرر البرتغاليـان باتفاق مشـترك البقاء يوما أو يومين ، الوقت اللازم لكى يتعرف الاسبانى على المدينة بدرجة كافية بحيث يجعلها مـدينتـه ويقول عند عودتـه إلى بلده كلمـات الحـقيـقـة القـديمة البـريئة، «من لم ير لشبـونة لم ير مـدينة طيبـة» ، حـمـد الله الذى منحنا القـوافى دون أن يسـحب منا حمايته .

لا ينقص جواكيم سـاسـا وخوسـيـه انايسـو المال ، فلقد حـمـلا مـعـهـمـا فى مغامرتهمـا عبـر الحدود والعودة كل ما يملكانه ، بل لقد نجـحـا فى تحـقيق بعض

المدخرات ، وذلك بالنوم أحيانا فى العراء ، ومرة عند صيدلى أندلسى ، أما فى الجرف فكان الوضع الفوضوى لصالحهما لأنهم نسوا فى الفندق أن يقدموا لهما كشف الحساب . وفى لشبونة ، حيث وصلوا لتوهم ، كانت فنادق الضواحى فقط هى التى تم الاستيلاء عليها عنوة ، وكانت كاملة الاشغال ، أما الفنادق الأخرى الواقعة فى وسط العاصمة ، فلقد استفادت فى حمايتها من عاملى ردع مجتمعين، العامل الأول ، أنها العاصمة ، وهى المكان الذى تتركز فيه اكبر كمية من قوات السلطة وقوات القمع ، مثل كل العواصم فى العالم ، والعامل الثانى يتعلق بالوجل الذى يتميز به ساكن المدينة والذى يتعين اخذه فى الاعتبار ، فهو كثيرا ما يعانى ويتضايق من الشعور بأن جاره يراقبه ويحكم عليه ، والعكس بالعكس ، فإن الطفيل الموجود فى قطرة الماء يسبب تشويشا للعدسة والعين التى تراقبه من وراء هذه العدسة وتسبب له الاضطراب . ونظرا لقلة الزبائن ، اغلقت كل الفنادق تقريبا ابوابها ، وكان العذر هو القيام بأعمال الصيانة ، لكن كان هناك بعض الفنادق لا تزال تعمل مستخدمة الحد الأدنى للأسعار والتى قامت بتخفيضها ايضا ، لدرجة أن ارباب الكثير من الأسر بدأوا يفكرون فى احتمال ترك المنازل التى يدفعون لها ايجارات باهظة والاستقرار فى المريديان والفنادق الأخرى من الفئة نفسها . إن مثل هذا التغيير الكبير فى الوضع الاجتماعى لم يدخل فى طموحات مسافرينا الثلاث ، لذلك ذهبوا للاقامة فى فندق متواضع يقع فى نهاية شارع اليكريم على اليسار فى الاتجاه النازل ، إن اسم الفندق لن يضيف شيئاً لذكاء هذه الرواية ، مرة واحدة تكفى ، وربما كان يمكن الاستغناء عنها .

إن الزرازير لا تغدو إلا أن تكون زرازير ، ويطلق احيانا على الاشخاص

الطائشين والرعناء كنية الزرازير ، وهو ما يعنى أن الفريقين لا يميلان كثيرا إلى التفكير فى تصرفاتهما ويعجزان عن تخيل أو توقع ما هو أبعد من اللحظة الحاضرة ، وهو ما لا يتعارض مع شهامة وكرم بعض اساليبهما، والتى يمكن أن تصل إلى حد التضحية بالحياة ، كما تم التأكد من ذلك اثناء مشهد الحدود ، عندما سقط عدد كبير من الأجساد الصغيرة الرخصة ميتة ، وسال دمهم النفيس من أجل قضية غريبة عنهم ، ننبه إلى أن الموضوع يتعلق بالطيور وليس بالبشر لكن أقل ما يمكن قوله ، إن وقوف آلاف الطيور بلا حذر على سطح أحد الفنادق ، لافتة بذلك انتباه الناس والشرطة وعلماء الطيور وهواة الطيور المقلية ، يدل على طيش وحماقة ، لأنها تكشف بهذا التصرف عن وجود الرجال الثلاثة الذين هم مركز اهتمام السلطات المزعج ، بالرغم من عدم وجود أى شيء موجه ضدهم . لقد كان المسافرون يجهلون أن الصحافة البرتغالية نشرت فى الصفحة اليومية ، التى تخصصها من الآن فصاعدا للحالات الغريبة ، هجوم الزرازير على حرس الحدود الذين أخذوا على غرة ، مشيرين ، كما هو متوقع ، إلى فيلم هتشكوك عن حياة الطيور ، الذى سبق ذكره .

وبمجرد علم الصحافة والاذاعة والتليفزيون بهذه الاعجوبة التى وقعت فى كيس دو سودرية ارسلت المراسلين والمصورين وفنيى الفيديو إلى مكان الحادث ، وكان من الممكن الا يكون لذلك أى تأثير ، لولا التفكير المنهجى ، ولماذا لا نقول العلمى ، لأحد الصحفيين ، الذى قاده إلى التساؤل عن العلاقة السببية المحتملة بين وجود الزرازير فى الخارج ، على السطح ، ونزلاء الفندق ، الدائمين أو عابرى السبيل الموجوين فى الداخل . وكان جواكيم ساسا وخوسيه انايسو بيدرو اورس، كل فى حجرته يرتبون الاشياء القليلة التى سيسافرون بها ، غير مدركين للخطر

الذى يحوم حرفيا على رؤوسهم ، وخلال بضع دقائق سيكونون فى الشارع للقيام بجولة أولى فى المدينة انتظارا لساعة العشاء. لكن فى هذه اللحظة بالذات كان الصحفى النافذ البصيرة يفحص سجل النزلاء ، ويقرأ الأسماء ، فإذا باسمين من بين الاسماء يهزان بلطف تروس ذاكرته ، جواكيم ساسا بيدرو اورس ، لو لم يتذكر هذين الاسمين لما كان من محترفى الاعلام الجيدين ، كان من الممكن أن يحدث الشىء نفسه مع اسم آخر ، هو ام ريكاردو ريس ، لكن الدفتر الذى سجل فيه هذا الاسم ذات يوم ، منذ سنوات طويلة ، موجود فى المخزن ومغطى بالتراب ، ومن المحتمل لا ترى الصفحة التى سجل فيها هذا الاسم ضوء النهار ابدا ، وإذا رأته، فربما لا يمكن قراءة شىء فى هذه الصفحة ، لأن السطر أبيض أو الصفحة بيضاء ، فالمحو أحد تأثيرات الزمن. حتى ذلك اليوم ، كانت ذروة فن الصيد هى قتل ارنبين بطلقة واحدة ، لكن ابتداء من الآن أصبح عدد الارانب التى فى متناول المهارة البشرية هو ثلاثة ، ومن ثم فمن المناسب تصحيح كلمات مؤلفى الامثال بحيث يتعين أن يفهم عند قراءة كلمة اثنين فى المثل أن المقصود هو ثلاثة ، وربما لا يتوقف العدد عند ذلك الحد .

لقد تمت دعوتهم للنزول إلى الاستقبال ، وعندما استقروا بعد ذلك فى البهو ، فى مواجهة مرآة الحقيقة الكبيرة ، لم يستطع جواكيم ساسا وبيدرو اورس ، أمام إلحاح الصحفى ، أن يفعلا شيئا سوى تأكيد أنهما على التوالى الرجل الذى قذف بالحجر فى البحر والجهاز الحى لقياس الزلازل . وعندئذ ابدى الصحفى الذكى الملاحظة التالية ، «لكن الزرازير ، فالامر ليس صدفة أن يتجمع كل هذا العدد من الزرازير هنا » ، واجاب عليه خوسيه انايسو متضامنا مع اصدقائه وامينا فى نقل الوقائع ، «إن الزرازير تسافر معى» وتطابقت أغلب الاسئلة التى طرحت على جواكيم ساسا مع الحوار الذى سبق أن تخيله بينه وبين حاكم مدنى ، ولذلك لن

نكرره ، وكذلك اجاباته ، أما بيدرو اورس ، الذى لم يتمكن أن يكون نبيا كاملا فى بلده ، فقد قدم شرحا مطولا للاحداث التى وقعت له مؤخرا ، قائلا إنه لا يزال يشعر باهتزاز الأرض بشكل قوى وعميق مثل ذبذبة تتصاعد عبر عظامه ، وأنه خضع فى غرناطة واشبيلية ومدريد لاختبارات متعددة سواء عاطفية أو فكرية أو حركية أو حواسية ، مؤكدا أنه مستعد تماما للخضوع إلى فحوص مماثلة أو مختلفة ، إذا رأى العلماء البرتغاليون أن ذلك مناسب . وأثناء ذلك ، كان الليل قد هبط ، وانسحبت الزرازير المسئولة عن هذا التحقيق بنظام وتوزعت فى اشجار الحدائق المحيطة، وبعد استنفاد الاسئلة والفضول ، رحل الصحفيون والكاميرات والكشافات ، غير أن الهدوء لم يعد مع ذلك إلى الفندق ، حيث كان الخدم والعاملون يخترعون كل أنواع الذرائع لكى يأتوا إلى قائمة الاستقبال ليلقوا نظره على البهو ويشاهدوا رؤوس هذه الظواهر.

ونظرا لشعورهم بالانهاك من هذه الانفعالات المستمرة ، قرر الأصدقاء الثلاثة ألا يخرجوا وأن يتناولوا العشاء فى الفندق. وكان بيدرو اورس قلقا من عواقب الثرثرة التى استسلم لها، «والقول بأنه تم توصيتى بشدة بالا افتح فمى بخصوص هذه القضية ، لن يكونوا سعداء، فى أسبانيا ، عندما يعرفون ، لكن إذا بقيت هنا بضعة ايام ، ربما ينتهى بهم الأمر إلى نسيانى» كان خوسيه انايسو يشك بشدة فى ذلك ، «غدا ، تكون قصتنا فى كل الصحف ، ومن المحتمل أن يقوم التليفزيون بالحديث عنها من اليوم، أما بالنسبة لرجال الاذاعة فلن يقبلوا بأن يكونوا متخلفين عن الركب ، إنهم لا يشبعون» ، وقال جواكيم ساسا ، «وأيضا ، أنت من بيننا نحن الثلاثة الذى يتمتع بموقف اكثر راحة ، إذ يمكنك دائما أن تدفع بأن الزرازير ، وإن كانت تتبعك ، فإنك لا دخل لك فى ذلك ، فأنت

لا تصفر لهم ولا تطعمهم ، لكن الموقف مختلف بالنسبة لنا ، فنحن فى مأزق إنهم ينظرون إلى بيدرو اورس كما لو كان حيوانا غريبا ، ولن يترك العلم البرتغالى مثل هذه الفرصة لإجراء التجارب على الرجل ، أما بالنسبة لى ، مع قصتى الخاصة بالحجر فلن يتركونى وشأنى» قال بيدرو اورس مذكرا «لديكما السيارة ، ارحلا غدا فى وقت مبكر جدا ، أوْ حتى هذه الليلة ، أنا سابقى ، وإذا سألونى أين ذهبتما سأقول لهم أننى لا أعرف شيئاً»، أجاب خوسيه انايسو «لقد فات الاوان الآن ، فبمجرد ظهورى على شاشة التليفزيون لن يفوت الناس فى القرية أن يتصلوا هاتفيا ليقولوا أنهم يعرفوننى»، وأننى مدرس فى المدرسة ، وأنهم كانوا يرتابون فى شىء ما ، إنهم عطشى للشهرة» ، ثم اضاف ، الأفضل أن نبقى معا، لن نتكلم إلا فى أضيق الحدود ، وسينتهى بهم الأمر إلى أن يسأموا» .

وكما كان متوقعا ، ظهروا فى آخر نشرات الاخبار المصورة ، من خلال تحقيق كامل وشامل ، حيث ظهرت الزرازير وهى تزين واجهة الفندق ، والمدير منهمك فى الادلاء بتصريحات نعرف أنها كاذبة ، كما سيتم اكتشاف ذلك على الفور، فلقد أعلن ، «أنه أول حـــدث كبير فى تاريخ هذه المؤسسة الفندقية» ، بينما كان الاعاجيب الثلاث ، بيدرو اورس وجواكيم ساسا وخوسيه انايسو ، يجيبون على الأسئلة .

وكما فى كل مرة يتطلب الأمر فيها اقناع الجمهور ويعتقد البعض بضرورة تقديم سلطة اضافية ، فلقد تم احضار خبير إلى الاستوديو ، وفى هذه الحالة ، كان الخبير متخصصا فى علم النفس الديناميكى ، وهو تخصص حديث ، وأعلن بين وجهات نظر اخرى حول موضوع القضية ، أنه «لا يمكن استبعاد افتراض أن نكون أمام حالة دجل»، «من المعروف أن فى فترات الأزمة مثل التى نمر بها ،

يكون هناك دائما محتالون ، والهدف المباشر لهؤلاء الأشخاص الذيى يحكون قصصا ويحاولون استغلال سذاجة الجماهير الشعبية ، هو فى كثير من الاحيان احداث بلبلة سياسية ، أو على المدى الطويل ، خدمة مخططاتهم الرامية إلى الاستيلاء على السلطة» ، عندئذ صاح جواكيم ساسا محذرا ، «إذا تغلبت وجهة النظر تلك ، فسيكون حسابنا عسيرا» ، وسأل المذيع ، و «الزرازير ، ما تفسيرك لها» ، «إنها لغز جذاب ، فالشخص الذى يتبعونه إما أنه مزود بصفارة لا تقاوم تقلد صوت الطيور لاجتذابها أو أنه يقوم بعملية تنويم مغناطيسى جماعى لها» ، «لابد أن عملية التنويم المغناطيسى للطيور ليست بالأمر السهل على الاطلاق» ، «بالعكس تماما، إن تنويم دجاجة مغناطيسيا لا يتطلب سوى قطعة طباشير ، وأى طفل يستطيع القيام بهذه العملية ، لكن الأمر يختلف بالنسبة لتنويم الفين أو ثلاثة الاف من الزرازير فى آن واحد ، وكيف تستطيع الطيران وهى منومة مغناطيسيا»، لتعلم أن السرب عامل تنويم مغناطيسى بالنسبة لكل طائر مكون له عامل ونتيجة في آن واحد وبشكل متزامن» ، «اسمح لى أن اذكرك أنه من الصعب على بعض مشاهدينا متابعة مثل هذا الحديث شديد التخصص» ، «إذن ، سأقول لكى أحاول أن أكون أكثر وضوحا ، إن كل المجموعة تحاول أن تكون فى حالة تنويم مغناطيسى متجانس» ، «لست متأكدا من أنهم بذلك فهموا ما تريدان قوله بشكل أفضل ، لكننى اشكر لك مجيئك إلى الاستوديو ، وسيشهد هذا الموضوع تطورات أخرى بلا شك وهو ما سيتيح فرصة لنقاش أكثر تعمقاً»، «أنا تحت تصرفكم» ، قال الخبير مبتسما . لم يجد چواكيم ساسا أن ذلك طريف بأى حال من الأحوال، وزمجر قائلا ، «ما أغباه واجاب» خوسيه انايسو ، «إنه بالفعل يبدو كذلك ، لكن فى بعض الأحيان يكون من المناسب الاستماع بعناية حتى إلى

الاغبياء» وصاح بيدرو اورس ، «لم أفهم شيئا » ، وكانت أول مرة يتكلم فيها بالكامل بالبرتغالية ولو اخذت الكلمات بشكل حرفى ، فإن حديث ڤيرياث ونونو الفار بريرا كان على ما يبدو شيئا مثيرا للاهتمام ، وهما طبقا لما يقال بطلان من نفس الوطن. وبينما كانت تتم مناقشة هذه المسائل الخطيرة في بهو الفندق ، كان المدير يستقبل فى مكتب خاص وفدا من اصحاب المطاعم المجاورة الذين اتوا ليعرضوا عليه صفقة ، «كم تريد مقابل أن تتركنا نضع شباكنا على السطح ، فإن الزرازير ستعود عاجلا أو آجلا ليقفوا هناك ، إننا لن نضع فخاخا فى الأشجار حتى لا يستطيع الجميع الاستفادة من ذلك ، لأن الأمر فى هذه الحالة سيكون مثل انجاب اطفال من الاجنبيات، إن هؤلاء الرجال من النوع الذى يعتقد أن المعنى الوحيد للأشياء ألا يكون لها معنى قط» ، يتردد مدير الفندق فهو يخشى أن يحطموا له قرميد السطح، ثم يحسم امره ، ويقترح رقما ، ويقول الاخرون «هذا كثير» ، وظلوا عند هذه النقطة ، يناقشون السعر .

وفى وقت مبكر جدا من صباح اليوم التالى ، جاء وفد آخر من سادة متأنقين وشديدى التكلف ويتكلمون بلهجة ارتسامية ، ليطلبوا من جواكيم ساسا وبيدروأورس، بناء على أمر من الحكومة ، أن يرافقاهم ، وكان هذا الوفد يضم أحد مستشارى السفارة الإسبانية أيضا ، ولقد حيا بيدرو اورس لكن بطريقة واضحة البرود، بحيث كان يمكن اعتبار ذلك تعبيرا عن شرفه الوطنى الذى تعرض للإهانة. وشرح السادة انهم يريدون القيام بتحقيق سريع ، شىء بسيط جدا ، مجرد مراجعة روتينية تضاف إلى الملف الضخم الخاص بانفصال شبه الجزيرة ذلك الصدع الذى سبق اعتباره أنه بلا علاج نظرا لتحرك شبه الجزيرة المستمر والمحتوم . ولم يلقوا بالا إلى خوسيه انايسو ، لأنهم بلا شك لا يثقون البتة فى قدراته على الاغواء والجاذبية ، ومن ناحية اخرى ، لقد اختفت الزرازير فى

الوقت الراهن ، رحلوا معا جميعا للاستطلاع في سماء المدينة ، ولم يقع في الشباك الغادرة الموضوعة على السطح سوى أربعة طيور جوالة من نوع الدورى كان من المنتظر لها نهاية مختلفة تماما ، غير أن القدر قرر خلاف ذلك ، وسأل الصوت الساخر ، «أى قدر» ، وبفضل هذا التدخل غير المنتظر فإننا من الآن فصاعدا نعلم أنه من الممكن دائما أن يسقط مصير آخرين فجأة على رؤوسنا ، وذلك على نقيض ما علمته لنا الأغاني البرتغالية التى تقول «لا أحد يفلت من مصيره» ، ان ما حدث توا لطيور الدورى هو انهم نالوا مصير الزرازير ، لا يوجد مصير واحد فقط .

بقى خوسيه انايسو بهدوء في الفندق ، منتظرا عودة رفاقه ، وطلب الصحف ، وكانت التحقيقات الصحفية تحتل الصفحة الأولى ، مصحوبة بصور متفجرة وعناوين مثيرة ، «ألغاز تتحدى العلم» ، «القوى التى يجهلها العقل» ، «ثلاثة رجال خطرون» ، «لغز فندق براجنسا» ، ونحن الذين كنا في حيرة من ذكر اسمه ، وهذه الصحيفة النمامة ، «هل سيتم تسليم الإسباني» وعلامة استفهام ، «اننا في ورطة»، لم يكن ذلك عنوانا صحفيا وانما ما كان يفكر فيه خوسيه انايسو . مرت الساعات وحان وقت الغداء ، ولم تكن هناك انباء ولا رسائل من جواكيم ساسا وبيدرو اورس ، هل هما سجينان ، معتقلان ، يفقد الإنسان الشهية عندما ينتابه القلق بهذا الشكل ، «لا أعرف حتى إلى أين اصطحبوهما يالى من ابله ، كان على ان أسأل لماذا وكيف ، لكن لا ، ما كان على أن أفعله هو أن ارافقهما لا أن اتركهما ، هدوءا ، حتى إذا أردت ذلك فمن المحتمل انهم ما كانوا ليتركوني افعل ذلك ، اخيرا ، ربما ، على أية حال لقد سرنى تماما انهم تركوني وشأني ، ان الجبن أسوأ من الاخطبوط ، لأن الأخير يقبض اذرعه بقدر ما يمدهم ، في حين أن

الجبن لا يعرف سوى أن يقبضهم» ، توضح هذه القسوة إلى أي مدى خوسيه انايسو ساخط على نفسه ، يبقى معرفة مقدار ما يتضمنه ذلك من الصدق بالضبط ، وفي خضم مثل هذه الدوافع والأفكار المتناقضة ، يكون الأفضل انتظار الانفعال ، مثلما في كل ظروف الحياة . ذهب أولا يسأل مدير الفندق هل سمع كلمة تكشف الغموض ، عنوان ، اسم ، لكن المدير أجاب ، «لا يا سيدي» ، فهو لم يكن حتى يعرف هؤلاء السادة ، ولم يرهم قبل الآن ، البرتغاليون وكذلك الاسباني، وفجأة تألق ذكاء خوسيه انايسو ، ليذهب إلى السفارة ، هذا ما كان عليه أن يفعله، فالسفارة بكل تأكيد على علم بما يجري ، وسرعان ما استولى عليه إلهام آخر ، فالوحي لا يأتي وحده أبدا ، الصحافة ، لكن نعم ، بكل تأكيد ، كان يكفي التوجه إلى قاعة تحرير احدى الصحف ، وخلال بضع ساعات كان المخبرون الصحفيون من نوع شارلك هولمز وارسين لوبين سيعثرون على أثر المختفين ، ان الضرورة حقا هي أمر الاختراع ، وفي هذه الحالة بالذات فإن الأب يسمى الحذر، غير أن الأمر ليس كذلك دائما .

وصعد خوسيه انايسو خفيفا إلى غرفته لتغيير الحذاء وغسل أسنانه ، سلوكيات مبتذلة لا تتفق مع النفس ذات العزيمة ، ولنفكر في عطيل المصاب بالزكام ، الذي ظل يعطس بطريقة مضحكة ، دون أن يدرك ما يفعله ، قبل قتل ديدمونة ، التي من جانبها ، لم تقفل على نفسها بالمفتاح ، بالرغم من هواجسها المتشائمة ، فالزوجة لا تتمنع ابدا على زوجها ، حتى لو كانت تعلم أنه سيقتلها ، ثم إن ديدمونة تعرف تماما أن الغرفة ليس لها سوى ثلاثة حوائط ، لكن في المسرحية التي يجري تمثيلها الآن ، كان خوسيه انايسو ينظف اسنانه ويبصق عندما سمع طرقا على الباب ، وسأل ، «من هناك» ، كانت نبرة صوته ، وان كان

ذلك لا يبدو قط ، هي نبرة توقع فرح ، سيرد عليه جواكيم ساسا ، «لقد عدنا» ، غير أن سوء التفاهم لم يستمر سوى لحظة ، «من فضلك» ، لقد كانت الوصيفة فى النهاية ، «لحظة» ، وانهى عمليته الصحفية وغسل يديه وفمه ، وجففهما ، وذهب ليفتح الباب . ان الوصيفة مجرد عاملة من عمال الفندق ، بمواصفات ومصير خاص جدا ، حيث إنها اللحظة الوحيدة فى حياتها التى يعنى فيها وجود خوسيه انايسو ورفاقه ، الحاضرون والقادمون ، بالنسبة لها شيئا ، وذلك فقط لمدة الوقت اللازم لتسليم رسالتها ، يوجد دائما في المسرح ، كما فى الحياة ، الاحتياج إلى شخص يأتى ويقرع الباب ليقول فقط ، «هناك سيدة تنتظرك فى البهو» . وشعر خوسيه انايسو بالمفاجأة وقال معبرا عن دهشته ، «تنتظرنى أنا» ، واضافت الوصيفة ما لم تكن قد ارتأت انه من الضرورى قوله ، «لقد سألت عن الاساتذة الثلاثة ، لكن بما ان الآخرين ليسا موجودين» ، «لابد انها صحفية» ، فكر خوسيه انايسو ، واجاب ، «سأنزل على الفور» . وابتعدت الوصيفة كما يتم الانسحاب من الحياة ، لن نحتاج إليها بعد ذلك ، ولا داعى قط لأن نتذكرها ، ولا حتى بعدم مبالاة . لقد جاءت وقرعت الباب ، ونقلت الرسالة ، التى لا يعرف لماذا لم تبلغ هاتفيا ، ان الحياة تحب بدون شك أن تعتنى من وقت لآخر بالحس المسرحى ، لو رن الهاتف فاننا نفكر ، «ماذا هناك؟» ، أما لو قرع الباب ، فاننا نفكر ، «من هناك» ، ونعطى صوتا للفكرة بأن نسأل ، «من الطارق؟» . لقد سبق ان عرفنا انها الوصيفة ، لكن السؤال لم يحصل إلا على نصف اجابة ، وحتى ليس تماما ، ولذلك فان خوسيه أنايسو كان يتساءل وهو ينزل السلم ، «من تراها تكون» ، لقد نسى افتراضه بانها قد تكون صحفية ، بعض أفكارنا تكون كذلك ، لا جدوى منها سوى أن تشغل مسبقا مكان افكار أخرى قد تتيح مجالا أكبر للتفكير .

يسود الفندق سلام كبير ، فهو اشبه ببيت غير مسكون انسحبت منه الحياة القلقة ، غير أن الوقت لا يزال مبكرا لكي تبدأ فى أن تشيخ من الهجر ، فلا يزال هناك اصداء لخطوات واصوات ، وبكاء ، وهمس وداع يمتد على آخر قرص للدرج . كان المدير واقفا ، ومن وراء الشرفة يظهر الصوان الصغير بالمفاتيح والخانات التى تترك فيها الرسائل والمراسلات والفواتير ، كان يكتب فى دفتر أو ينسخ ثانية ارقاما على ورقة ، إنه رجل نشيط حتى عندما لا يكون هناك عمل . وعندما مر خوسيه انايسو أمامه ، أشار برأسه في اتجاه القاعة ، وأجاب خوسيه انايسو بإشارة أخرى ، إشارة موافقة هذه المرة ، تعنى ، «نعم اعرف» ، بينما كانت الاشارة الأولى تريد أن تقول ، «هناك سيدة تنتظرك» ، توقف خوسيه أنايسو على العتبة ، ورأى سيدة شابة ، أو فتاة شابة ، لا يمكن إلا أن تكون هى ، لا يوجد أحد آخر هناك ، وبالرغم من انها تجلس فى الاتجاه المعاكس للضوء المنبعث من خلال الستائر ، إلا أنها تبدو جذابة ، بل جميلة ، ترتدى سروالا وقميصا لونهما أزرق ، أو بالأصح أزرق نيلى ، من الممكن أن تكون صحفية أو أى شئ آخر ، لكن إلى جانب المقعد الذى تجلس عليه ، توجد حقيبة صغيرة وعلى ركبتيها عصا ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، تتراوح بين متر ومتر ونصف ، وبدت تلك العصا مثيرة للفضول ، فسيدة ترتدى بهذا الشكل لا تسير فى المدينة بعصا ، ويفكر خوسيه انايسو ، «إنها ليست صحفية بكل تأكيد ، على الأقل لا يرى معها أية أداة عمل ، دفتر، أوراق، أو قلم، أو جهاز تسجيل» .

ووقفت السيدة ، وهو تصرف غير متوقع ، فمن المعروف طبقا لقانون آداب اللياقة والعادات الحسنة ، انه يتعين على النساء أن ينتظرن فى أماكنهن حتى يقترب الرجال منهن ويحييهن وعندئذ ، وعندئذ فقط ، يمددن اليد أو الوجنة ،

يتوقف كل شئ على درجة ثقتهن ودرجة حميميتهن وطبيعتهن ، وترسمن تلك الابتسامة المهذبة أو ذات التلميحات أو المحرضة أو الموحية ، التى تميز المرأة . هذه الحركة ، وربما ليست بالضبط هذه الحركة ، لكن حقيقة أن هناك ، على بعد أربع خطوات ، وقفت امرأة وتنتظر ، أو أيضا ، الادراك المفاجئ بأن الزمن يظل معلقا فى انتظار الخطوة الأولى ، وإذا كانت المرأة شاهدة على ذلك ، فهو صحيح بالنسبة للحظة السابقة بشكل خاص ، لأن فى المرآة لا يزال خوسيه أنايسو والسيدة غريبان ، بينما لم يعد الأمر كذلك من الناحية الأخرى للمرآة ، فانهما سيتعرفان ، لقد تعرفا بالفعل . هذه الحركة ، هذه الحركة التى لم نقل بعد كل شئ عنها ، هزت الأرضية المصنوعة من ألواح الخشب ، مثل أرضية جسر ، وبدأت الأرضية تتأرجح ببطء ، وباتساع ، مثل تأرجح مركب فوق الأمواج ، لكن لا صلة لهذا الإحساس بالاهتزاز الذى يتكلم عنه بيدرو أورس ، فعظام خوسيه أنايسو لا تتذبذب ، وان كان جسمه كله قد شعر ، ماديا وجسديا ، أن شبه الجزيرة ، التى لا يزالون يسمونها هكذا بالتعود وسهولة التعبير ، تبحر بالفعل ، وإذا كان يعرف ذلك من قبل لأنه شاهده من الخارج ، فان إحساسه الخاص الآن يكشف له ذلك ، وبالتالى ، وبسبب هذه السيدة ، كف خوسيه أنايسو عن أن يكون المنادى اللاإرادى للطيور المجنونة ، إلا إذا كان ذلك بسبب اللحظة التى ظهرت فيها ، لأن الساعات التى تحدث فيها الأشياء أهم من كل شئ آخر . وتقدم نحوها، وتضاف هذه الحركة إلى القوة التى تدفع فى نفس الاتجاه ، دون أن تلقى مقاومة ، هذا النوع من الطوف والذى يمثل فندق براجنسا ، فى هذه اللحظة بالذات ، طرفه الأمامى ، صورة مقدمة السفينة ، وليسامحنا القارئ لأن هذه التعبيرات تنقصها الفصاحة بشكل واضح ، إنما يتم تقديم ما فى الامكان.

وقال خوسيه انايسو ، «ان رفيقىّ ليسا هنا ، لقد أتوا لاصطحابهما هذا الصباح لكى يوضحا بعض النقاط ، العلماء ، لقد بدأت اقلق لتأخرهما ، على أية حال ، كنت استعد للخروج لكى أبحث عنهما» ان خوسيه انايسو يدرك انه لا يحتاج ابدا لكل هذه الكلمات ليقول ما يليق أن يقال فى مثل هذه المناسبة ، لكنه لم يستطع كبحها . وأجابت والصوت رخيم ، خفيض لكنه واضح ، «ان ما أريد قوله يمكن أن يقال لاحدكم أو لثلاثتكم ، لكن ربما سأتمكن هكذا من أن أوضح ما أريد قوله بشكل أفضل . وفكر خوسيه أنايسو ، «لعيونها لون سماء جديدة تماما»، «ما هي السماء الجديدة ، وما لونها ، من أين استقيت مثل هذه الفكرة؟»، وبصوت عال قال ، «تفضلى بالجلوس ، من فضلك ، لا تظلى واقفة» . جلست وجلس ، «اسمك» ، «خوسيه انايسو» ، «أنا أسمى جوانا كاردا» ، «تشرفنا» . ولم يتصافحا ، فالأمر سيكون مضحكا لو تصافحا وهما جالسان ، أو سيتعين عليهما إذن ان يقوما من مقعدهما ، وهو ما سيكون أكثر مدعاة للسخرية ، أو من الممكن أن يقوم هو ، وستكون السخرية فى هذه الحالة مقسومة بالنصف ، لكن ألا تعد نصف السخرية مثل سخرية كاملة ، «انها جميلة حقا ، لكن بشعرها الذى يكاد يكون اسود كان يجب ألا تكون لها هذه العيون ، لون سماء يوم جديد تماما ، لون سماء ليلة جديدة تماما، ومع ذلك فانهما يتوافقان معا بشكل جيد» ، «كيف يمكننى أن أكون نافعا لك» ، وكانت صيغة الأدب تلك تترجم تفكيره الحميم . وهمست جوانا كاردا ، «لا أعرف إذا كنا نستطيع الحديث هنا» ، «نحن وحدنا ، لا أحد يسمعنا» ، «لكن الفضول كبير ، انظر» . وكان المدير يمر أمام مدخل البهو، وهو يسير بطريقة مصطنعة ، كان يمر ويعود ليمر ثانية ، وكأنه لا مبالٍ ظاهريا ، كمن عدل فجأة عن اختراع عمل جديد ، حيث اتضح أن العمل الأخير

كان غير مجد. نظر إليه خوسيه أنايسو بصرامة ، دون جدوى ، وخفض صوته مما جعل الحوار أكثر ريبة ، «لا أستطيع دعوتك إلى الصعود ، ففضلا عن أن ذلك قد يبدو غير لائق ، فان استقبال ضيوف فى الغرف محظور كما اعتقد» ، «بالنسبة لى ، لن تكون لذلك أية أهمية ، فلن يتعين على بالطبع أن أدافع عن نفسى فى مواجهة شخص لا يفكر ، دون شك ، فى مهاجمتى» ، «ليست تلك نيتى فى الواقع ، خاصة وانك مسلحة» ، وابتسما هما الاثنان ، غير أنه كان هناك شئ ما مفتعل ومضطر فى هذه الابتسامة ، وكأنهما شعرا بحزن مفاجئ ، ففى الواقع، اصبحت المحادثة شديدة الحميمية بالنسبة لاشخاص لم يتعرفوا إلا منذ ثلاث دقائق ، ولم يتعرفا أيضا إلا بالاسم فقط ، وقالت جوانا كاردا «يمكن أن تكون هذه العصا مفيدة فى حالة الضرورة ، لكننى لا أحملها معى لهذا السبب ، وبصراحة فان العصا هى سبب وجودى هنا» . لقد كان التصريح غريبا لدرجة أنه نقى الهواء ، واحدث توازنا فى الضغوط ، الضغط الجوى والضغط الدموى . وكانت جوانا كاردا تمسك بالعصا على ركبتيها ، وتنتظر ردا ، وأخيرا ، قال خوسيه أنايسو ، «الأفضل أن نخرج ، سنتكلم فى الشارع ، فى مقهى أو حديقة عامة ، كما تحبين». أخذت حقيبتها التى انتزعها من يديها ، «يمكننا أن نتركها فى غرفتى ، لكن العصا» ، «أنا لا أتركها ، وكذلك الحقيبة ، وربما يكون من الأفضل ألا أعود إلى هنا مرة أخرى» ، «كما تحبين ، خسارة أن حقيبتك صغيرة جدا بحيث لا تتسع للعصا» ، «ان الاشياء لا تكون دائما مهيأة ومعدة لبعضها البعض» ، أجابت جوانا كاردا ، وهو أمر بديهى وان كان ذلك لا يقلل من كونه فلسفيا .

وعندما خرجا ، قال خوسيه انايسو للمدير ، «إذا وصل صديقىّ قل لهما اننى لن أتأخر» ، «حسن يا سيدى ، كن مطمئنا» ، أجاب الرجل الذى لم يرفع عينيه

عن جوانا كاردا ، لم تكن في عينيه أدنى رغبة واشتهاء ، لكن مجرد ارتياب غامض ، مثل الارتياب المعتاد لدى كل مديرى الفنادق . ونزلا الدرج ، وكان هناك عند نهاية الدرابزين تمثال صغير من البرونز يرتدى ملابس نبيل أو غلام أوبرا ، ويستحق هذا التمثال بكرته الكهربائية المضاءة أن يكون على أحد الألسنة البرتغالية أو الجاليزية الكبيرة مثل سان - فنسان ، اسبيخل ، لاروكا ، فينيستر ، وألسنة أخرى أيضا ، وهى وإن كانت أقل أهمية فانها لا تقوم بعمل أقل من أجل تحطيم الأمواج ، غير أن مصير هذا النبيل أو الغلام أن يبقى مجهولا ، ربما ألقى احدهم فيما مضى نظرة عليه ، لكن جوانا كاردا وخوسيه أنايسو لم يفعلا ذلك ، لأن لديهما ، بلاشك ، مشاغل أخرى أكثر أهمية ، مع أنه لو تم سؤالهما ما هى تلك المشاغل فمن المحتمل ألا يعرفا الاجابة . لا يتخيل المرء عندما يكون فى طراوة الفندق ، فى هذا الظل القديم ، ان الجو يمكن أن يكون حارا لهذه الدرجة فى الشارع . انه شهر اغسطس ، اذا كانت ذاكرتنا جيدة ، ولم يتغير المناخ لكون شبه الجزيرة قد تقدمت مائة وخمسين كيلو مترا ، بافتراض أن السرعة التى أعلنتها الإذاعة القومية الإسبانية ظلت دون تغيير ، كان ذلك منذ خمسة أيام فقط ، وكأن قد مر على ذلك عام كامل. وكما كان متوقعا ، قال خوسيه أنايسو ، «لن يكون السير فى هذه الحرارة ممتعا اطلاقا ، خاصة مع حمل الحقيبة والعصا ، سننتهى بعد عشر دقائق ، الأفضل أن ندخل مقهى لتناول بعض المرطبات» ، «انني أفضل حديقة عامة ودكة منعزلة فى الظل» ، «هناك حديقة قريبة جدا من هنا ، ساحة دون لويس ، تعرفينها» ، «أنا لا أقطن فى لشبونة ، لكنى أعرفها» ، «اوه ، انت لا تسكنين فى لشبونة» ، كرر خوسيه انايسو بلا داعٍ ما قالته، كانا ينزلان شارع دو اليكريم ، وكان يحمل الحقيبة والعصا ، فهو إن لم

يحمل الحقيبة كان لن يفوت المارة ان يظنوا به اشياء غير لطيفة ، أما لو حملت هي العصا فانهم سيظنون بها أشياء غير لائقة ، اننا جميعا في الحقيقة ، مراقبون عنيدون وماكرون في أغلب الأحيان . واكتفت جوانا كاردا بالرد على تعجب خوسيه أنايسو بانها وصلت بالقطار في نفس اليوم وتوجهت مباشرة إلى الفندق ، أما بالنسبة للباقي ، فسوف نعرفه .

وجلسا في ظل بعض الاشجار ، وسأل ، «ما الذي أتى بك إذن إلى لشبونة ، وما السبب الذي جعلك تبحثين عنا؟» ، وأجابت ، «لأنني اعتقد انك وصاحبيك لكم علاقة ما بما يحدث» ، «ما يحدث لمن؟!» ، «انت تعرف تماما عما اتكلم ، شبه الجزيرة ، وتصدع جبال البرانس وهذه الرحلة التي ليس لها مثيل» ، «احيانا اعتقد أنه نعم ، واننا مسئولون عن ذلك ، وفي أحيان أخرى ، أعتقد اننا جميعا مجانين» ، «كوكب يدور حول نجمة ، يدور ويدور ، سواء كان الوقت نهارا أو ليلا ، سواء كان الجو حارا أو باردا ، وفضاء شبه خالٍ حيث تحدث اشياء مهولة لا اسم لها سوى ما نمنحه إياها ، وزمن لا أحد يعرف بدقة ما هو ، كل ذلك لابد أنه ايضا حكاية مجانين» ، «هل أنت فلكية؟» ، سأل خوسيه انايسو ، «لا فلكية ولا حمقاء» ، «اغفري لي وقاحتي ، لكننا جميعا عصبيون بشكل مرعب ، وتخوننا الكلمات ، فهي إما تقول أكثر أو أقل مما نريد ، أطلب منك أن تسامحيني!» «قبلت اعتذارك» ، «قد ابدو لك متشككا ، لأنه فيما يتعلق بي ، لم يحدث لي شئ عظيم ، فيما عدا الزرازير ، مع أن» ، «مع أن» ، «منذ قليل ، في الفندق ، عندما رأيتك في البهو ، شعرت وكأني في قارب في البحر ، وكانت تلك المرة الأولى» ، «في الحقيقة ، لقد رأيتك تقترب وكأنك قادم من بعيد جدا» ، «ولم يكن هناك سوى ثلاث أو أربع خطوات» . وانقضت فجأة على اشجار الحديقة ، الزرازير القادمة

من كل جـهـات الأفق . وكـان النـاس يخـرجـون ركـضـا من الشـوارع المجـاورة ، وينظرون فى الهواء ، ويشيرون بأصابعهم ، وقال خوسيه انايسو بنفاد صبر ، «هاهـم مـرة أخرى ، والأسـوأ أننا لن نتـمكن من التـحـدث مع وجود كل هؤلاء الناس» .

وفى هذه اللحظة بالتـحـديد طارت كل الزرازير معـا ، وغطت الحـديقة ببقعـة سوداء كبيرة ومختلجة ، وكان الناس يصرخون ، البعض للتهديد والبعض الاخر انفعـالا وإثارة ، وآخرون يصرخـون خوفا ، وكانت جوانا كاردا وخوسيه انايسو ينظران دون أن يفهما ما يحدث ، عندئذ ضمر الجمع الكبير ، مكونا شكل جناح ، ثم سـهم ، ثم ركن ، وبعد أن قـامت الزرازير بثـلاث دورات سريعة ، اسرعت فى اتجاه الجنوب واختفت بعيدا فى الأفق ، بعد أن اجتازت النهر. وأطلق الفضوليون والمتسكعون الذين تجمعوا هناك بعض هتافات الدهشة ، والاحباط أيضا ، وبعد ذلك بثوان ، كانت الحديقة خالية ، والحرارة مازالت شديدة ، لم يعد هناك سوى رجل وامرأة جالسين على دكة ، وتحمل المرأة حقيبة وعصا . وقال خوسيه انايسو، «أعتقد أنها لن تعود ابدا» ، وقالت جوانا كاردا ، «الآن سأروى لك ما حدث لى».

وبعد التحقق من خطورة الأحداث التي تم سردها ، أشارت الحكمة على جوانا كاردا ألا تذهب للاقامة في الفندق الشهير ، الذي كانت الشباك لاتزال تنتظر على سطحه عودة الزرازير لتحط عليه ، وإن كان هذا الانتظار سيصبح سدى من الآن فصاعدا . وكان قرار جوانا كاردا ذكيا ويسمح بتفادى اجراء تعديل ثان للقول المأثور الخاص بطلقة البندقية والارانب ، فقد كان سيقع في الشرك هذه المرة ثلاثة مشتبه فيهم ، وربما تمت ادانتهم الآن ، وامرأة تحسن فن المبارزة الميتافيزيقية . ولكي نكتب ذلك بتعبيرات أقل غرابة وبأسلوب أخف سنقول، ذهبت جوانا كاردا لتقيم في فندق بورج في قلب شيادو ، ومعها حقيبتها وفرع الدردار ، وهو للأسف ليس تلسكوبيا من النوع الذى يمكن ثنيه ، وهو ما جعل الناس ينظرون إليها بفضول وحيرة وهي تمر امامهم ، وفي استقبال الفندق ، اشار أحد الموظفين مازحا ليخفي فضوله الحقيقي ، لكن بأدب شديد وحذر ، *إلى العصا التي هي ليست خيزرانة* ، وأجابت جوانا كاردا على ذلك بالصمت ، لأن في نهاية المطاف لا يوجد أى قانون يمنع النزيل من أن يحمل إلى غرفته فرع شجرة بلوط ، فما بالك بعصا رفيعة طولها أقل من مترين ، وتحمل بسهولة داخل المصعد ، وعند وضعها في أحد الأركان لا يلحظها أحد على الإطلاق .

تناقش خوسيه أنايسو وجوانا كاردا طويلا ، حتى غروب الشمس ، ومن الممكن تفهم ذلك ، فلقد استعرضا الموضوع عددا لا يحصى من المرات ، وانتهيا في كل مرة إلى أن لا شئ في هذه القضية يبدو طبيعيا ، فكل شئ حدث وكأن حالة سوية جديدة جاءت لتحل محل الحالة السوية القديمة ، دون تشنجات ، ولا اهتزازات ولا تغيرات في الألوان ، والتي حتى إن حدثت فانها ما كانت لتفسر شيئا . ان الخطأ يقع على عاتقنا ، وذلك لميلنا للفاجعة والمأساة ، واحتياجنا إلى

المبالغة والقيام بحركات كثيرة ، فنحن نذهل مثلا أمام حالة الولادة ، التى ليست سوى انهماك وتأوهات وتنهدات وصرخات ، وجسد ينفتح مثل حبة تين ناضجة ليطرد جسدا آخر ، وهذه هي المعجزة ، نعم يا سيدى ، لكن المعجزة التى لم نتمكن من رؤيتها لا تقل عظمة ، وهى القذف العنيف والمضطرم داخل المرأة والماراثون المعذب ثم التكوين البطئ لكائن بواسطة ذاته وبما سيكونه ، بمساعدتنا بالطبع ، ولكى لا نذهب إلى أبعد من ذلك ، فان من يكتب كل ذلك الآن يجهل نهائيا ما حدث له حينئذ ، ولنعترف أيضا أنه لا يعرف شيئا مما يحدث له الآن . «كانت العصا هناك ، على الأرض ، ورسمت خطا ، من أكون لكى اقسم بأن كل هذه الأمور حدثت لأننى فعلت ذلك ، لابد من الذهاب إلى هناك ورؤية ما حدث» ، ان جوانا كاردا لا تعرف ولا تستطيع أن تقول أكثر من ذلك . وتناقشا وتناقشا وعندما افترقا كانت الشمس قد غربت ، واتجهت هى إلى فندق بورج فى أعلى المدينة ، فى حين توجه هو إلى فندق بارجنسا فى أسفل المدينة ، وابتعد خوسيه انايسو ، وتأنيب الضمير يعذبه ، فهو لم يكترث البتة بمعرفة ما حدث لصديقيه ، يا له من جاحد ، يكفى أن تظهر امرأة وتبدأ فى سرد حكايات خرافية لكى يقضى بعد الظهر فى الاستماع إليها ، وكانت تكرر «لابد من الذهاب إلى هناك ورؤية ما حدث» ، وكانت تغير قليلا فى الجملة ، ربما لكى تقنعه تماما ، فان صياغة الأمور بشكل مختلف تكون هى الحل الوحيد فى كثير من الأحيان . وعلى عتبة الفندق ، يرفع خوسيه أنايسو عينيه ، لا توجد ريشة لزرزور ، وكان الظل المجنح الذى مر توا ، سريعا ولطيفا مثل لمس المداعبة ، لخفاش يطارد البعوض والفراشات ، كان نور غلام الأوبرا مضاء وهو يقف هناك مرحبا ، لكن خوسيه أنايسو لم يلق عليه ولا حتى نظرة ضجر ، إذا لم يكن بيدرو أورس وجواكيم ساسا قد عادا فسوف يقضى ليلة سيئة جدا .

لقد عادا وانتظرا فى البهو ، وجلسات على نفس المقعدين اللذين جلس عليهما جوانا كاردا وخوسيه انايسو ، والقول بان هناك من لا يؤمنون بالصدف ، فى حين أن الصدف هى أكثر الاشياء انتشارا فى العالم ، والأكثر تخطيطا ، وإذا لم تكن الصدف ، فهو المنطق الخاص للعالم إذن . جمد خوسيه أنايسو على عتبة الغرفة ، وكأن كل شئ سيبدأ من جديد ، لكن لا ، لن يكون كذلك هذه المرة ، ظلت الأرضية ثابتة ، ومسافة الأربع خطوات ليست سوى مسافة أربع خطوات ، ولا يوجد فراغ مثل الفراغ بين النجوم ، ولا قفزة حياة أو موت ، تتحرك السيقان وحدها ، ثم تنفتح الافواه لتقول ما هو متوقع ، «هل ذهبت للبحث عنا؟» ، سأل جواكيم ساسا، لكن خوسيه أنايسو لا يستطيع الاجابة ببساطة بنعم أو لا ، على سؤال بسيط لهذه الدرجة ، ستكون الكلمتان صادقتين وكاذبتين فى آن واحد ، ثم أن الشرح يتطلب وقتا طويلا ، لذلك طرح بدوره سؤالا ، طبيعيا ومشروعا تماما مثل السؤال الأول ، «اين ذهبتما كل هذا الوقت؟» . ان بيدرو أورس متعب ، هذا واضح ، ولا مجال للدهشة فكما يقال ، إنه السن ، غير أن أى رجل حتى ولو كان أكثر شبابا وقوة كان سيخرج منهكا أيضا من تحت أيدى الاطباء ، فبعد التحاليل والاختبارات المتتالية وصور الأشعة ، والاستبيانات ، ودراسة ردود أفعاله ، ووضع مجسات فى أذنيه ، وفحص لشبكية عينيه ورسم لموجاته الدماغية ، لا عجب أن تكون جفونه ثقيلة ، وقال ، «لم يبق لى سوى أن أنام ، لقد قتلنى هؤلاء العلماء البرتغاليون» . وتقرر أن يرتاح بيدرو اورس فى غرفته حتى موعد العشاء ، ثم ينزل لتناول حساء دجاج وصدر دجاجة ، وإن كان لا شهية لديه ، فهو يشعر بأن معدته ممتلئة بعصيدة اشعاعية ، «لكنهم لم يجروا لك صورة أشعة على المعدة» ، «لا ، لكن كأنهم فعلوا ذلك» ، وتلاشت ابتسامة بيدرو اورس مثل وردة ذابلة . قال

خوسيه انايسو ، «استرح ، وسنذهب أنا وجواكيم ساسا لتناول العشاء في أي مطعم في الجوار ، وسنتحدث عما جرى ، وعندما نعود سنطرق على بابك للاطمئنان عليك» ، «لا تطرقا الباب ، سأكون مستغرقا في النوم بكل تأكيد، فالشئ الوحيد الذي أرغب فيه هو النوم لمدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة، إلى الغد» ، وابتعد وهو يجر قدميه . وقال خوسيه أنايسو، «المسكين ، في أية معجنة ادخلوه» ، «أنا أيضا ارهقوني بفحوصاتهم واسئلتهم ، لكن لا وجه للمقارنة مع ما تعرض له هو ، اتعرف بم يذكرني كل ذلك ، بقصة قرأتها منذ سنوات ، وكان اسمها «البرئ وسط الاطباء» ، «لدى رود ريج ميجيز» ، «نعم انه هو» .

وبمجرد أن اصبحا في الشارع ، قررا أن يقوما بجولة بالسيارة ، كان الوقت لا يزال مبكرا على تناول العشاء ، ويمكنهما بذلك أن يتناقشا بهدوء . بدأ جواكيم ساسا بالقول ، «انه الذعر العام ، وإذا كانوا يتمسكون بنا لهذه الدرجة فذلك لأنه ليس لديهم شئ آخر ، أو بالأحرى لأنه بدأ يكون لديهم أكثر مما يجب ، وذلك بسبب الأنباء التي عرضت في التليفزيون أمس ، أو بسبب صحف اليوم ، هل رأيت عناوين صحف المساء ، لقد اصبحوا مجانين ، فان وابلا من الأشخاص يسقطون على رؤوسهم ، أناس يقسمون أنهم يشعرون أيضا باهتزاز الأرض ، أو أنهم قذفوا أحجارا في النهر وخرجت منه حورية ، وآخرون يحكون أن إناث ببغاواتهم تصدر اصواتا غريبة» ، «إنها نفس القصة دائما ، فالانباء تولد انباء ، لكننا على الأرجح قد لا نرى طيورنا» ، «لماذا ، ما الذي حدث؟» ، «اعتقد أنها رحلت» ، «رحلت هكذا ببساطة ، دون سبب أو معنى ، بعد أن تتبعتك لمدة أسبوع»، «لقد بدا لي الأمر كذلك» ، «هل رأيتها؟» ، «نعم ، لقد عبرت النهر في اتجاه الجنوب ولم ترجع» ، «كيف عرفت انها رحلت؟، هل كنت في نافذة غرفتك»،

«لا ، كنت فى حديقة قريبة من هنا» ، «بدلا من التنزه ، كان يمكنك أن تحاول معرفة إلى أين ذهبنا» ، «كانت تلك هى نيتى ، لكننى بعد ذلك ذهبت إلى الحديقة ، وبقيت هناك» ، «كنت تشم الهواء» ، «كنت اتحدث مع امرأة» ، «هكذا إذن ، ها هو ذا الصديق الكبير ، بينما كنا نعانى محنة حقيقية ، كان الاستاذ يفتش عن المتعة، وبما انك لم تنجح فى الاستحواذ على عالمة الآثار فى غرناطة ، ها أنت تعوض ذلك الآن» ، «لم تكن عالمة آثار وإنما متخصصة في مجال الأنثروبولوجيا» ، «انه الشئ نفسه» ، «اما هذه فإنها عالمة فلك» ، «لا تسخر منى» ، «فى الواقع لا أعرف عنها شيئا ، وقصة الفلك تلك تأتى من ملحوظة ابديتها لها» ، «حسن ، هذا شأنك، ليس لى أن اتدخل» ، «لا.. لأن ما روته لى يعنينا جميعا»، «فهمت ، انها واحدة من الذين قذفوا أحجارا» ، «لا» ، «اذن ، فهى تشعر باهتزازات» ، «لم يحدث ذلك بعد» ، «تغير لون طائرها الكنارى» ، «لن تصل وان استعرضت كل سخريتك» ، «اعذرنى، فأنا عصبى ، لا استطيع أن أنسى أنك لم تبحث عنا» ، «لقد قلت لك إن ذلك ما انتويته بالفعل ، لكن ظهرت هذه المرأة فى اللحظة نفسها التى كنت أستعد فيها للخروج ، وكنت سأبدأ بالسفارة الإسبانية ، لكنها وصلت ، ولديها قصة لترويها لى ، وكان فى يدها عصا وتحمل حقيبة ، وترتدى بنطلونا وقميصا لونهما أزرق ، وشعرها أسود ، وبشرتها ناصعة البياض، وعيناها ، لا أعرف كيف أصفهما» ، «إنها تفاصيل مهمة جدا لتاريخ شبه الجزيرة ، لم يبق سوى أن تضيف انها جميلة» ، «هى كذلك فعلا» ، «شابة» ، «لنقل نعم ، وإن كانت ليست بالفتاة الشابة تماما» ، «ان طريقتك فى الحديث تقول انك وقعت فى الحب» ، «انها كلمة كبيرة ، لكننى شعرت بأرضية الفندق تتأرجح»، «لم اسمع قط عن مثل هذا التأثير» ، «دع المزاح جانبا» ، «إلا لو كنت شربت ولا تتذكر ذلك» ، «دع عنك

المزاح» ، «حسن ، اتفقنا سأدع المزاح ، ما الذى كانت تريده السيدة ذات – العيون – التى – لا – أعرف – كيف ، وما هى تلك العصا؟»، «انها فرع شجرة دردار» ، «أنا لست خبيرا فى علم النبات ، ما هو شجر الدردار» ، «شجر الدردار، هو صغير الدردار ، وهو بوقيصيات ، وإذا كان مسموحا لى أن أبدى ملاحظة ، فدعنى أقول لك إن طريقتك في الاستجواب ممتازة» . ضحك جواكيم ساسا وقال، «لابد أننى تعلمتها اليوم مع هؤلاء الاساتذة الذين سببوا لى قدرا كبيرا من الضيق والضجر ، اعذرنى ، أكمل قصة السيدة ، هل لها اسم آخر غير ذات – العيون – التى – لا أعرف – كيف» ، «اسمها جوانا كاردا» ، «الآن ، وقد قدمتها لى ، فلنأت إلى لب الموضوع» ، «تصور أنك تعثر على عصا فى طريقك وترسم خطا على الأرض ، شرود ذهن من جانبك أو غفلة» ، «لقد فعلت ذلك كثيرا عندما كنت صبيا» ، «وماذا كان يحدث» ، «لا شئ ، للأسف لم يحدث شئ أبدا»، «تصور الآن أن هذا الخط احدث تصدعا فى البرانس ، سواء بتأثير سحرى أو لسبب آخر تماما ، وان ما يسمى بسلسلة جبال البرانس قد تصدعت من أعلى إلى أسفل وبدأت شبه الجزيرة الايبيرية تبحر فى أعالى البحار» ، «ان جوانا تلك مجنونة» ، «لن تكون الأولى فى ذلك ، لكنها لم تأت إلى لشبونة لكى تقص علينا أن شبه الجزيرة انفصلت عن أوروبا لانها رسمت خطا» ، «حمدا لله ، ان الرشاد لا يزال موجودا فى هذا العالم» ، «إنها تقول إن الخط لا ينمحى بتأثير الرياح ولا بصب الماء عليه ولا بكنسه ولا بتكويم التربة فوقه» ، «أكاذيب» ، «ليست أكثر من قصتك كأفضل رامى جلة فى جميع الأزمنة ، قذف ستة كيلو جرامات، دون غش ، لمسافة خمسمائة متر ، إن هرقل نفسه ، بالرغم من أنه نصف إله ، لم يكن ليستطيع تسجيل مثل هذا الرقم القياسى» ، «تريدنى أن أصدق أن خطا مرسوما

على الأرض؟.. أليس على الأرض ، يقاوم الهواء والماء والمكنسة» ، «وإذا مسح بمجرفة ، فإنه يتكون من جديد» ، «مستحيل» ، «انك لست بمبتكر ، فهذا بالضبط ما قلته ، واكتفت الجوانينا ذات - العيون - التى - لا - أعرف - كيف بأن تجيبنى ، «لابد من الذهاب إلى هناك» أو «لتذهبوا إلى هناك» ، «سترون باعينكم» «لست متأكدا مما قالته بالضبط» ، لم يرد جواكيم ساسا بشئ، وكانا قد وصلا عند مستوى ارتفاع كروز كبرادا ، وقال خوسيه أنايسو ، سيكون كل ذلك عبثيا لو أنه لم يحدث حقيقة» ، وسأل جواكيم ساسا ، «لكن هل يحدث ذلك فعلا» .

كان لايزال هناك قليل من الضوء ، يكفى بالكاد لرؤية البحر حتى الأفق من هذا الارتفاع الذي ينزل نحو كاكزياس ، وتبدو مساحة المياه شاسعة ، ولذلك بدون شك همس خوسيه انايسو ، «إنها مختلفة» ، وسأل جواكيم ساسا ، الذى كان لا يستطيع أن يعرف عن أية اختلافات يتحدث صديقه ، «من» ، «المياه ، هذه المياه مختلفة ، وهكذا تتغير الحياة ، لقد تغيرت دون أن نلاحظ ذلك ، كنا نعتقد باطمئنان اننا لم نتغير فى شئ ، وذلك خطأ ووهم ، لقد تقدمنا مع الحياة» . كان البحر يضرب بقوة جدار حماية الطريق ، ولا عجب ، فإن هذه الأمواج مختلفة هي أيضا ، ففى العادة تكون حرة فى حركتها ، دون رقيب ، إلا من قارب صغير من وقت لآخر ، لكنها لم تشهد ابدا حيوانا بحريا ضخما مثل الذى يتقدم حاليا دافعا المحيط أمامه . وقال خوسيه أنايسو ، «لنذهب لتناول العشاء بعيدا بعض الشئ ، فى باسو داركوس ، ثم نعود للفندق للاطمئنان على بيدرو» ، «المسكين ، لقد كادوا يقتلونه» . ركنا السيارة فى شارع مستعرض ، وبحثا عن مطعم ، لكن قبل أن يدخلا قال جواكيم ساسا ، «أثناء اجراء الفحوص والاستجوابات ، سمعت شيئا لم نفكر فيه من قبل ، لقد قيل ذلك تلميحا ، لكنه كان كافيا بالنسبة لى ، ولا شك

أن من أذاع هذا السر كان يعتقد أننى لم أكن استمع» ، «ما هذا؟»، «أن شبه الجزيرة ، انها ليست شبه جزيرة لكن كيف يكون اسمها خلاف ذلك ، لقد تحركت شبه الجزيرة حتى الآن فى خط مستقيم ، بين خطى عرض ستة وثلاثين وثلاثة وأربعين» ، «وبالتالى» ، «ربما تكون مدرسا جيدا فى كل المواد ، فيما عدا الجغرافيا بكل تأكيد» ، «أنا لا أفهم»، «ستفهم فورا إذا تذكرت أن جزر الأزور تقع بين خطى عرض سبعة وثلاثين وأربعين» ، «يا للشيطان» ، «يمكنك أن تناديه ، هيا» ، «سترتطم شبه الجزيرة بالجزر» ، «بالضبط ، وستكون أكبر كارثة فى التاريخ» ، «ربما نعم ، وربما لا ، وكما كنت تقول توا ، سيكون كل ذلك عبثا إذا لم يكن يحدث بالفعل ، والآن لنذهب لكى نتعشى» .

جلسا واختارا وجبة طعامهما ، كان جواكيم ساسا يتضور جوعا ، انقض على الخبز ، والزبد ، والزيتون ، والنبيذ ، بنهم كانت ابتسامته تحاول الاعتذار عنه، «انه العشاء الأخير للمحكوم عليه بالاعدام» ، ثم سأل بعد بضع لحظات ، «وأين توجد فى هذه اللحظة لاعبة العصا؟» ، «لقد نزلت فى فندق بورج ، الذى يقع فى شيادو» ، «كنت اعتقد أنها تعيش فى لشبونة» ، «لا ، ليس فى لشبونة ، هذا على الأقل ما قالته لى ، لكننى لا أعرف أين تقيم ، أنا لم أسألها على أية حال، لأنها كانت تعتقد بلا شك اننا سنرافقها» ، «لماذا؟» ، «لنرى الخط على الأرض»، «أنت أيضا تشك فى ذلك» ، «لا ، لا اعتقد ، لكننى أريد أن أرى بعينى، وألمس بيدى» ، «أنت مثل صاحب الحمار بلا تيرو ، الذى قابلناه وسط سلسلة جبال مورينا واراسينا» ، «إذا كان ما تقوله هى صحيحا ، فاننا سنرى أكثر مما قد يراه روك لوزانو ، الذى لن يجد عندما يبلغ الهدف سوى الماء» ، «كيف عرفت أن اسمه روك لوزانو ، لا اتذكر أننا سألناه عن اسمه ، اسم الحمار نعم ، لكن لم

نسأله عن اسمه» ، «لابد أننى حلمت به» ، و«بيدرو ، هل يرغب فى مرافقتنا»، «إن رجلا يشعر بالأرض تهتز تحت اقدامه لهو فى حاجة إلى صحبة» ، «مثل رجل شعر بالأرضية تتأرجح» ، «صه» ، «ستصبح السيارة المسكينة صغيرة قليلا بالنسبة لكل هذا العدد ، أربعة أشخاص وامتعتهم ، حتى وإن كانت حقائب تحمل على الظهر، ثم إن المسكينة عجوز» ، «لا يستطيع أحد أن يعيش بعد يومه الأخير» ، «إنك حكيم» ، «لحسن الحظ أنك تعترف بذلك» ، «والقول بأننا كنا نعتقد أن رحلاتنا قد انتهت ، وأن كلا منا سيعود إلى داره وحياته اليومية المعتادة» ، «لنذهب إلى حياة الأيام القادمة ، ونرى ما سنحصل عليه» ، «إلى أن تصطدم شبه الجزيرة مع جزر الأزور» ، «إذا كانت تلك هى نهايتنا ، فالحياة مكفولة لنا إذن حتى تلك اللحظة» .

انتهيا من عشائهما ، وقطعا الطريق دون عجلة ، وسارت السيارة على مهلها، كانت السيارات قليلة على الطريق ، بسبب صعوبة التزود بالوقود بلاشك ، لحسن حظهم أن محركهم اقتصادى جدا ، وابدى جواكيم ساسا الملاحظة التالية ، «لكن من غير المستبعد أن نصاب بعطل فى مكان ما ، عندئذ ستنتهى الرحلة» ، وتذكر فجأة شيئا ما ، «لماذا قلت إن الزرازير رحلت بكل تأكيد» ، «يستطيع أى شخص أن يدرك الفرق بين وداعا وإلى اللقاء ، ما رأيته كان وداعا» ، «لكن لماذا؟» ، «لا أعرف ماذا أقول ، لكن هناك مصادفة حدثت ، فلقد رحلت الزرازير عندما ظهرت جوانا» ، «جوانا؟» ، «هذا هو اسمها» ، «كان بإمكانك أن تقول الفتاة ، المرأة ، الصغيرة ، فهكذا يتكلم الحياء الذكرى عن النساء عندما تكون تسميتهن بأسمائهن أمرا شديد الحميمية» ، «ان حكمتى لا تزال فى بداياتها مقارنة بحكمتك ، لكنى كما لاحظت توا قلت اسمها بشكل طبيعى تماما ، مما يدل على أن ذاتى الحميمة لا علاقة لها بذلك» ، «إلا إذا كنت أكثر مكيافيلية مما تبدو ،

بحيث تتصرف وكأنك تريد اثبات عكس ما تفكر فيه أو ما تشعر به ، لكى أعتقد أن ما تفكر فيه أو ما تشعر به هو بالضبط ما تريد أن تبدو أنك تثبته ، لا أعرف إن كنت قد أوضحت ما أريد قوله» ، «ليس حقا ، لكن لا أهمية لذلك ، لأن الوضوح والغموض هما نفس الظل ونفس الضوء ، فالغامض واضح والواضح غامض ، وإذا كان أحد يعتقد أنه يستطيع أن يقول ما يشعر به أو ما يفكر فيه حقيقة وبدقة ، أتوسل إليك ألا تصدقه ، ليس لأنه لا يريد أن يفعل ذلك ولكن لأنه لا يستطيع» ، «اذن ، لماذا يتكلم الناس كل هذا القدر» ، «لأن الكلام هو الشئ الوحيد الذى يمكن فعله ، بل إن ذلك لا يمكن حتى تسميته كلاماً ، فهو مجرد محاولات وتجريب» ، «لقد رحلت الزرازير ، ووصلت جوانا ، ذهبت صحبة وجاءت صحبة أخرى ، يمكنك أن تتباهى بانك محظوظ» ، «لا يزال الأمر يحتاج إلى إثبات» .

وفى الفندق ، كانت هناك رسالة من بيدرو اورس لجواكيم ساسا رفيقه فى العذاب ، «لا يوقظنى أحد» ، ورسالة أخرى هاتفية لخوسيه انايسو ، من طرف جوانا كاردا ، «ان كل شئ حقيقى ، لم يكن حلما». ورن صوت جواكيم ساسا ساخرا ، من فوق كتف خوسيه انايسو، «ان السيدة ذات العيون – التى – لا – أعرف – كيف تؤكد لك أنها حقيقية ، فلا تضيع وقتك فى أن تحلم بها هذه الليلة». كانا يصعدان السلم باتجاه الغرف عندما قال خوسيه أنايسو، «غدا ، فى وقت مبكر جدا ، سأتصل بها هاتفيا لابلغها باننا سنرافقها ، إذا كنت موافقا على ذلك» ، «نعم ، ولا تهتم بما أقوله ، فى الواقع ، إنه الحسد الذى يجعلنى اتحدث هكذا ، انت تعرف ذلك» ، «ان الحسد على المظهر ، جهد ضائع» ، «حكمتى تهمس لى أن كل شئ ليس سوى مظهر ، وانه لا وجود لشئ ، ويتعين علينا أن نرضى بذلك» ، «ليلة طيبة ايها الرجل الحكيم» ، «احلام سعيدة ، يا رفيقى» .

بدأت الحكومات والمؤسسات العلمية تحقيقا عن الحركة البارعة التي تجر شبه الجزيرة نحو أعالي البحار ، باستمرارية غامضة وثبات واضح ، واجريت العملية في سرية تامة حتي أن السكان لم يساورهم قط أدنى شك ، بل إنهم لم يلحظوا الاستعدادات لتلك العملية . لقد سبق التخلي عن فكرة معرفة كيف ولماذا تصدعت جبال البرانس وفقد الأمل في ذلك . كانت أجهزة الكمبيوتر ، بالرغم من الكم الهائل من المعلومات المتراكمة ، تطالب دائما وببرود بالمزيد من المعلومات الجديدة أو تقدم اجابات غير لائقة ، وهو ما حدث بالذات في معهد ماساشوستش الشهير للتكنولوجيا ، حيث احمرت وجوه المبرمجين خجلا وهم يقرأون على شاشاتهم هذه الجملة الحاسمة ، «تعرض زائد للشمس» . أما في البرتغال ، حيث يبدو مستحيلا حتى يومنا هذا تنقية اللغة اليومية من بعض أوجه الشبه الباقية بالقديم ، كانت الخلاصة التقريبية التي امكن التوصل إليها هي ، «يفقد الابريق عروته في نهاية المطاف من كثرة الذهاب إلي النافورة» ، انها استعارة تؤدي إلي تشويش الأذهان، لأن الموضوع لا علاقة له بالابريق.ولا بالعروة أو النافورة ، وإن كان ليس من الصعب تمييز عامل أو مبدأ تكرار في هذا المثل ، وتدل طبيعة هذا التكرار ذاتها ، والمرتبطة بدوريته ، على أننا نجهل أين سيتوقف هذا العامل ، إذ يعتمد كل شئ في الواقع على دوام الظاهرة ، وعلى التأثير المتراكم للأفعال ، وقد يعطي ذلك شيئا من نوع ، «سيلي ، سيلي ، ايتها المياه العذبة على الحجر الصلب حتى يتاكل» ، وهي صيغة لم تعبر عنها ، ويا للغرابة ، أجهزة الكمبيوتر قط ، ومع ذلك، فإن هناك أوجه شبه بين الصيغتين ، ففي الحالة الأولى ، هناك هذا الوزن الثقيل للماء في الأبريق ، وفي الحالة الثانية ، فان الأمر يتعلق أيضا بالماء ، وإن كانت هذه المرة تسيل قطرة قطرة ، في حالة سقوط حر ، كما أن هناك الزمن ، وهو المكون المشترك الآخر .

ان الأمر يتعلق بالفلسفات الشعبية التى يمكننا أن نفيض فى الحديث عنها إلى ما لا نهاية ، لكنها لا تهم كثيرا الجيولوجيين وعلماء المحيطات المشتغلين بالعلم . أما بالنسبة للبسطاء ، فيمكن التعبير عن الأمر فى أبسط الأشكال ، وذلك فى صورة سؤال ، يذكرنا فى بساطته بسؤال الصحفى الجاليزى ، أتتذكرونه، الذى سأل وهو يرى نهر الإيراتى يختفى داخل الأرض ، «أين تذهب هذه المياه؟»، ويمكننا الآن أن نسأل بدورنا ، «ما الذى يحدث تحت هذه المياه؟» . من الخارج ، تبدو شبه الجزيرة بالنظر إلى الأفق والاقدام ثابتة على الأرض ، أو بمشاهدتها من أعلى ، حيث يتتابع المراقبون بلا كلل ، وكأنها ، وإننا نؤكد على فعل تبدو ، تبدو وكأنها تطفو فوق المياه . غير أنه من البديهى أنها لا تستطيع الطفو . فلكى تطفو شبه الجزيرة لابد أن تكون قد انفصلت عن القاع ، وهو ما كان كفيلا بان يرسلها نحو هذا القاع نفسه وقد تحولت إلى فتات ، لأنه حتى مع افتراض أن قانون الدفع يمكن أن يتحقق دون خلل أو تغير كبير فى ظل الظروف الحالية ، فان التأثير التفتيتى للماء وللتيارات البحرية سيقلل تدريجيا سمك المنصة المبحرة ، وسرعان ما سيذوب القرص السطحى بالكامل . وبالتالى ، علينا أن نقر أن شبه الجزيرة تنجرف على نفسها عند عمق مجهول ، كما لو أنها انقسمت افقيا إلى طبقتين ، الطبقة السفلى هى جزء من القشرة العميقة للأرض ، أما الطبقة العليا فتنزلق ، كما رأينا ، ببطء فى ظلام المياه، بين سحب الطين والاسماك المفزوعة ، مثل الهولندى الطائر ، الذى يعتقد أنه يبحر فى اللجة فى مكان ما وسط المحيط . انه فرض فاتن وملئ بالغموض ، ومع قليل من الخيال يمكن أن يشكل فصلا ساحرا يضاف إلى «عشرين ألف فرسخ تحت الماء»* ، . غير أن الزمن اختلف ولم يعد كما كان ، إذ أصبح العلم أكثر تشددا ، وطالما لم يتمكن أحد من اكتشاف ما

---

* رواية خيال علمى

الذى يجعل شبه الجزيرة تنتقل على قاع البحر ، فلابد إذن أن يذهب أحد ليرى بعينيه البشريتين هذا اللغز الاعجوبة ، وان يصور انزلاق كتلة الحجر الكبيرة ، وان يسجل ، إذا كان ذلك ممكنا ، هذه الصرخة التى هى أشبه بصرخة الحوت ، هذه الطقطقة ، وهذا التمزق الذى لا ينتهى . إن الوقت إذن هو وقت الغواصين .

من المعروف أنه لا يمكن النزول لأعماق سحيقة أو لزمن طويل جدا باستخدام تقنية حبس النفس . يستطيع صائد اللؤلؤ أو الاسفنج أو المرجان أن يغوص لعمق خمسين مترا ، وقد يصل أحيانا لسبعين مترا بالنسبة للأبطال ، ولمدة ثلاث أو أربع دقائق ، كل شئ يتوقف على التدريب والاحتياج . هنا ، الأعماق مختلفة ، والمياه أكثر برودة بكثير ، حتى إذا تمت حماية الجسم بهذه الملابس المطاطية التى تحول أى شخص ، رجلا أو امرأة ، إلى سمندل مائى اسود بخطوط صفراء . ولذلك تمت الاستعانة ببدل غوص وزجاجات الهواء المضغوط ، وبفضل هذه التقنيات والمعدات الجديدة ، وباستخدام ألف احتياطى وواحد ، يمكن بلوغ اعماق تصل إلى مائتين وثلاثمائة متر . وللوصول إلى أعماق أكبر من ذلك يفضل عدم المجازفة وارسال آلات مزودة باجهزة تصوير ورصد ومجسات لمسية وأخرى تعمل بالموجات فوق الصوتية ، باختصار كل المعدات المناسبة للقيام بالعمل وحدها دون مساعدة بشرية .

لقد بدأت العمليات فى سرية على السواحل الشمالية والجنوبية والغربية فى وقت واحد لتسهيل عملية تقييم النتائج ، ولكى لا يثير الإعلان عن عمليات البحث تلك حركات هلع جديدة تم التمويه بأنها مناورات بحرية تدخل فى إطار برامج تدريب منظمة حلف شمال الأطلنطى ، مع أن أحدا لم يطرح حتى الوقت الراهن

الفرضية القائلة بان شبه الجزيرة قد تكون فى حالة انزلاق على ما كان قاعدتها منذ آلاف السنين . لقد حان الوقت للكشف عن أن العلماء يحاولون بذلك اخفاء مسألة أخرى مثيرة للقلق تنبع حتما من الفرضية القائلة بالقطع الأفقى العميق المفترض ، والتى يمكن تلخيصها فى سؤال آخر بسيط بساطة مرعبة ، «ما الذى سيحدث عندما تجد شبه الجزيرة فى طريقها هاوية لا قاع لها ، ويكف بالتالى سطح الانزلاق المتصل عن الوجود . وباستدعاء تجربتنا الخاصة ، كما يحدث فى كل مرة تتضح فيها الضرورة لذلك من أجل فهم أفضل للاحداث، وفى هذه الحالة المحددة نستدعى تجربتنا كسباحين ، وسنفهم تماما ما يعنى مثل ذلك الوضع إذا تذكرنا ما يحدث من هلع ورعب عندما تزل أقدامنا ونفقد الأرض تحتنا ويتضح أن علم السباحة غير كاف. لو زلت قدم أو أقدام شبه الجزيرة ، سيكون عندئذ الغوص المحتوم ، والغرق والاختناق واحتباس التنفس ، من كان يظن أننا كنا مدعويين بعد كل هذه القرون من الوجود التعس إلى معاناة مصير اطلنتس .

ولنوفر على أنفسنا التفاصيل التى ستذاع يوما ما من أجل تثقيف الذين يهتمون بالحياة فى قاع البحار والمحيطات ، أن هذه التفاصيل سر مطلق فى الوقت الراهن ، ولا توجد إلا فى يوميات السفن والوثائق السرية والسجلات الأخرى ، والتى يكون بعضها مشفرا . سنكتفى بالقول إنه قد تم فحص المنصة القارية بدقة ، لكن دون نتيجة . لم يتم العثور على أى صدع ، باستثناء الصدوع الموجودة منذ الميلاد ، ولم تسجل الميكروفونات احتكاكا واحدا غير طبيعى . وبعد أن اتضح ان هذا التوقع الأول كان مخيبا للآمال ، تم الانتقال إلى الأغوار . وقامت الروافع بإنزال الأجهزة المعدة لهذه الضغوط الكبيرة ، حيث بحثت فى البحر الساكن العميق ، وبحثت مرة أخرى ولم تجد شيئا . وغاص «ارشميدس» ، وهو تحفة البحث فى أعماق البحار ، الذى قام الفرنسيون ، اصحابه ، بتشغيله ،

غاص حتى الطبقات المحيطية الأكثر عمقا لسبر الأعماق بكشافاته وكلاباته ومجساته الالكترونية وأجهزة رصده المختلفة الأنواع ، وقام ارشميدس بمسح أفق أعماق البحر بجهاز تصوير بالموجات الصوتية يعطى صورة شاملة الرؤية ، لكن كل ذلك كان سدى . وكانت المنحدرات الضخمة الوعرة والجروف الرأسية تظهر بكل جلالها الحزين وعذريتها المدهشة ، وكانت المعدات تحلل التيارات الصاعدة والنازلة ، كل ذلك مصحوبا بالكثير من الصليل والأنوار التى كانت تضاء وتطفأ ، وتصور الأسماك ، اسراب السردين ومستعمرات الغبر*، ومعارك اسماك التونة والبونيت، وأساطيل أسماك أبو شوكة وجيوش أسماك أبو منقار، ولو كان «أرشميدس» يحمل معملا مزودا بأدوات وكواشف كيميائية ومذيبات وكل المعدات الكيميائية الأخرى ، لتم عزل العناصر الطبيعية الذائبة فى مياه المحيطات ، وذلك من أجل التقدم الثقافى لسكان لا يتصورون امكانية وجود كل هذه الأشياء فى البحر الذى يسبحون فيه ، وهى طبقا للتسلسل التنازلى لكمياتها ، الكلور، الصوديوم ، الماغنسيوم ، الكبريت ، الكالسيوم ، البوتاسيوم ، البروم ، الكربون، السترونتيوم ، البور، السيليسيوم ، الفلور ، الاراجون ، النيتروجين ، الفوسفور، اليود ، الباريوم ، الحديد ، الخارصين ، الالومنيوم ، الرصاص ، القصدير، الزرنيخ ، النحاس ، اليورانيوم ، النيكل ، المنجنيز ، التيتان ، الفضة ، التنجستين والذهب.. يا ربى ، يا للثراء ، ويقولون إنها نادرة على اليابسة ، لكن لم يتم التوصل إلى اكتشاف الصدع الذى كان من الممكن أن يفسر الظاهرة ، التى حدثت فى النهاية أمام عيون الجميع ، وهو أمر أكيد ويوجد دليل عليه . وعلى سطح السفينة الهيدروجرافية* ، انتهى الأمر بعالم من أمريكا الشمالية ، وليس من أقلهم ، بأن يعلن ، يائسا وحانقا ، «اننى أؤكد أنه من المستحيل أن تكون شبه الجزيرة تتحرك الآن»، غير أن عالما إيطاليا ، أقل علما منه بكثير ، وإن كانت

★ نوع من أسماك مفترسة من فصيلة الغادسيات (المترجم)

★ أى المتخصصة فى طبوغرافيا البحار.

السابقة التاريخية والعلمية ، تعضده ، تمتم ، لكن ليس بقوة كافية مع ذلك لكى لا يسمعه مبعوث العناية الالهية الذى يدرك كل شئ ، «انها تتحرك» . واكتفت السلطات ، التى اهانتها الاحباطات وخرجت صفر اليدين وقد جعلهما الملح خشنتين ، اكتفت بإصدار بيان يقول إنه سيتم اجراء فحص للتغيرات التى أدخلت على البيئة السمكية نتيجة انتقال شبه الجزيرة ، وذلك تحت رعاية الأمم المتحدة . ولم يكن الجبل ذلك الذى تمخض فولد فأرا ، وانما المحيط الذى ولد سمكة سردين.

لقد سمع المسافرون هذا النبأ عند خروجهم من لشبونة ، ولم يولوه اهتماما ، وكان النبأ ضمن انباء أخرى تتعلق أيضا بابتعاد شبه الجزيرة والتى لم يكن لها ما يبدو أهمية هي أيضا ، ان المرء يتعود على كل شئ ، ويكون الأمر أسهل وأسرع بالنسبة للشعوب ، ففى النهاية ، يبدو الأمر الآن مثل السفر على سفينة ضخمة وعملاقة لدرجة أن المرء قد يقضى بقية حياته عليها دون أن يرى مقدمتها أو مؤخرتها ، ان شبه الجزيرة لم تكن سفينة عندما كانت مربوطة بأوروبا، ومع ذلك فان الكثير من الناس لم يكونوا يعرفون سوى الأرض التى ولدوا عليها، إذن قولوا لى أين الفرق؟!!.الآن وقد أصبح جواكيم ساسا وبيدرو اورس، على ما يبدو، بمنأى نهائيا عن الجنون التحليلى للعلم ، ولم يعد لديهما ما يخشيانه من السلطات، يستطيع كل منهما أن يعود إلى موطنه، وكذلك خوسيه انايسنو بعد أن فقدت الزرازير الآن اهتمامها به بشكل غير متوقع ، لكن هذه المرأة التى ظهرت من اللامكان تقريبا، وتلك هى سمة النساء على أية حال، وإن كن لا يتصرفن كلهن بهذه الطريقة الجذرية، لقد أعادت هذه المرأة الأمور إلى نقطة البداية . وبعد أن التقوا فى الحديقة التى ذهبت إليها فى اليوم السابق جوانا كاردا وخوسيه انايسو ، وبعد أن فحصوا من جديد الأحداث والوقائع ، قرروا هم الأربعة أن يتجمعوا

من أجل الرحلة التي يجب أن تقودهم إلى المكان الشهير حيث يوجد الخط على الأرض ، أحد تلك الخطوط التي يرسمها الإنسان خلال حياته ، غير أنه خط فريد نظرا لميزاته الخاصة ، ذلك لو تم تصديق الفاعل والشاهد ، المتحدان فى شخص واحد . لم تكشف جوانا كاردا بعد اسم المكان ولا حتى اسم مدينة قريبة منه ، اكتفت بإعطاء اتجاه عام ، «لنذهب نحو الشمال بالطريق السريع ، وبعد ذلك سأدلكم على الطريق» . وانتحى بيدرو اورس بحذر بخوسيه انايسو جانبا ليسأله إذا كان يرى أن من الطبيعي الذهاب هكذا على غير هدى وبلا تبصر، تحت تأثير نزوة سيدة طائشة وتحمل عصا ، قد يكون الأمر فخا ، اختطافا ، حيلة بارعة ، وسأل خوسيه انايسو ، «ومن وراء ذلك؟» ، «لا أعرف ، ربما يريدون اقتيادنا إلى معمل عالم مجنون ، مثل هؤلاء الذين نراهم فى الافلام ، من نوع فرنكشتاين» ، أجاب بيدرو اورس الذى كان يبتسم ، وعلق خوسيه انايسو قائلا : «إنهم على حق تماما عندما يتحدثون عن الخيال الاندلسي، فهو يغلى فى قليل من الماء» واجاب بيدرواورس «لا يوجد نقص في الماء، إنما النار هي شديدة التوقد»، واضاف خوسيه انايسو «اطمئن لا مفر من حدوث مالابد ان يحدث» ، واقتربا من الآخرين اللذين كانا قد بدآ يتناقشان بهذه الكلمات تقريبا، «لا اعرف لماذا حدث ذلك، كانت العصا على الأرض، اخذتها ورسمت خطا»، «واعتقدت بعد ذلك انها قد تكون عصا سحرية»، «لقد كانت كبيرة بعض الشئ بالنسبة لعصا سحرية، لقد سمعتهم دائما يقولون إن العصى السحرية تكون مصنوعة من الفضة والبللور وعندما طرفها نجمة لامعة»، «هل كنت تعرفين انه فرع شجرة دردار ؟» ، «لا اعرف الكثير عن الأشجار لكننى فى هذه الحالة بالذات، اعتقد ان عود ثقاب كان سيحدث الاثر نفسه»، «لماذا تقولين ذلك ؟»، «لانه لا مفر من حدوث ما لابد ان يحدث، وبقوة

كبيرة لدرجة أنه لا يمكن مقاومته»، «انت تعتقدين اذن فى القدر»، اعتقد فيما لابد ان يكون»، «اذن انت مثل خوسيه انايسو، قال بيدرواورس، فهو ايضا يعتقد فى القدر» كان الوقت صباحا والهواء خفيفا مثل النسمة، لن يكون النهار حارا. وسأل خوسيه انايسو، «هل سنذهب ؟» «هيابنا»، واجابوا جميعا ، بما فى ذلك جوانا كاردا التى جاءت تسعى اليهم.

ان الحياة مليئة باحداث صغيرة، قد تبدو لا أهمية لها، واحداث أخرى تشغل فى لحظات معينة كل ذهننا، وعندما نعيد التفكير فيها بعد ذلك ، فى ضوء عواقبها، فاننا ندرك ان ذكرى هذه الأحداث الاخيرة تلاشت، فى حين اكتسبت الأحداث الأخرى صفة الحدث الفاصل والحاسم، أو على الأقل، صفة حلقة فى سلسلة أحداث متتالية وذات مغزى، من بينها، لإعطاء المثل المنتظر، هذا التردد والذهاب والاياب وهذه البلبلة المصاحبة لعملية ترتيب امتعة اربعة اشخاص فى سيارة صغيرة مثل تلك السيارة الستروين القديمة، وقد يبدو هذا التوتر مبررا ظاهريا، حيث ان المكان لا يتسع حقا لكل هذه الامتعة. وينصب كل الاهتمام على هذه العملية الدقيقة، وكل واحد يقترح ويعرض ويساعد قدر استطاعته، لكن السؤال الرئيسى، الكامن، فى كل هذا الاهتياج، والذى يحدد بلاشك توزيعهم العرضى حول السيارة، هو معرفة إلى جوار من ستجلس جواناكاردا اثناء الرحلة. من البديهى ان يقود جواكيم ساسا السيارة ، ففى بداية آية رحلة لابد ان يقود السيارة صاحبها، فى نقطة غير قابلة للنقاش حيث يختلط فيها الاعتبار مع حقوق واحساس الملكية. وسيكون خوسيه انايسو السائق البديل عندما تسنح الفرصة، لأن بيدرواورس لم يغامر قط فى الميكانيكا المعقدة للمقود والدواسة والرافعة، وذلك ليس بسبب سنه، ولكن لانه يعيش فى ركن بعيد ويعمل وراء طاولة

صيدليته، أما جوانا كاردا ، فلا يزال الوقت مبكرا جدا لسؤالها اذا كانت تستطيع قيادة سيارة. ومن ثم اذا تم عرض معطيات المسألة بهذه الطريقة، فسيتعين منطقيا ان يسافر هذان الأخيران على المقعد الخلفي، في حين يتعين ان يسافر القائد ومساعده في المقعدين الاماميين لكن بيدرواورس اسباني وجوانا كاردا برتغالية، ولا يتكلم احدهما لغة الآخر، فضلا عن انهما قد تعارفا توا، وعندما يصبحان أكثر ألفة، بعد ذلك، قد يجلسان معا، لم لا !! ، ان المكان المجاور للسائق، وإن كان المتطيرون يطلقون عليه، اعتمادا على التجربة، اسم مكان الموت، يعتبر عادة مكانا مميزا ولذلك فمن المناسب منحه لجوانا كاردا ، التي ستجلس في هذه الحالة على يمين جواكيم ساسا ، بحيث يستقر الرجلان المتبقيان في الخلف، وبعد كل هذه المغامرات المعاشة معا ، فلا بد انهما سيتفاهمان بشكل جيد. لكن العصا كبيرة جدا بحيث يتعذر وضعها في المقعد الأمامي، وجوانا كاردا ، كما فهموا جميعا ذلك تماما ، لا تنفصل عن عصاتها لأي سبب من الاسباب. والآن، لم يتبق احتمال آخر، سيذهب بيدرواورس إلى الأمام، وذلك لسببين مقبولين ، السبب الأول لأن المكان مميز كما سبق ان قلنا ، والسبب الثاني، ان بيدرواورس بما انه اكبرهم سنا فهو الأقرب ايضا للموت، طبقا لما يسمى القانون الطبيعي للحياة، وإن كانت تلك التسمية لا تخلو من دعابة سوداء. لكن ما يهم حقيقة، فيما وراء هذه الحجج والاستنتاجات الغامضة والمعقدة، هو أن جواناكاردا وخوسيه انايسو يريدان ان يكونا معا على المقعد الخلفي، وان كل ما جرى من حركات ووقفات، وشرود ظاهري قد استخدم من أجل ذلك . «لنجلس اذن وننطلق» .

كانت رحلة بلا أحداث، هذا ما يقوله دائما الرواة المتعجلون عندما يعتقدون ان بإمكانهم اقناعنا بأنه لم يحدث شئ يستحق الذكر خلال الدقائق العشر أو

الساعات العشر التي سيجعلونها تختفي. سيكون الأمر أكثر امانة بكثير، من وجهة نظر الواجبات الادبية، وأكثر صحة ان يقال ، «وكما فى كل الرحلات، ايا كان الطريق والمدة، فلقد وقع ألف حدث وألف كلمة والف فكرة»، وقد يتعين بالأحرى القول عشرة آلاف، لكن هذا الرد قد طال ولذلك فإننى اعطى لنفسى الحق فى الاختصار، مجتازا مائتى كيلو متر فى ثلاثة اسطر، ومفترضا أن بامكان أربعة اشخاص يستقلون سيارة، ان يسافروا فى صمت، دون ان يفكروا أو يتحركوا، ومتظاهرين بطريقة ما ألا يجعلوا من هذه الرحلة موضوعا. لكن فى القضية التى تعنينا، يبدو مستحيلا عدم ملاحظة معنى ما عندما تبعت جوانا كاردا وبشكل طبيعى تماما خوسيه انايسو حين انتقل ليجلس مكان جواكيم ساسا، الذى اراد ان يرتاح قليلا، ونجحت فى ان تضع العصا امامها، بفضل رياضة بدنية غير معلومة، وذلك دون ان تزعج العصا عملية القيادة او الرؤية فى شئ. وغنى عن البيان ان جوانا كاردا تبعت خوسيه انايسو عندما عاد إلى المعقد الخلفى، وكان الأمر كذلك فى كل مرة، فحيث يوجد خوسيه انايسو توجد جوانا كاردا ايضا، وإن كان أحد منهما لا يستطيع ان يقول لماذا وبأى هدف، أوأنهما عرفا ذلك ، ويرفضان تصديقه، ان لكل لحظة مذاقها الخاص ومذاق هذه اللحظة لم يستنفد بعد.

كانت السيارات المتروكة على الطريق قليلة وهى دوما ناقصة قد تنقصها العجلات أو الكشافات أو المرايا أو مساحات الزجاج أو باب أو كل الأبواب أو المقاعد، بل ان بعض هذه السيارات تحولت إلى مجرد هيكل، مثل سلطعون بدون مخ، لكن المرور كان ضعيفا، بسبب صعوبات التزود بالبنزين بالطبع، كانت لا تمر سوى سيارة واحدة على فترات متباعدة. وكانت بعض المظاهر غير اللائقة تلفت

الانظار، مثل رؤية عربة يجرها حمار تسلك الطريق السريع، وكذلك زمرة من راكبى الدراجات التى لابد ان سرعتها القصوى أقل بكثير من الحد الأدنى للسرعة التى تفرضها، بلا فائدة، الاشارات، التى لا تكثرت بالمعنى المثير للواقع. وكان هناك من يسافرون سيرا على الأقدام، ويحمل كل منهم حقيبته على ظهره، او يحمل حقيبتين مربوطتين، بشكل أكثر ريفية، رأسا لقدم على الكتف مثل الخرج، وكانت النساء تحملن السلاسل على رؤوسهن. كان أغلب الناس يسافرون فرادى، وإن كانت هناك اسر كاملة ايضا على ما يبدو، فهى تضم شيوخا وشبابا واطفالا. وعلى مسافة ابعد قليلا ، عندما اضطرت السيارة إلى ان تترك الطريق السريع، كان عدد المشاة يتناقص تبعا للأهمية المتناقصة للطريق. وسأل جواكيم ساسا الناس ثلاث مرات إلى اين هم ذاهبون، وكان الرد واحدا فى كل مرة، «إننا ذاهبون إلى هناك، لنرى العالم» ، لم يكن ممكنا ان يجهلوا ان العالم ، العالم المباشر، أصبح الآن أصغر من ذى قبل، ولذلك ، بلاشك ، أضحى حلم معرفة العالم كله قابلا للتحقيق، وعندما كان خوسيه انايسو يسأل، «لكن ماذا عن بيتكم وعملكم»، كانوا يجيبون ، : لقد ظل البيت فى مكانه، أما بالنسبة للعمل، سنجد غيره، إنها اشياء تنتمى للعالم القديم ويجب ألاتشوش العالم الجديد، ولحسن الحظ ان هؤلاء الناس لم يوجهوا لهم نفس السؤال، سواء بسبب الحذر أو الانشغال الشديد بحياتهم الخاصة ، سيكون الأمر مسليا مليا لو اضطروا إلى ان يجيبوا، إننا ذاهبوان مع هذه السيدة لنشاهد خطا رسمته على الأرض بهذه العصا، أما بالنسبة للعمل ، فكانوا جميعا سيظهرون بمظهر غير لائق ، ربما كان بيدرواورس سيقول، «لقد تخليت عن مرضاى»، وجواكيم ساسا، «حسن ، حسن، لايوجد نقص فى موظفى المكاتب ، فضلا عن ان هذه الفترة هى فترة إجازتى

المستحقة»، وخوسيه انايسو، «انني في نفس الموقف، لو ذهبت للمدرسة الآن، فلن أجد فيها تلميذا واحدا، ومن ثم فانا حر في وقتي من الآن وحتى اكتوبر»، وجوانا كاردا ، «لن اتكلم عن نفسي، وإذا كنت لم اقل شيئا بعد لمن يسافرون معي، فلن اقول شيئا أمام غرباء».

وكانوا قد تجاوزوا مدينة يومبال عندما قالت جوانا كاردا، «بعد ذلك بقليل، يوجد الطريق المؤدى إلى بلدة سور، لنأخذه،» وكان ذلك هو اول توضيح لمكان مادى منذ ان غادروا لشبونة ، كان الأمر يبدو لهم حتى الآن وكأنهم يسافرون وسط ضباب، أو لملاءمة هذا الموقف الخاص مع الظروف العامة فإنهم قد تصرفوا مثل هؤلاء الملاحين القدامى الساذجين، اننا فوق البحر، والبحر هو الذى يحملنا، إلى اين سيقودنا البحر ؟ .. كانوا سيعرفون الاجابة عما قليل . لم يتوقفوا في بلدة سور، لكنهم سلكوا طرقا صغيرة كانت تتقاطع وتتشعب، بحيث تبدو احيانا وكأنها تلف حول نفسها، إلى أن وصلوا إلى قرية ، كانت تعلن عن اسمها منذ المدخل، إريرا، هكذا كانت توضح اللافتة، وقالت جوانا كاردا ، «إنه هنا» .

وفى قفزة، ضغط خوسيه انايسو الذى كان يقود السيارة في هذه اللحظة، فجأة على دواسة الفرامل، وكأن الخط موجود في وسط الطريق وكانوا على وشك ان يطأوه، ليس لان هناك خطرا من محو الدليل العجيب، فهو غير قابل للمحو، طبقا لأقوال جوانا كاردا، لكن لانه قد انتابه فجأة هذا النوع من الرعب المقدس الذى يستولى على أكثر المتشككين عندما يتحطم النمط كما تحطم الخيط الذى كنا نجعله ينزلق في يدنا، ونحن واثقون ولا يشغلنا شئ ، إلا الحفاظ عليه وتدعيمه واطالته لأبعد ما يمكن وكذلك اليد التى تمسك به، إلقى جواكيم ساسا نظرة إلى الخارج ، ورأى البيوت والأشجار اعلى الاسقف والحقول المحصورة، وكان يمكن

التنبؤ بالبرك وحقول الأرز، انه الموندجو الوديع، ذلك أفضل من صخرية مهجورة. إذا كانت هذه الفكرة هى فكرة بيدرواورس، لرأينا دون كيشوت ينزل فجأة فى قصتنا بوجهه الحزين، هذا الوجه الذى له والذى يصنعه لنفسه، عاريا، ويقفز مثل مجنون وسط صخور جبال مورينا، غير أن الأمر سيكون شاذا لو ذكرت هنا هذه المشاهد من الفروسية المتجولة، لذلك اكتفى بيدرو اورس، عند خروجه من السيارة، بان يتأكد ، وقدمه على الأرض، ان الأرض لاتزال تهتز، ودار خوسيه انايسو حول السيارة، وذهب ليفتح، بفروسية، الباب من الناحية الأخرى، متظاهرا بانه لم ير ابتسامة جواكيم ساسا الساخرة العطوفة، وبما ان جوانا كاردا اعطته عصاها ، مد لها يده لمساعدتها على النزول، وهى من جانبها تركت له يدها، وضما يديهما أكثر من الضرورى لتأمين صلابة الارتكاز، لكن لم تكن تلك هى المرة الأولى، كانت المرة الأولى والوحيدة حتى تلك اللحظة على المقعد الخلفى، مجرد اندفاع، وإن لم يقولا شيئا عندئذ فانهما لم ينطقا الآن ايضا هذه الكلمة بصوت عال أو بصوت منخفض، والتى ترتبط مع ذلك وبقوة بكلمة الآخر.

وحانت ساعة التفسيرات، هذا حقيقى، لكن سؤال جواكيم ساسا ربان السفينة، الذى يخشى ان يجدو ورقة بيضاء لحظة فتح خطاب الأمر الاستبدادى، لم يكن يطالب بتلك التفسيرات «والآن» ، «الآن سنسلك هذا الطريق، أجابت جوانا كاردا، وفى الطريق ، سأقول لكم ما تبقى ان تعرفوه عنى، ليس لان ذلك يضيف شيئا إلى السبب الذى قادنا إلى هنا، لكن لأن الاستمرار فى ان ابقى مجهولة بالنسبة لمن رافقونى حتى هنا، هو امر لا معنى له» ، «كان يمكنك ان تقوليه قبل ذلك، فى لشبونة أو أثناء الرحلة »، قال خوسيه انايسو معلقا، «لماذا ، إما انكم تحضرون معى وكانت كلمة واحدة من الكلمات التى قلتها كافية لذلك، أو كان

يتعين اضافة الكثير من الكلمات الأخرى لاقناعكم، وعندئذ لم يكن ذلك ليفيد فى شئ»، «ومكافأة الثقة فى هذه الكلمة» ، «ان اختيار المكافأة يرجع لى، وكذلك ساعة منحها». لم يرغب خوسيه انايسو قط فى الرد وتظاهر بانه لم يسمع شيئا، وظل ينظر إلى صف بعيد من اشجار الحور، لكنه سمع جواكيم ساسا وهو يهمس، «يالها من صغيرة»، وابتسمت جوانا كاردا وقالت، «لم اعد صغيرة لهذه الدرجة، ولست مسترجلة ايضا كما اوحى بذلك»، «لن اقول مسترجلة» ، «متسلطة واثقة من نفسها، مغرورة، ومتحكمة»، «اوه لا لا، لاترمى بالمزيد ، قولى غامضة وكفى»، «لماذا يكون هناك غموض ، ألا استطيع ان احضر إلى هنا شخصا يمكنه التصديق دون ان يرى ، انتم مثلا لا يصدقكم الآخرون ايضا»، «حاليا ، بدأوا يمنحوننا هذا الفضل»، «انا أكثر حظا، فان كلمة واحدة كانت كافية»، «شريطة ألاتحتاجين الآن إلى ان تقولى المزيد» . هذا الحوار دار بالكامل بين جوانا كاردا وجواكيم ساسا، نظرا لصعوبات التفاهم بالنسبة لبيدرواورس، ولنفاد صبر خوسيه انايسو الواضح والذى ابتعد بارادته عن الحوار. لعل هذا الموقف الغريب ، مع الأخذ فى الاعتبار الاختلافات التى تميز دائما المواقف التى تتكرر، يعيد مرة أخرى الموقف الذى حدث فى غرناطة، عندما كانت ماريا دولور توجه حديثها إلى أحد البرتغاليين فى الوقت الذى كانت تود محادثة الآخر، اخيرا، فى الحالة التى تعنينا، سيكون لدينا الوقت لتوضيح كل شئ، ولم يقل أحد ان من يشعر فعلا بالعطش سيظل عطشان للنهاية.

انهم يتقدمون الآن على الطريق الضيق، واضطر بيدرو اورس إلى ان يسير فى الخلف، وإذا كان الاسبانى مهتما حقيقة بحياة البرتغاليين، فان الآخرين سيشرحون له كل القصة فيما بعد. بدأت جوانا كاردا بان قالت، «انا لا اعيش فى

هذه القرية ، قرية إريرا، ان بيتى فى قرية كويمبرا، انني هنا منذ شهر، منذ ان انفصلت عن زوجي، الاسباب ، ما فائدة الحديث عن الأسباب ، ان سببا واحدا يكفي احيانا، وفي أحيان أخرى لا ننجح حتى فى ان نجمعها كلها، وإذا كانت حيوات كل واحد منكم لم تعلمكم ذلك، فانني أأسى لكم، وانى اقول الحيوات وليس الحياة، لأن لدينا عدة حيوات، ولحسن الحظ أن احداها تدمر الأخرى، وإلا تعذر علينا ان نعيش» . وقفزت حفرة عريضة، وصنع الرجال الشئ نفسه، وعندما تكونت المجموعة من جديد، استمرت جوانا كاردا فى الحديث، وهم يدوسون الآن على تربة رملية ناعمة، ارض غطتها الفيضانات بالرمال، «انني اسكن لدى اقارب لى، كنت اريد ان افكر، ان اقيم الموقف ، لكن ليس كما يحدث ذلك عادة، هل تعرفت بشكل جيد، هل اسأت التصرف ، لأن ما حدث قد حدث، ان ما كنت اريده هو التفكير في الحياة وتأملها، وما نفعها ، وما نفعى انا فى هذه الحياة، ووصلت إلى خلاصة واعتقد انه لا يوجد غيرها، وهى اننى لا اعرف كيف هى الحياة» . ويبدو واضحا من سحنة جواكيم ساسا وخوسيه انايسو انهما فى حيرة تامة من امرهما، لقد اتضح ان هذه المرأة التى جاءت إلى المدينة وفي يدها عصا، مدعية مآثر مستحيلة فى مجال مساحة الأراضي، انما هى فيلسوفة ريفية من مدنوجو ومن النوع السلبي، أو ما هو أكثر تعقيدا، انها من تلك الفئة الخاصة جدا التى تقول نعم عندما تكون قد قالت لا، وستقول لا عندما تكون قد قالت نعم ان خوسيه انايسو الذى تلقى تدريبا كمدرس ، كان أكثر تأهيلا لادراك هذه التناقضات، غير ان الأمر كان مختلفا مع جواكيم ساسا الذى لم يتمكن إلا من استشعار هذه التناقضات، ولذلك وجد نفسه منزعجا بشكل مضاعف. وتوقفت جوانا كاردا لانها أصبحت قرب المكان الذى تريد ان تقود اليه الرجال، ولايزال لديها شئ تقوله لهم،

أما الباقي، إذا كان موجودا، فهو مؤجل إلى مرة قادمة، «إذا كنت قد ذهبت للبحث عنكم في لشبونة، فلم يكن ذلك بسبب القصص الغريبة وغير المألوفة التى ارتبطت بكم ، بقدر ما كان بسبب اننى اعتبركم اشخاصا بعيدين عن المنطق الظاهرى للعالم، وانا اشعر اننى كذلك بالتحديد، ولو انكم لم ترافقونى حتى هنا، لشعرت بإحباط شديد، لكنكم حضرتم، وربما لايزال هناك معنى لشئ، أو أن هذا الشئ وجد ذلك المعنى ثانية بعد أن فقده ، الآن اتبعونى».

كان المكان عبارة عن جزء من الغابة بعيد عن النهر لا تكثر فيه الاشجار، على شكل دائرة محاطة باشجار الدردار، ويبدو عليها انها لم تزرع قط ، ان مثل هذه الاماكن اقل ندرة مما يتصور، وبمجرد ان نضع القدم عليها يبدو الوقت وكأنه قد توقف، ويصبح الصمت مختلفا، ونشعر بنسمة الهواء الخفيفة على الوجه والأيدى ، لا ، ليس فى الأمر سحر ولا شعوذة، فهو ليس مكانا للاستلهام أو الدعاء، ولا بابا إلى كون آخر، انه فقط التأثير الناجم عن هذه الأشجار المرصوصة على شكل دائرة وهذه التربة التى تبدو وكأن احدا لم يلمسها منذ بداية العالم، ان الرمل هو الذى جاء وحده وجعلها اكثر ليونة، لكن التربة العضوية ، تحته، ثقيلة ، انها غلطة الذين زرعوا الاشجار بهذا الشكل . وانهت جوانا كاردا شرحها، «كنت احضر إلى هنا لأفكر فى حياتى ، ولابد انه لا يوجد مكان فى العالم أكثر سكينة وهدوءا ، ولا أكثر اضطرابا، فذلك غنى عن البيان، لكن لو لم تأتوا إلى هنا لتعذر عليكم فهم ذلك، وذات يوم ، منذ اسبوعين بالضبط ، وبينما كنت اعبر هذا المكان من طرفه إلى الطرف الآخر لكى اجلس فى ظل احدى هذه الاشجار هناك، وجدت هذه العصا، كانت على الأرض، لم أكن قد رأيتها قط من قبل، لقد حضرت فى اليوم السابق ولم تكن موجودة، وكأن احدا جاء ليضعها هنا عمدا ولم تكن هناك اى

آثار اقدام، إن الآثار التى ترونها هى آثار اقدامي، او آثار قديمة لاشخاص مروا هنا منذ وقت طويل جدا». انهم على حدود المكان، ومازالت جوانا كاردا تحتجز الرجال، فتلك آخر كلماتها، «رفعت العصا، وشعرت بها حية كما لو كانت الشجرة نفسها التى نزعت منها، اننى اشعر بها كذلك على الأقل الآن، عندما أتذكر ذلك، وفى تلك اللحظة بالتحديد، وبحركة اقرب لتصرف صبية منه لتصرف سيدة راشدة، رسمت خطا يفصلنى نهائيا عن كويمبرا، وعن الرجل الذى عشت معه، خطا يفصل العالم إلى نصفين، انه يرى من هنا».

ودلفوا إلى داخل الدائرة ، واقتربوا، كان الخط هناك ، حيا كما لو كان قد رسم توا، والتراب مطروحا على الجوانب ، والطبقة السفلى مازالت رطبة رغم حرارة الشمس. الآن، يلتزم الجميع الصمت، فلا يعرف الرجال ماذا يقولون، ولم يعد لدى جوانا كاردا ما تضيفه ، انها لحظة المجازفة بالفعل الذى قد يغرق كل قصتها العجيبة فى السخرية. انها تجر قدمها على التربة مستخدمة إياها كمجرفة لمحو الخط الذى تدوسه وتدعسه، وكأن الأمر سحر ففى اللحظة التالية، يتكون الخط من جديد، تحت نظر العيون المذهولة ويتشكل كما كان من قبل تماما ، كتل التربة الصغيرة وحبات الرمل تتخلق مرة أخرى، وتنتظم وتأخذ مكانها من جديد، ويظهر الخط مرة أخرى، وقالت جوانا كاردا بصوت جعلته العصبية حادا «لقد سبق ان محوت الخط، والقيت عليه ماء، غير انه كان يظهر دائما من جديد، يمكنكم التجربة إذا رغبتم، لقد وصل بى الحال إلى أن وضعت احجارا فوقه، وعندما نزعتها، عاد كل شئ إلى مكانه ، جربوا إذا كنتم لا تصدقوننى». وانحنى جواكيم ساسا وغرز اصابعه فى التربة الطرية، واخذ بعضا منها والقى به بعيدا ، وسرعان ما شكل الخط مرة اخرى. وكان الدور على خوسيه انايسو، الذى استعار

من جوانا كاردا عصاتها، ورسم خطا عميقا إلى جانب الخط الأول، ثم اخذ في دعسه على امتداده. ولم يتكون الخط مرة اخرى. وقال خوسيه انايسو لجوانا كاردا، «افعلى الشئ نفسه». وغرزت طرف العصا في التربة، ثم جرتها وفتحت بذلك جرحا طويلا، سرعان ما اندمل عندما داسوه مثل ندبة مشوهة. قال خوسيه انايسو «انها ليست العصا، ولا الشخص ، انها اللحظة ، فهى التى لها اهمية». عندئذ، فعل جواكيم ساسا ما كان لابد ان يفعله، رفع احد الاحجار التى استخدمتها جوانا كاردا، وكان وزنه وشكله يجعلانه يشبه الحجر الذى قدفه فى البحر، وقذف به بعيدا ، مستخدما كل قوته، إلى ابعد ما يستطيعه، وسقط الحجر حيث كان ينبغى له طبيعيا ان يسقط، اى على بعد خطوات منه، هذا كل ما تستطيعه القوة البشرية.

وكان بيدرو اورس قد شاهد الاختبارات والتجارب، لكنه لم يرغب فى المشاركة فيها، لقد كانت الأرض التى لا تزال تهتز تحت قدميه تكفيه بلا شك . اخذ فرع الدردار من جوانا كاردا وقال ، «يمكنك كسره أو رميه أو حرقه، فلم يعد فرعك هذا يفيد فى شئ، لقد تم استخدام حجر جواكيم ساسا مرة واحدة وكذلك زرازير خوسيه انايسو، ولن يستخدموا بعد ذلك ، مثل الرجال والنساء الذين لا يستخدمون إلا مرة واحدة هم ايضا، ان خوسيه انايسو على حق فما يهم هو اللحظة، نحن ، نحن هنا لخدمة اللحظة » وردت جوانا كاردا، «ذلك ممكن ، لكننى احتفظ بهذه العصا ، فاللحظات لا تنبئ أحدا بقدومها، وظهر كلب فجأة بين الأشجار ، من الناحية الأخرى. ونظر اليهم طويلا ثم عبر المكان ، كان حيوانا كبيرا وقويا، وبدا شعره الأشقر ، فى ثغرة مفاجئة من اشعة الشمس ، وكأنه يلتهب . قذفه جواكيم ساسا ، الذى كان متوترا، بحجر، «لا احب الكلاب»، لكنه لم

يصبه . وتوقف الكلب ، لاخائفا ولا مهددا ، توقف فقط لينظر، وحتى لم ينبح وعندما وصل إلى الاشجار، ادار رأسه، وكان يبدو أكثر ضخامة عند النظر اليه هكذا من على بعد، ثم ابتعد، بخطوات بطيئة واختفى . وقال جواكيم ساسا الذى اراد ان يمزح، و يتخلص من توتره، «احتفظى بعصاتك يا جوانا، فقد تكون نافعة اذا هامت فى هذه الانحاء حيوانات متوحشة من هذه الشاكلة» ، «ان سلوكه ليس فيه شئ من الحيوانات المتوحشة» .

وعادوا من الطريق نفسه، وكانت هناك اسئلة عملية مطلوب الرد عليها، مثلا ، اين سيقيم الرجال ، فقد أصبح الوقت متأخرا بعض الشيء للعودة إلى لشبونة.

لكن الوقت ليس متأخرا لهذه الدرجة ، قال جواكيم ساسا محتجا، فحتى وان لم نسرع مثل المجانين، يمكن ان نصل لشبونة على موعد العشاء»، وقال خوسيه انايسو «فيما يتعلق بى، اعتقد انه من الأفضل البقاء فى بلدة فيجيرا دافوز أو فى بلدة كويمبرا ، وفى الغد سنمر من هنا ثانية، فقد تحتاج جوانا إلى شئ»، وكان فى صوته جزع شديد ، ابتسم جواكيم ساسا وقال ، «اذا كان ذلك هو ما تريده»، وانتقل باقى الجملة من الكلمات إلى النظرة ، «لقد كشفتك تماما، انت تريد ان تفكر هذه الليلة وتقرر ما ستقوله غدا، فاللحظات لا تنذر بقدومها» الآن يسير بيدرو اورس وجواكيم ساسا فى المقدمة، ان عذوبة العصر شديدة لدرجة ان الحلق ينقبض بانفعال غير موجه لأحد، إن لم يكن للضوء، والسماء الباهتة، والأشجار التى لا تتحرك وإلى سكون النهر، الذى يستشعر وجوده قبل ان يظهر فجأة، مرآة ناعمة تعبرها الطيور ببطء. ويمسك خوسيه انايسو يد جوانا كاردا ويقول ، لكم من الوقت سنظل معا فى هذا الجانب من الخط» ، واجابت جوانا كاردا «سرعان ما سنعرف ذلك».

وعندما وصلوا قرب السيارة، رأوا الكلب. ومرة اخرى التقط جواكيم ساسا حجرا ولكنه لم يقذفه. وبالرغم من هذه الحركة ، فان الحيوان لم يتحرك. واقترب منه بيدرو اورس ، ومد له يده فى حركة سلام كأنه سيداعبه، وظل الكلب ساكنا، ورأسه مرفوع. وكان يتدلى من خطمه خيط صوف ازرق ، مبلل . مرر بيدرو اورس يده على ظهره، ثم استدار نحو رفاقه، «بعض اللحظات تنذر بقدومها، ان الأرض تهتز تحت اقدام هذا الكلب».

وهناك افترق الجمع ، سيتوجه الرجال إلى بلدة فيجيرا دافوز القريبة، وستذهب المرأة إلى اهلها الذين يستضيونها، لكن بينما بدأت السيارة ترخي كوابحها وتستعد للسير ، وقف الكلب أمام جوانا كاردا ليمنعها من التقدم، وسط ذهول عام لم ينبح أو يشهر مخالبه، ولم يكترث بالحركة التى قامت بها بالعصا، فهى لم تكن سوى حركة. اوقف السائق ، خوسيه انايسو، السيارة فجأة، متصورا ان حبيبته في خطر ، وقفز وطار لنجدتها، فارسا فى خدمتها مرة أخرى، تصرف مؤثر لكنه غير ملائم بالمرة، كما ادرك هو ذلك على الفور، فالكلب لم يفعل سوى انه تمدد على الطريق. اقترب بيدرو اورس وكذلك جواكيم ساسا، مخفيا نفوره تحت مظهر منطلق وسأل، «ماذا يريد هذا الحيوان ؟»، لكن لم يستطع أحد الاجابة على السؤال . ولا حتى هو . اتجه بيدرو اورس نحو الحيوان، كما فعل من قبل، ووضع يده على رأسه الكبير. واغمض الكلب عينيه تحت تأثير المداعبة، بشكل مؤثر وموجع، لو أمكن استخدام هذه الكلمة عند الحديث عن كلب ، وليس عن هؤلاء الاشخاص الحساسين المعتادين على الحساسية، ثم وقف، وحدق فى الآدميين واحدا واحدا، وترك لهم الوقت ليفهموا ثم بدأ فى التقدم. قطع عشرة امتار، وتوقف وانتظر.

لقد علمتنا التجربة، وكذلك الافلام والروايات التى تفيض بأمثلة من هذا النوع، فالكلبة لاسي مثلا تجيد تماما هذه التقنية ، اذن التجربة تعلمنا ان الكلب يتصرف دائما بهذا الشكل عندما يريد منا ان نتبعه . ان الأمر فى الحالة الراهنة، واضح وضوح النهار، فقد اعاق سير جوانا كاردا لكي يجبر الرجال على الخروج من السيارة، ويما انهم الآن جميعا معا، فانه يشير لهم إلى الطريق الذى، بذكائه الكلبى، يتعين عليهم اتباعه ولتغفروا لنا مرة اخرى التكرار، لانه يريد ان يتبعه

الجميع . ولا يحتاج الأمر إلى ان يكون الكائن ذكيا مثل الانسان لكى يفهم ذلك، طالما أن كلبا بسيطا يتمكن ببساطة من افهام ذلك. لكن البشر تعرضوا كثيرا للخداع بحيث تعلموا ان يثقوا فى التجربة ، فهم يتحققون من كل شئ بالتكرار اساسا، فهى الوسيلة الأسهل ، وعندما يكونون قد بلغوا مستوى ثقافيا متوسطا ، كما فى هذه الحالة بالذات، فانهم لايكتفون بتجربة ثانية مماثلة للأولى، ولكنهم يدخولون عليها بدائل صغيرة لا تغير المعطيات الاساسية تغييرا جذريا، والمثال على ذلك، ان خوسيه انايسو وجوانا كاردا توجها نحو السيارة، وبقى بيدرو اورس وجواكيم ساسا فى مكانهما، وسنرى الآن ما سيفعله الكلب. لنقل انه فعل ما كان يجب عليه ان يفعل. ان الكلب ، الذى يعرف تماما انه لا يستطيع ايقاف سيارة إلا إذا رقد امامها ، وهو ما يعنى الموت المحقق، لانه لا يوجد سائق واحد، حتى وإن كان يحب الحيوانات، أصدقاءنا ، يدفعه هذا الحب إلى حد التوقف لمرافقة الكلب فى لحظاته الأخيرة او لدفع الجثة البائسة فى مجرى الماء، وبالتالى قطع الكلب الطريق على جواكيم ساسا وبيدرو اورس ، كما فعل من قبل مع جوانا كاردا . وتم التحقق الثالث والحاسم عندما دخلوا هم الأربعة فى السيارة ، وبدأت تتحرك ، ولأن المصادفة ارادت ان تكون السيارة فى الاتجاه الصحيح . فان الكلب تقدم السيارة، ولكن ليس لمنعها من التقدم هذه المرة ، وانما لكى يفتح لها الطريق. لقد حدثت كل هذه المناورات بعيدا عن وجود الفضوليين ، لأن ، وكما حدث من قبل منذ بداية هذه الرواية، بعض هذه الوقائع واهمها ، وقعت دائما فى مداخل المدن والقرى أو فى مخارجها ، ولم يقع أى منها داخلها قط، كما يحدث ذلك غالبا، وبلاشك يستحق هذا الأمر تفسيرا لانملك حاليا تقديمه ، صبرا.

اوقف خوسيه انايسو السيارة وتوقف الكلب لينظر ولخصت جوانا كاردا الموقف ، «انه يريد منا ان نتبعه» لقد استغرقوا وقتا طويلا لفهم شئ كان يبدو

واضحا منذ لحظة عبور الحيوان تلك الفرجة فى الغابة، لنقل ان اللحظة قد نبأتهم، لكن الناس لا يصغون دائما للإشارات وحتى بعد أن انتفى أى سبب للشك، تشبثوا برأيهم لكى لا يستمعوا للدرس كما يفعل جواكيم ساسا الذى يسأل . «ولماذا يجب علينا ان نتبعه، انه امر أحمق تماما، أربعة اشخاص كبار يسيرون وراء كلب ضال لا يحمل فى طوقه أية رسالة من نوع «انقذونى» وليست لديه حتى شارة هوية ، « اسمى بيلوت إذا وجدنى أحد يجب ان يقودنى إلى سيدى، السيد فلان أو السيدة فى مكان كذا »، قال خوسيه انايسو ، «لا تتعب نفسك ، هذه القصة لا تقل عبثية عن القصص الأخرى التى حدثت لنا والتى لم يبد أبدا ان لها معنى هى أيضا ، اننى مازلت اشك فى معناها الحقيقى»، «لاتهتم اذن بالمعنى الحقيقى للأشياء، قال بيدرو اورس ، فلا معنى لاية رحلة سوى نهايتها ونحن مازلنا فى منتصف الطريق أو فى بدايته ، من يدرى ، قل لى كيف كانت نهايتك وعندئذ سأخبرك بمعناك الذى كان يمكن ان يكون لك» ، «حسن جدا، وفى انتظار ذلك اليوم، ماذا نفعل». وساد الصمت. يبتعد النهار وينسحب الضوء، تاركا ظلالا وسط الأشجار، وتغير غناء الطيور. تمدد الكلب على بعد ثلاث خطوات أمام السيارة، ووضع خطمه بين قدميه الاماميتين المددتين، وانتظر دون أن ينفذ صبره. فى هذه اللحظة قالت جوانا كاردا، «انا مستعدة للذهاب حيث يريد ان يقودنا، سنعرف، عندما نصل إلى المكان المقصود، اذا كان قد أتى من أجل ذلك». وتنفس خوسيه انايسو بعمق ، لم تكن تنهيده ، وإن كانت تنهيدة الراحة موجودة، وقال ، «أنا أيضا»، ولم يزد، واضاف بيدرو اورس ، «وأنا» وفى النهاية قال جواكيم ساسا حاسما الأمر، « طالما أن الجميع متفقون، لن اكون الشرير الذى يضطركم للذهاب وراء بيلوت مشيا على الأقدام ، سنذهب كلنا معا، لابد ان تكون العطلات مفيدة فى شئ».

ان اتخاذ قرار هو عبارة عن قول نعم أو لا، مجرد نفس يعبر الشفاه، اما الصعوبات فتظهر بعد ذلك ، فى الجزء العملى، كما يقول الشعب فى تجربته الكبيرة، التى اكتسبها بالزمن والصبر اللازم لتحمل هذا الزمن، عندما تكون الآمال محدودة والتغيرات أكثر محدودية ايضا. لا خلاف هناك على ان يتبعوا الكلب، يبقى معرفة كيف يتم ذلك ، نظرا لأن الدليل لا يمكنه التفاهم، ولا يستطيع السفر داخل السيارة ويقول انعطف يمينا أو انعطف يسارا، أو استمر فى خط مستقيم حتى السيمافور الثالث، بالاضافة إلى ان الموقف أصبح الآن معقدا بما فيه الكفاية، كيف يمكن لحيوان بهذا الحجم ان يسافر فى سيارة كل اماكنها مشغولة ، بغض النظر عن الأمتعة والعصا، وإن كان لا يتم ابدا ملاحظة هذه العصا عندما يسافر خوسيه انايسو وجوانا كاردا جنبا إلى جنب وطالما ذكرنا جوانا كاردا، فلم يتم وضع امتعتها بعد فى السيارة ، فضلا عن انه يتعين قبل التوصل إلى رصها بشكل أو بآخر، الذهاب لاحضار هذه الأمتعة وشرح سبب الرحيل المفاجئ للأقارب ، لكن لا مجال لظهور الرجال الثلاثة و السيارة والكلب «سأرحل معهم» سيكون ذلك هو صوت الحقيقة البريئة، إلا أنه ينبغى على امرأة انفصلت توا عن زوجها ان تقدم للعالم حسابات أخرى ، خاصة فى بيئة ضيقة مثل إريرا، قرية ، فان القطيعة والهجر يصلحان للعاصمة والمدن الكبرى، وحتى فى هذه الحالة ، فان الله وحده يعلم ثمن ذلك من الهموم والصراعات بالنسبة للجسد والقلب.

لقد غربت الشمس ولن يتأخر الليل فى الهبوط ، انها ليست الساعة المناسبة لبدء سفر نحو المجهول ، وسيكون الاختفاء بهذا الشكل ودون تفسير تصرفا بالغ السوء ، كانت جوانا كاردا قد قالت لاهلها انها ذاهبة إلى لشبونة لمعالجة قضية

ما، ورحلت بالقطار لكنها لم تعد به . ان مثل هذه الصعوبات اشبه ما تكون بالعقد المزدوجة نظرا لقوة وسلطة الأسرة والمجتمع.

عندئذ خرج بيدرو اورس من السيارة ، وعندما رآه الكلب يقترب منه نهض واقفا وظلا هناك فى شبه الغروب يتحاوران، لا يوجد تعبير آخر، حتى وإن كنا نعرف ان هذا الكلب لا يستطيع النباح . وبعد انتهاء الحوار عاد بيدرو اورس إلى السيارة وقال ، «اعتقد ان جوانا تستطيع ان تذهب إلى نويها، وسيبقى الكلب معنا، قرروا المكان الذى يمكن ان نبيت فيه الليلة، ورتبوا كيف وأين نلتقى فى الغد. «لم يعترض أحد، وفتح جواكيم ساسا الخريطة وفى ثلاث ثوان قرروا التوجه إلى بلدة مونتهور - او - فلهو ليقضوا الليلة فى فندق عائلى متواضع يحسن استضافتهم، وسأل جواكيم ساسا، وإذا لم نجد مثل هذا الفندق» ، «سنذهب إلى فيجيرا» ، وأجاب خوسيه أنايسو «من الأفضل عدم المجازفة ، لنذهب إلى فيجيرا وفى الغد ستأخذين الحافلة، سننتظرك امام الكازينو، عند موقف السيارات»، لا داعى للقول ان هذه التعليمات كانت موجهة إلى جوانا كاردا التى تلقتها دون ان تطرح للبحث اهلية الذى يصدرها وقالت جوانا كاردا، «تصبحون على خير وإلى الغد»، وفى اللحظة الأخيرة، بينما كانت قد وضعت قدما على الأرض، استدارت وقبلت خوسيه انايسو على فمه بلا تحفظ، لم تكن قبلة منافقة على الخد أو عند ملتقى الشفتين ، لكن واحدة خاطفة وأخرى مجلجلة، وامتد تأثيرهما، وهو ما كان ليحدث لو كان تلامس الشفاه، العذب جدا، قد امتد. لو عرف اهل جوانا فى ايريرا ما حدث الآن كانوا سيقولون، «فى النهاية ، انت لست سوى فاجرة، ونحن الذين كنا نعتقد ان زوجك هو المخطئ ، ياله من صبور، رجل لم تتعرفى عليه سوى امس وتقبلينه حتى لم تتركيه يبادر هو ، يجب على المرأة أن تفعل ذلك دائما

فلابد من الاحتفاظ ببعض الحياء في النهاية، فضلا أنه سبق ان قلت انك ستذهبين وتعودين على الفور ، لكنك قضيت الليل خارج المنزل ، في لشبونة، ان ما قمت به امر سيء»، لكن بعد ذلك عندما رقد الجميع ، قامت ابنة العم وذهبت إلي غرفة جوانا لكي تسألها عما جرى ، واجابت جوانا بأنها لا تعرف جيدا ماذا حدث، وهي صادقة في ذلك، وتساءلت جوانا كاردا وهي تبتعد تحت ظل الأشجار الكثيف ، «لماذا فعلت ذلك ؟»، ورفعت يدها الحرة إلى فمها كما لو كانت تريد الامساك بروحها. لقد ظلت حقيبتها في السيارة، محتفظة بمكان أمتعتها الأخري، أما العصا فهي بين أيد امينة، يحرسها ثلاثة رجال وكلب، وبناء على نداء من بيدرو اورس دخل الكلب في السيارة حيث أخذ مكان جوانا كاردا، وبينما ينام الجميع الآن في فيجيرا دا فوز، مازالت هناك امرأتان تتناقشان في احد بيوت اريرا، في قلب الليل، «لو كنت استطيع ان آتي معك»، قالت ابنة عم جوانا، وهي متزوجة، وغير سعيدة في زواجها .

وفي اليوم التالي، كانت السماء كئيبة، لا مجال للثقة في الطقس ، وكان عصر الأمس، اللطيف الرائق ، يبدو وكأنه ظل من الجنة، كانت الأشجار تتحرك ببطء ونهر موندجو الأملس مثل جلد السماء، يصعب تصور انه نفس النهر تحت السماء الغائمة، والزبد يغطي البحر ، لكن الشيوخ يهزون أكتافهم ويقولون، «اول اغسطس، هو أول يوم في الشتاء»، سعداء بان اليوم الأول تأخر شهرا. وصلت جوانا كاردا مبكرة، لكن كان خوسيه انايسو ينتظرها في السيارة، لقد قرر الرجلان الآخران ذلك، حتى يتسنى للحبيبين ان ينفردا ليتناقشا معا قبل الرحيل إلى جهة مازالت مجهولة، كان الكلب قد قضى الليل في السيارة، وهو الآن يتمشى على الشاطئ مع بيدرو اورس وجواكيم ساسا، رزينا، يحك خطمه في ساق الاسباني، فلقد اختار بوضوح ان يرافقه.

في مـوقف السـيارات ، لم تكن السيارة الستروين الصـغيرة تشغل مكانا يذكـر، وسط السـيـارات الأخـرى الأكـثـر ضـخـامـة، بالاضـافـة إلى ان برودة الصباح، التي سبق الاشارة اليها، لم تسمح لأحد ان يتسكع في المكان، وبالتالي كان من الطبيعي رؤية خوسيه انايسو وجـوانا كاردا يتعانـقان كما لو كانا قد افترقا منذ أكثر من عام، وقد قتلهما الحنين. لقد تعانقـا طويلا وبشـوق شديد، ولم تكن ومضـة واحدة هـذه المرة لكن سلسلة من الومضـات، والقليل من الكلمات، اذ يصـعب الحديث اثناء التـقبيل، لكن اخيـرا وبعد بضع دقائق، تمكنا من ان يتفاهما، وقال خوسيه انايسو بأمانة، «انك تعـجبينني، واعتـقد انى احبك» ، «انت ايضـا تعـجبنى، وأنا أيضـا اعتـقد انني احـبك، ولـذلك قبلتك امس ، لا، لا، ليس الأمر كذلك تماما، ما كنت لأقبلك لو لم أكن قد شعرت من قبل انني احبك، لكنني استطيع ان احبك أكثر»، «انت لا تعرفين شيئا عني»، «اذا كان يتعين لكي نحب ان ننتظر معرفة من نحب فالحياة كلها لن تكفي لذلك»، «انك تشكين في ان يستطيع شخصان ان يعرفا بعضهما البعض»، «وانت، اتعتقد ان ذلك ممكن»، «انني اطرح السؤال عليك»، «قل لي اولا ما معنى ان تعرف»، «ليس مـعي قـامـوس»، «ولو كان لديك فلن تعلم منه سـوى ما تعرفـه سـابقا»، «ان القـواميس لا تقـول سوى ما يمكن ان يكون مـفيدا للجـميـع»، «انني اكـرر سـؤالي، مـا مـعنى ان تعـرف»، «لا اعرف» ، «ومع ذلك تستطيع ان تحب»، «استطيع ان احبك»، «دون ان تعرفني»، «نعـم، يمكن قـول ذلك»، «هـذا الاسم انايسـو من أين جـاءك»، «كـان أحـد اجدادي اسمه ايناسيو، لكنهم في القرية غيروا اسمه إلى انايسو ، ومع الوقت انتـهى الأمـر بان أصبح اسم العـائلة، وانت ، لماذا اسـمك كـاردا »، «كـان اسم اسرتي في الزمن القديم هو كاردو، لكن احدى جداتي« وجدت نفسها مسئولة عن اسرتها بعد وفاة زوجها، وبدأ الجمـيـع يسمونها كاردا، ولقد استـحقت تماما

اسمها الشخصي كامرأة»، «كنت اعتقد ان اسمك يأتي من كاردا دي بريجو» «يمكن ان يكون ذلك صحيحا حاليا ، كما يمكن ان يكون شيئا آخر، فلقد ذهبت ذات مرة لابحث عن نفسي في القاموس ووجدت ان كلمة كاردا * تعني ايضا اداة لتمزيق اللحم ، يا للشهداء البؤساء، لقد سلخوا وحرقوا وقطعت رؤوسهم ومزق لحمهم»، «وهذا هو ما ينتظرني»، «إذا استعرت اسم كاردو ** فلن تكسب شيئا في المبادلة »، «هل انت هكذا دائما تمارسين الوخز»، «لا، لا ينطبق على الاسم الذي احمله»، «من تكونين اذن»، «انا»، ومد خوسيه انايسو يده ولمس وجهها وهمس، «انت»، وقامت بعمل الشئ نفسه، وكررت بصوت منخفض ، «انت» وامتلأت عيناها بالدموع، ربما لأن حياتها الماضية الحزينة كانت لاتزال تؤلمها، فانها راغبة الآن في معرفة حياته هو، «انت متزوج لديك اطفال، ماذا تفعل»، «كنت متزوجا ، وليس لدى اطفال واعمل مدرسا» . وتنفست بعمق ، إلا إذا كانت تلك تنهيدة ارتياح ، لانها قالت مبتسمة، « من الافضل ان نناديهم المساكين انهم يموتون بردا »، وقال خوسيه انايسو، «عندما تحدثت مع جواكيم ساسا عن اول لقاء لنا و اراد ان اخبره عن لون عينيك لكنني لم استطع ذلك، وقلت له «لون سماء جديدة، «ثم قلت انها عيون لا اعرف كيف، واحتفظ هو بالتعبير ولم يعد يسميك إلا كذلك»، «كيف» «السيدة ذات العيون . لا . اعراف - كيف ، إنه لا يجازف بذلك في حضورك بالطبع»، «انني احب هذا الاسم»، «وأنا احبك انت، والآن فلننادي عليهم» .

ذراع تشير وأخرى على البعد ترد عليها، وتسلق بيدرو اورس وجواكيم ساسا الساحل الرملي ، وكان الكلب الضخم الوديع يسير بينهما . قال جواكيم ساسا،

★ أداة تضرب بها شرائح اللحم فتصبح طرية.

★★ كلمة تطلق على عدد كبير من النباتات الشائكة.

«يبدو من طريقتهما فى الاشارة لنا ان اللقاء كان جيدا»، ان أى اذن لديها خبرة بالحياة ستتعرف بدون جهد ، على حزن مكبوت فى نبرة هذه الكلمات، احساس نبيل يخفى الحسد، أو الغيظ ، لمن يفضلون تعبيرا اكثر تكلفا، وسأل بيدرو اورس متفهما، «تعجبك الفتاة انت ايضا»، «لا ، ليس الأمر كذلك ، مع ان ، لكن مشكلتى اننى لا اعرف من احب، ولا كيف السبيل للاستمرار فى الحب» لم يعرف بيدرو اورس بماذا يجيب على هذا الاقرار السلبي تماما. صعدا فى السيارة «صباح الخير»، «لتسعد العيون التى تراكم» ، «مرحبا على متن السيارة، إلى اين ستقودنا هذه المغامرة» ، انها جمل جاهزة ومرحة، مع ان الجملة الأخيرة غير صحيحة، لانه كان من الاصح القول، «أين سيقودنا هذا الكلب». ادار خوسيه انايسو المحرك ، طالما انه فى مقعد القيادة فليبقى فيه، وناور لكى يخرج من موقف السيارات ، والآن ماذا افعل ، هل انعطف يمينا أم يسارا، وتظاهر بأنه متردد ، لكى يتيح وقتا للكلب، الذى لف عندئذ حول نفسه وتوجه نحو الشمال بخطى أسرع، وكان يركض بشكل منتظم للغاية حتي بدا آليا. وكان الخيط الازرق يتدلى دائما من خطمه.

وكان ذلك فى اليوم الشهير الذى اصبحت فيه اوروبا بعيدة جدا ، حيث قاربت المسافة التى تفصلها عن شبه الجزيرة على المائتى كيلو متر، طبقا لآخر الحسابات المعلنة، ففى هذا اليوم رأت اوروبا نفسها تهتز من اساساتها حتى السقف بتشنج ذى طبيعة نفسية واجتماعية، يهدد بشكل حاسم هويتها، التى تم انكارها فى هذه اللحظة الحاسمة فى اسسها الخاصة والذاتية التى هى الجنسيات ، والتى تشكلت بجهد كبير على امتداد قرون وقرون.

لقد اعتاد الاوروبيون سريعا، من القيادات العليا إلى المواطنين العاديين، على عدم وجود اراض عند اقصى الغرب ، بل وشعروا بإحساس ما من الراحة بلا

شك، وإذا كانت الخرائط الجديدة التى سرعان ما تم تداولها، لكى تواكب ثقافة الشعوب الاحداث الجارية، ستثير بعض الانزعاج، فذلك لأسباب جمالية بحتة، مثل انطباع الضيق الغامض الذى اثاره غياب ذراعى تمثال «ڤينوس ميلو» فى زمنه وحتى الآن، ان ميلو على الارجح هو اسم الجزيرة التى وجدوا بها التمثال، «اذن ميلو ليس اسم المثال» ، «لايا سيدى انه اسم الجزيرة التى اكتشفت فيها هذه البائسة، وبعثت من الاعماق مثل لازار★، لكن لم يتم ترتيب معجزة تعيد نمو ذراعيها .

ومع مرور القرون، سينتهى الأمر بالاوروبيين، شريطة ان يستمروا فى الوجود، بان ينسوا الزمن الذى كانت فيه اوروبا كبيرة وتتقدم فى البحر، مثلما لا نستطيع اليوم ان نتصور ڤينوس بذراعين. من المستحيل بالطبع تجاهل الاضرار والكوارث التى تنهال على البحر المتوسط، المد العالى، وشريط المدن الساحلية المدمرة، وفنادق كانت سلالمها تنزل نحو الشاطئ أما الآن فلا شاطئ لها ولا سلالم، وڤينيسيا، إن ڤينيسيا أصبحت مستنقعا، وانتهت السياحة الجميلة، لكن يا ابنائي إذا اشتغل الهولنديون سريعا، فان مدينة البندقية ستتمكن فى غضون بضعة أشهر من ان تفتح ابوابها من جديد للجمهور القلق، وستكون أكثر جمالا بكثير ، وقد زال تماما خطر كارثة غرق المدينة، لان نظم التوازن الهيدروليكى، والسدود والاهوسة وصمامات الملء والتفريغ ستؤمن مستوى ماء ثابت، ان المسئولية تقع الآن على عاتق الايطاليين ، فعليهم تدعيم البنيات السفلية للمدينة لكى لا تدفن بشكل محزن فى الوحل، واسمحوا لى ان اقول لكم ان الجزء الأصعب هو المطلوب انجازه، لنشكر اذن احفاد هذا الصبى البطل الذى نجح

★ لازار: اسم الأبرص الذى شفاه المسيح.

بطرف سبابته الناعم في ان يحمي مدينة هارلم من ان تختفي من على الخريطة بسبب سيل وفيضان.

وان كان هناك حل لمدينة البندقية ، فسيتم العثور على حل لباقى البحر المتوسط . كم من الحروب والاوبئة والطاعون والزلازل والحرائق مرت من هنا، واستطاعت هذه الارض المطوقة ان تولد دائما من جديد من التراب والرماد ، وتحول العذاب المرير إلى رفاهية عيش ، والرغبة البربرية إلى حضارة وارض جولف وحمام سباحة ويخت في حوض الميناء وعربة مكشوفة على رصيفه، ان الانسان هو أكثر المخلوقات قدرة على التكيف ، خاصة عندما يتحسن وضعه . لقد اعتبر بعض الاوروبيين ، انها نعمة، ان يتخلصوا من الشعوب الغربية غير القابلة للفهم والتى تبحر من الآن فصاعدا بدون صارى فى وسط المحيط الذى لن يغادروه ابدا، وإن كان الاعتراف بذلك ليس مدعاه للفخر، بل ويعتبرون ذلك وعدا بأيام مقبلة أفضل حيث يعيش كل واحد مع شبيهه، ويبدأ اخيرا فهم ما هى اوروبا، حتى وإن كانت بعض القطع الصغيرة الفاسدة مازالت عالقة بها فسينتهى بها الأمر عاجلا أو آجلا، بطريقة أو بأخرى، إلى ان تنفصل عنها. ولنراهن اننا فى نهاية النهاية سنجد اننا تحولنا إلى بلد واحد، خلاصة الفكر والروح الاوروبية، الفكر البسيط والمتسامى والخالى من العيوب ، اوروبا التى تعنى سويسرا.

ومع ذلك، فاذا كان هؤلاء الاوروبيون موجودين فهناك أيضا آخرون مختلفون سلالة القلقين، خميرة ابليس التى لا تنطفئ بمثل هذه السهولة، ان هذه السلالة هى التى تتابع القطار الذى يبتعد وتشعر بالحزن ، آسفة على الرحلة التى لن تقوم بها ، تلك السلالة التى لاتستطيع ان ترى عصفورا فى السماء دون ان تحاول التحليق مثل الألسيون*، انها السلالة التى تنزع من روحها تنهيدة مرتجفة وهى

تنظر إلى اختفاء المركب عند الافق، وتفكر فى المحبوبة ، ذلك لأننا قريبون لهذه الدرجة، فى حين انه وحده الذى يعرف ان العكس هو الصحيح لانهما متباعدان لهذه الدرجة. اذن كان أحد هؤلاء الافراد القلقين والمتفردين ، هو الذى تجرأ وكتب لأول مرة هذه الكلمات المشينة ، والتى تدل على انحراف جلى ، «نحن أيضا ايبيريون»، لقد كتب هذه الكلمات فى ركن جدار، على استحياء ، مثل شخص لا يستطيع الاعلان عن رغبته بعد ، لكنه لم يعد يحتمل اخفاءها، وبما ان هذه الكلمات كتبت بالفرنسية ، فمن حقنا ان نعتقد ان الأمر وقع فى فرنسا ، وكما يقال فى مثل هذه الحالات، «لكل امرئ ان يعتقد ما يروق له» ، لكن من الممكن ايضا ان يكون ذلك قد وقع فى بلجيكا أو لو كسمبورج، وانتشر هذا الاعلان الافتتاحي ، وسرعان ما ظهر على واجهات البنايات الكبيرة وعلى زخارف مداخلها، وعلى الاسفلت وفى ممرات المترو، وعلى الجسور والقناطر ، وكان الاوروبيون ، المحافظون المخلصون، يحتجون، «هؤلاء الفوضويون مجانين»، وهكذا تتكرر دائما القصة نفسها ، وينتهى الأمر فى كل مرة بأن يدان الفوضويون.

لكن الجملة تخطت الحدود، وبمجرد ان تخطتها، لوحظت انها أصبحت مكتوبة فى كل مكان فى البلدان الاخرى، بالالمانية «Auf wir sinol iberisch» وبالانجليزية «We are Iberian too» وبالايطالية «Anche moi siamo Iberia» وفجأة انتشر الأمر انتشارا سريعا ، وتوهجت العبارة فى كل مكان بحروف قرمزية وسوداء وزرقاء وخضراء وصفراء و بنفسجية، وبدت كأنها نار غير قابلة للإخماد، وبالهولندية والفلمندية «Wij zijn ook Iberiers» وبالسويدية «Vi ocksa ar iberiska» وبالفنلندية «Me myoskin olenme iberi-alaisia» ، والنرويجية «Vi ogsa er iberer» وبالدنماركية «Ogsaa vi er

★ طائر بحرى اسطورى . (المترجم).

«iberiske» وباليونانية «Eimaste iberoi Kiemeis» وايضا بالبولندية وان كان ذلك على استحياء واضح «My tez Jestesmy iberyjczykami» وبالبلغارية «Nie sachto sme iberiytzi» وبالمجرية «Mi is iberek vagyunk» وبالروسية «Mi toje iberitsi» وبالرومانية «Si moi sintem iberici» وبالسلافية «Ai my sme ibercamia». لكن الذروة والأوج والقمة، كلمة نادرة لن نستخدمها بعد ذلك أبدا، كانت رؤية هذه الكلمات تظهر على جدران الفاتيكان وعلى الحوائط والاعمدة الجليلة للكاتدرائية وعلى قاعدة تمثال الرحمة★ لمايكل انجلو وعلى القبة وعلى ارض ساحة سان بيتر بحروف ضخمة بلون في زرقة السماء ، كانت نفس الجملة مكتوبة باللاتينية «Nos quoque iberi sumus»، وبصيغة جمع العظمة مثل الحكم الربانية، وكان البابا يرسم من نافذة بمحل اقامته علامة الصليب، ورسم في الفضاء علامة الصليب، بلا جدوى، لأن هذه الصبغة ثابتة، فلن تكفى لمحوها عشرة مدارس دينية كاملة مسلحة بسلك تنظيف ومنظفات، واحجار خفافة ومكاشط، وبمساعدة كميات كبيرة من المواد الصاقلة وستظل تعمل إلى حين انعقاد المجمع الدينى المقبل.

وما بين عشية وضحاها وجدت اوروبا نفسها مغطاة بالنقوش والحروف. واشتد ما كان في البداية مجرد اعتراف بسيط وبرئ لأحد الحالمين، وقوى بحيث أصبح صرخة واحتجاجا ومظاهرة في الشارع في البداية، تم مواجهة الظاهرة بالازدراء وبالسخرية من تعبيراتها. لكن ما لبثت أن أثارت تلك العملية قلق السلطات اذ لا يمكن هذه المرة اسنادها إلى مؤامرات خارجية، حيث ان هذا الخارج نفسه أرض لأنشطة تخريبية، ويتميز هذا الوضع على الأقل بتفادى كل

★ هو تمثال يجسد السيدة العذراء حاملة المسيح بين ذراعيها . (المترجم).

تحقق من طبيعة هذا الخارج ، المحدد الهوية بشكل خاص . لقد خرج المحتجون إلى الشوارع والشعار مكتوب على ظهر ستراتهم أو ملصق بطريقة أكثر فروسية على السيقان من الأمام والخلف ، أو على كل جزء من الجسم ، وأصبحت هذه الشعارات المكتوبة بكل اللغات واللهجات الإقليمية وبالاسبرانتو * ، التى كان من العسير فهمها على أية حال ، هى الموضة . وكان رد الحكومات الأوروبية هو تنظيم حلقات نقاشية وموائد مستديرة فى التليفزيون بمشاركة اشخاص هربوا من شبه الجزيرة لحظة حدوث الصدع ، الذى اتضح بعد ذلك أنه نهائى وغير قابل للعلاج ، ليس من أولئك الذين وجدوا هناك كسياح ودفعهم الخوف للفرار ، فلا جريرة على هؤلاء المساكين ، لكن من مواليد تلك الأرض ، الذين بالرغم من روابط التقاليد والثقافة الوثيقة وروابط الملكية والسلطة أداروا ظهورهم لهذا العبث الچيولوچى واختاروا الثبات المادى للقارة . لقد رسم هؤلاء الاشخاص اللوحة السوداء للحقائق الأيبيرية ، ثم قدموا النصائح بكل المحبة والعلم للثائرين الذين يعرضون بتهورهم الهوية الأوروبية للخطر ، وانهوا لقاءهم بجملة جازمة ، وعيونهم فى عيون المشاهد ، وبتعبير فى غاية الصراحة ..

«افعلوا مثلى ، واختاروا أوروبا» .

ولم يكن تأثير ذلك حاسما بوجه خاص ، بل لقد أثار سلسلة من الاحتجاجات ضد التمييز الذى كان ضحاياه انصار شبه الجزيرة ، فقد كان يتعين تقديمهم فى التليفزيون ، لو لم تكن الحيادية والتعددية الديمقراطية مجرد كلمات جوفاء ، لكى يعرضوا اسبابهم ومبرراتهم ، إذا كانت لديهم مبررات . وكان الشباب المسلحون بالحجج ، التى يثيرها دائما النقاش حول السبب ، يستطيعون تبرير احتجاجهم وبقناعة أكبر ، سواء فى المدرسة أو فى الشارع ، ولا ننسى فى أسرهم أيضا ،

---

* اللغة الدولية . (المترجم).

لأن غالبية الذين نفذوا تلك العمليات المذهلة كانوا من الشباب . ويمكن النقاش لمعرفة ما إذا كان هؤلاء الشباب ، المزودون بكل هذه الأسباب والحجج ، سيمتنعون عن العمل المباشر ، وكان يتعين فى هذه الحالة التوصل إلى أن الذكاء له تأثير مخمد للفتن ، على نقيض القناعات التى هى قناعاتنا منذ فجر التاريخ . إن امكانية المناقشة متاحة ، لكن لا قيمة لذلك ، لأن فى هذه الأثناء ، هوجمت مبانى التليفزيون بالحجارة ، وتعرضت محلات بيع أجهزة التليفزيون للنهب والتخريب ، وكان التجار اليائسون يصرخون ، «لكن ، أنا ليس لى دخل فى ذلك» وكانت براءتهم النسبية غير مجدية ، فاللمبات كانت تنفجر مثل الصواريخ ، وتم تجميع هياكل أجهزة التليفزيون فى الشارع وحرقها وتحويلها إلى رماد . ووصلت الشرطة وهاجمت وفرقت المتمردين ، وطوال ثمانية أيام تبادل الجانبان التهم ، وها نحن الآن ، فى اللحظة التى يغادر فيها ثلاثة رجال وامرأة أحدهم ، التى هى امرأته دون أن تكون كذلك تماما ، أو التى وإن كانت لم تصبح بعد امرأته هى كذلك بالرغم من كل شىء ، إن من له معرفة ولو قليلة فى مجال اتفاق ولقاء القلوب سيفهم هذا الكلام المبهم ، يغادرون فيجيرا دا فوز يقودهم كلب . وبينما يتقدمون نحو الشمال ، ويقول جواكيم ساسا ، «إذا مررنا ببورتى سنتوقف عندى» ، خرج مئات الآلاف من الشباب ، الملايين ، فى كل شوارع القارة فى ساعة واحدة ، كما لو كان قد اصابهم الجنون ، خرجوا مسلحين بالعصى وسلاسل الدراجات والكلابات والسكاكين والمناقب والمقصات وليس بالعقل أو الحجج ، لكنهم مسلحون أيضا بالاحباط والألم المتوقع ، وكانوا يصرخون ، «نحن ايبيريون أيضاً ، وباليأس نفسه الذى كان يجعل التجار يئنون» ، لكن ما حدث ليس غلطتنا» .

وعندما تهدأ النفوس ، بعد بضعة أيام أو أسابيع من الآن ، سيحضر علماء النفس وعلماء الاجتماع لكي يوضحوا أن هؤلاء الشباب لا يريدون فى الحقيقة أن يصبحوا بالفعل ايبيريين ، لكن ما كانوا يفعلونه هو إطلاق العنان للحلم المتعذر كبته ، والذى يدوم دوام الحياة ، ويتجلى لأول مرة بشكل عاطفى أو بشكل عنيف أثناء مرحلة الشباب بطريقة أو بأخرى ، كل ما فى الأمر أن جماهير الشباب استفادت من المبرر الذى قدمته الظروف إليهم . وفى غضون ذلك ، وقعت معارك فى الميدان أو بالأحرى فى الشوارع والساحات ، إذا أردنا التعبير بشكل أكثر دقة ، وأصيب المئات من الجرحى ، وبالرغم من محاولة السلطات إغراق هذه الأحداث الحزينة وسط كم كبير من الانباء الغامضة والمتضاربة ، فلقد سقط ثلاثة أو أربعة من القتلى ، ولن تنجح أبدا امهات اغسطس فى معرفة عدد من اختفى من ابنائهن على وجه اليقين ، وذلك لسبب بسيط هو أنهن لم يعرفن كيف ينظمن أنفسهن ، فهناك دائما من يفضلن البقاء على الحياد وبمنأى عن الأحداث ، يشغلهن جدا البكاء على احزانهن ، أو رعاية الابن الذى بقى لهن ، أو يرقدن تحت الأب لصنع ابن آخر ، لهذا تخسر الامهات دائما . أن الغازات المسيلة للدموع ، وقاذفات المياه ، والمطرقات والدروع وواقيات الوجه ، والأحجار المنزوعة من الطريق المعبد ، واوتاد السياج ، وقضبان أبواب الحدائق ، هى بعض الأسلحة المستخدمة من جانب ومن الآخر ، وبدأت أجهزة الشرطة المختلفة ، هنا وهناك ، تجربة بعض الابتكارات ذات التأثيرات المقنعة بشكل أكثر ايلاما ، إن الحروب مثل المصائب لا تأتى أبدا فرادى ، فالأولى تفيد فى اجراء التجارب والثانية فى اتقان هذه التجارب ، أما الثالثة فتلك هى المفيدة ، وطالما أن كل شىء يتوقف على المكان الذى يبدأ منه العد ، فان كلا منها تكون الأولى والثانية والثالثة . وسجلت دواوين

الذكريات الجملة الأخيرة لشاب هولندى لطيف أصيب برصاصة مطاطية ، جعلها خطأ فى التصنيع أكثر صلابة من الفولاذ ، حيث قال الشاب ، «وأخيرا أنا ابيبرى» ، ثم قضى نحبه ، لكن سرعان ما استولت الأسطورة على الحادثة وكان كل بلد يقسم أن الشاب تابع له ، أما الرصاصة فلم يعلن أحد بالطبع مسئوليته عنها ، وإذا كانوا قد احتفظوا بالجملة ، فليس ذلك بسبب معناها الموضوعى لكن لأنها جملة جميلة رومانسية وشابة بشكل لا يصدق ، فالأمم تحب ذلك خاصة عندما يتعلق الأمر ، كما هو الحال هنا ، بقضايا ميئوس منها . هذا الشاب كان يعرف ما يريده ، أو كان يعتقد معرفته ، لم يكن مثل جواكيم ساسا الذى لا يعرف من يحب لكنه لا يزال حيا ، ربما سيأتى يومه ، إذا لم يترك الفرصة تفلت منه .

اضحى الصباح عصرا وسيغدو العصر ليلا ، والكلب الدليل يتقدم بخطوته السريعة الثابتة السرعة على الطريق الطويل المحازى للبحر ، إنه ليس كلب صيد سلوقى ، بل هو أبعد ما يكون عن ذلك ، وحتى السيارة الستروين الصغيرة القديمة تستطيع أن تسير أسرع من ذلك بكثير ، بالرغم من أنها منهوكة القوى ، كما برهنت على ذلك مؤخرا ، وقال جواكيم ساسا ، الذى يقود السيارة حاليا ، معربا عن قلقه ، «هذه السرعة لا تساعد فى شىء ، لو اضيف عطل إلى الارهاق الميكانيكى ، فليكن الله فى عوننا» . وذكر المذياع ، المزود ببطاريات جديدة ، الأحداث الأوروبية الفاجعة ، ونقل عن مصادر مطلقة أن هناك ضغوطا دولية تمارس على الحكومتين البرتغالية والإسبانية من أجل أن تضعا نهاية للوضع الحالى ، كما لو أن فى امكانهما الانصياع لمثل هذه المطالب ، وكأن قيادة شبه جزيرة تسير على غير هدى منساقة مع التيار تعادل قيادة سيارة ستروين قديمة .

وتم رفض هذه الاحتجاجات بإباء ، بكبرياء ذكرى من جانب الاسبان وبغطرسة

انثوية تماما من الجانب البرتغالى ، وتجدر الاشارة إلى أنه لا يجب تفسير ذلك على أنه سب أو اطراء لأى من الجنسين ، وتم اعــلان أن رئيــسى وزراء البلدين سيلقيان خطـــابا فى ذلك المســاء نفسه ، كل فى بلده بالطبـــع ، لكن بشكل متفق عليه. ولقد سبب تعقل البيت الأبيض نوعــا من الحيرة والارتبـاك ، فعادة ما يكون سريعا جدا فى التدخل فى شئون العــالم عندما تكون له مصلحة فى ذلك ، ويؤكد البعض ، من ناحية أخرى ، أن الامريكيين الشماليين ليسوا مستعدين لأن يتورطوا قبل أن يروا إلى أين سيصل كل ذلك ، بالمعنى الحرفى للكلمة . ومع ذلك فقد وصل الوقود من الولايات المتحدة ، صحيح أن ذلك حدث بطريقة غير منتظمة، لكن يجب أن نكون ممتنين لهم لأننا مازلنا نعثر على بنزين فى الأماكن النائية ، مضخة نعم ومضخة لا . لو لم يكن الامريكيون ، ولو اصر مسافرونا على تعقب الكلب فإنهم كانوا سيضطرون إلى القيام بذلك سيرا على الأقدام .

وعندما توقفوا لتناول طعام الغداء ، ظل الحيوان فى الخارج ، دون أن يحتج ، لقد فهم بالطبع أن رفاقه الآدميين بحاجة للطعام لتجديد قواهم . وفى نهاية الوجبة، خرج بيدرو اورس قبل الآخرين ، حاملا معه الفضلات ، لكن الكلب رفض أن يأكل ، وفهم الجميع على الفور السبب ، فلقد كانت هناك آثار دم طازج على شعره وحول خطمه . وقال خوسيه انايسو ، «لقد ذهب ليصطاد» ، «لكن الخيط الأزرق لا يزال معه» ، لاحظت جوانا كاردا ، وهناك حدث اغرب من الآخر، لأن فى النهاية ، إذا كان هذا الكلب هو من نعتقده ، فانه يعيش هذه الحياة الضالة منذ اسبوعين ، وإذا كان قد عبر كل شبه الجزيرة على قدميه ، من جبال البرانس حتى هنا ، وربما إلى أماكن أخرى ، فلم يكن هناك من يملأ له قصعته ولا من يواسيه بعظمة. أما بالنسبة للخيط الأزرق ، فمن الممكن أن يتركه يقع على الأرض

ثم يأخذه من جديد ، كما يفعل الصياد ذلك بشكل طبيعى عندما يوقف تنفسه لكى يطلق النار . وأخيرا قال جواكيم ساسا بلطف ، «إنك شجا ع أيها الكلب الصغير لو أن بإمكـانك الاهتـمام بنا مثلمـا تعرف كيف تهتم بنفسك كما يبدو ، فإننـا نفـوض أمرنا لجـدارتك الكلبية» ، هز الكلب رأسه ، وهى حركة لم نتعلم ترجمتها ثم نزل الشـارع واستـأنف السير دون أن ينظر خلفه . كـان العصر ألطف من الصبـاح ، والجو مشـمس ، وعاود هذا الكلب الشيطان أو كلب الشيطان سـيره السريـع الذى لا يكل ، ورأسـه منخـفض وخطمـه ممدود وذيله على امتـداد ظهره ، وشعره بنى مـحمر . وسأل خوسيه أنايسو ، «ما هى السلالة التى ينحدر منها؟» ، أجـاب بيدرو اورس ، «لولا ذيله لكان من الممكن أن يكون نتـا ج تزاوج سـلالة كلب سـبنيلى مع سـلالة كلب الراعى» ، وصـاح جـواكيم سـاسـا ، «إنه يسـر ع الآن» ، وقـالت ، جوانا كاردا ، ربما فقط لكى لا تظل صـامتـة ، «مـاذا اسـميتموه؟»، إن العـودة الدائمة إلى الاسماء تتم عاجلا أو آجلا ، فهو أمر لا مفر منه .

وجه رئيس الوزراء كلمة للبرتغاليين قال فيها ، «أيها البرتغاليون لقد تعرضت بلادنا خلال الأيام الأخيرة ، وبتكثيف مفاجىء خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ، لضغوط ، يمكن وصفها بدون مبالغة بأنها غير مقبولة ، مارستها كل البلاد الأوروبية تقريبا ، فكما تعرفون ، تشهد هذه البلدان اضطرابا خطيرا فى النظام العام ، ولقد تفاقم الوضع فجأة ، دون أن نكون مسئولين عن ذلك على الاطلاق ، بنزول اعداد غفيرة من المتظاهرين إلى الشارع للتعبير عن تضامنهم بطريقة حماسية مع بلدان وشعوب شبه الجزيرة ، وهو ما يوضح التناقض الخطير الذى تتخبط فيه حكومات اوروبا ، التى لم نعد ننتمى إليها ، فى مواجهة الحركات الاجتماعية والثقافية العميقة لتلك البلدان التى ترى فى المغامرة التاريخية التى انطلقت فيها شعوب شبه الجزيرة ، وعدا بمستقبل أكثر سعادة ، ولتلخيص الموقف فى بضع كلمات ، فإنها ترى فيها الأمل فى إعادة الشباب للإنسانية . إن هذه الحكومات بدلا من أن تساندنا كما تدعو لذلك أبسط اشكال الانسانية ، وبدلا من أن تعبر عن ضمير ثقافى أوروبى حقيقى ، فضلت هذه الحكومات أن تحولنا إلى كباش فداء للصعوبات الداخلية التى تواجهها ، وأن توجه الينا انذارا غير معقول تطالبنا فيه بوقف انجراف شبه الجزيرة ، مع أنه كان يتعين الحديث عن ابحار وليس انجرافا ، وذلك التزاما بالدقة والحقائق والمصطلحات . ومما يجعل هذا الموقف أكبر ايلاما ومدعاة للأسف أننا نبتعد فى كل ساعة مسافة سبعمائة وخمسين مترا عما يسمى حاليا السواحل الغربية لاوروبا ، وها هى الحكومات الأوروبية ، التى لم تؤكد قط فى الماضى أنها تريدنا فعلا ، تأتى الآن لتصدر لنا أمرا بأن نقوم بشىء هم فى الحقيقة لا يريدونه ، فضلا عن أنه غير مقابل للتحقيق، وهم يعرفون ذلك . إذا كانت أوروبا مكانا للتاريخ والثقافة بكل تأكيد

فإنها خلال هذه الأيام الصعبة اظهرت نقصا فى حسن التصرف والرأى السديد . ويقع علينا نحن ، الذين نحافظ على هدوء وسكينة الاقوياء والعادلين ، كحكومة شرعية ودستورية ، أن نرفض بشدة الضغوط والتدخلات من أى نوع وايا كان مصدرها ، معلنين فى وجه العالم أن المصلحة الوطنية فقط هى التى ستقودنا ، وبشكل أكثر عمومية ، مصلحة شعوب وبلدان شبه الجزيرة ، وإننى أؤكد ذلك بكل ثقة وبشكل رسمى ، نظرا لأن حكومتى إسبانيا والبرتغال عملتا معا وستستمران فى العمل معا فى دراسة واختيار التدابير الواجب اتخاذها وصولا إلى نهاية سعيدة للأحداث التى سببها صدع جبال البرانس التاريخى . وكلمة شكر واجبة للولايات المتحدة الامريكية الشمالية التى اتاحت المحافظة على مستوى معقول من التزود بالوقود والمواد الغذائية التى كانت توفرها اوروبا . فى اطار علاقات الوحدة الأوروبية . إن مثل هذه المسائل كانت بالطبع ستتم معالجتها فى الظروف الطبيعية. عبر القنوات الدبلوماسية المختصة ، لكن فى ظل موقف بمثل هذه الخطورة ، رأت الحكومة التى أرأسها ضرورة أن يعلم الشعب كله بالأحداث وبشكل مباشر ، معبرة بذلك عن ثقتها فى كرامة البرتغاليين الذين سيعرفون كيف يضمون الصفوف ، كما فعلوا فى العديد من المناسبات التاريخية الأخرى ، حول ممثليهم الشرعيين ، وحول الرمز المقدس للوطن ، وهم بذلك يقدمون للعالم صورة شعب متحد ومصمم فى لحظة شديدة الصعوبة والحرج من تاريخه ، تحيا البرتغال .

لقد استمع مسافرونا الأربعة لهذا الخطاب قرب مدينة بورتو ، وكانوا قد دخلوا مقهى يقدم وجبات خفيفة ، وبقوا فيه الوقت اللازم لمشاهدة صور المظاهرات الكبيرة فى التليفزيون وهجمات الشرطة ، وكانت رؤية الشباب

الشجاع، تثير القشعريرة وهم يحملون اللافتات والرايات الصغيرة التى كتبت عليها الجملة الغريبة بلغاتهم ، وتساءل بيدرو اورس ، «لماذا اذن يهتمون بنا إلى هذه الدرجة؟» ، وأجاب خوسيه انايسو مكررا ، دون حتى أن يدرك فرضية رئيس الوزراء لكن بطريقة أكثر مباشرة ، «إنهم يهتمون بأنفسهم فى المقام الأول» ، ومن المرجح أنه لم يكن بإمكانه أن يقدم المزيد من الشرح لفكرته . انتهوا من العشاء وخرجوا ، ولقد قبل الكلب هذه المرة فضلات الطعام الذى احضرها بيدرو اورس ، وعندما بدأت السيارة فى التحرك ، وإن كان السير سيكون من الآن فصاعدا ببطء أكبر لأن الكلب الذى كان يتقدم السيارة لا يتم تمييزه إلا بالكاد ، قال جواكيم ساسا، «عند مدخل الجسر ، لابد من محاولة اقناع الكلب بالدخول فى السيارة ، سيجلس فى الخلف على حجر جوانا كاردا وخوسيه انايسو ، لا نستطيع السير فى المدينة كما فعلنا حتى الآن ، كما أنه لن يرغب بالطبع فى الاستمرار فى السفر عندما يصبح الليل بهيما».

تأكدت التوقعات وتمت الاستجابة لطلبات جواكيم ساسا ، وبمجرد أن فهم المطلوب منه ، دخل الكلب وتمدد ، بطيئا وثقيلا ، على أقدام مسافرى المقعد الخلفى ، ووضع رأسه على ساعد جوانا كاردا لكنه لم ينم ، وكانت أنوار المدينة تنعكس فى عيونه المفتوحة وكأنها تنعكس على سطح بللورة سوداء . «لنذهب إلى بيتى ، قال جواكيم ساسا ، عندى سرير كبير ، واريكة تتسع تماما لشخصين شريطة ألا يكونا شديدى السمنة ، وسيتعين على أحدنا نحن الثلاثة ، كان يوجه كلامه إلى الرجال بالطبع ، ان ينام على مقعد ، وبما أننى صاحب المكان فسيكون هذا الشخص هو أنا ، أو سأذهب لأنام فى بنسيون قريب» . لم يرد الآخرون ، تحفظ صامت ، وهو ما يعنى أنهم إما موافقون أو يفضلون حل هذه المسألة

الحساسة فيما بعد وبشكل أكثر تحفظا . لقد أصبح في الجو الآن نوع من الإحراج المحسوس والضيق ، وكأن جواكيم ساسا فعل ذلك عمدا ، وهو قادر على ذلك ، لكي يتسلى قليلا . لكن قبل انقضاء دقيقتين قالت جوانا كاردا بوضوح ، «نحن الاثنان سنبقي معا» ، لقد ضاع العالم فعلا إذ بدأت النساء في أخذ مبادرات من هذا النوع ، قديما كانت هناك قواعد ، كان المرء يبدأ دائما من البداية ، فيطلق الرجل نظرات الغرام السقيمة والغاوية ، وتخفض المرأة جفونها راشقة نظرتها بين رموشها ، وبعد ذلك ، وإلى أن يحين أول تلامس للأيدى ، كانت هناك خطابات وخصام وصلح ومناديل يلوح بها وسعال دبلوماسى ، صحيح أن النتيجة النهائية واحدة بالطبع ، الفتاة المتعجرفة مستلقية على ظهرها ، والرجل اللطيف الذى يحسن الغزل فوقها ، بالزواج أو بدونه ، لكن لم ير أحد من قبل شيئا مماثلا على الاطلاق ، نهائيا ، ومثل قلة الاحترام تلك أمام رجل مسن ، ويقال إن الاندلسيين دماؤهم ساخنة ، لا لكن انظروا هذه البرتغالية ، لم يقل أحد لبيدرو اورس شيئا كهذا ، وجها لوجه ، «نحن سنظل معا» . لكن الزمن تغير ، بالتأكيد ، وإذا كان جواكيم ساسا اراد أن يمزح بمشاعر الآخرين ، فلقد نال ما يستحقه ، أما بالنسبة لبيدرو اورس فربما لم يفهم جيدا معنى الجملة ، لأن كلمة «معا» لا تقال بالطريقة نفسها بالبرتغالية وبلغة قشتالة . ولم يفتح خوسيه انايسو فمه ، وما عساه أن يقول ، سيكون الموقف مدعاة للسخرية إذا بدأ في لعب دور الإغواء أو بدا مصدوما ، الأفضل إذن هو التزام الصمت ، لا يحتاج الأمر لتفكير كثير لادراك أن جوانا كاردا وحدها من تستطيع نطق الكلمات المثيرة للشبهة ، ولو أنه قال هذه الكلمات دون استشارتها مسبقا ، لكان ذلك فظاظة من جانبه ، حتى لو كانت هى موافقة على ذلك ، فهناك قرارات، المرأة وحدها هى التى يمكن أن

تتخذها ، فكل شيء يتوقف على الظروف واللحظة ، تلك هى اللحظة ، هذه الثانية بالذات الواقعة بين ثانيتين اخريين بين الخطأ من جانب والتعاسة من الجانب الآخر . وتشابكت ايدى جوانا كاردا وخوسيه انايسو على ظهر الكلب ، وجواكيم ساسا يراقبهما من طرف خفى فى مرآة السيارة ، إنهما يبتسمان ، لقد انتهت المزحة نهاية طيبة تقريبا ، «هذه الجوانا شخصية قوية» ، وشعر جواكيم ساسا مرة أخرى بوخزة حسد ، لكن ، كما سبق أن اعترف ، فإنها غلطته ، فهو لا يعرف من يحب .

ليس فى المنزل أدنى شبه بالقصر ، فهو يتكون من غرفة صغيرة وصالة أصغر ، حيث توجد الاريكة – السرير ، ومطبخ وحمام ، إنه بيت اعزب . إن خزانة الطعام فارغة ، لكنهم أكلوا عند توقفهم آخر مرة وشبعوا ، إنهم يشاهدون التليفزيون انتظارا لأنباء جديدة ، لم تقم المستشاريات الأوروبية ، حتى ذلك الحين ، بأى رد فعل ، لكن لكى لا تدعى أنه لم يتم ابلاغها ، ظهر رئيس الوزراء من جديد فى التليفزيون عند آخر نشرة للأنباء ، وقال «أيها البرتغاليون» ، والباقى سبق معرفته . وقبل النوم ، عقدوا مجلس حرب ، ليس لأن هناك قرارات يتعين اتخاذها ، فتلك القرارات تقع على عاتق الكلب الذى كان ينعس عند قدمى بيدرواورس ، لكن كان كل واحد منهم يقدم افتراضا ، قال جواكيم ساسا باهتمام ، «ربما تكون نهاية الرحلة هنا» ، فى حين اقترح خوسيه أنايسو ، الذى كان يفكر فى شيء آخر تماما ، «أو ابعد من ذلك فى اتجاه الشمال» ، وعززت جوانا كاردا التى كانت تفكر فى الشيء نفسه الذى يفكر فيه ، «اعتقد أن النهاية إلى الشمال أكثر» ، غير ان الكلمة الأخيرة كانت لبيدرو اورس ، «هو الذى يعرف» ، ثم تثاءب وقال ، «أنا نعسان» .

الآن ، لم تعد هناك ضرورة للحيرة والتردد فيما يتعلق بمن سينام مع من ، فلقد فتح جواكيم ساسا الاريكة - السرير بمساعدة بيدرو اروس ، وانسحبت جوانا كاردا بهدوء ، وبقى خوسيه انايسو بضع لحظات ، وهو فى حالة من الضيق ، كان يتصرف وكأن كل ذلك لا يعنيه ، لكن قلبه كان يدق فى صدره مثل صفارة انذار ، ويضرب فى معدته ، ويجعل المبنى كله يهتز حتى اساساته ، وإن كان هذا الاهتزاز لا علاقة له بالاهتزاز الآخر ، بما أنه قال ، «ليلة طيبة ، إلى الغد» ، وانسحب ، إن الكلمات لا تكون ابدا على مستوى المواقف ، وذلك اثبات جديد لهذه الحقيقة . إن الغرفة مجاورة تماما للصالة ، وتوجد نافذة بدون ستائر بمستوى السقف حيث يتلكأ ضوء النهار ، من السهل فهم هذا النقص الظاهر فى الحياء ، فنحن هنا فى بيت رجل اعزب ، وحتى لو كان لدى جواكيم ساسا مثل هذه الانحرافات ، فلن يتمكن من مراقبة نفسه ، ولو حدث ذلك لكان مثيرا جدا ، فضلا عن أثره التربوى ، بأن نكون من وقت لآخر مشاهدين لأنفسنا ، وإن كان من المحتمل ألا يعجبنا ذلك . كل هذه الاحتياطات الشفوية لا تهدف إلى الايماء بأن جواكيم ساسا وبيدرو اورس يفكران فى اقتراف بذاءات من هذا النوع ، لكن هذه النافذة ، التى هى ليست سوى شبح نافذة ، ولا ترى إلا بصعوبة فى ظلام الصالة ، تثير القلق ، فهى تعطى انطباعا بأن الجميع موجودون فى الغرفة نفسها ، فى عنبر نوم ، وهو ما يجعل الدورة الدموية تتسارع ، ويرفع جواكيم ساسا ، الممدد على ظهره ، رأسه دون أن يشعر من على الوسادة . لكى يخلق هالة من الصمت ويتمكن بالتالى من السمع بشكل أفضل ، إن فمه جاف لكنه يقاوم ببسالة إغراء أن يقوم ويذهب إلى المطبخ ليشرب كوب ماء ويستمع إلى الهمسات أثناء الطريق . أما بيدرو أورس ، المتعب ، فلقد نام من فوره ، مستديرا

نحـو الجانب الخارجي للسرير ، وترك ذراعه تتدلى على ظهر الكلب الذى رقد هناك ، ان اهتزاز أحدهم يماثل اهـتزاز الآخر ، وربما نومهمـا كذلك . لم يفلت من الغرفـة أى صوت ولا اية غمغمة ، أو حتـي تنهيدة أو أنة مكتومة، «يا له من صمت» ، يفكر جواكيم ساسا ، الذى يجد ذلك غريبا ، ولن يعرف ولن يتصور أبدا إلى أى درجة يكون الأمر غريبا فعلا ، فهذه الأمور عادة ما تكون جزءا من سر الذين عاشوها ، لأن خوسيه انايسو دخل فى جوانا كاردا وهى استقبلته بدون حركة أخرى ، هو صلب وهى شديدة النعومة ، وظلا هكذا ، اصابعهما متعانقة ، والشفاه ملتصقة فى صمت بينما الموجة العنيفة تهز مركز جسديهما ، بدون صوت حتى الذبذبة الأخيرة ، وحتى الدفق الاخير واللطيف ، إننا نقوله هكذا باحتشام ، لكى لا نتهم بالقيام باستعراض مشاهد جماع ، يالها من كلمة شنيعة ، لحسن الحظ أنها نسيت تقريبا الآن . فى الغد ، عندما يستيقظ جواكيم ساسا ، سيعتقد أن هذين الاثنين تحليا بالصبر وانتظرا أن ينام الاثنان الآخران ، والله وحده يعلم ما عانياه من أجل ذلك ، وكأن الله يمكنه أن يعلم شيئا فى عمليات إعلاء الغريزة الجنسية ، لكن جواكيم ساسا كان على خطأ ، لأن فى اللحظة المحددة التى غلبه فيها النعاس ، تلقت جوانا كاردا مرة أخرى خوسيه أنايسو ، غير أن عناقهما لم يظل صامتا هذه المرة ، إذ لا يمكن لبعض الانتصارات أن تتكرر ، قال احدهما، «لقد نام الجميع الآن» ، واستطاعت الاجساد أن تتحرر ، ولقد استحقت ذلك تماما .

كان بيدرو اورس هو أول من استيقظ ، لقد لامس اصبع الصباح الرمادى المتسلل من النافذة الضيقة فمه المتعب ، وحلم عندئذ بأن امرأة كانت تقبله وناضل، اوه كم ناضل لكى يستمر الحلم ، لكن انفتحت عيونه ، وكانت شفتاه جافتين ، ولم يترك أى فم ريقا حقيقيا أو رطوبة خصبة فى فمه . رفع الكلب

رأســه، ونهض واقـفـا على قـدمـيـه ، وفي غـبش الغـرفـة الكثـيف . حـدق في بيدرواورس، ومن المستحيل تخمين مصدر النور الذى كان ينعكس فى حدقتيه . ربت بيدرو اورس على الحيوان ، ولعق الأخير يده النحيفة مرة واحدة .وايقظت كل هذه الحركات جواكيم ساسـا الذى ، وإن كان فى بيته ، لم يفهم على الفور أين هو ، إنه هذا السرير بلا شك ، فهو لم ينم عليه إلا قليلا ، وهذه الجيرة هما اللذان اربكاه . وقال بيدرو اورس وهو ممدد على ظهره ورأس الكلب مستريح على صدره ، «يوم آخر يبدأ ، ما الذى سيحدث لنا» ، ورد جواكيم ساسا ، «ربما غير رأيه ، أو فقد حساسيته يحدث ذلك أحيانا بعد النوم ، ينام المرء ويكفى ذلك لتغيير الأمور ، يكون الشخص هو نفسه لكنه لا يتعرف علي نفسه» ، لكن فى هذه الحالة بالذات ، لا يبدو أن شيئا قد تغير . لقد نهض الكلب ، ضخما وبدينا ، وتوجه نحو الباب المغلق . كان يمكن تمييز حدوده الخارجية غير الواضحة ، وكتلته ولمعان نظرته ، وقال جواكيم ساسا ، «إنه ينتظرنا ، من الأفضل أن تنادى عليه ، فالوقت لا يزال مبكرا جدا للاستيقاظ» . اطاع الكلب صوت بيدرو اورس وتمدد دون مقاومة ، ويتحدث الرجلان الآن بصوت خفيض ، كان جواكيم ساسا يقول ، «سأسحب النقود المتبقية لى فى البنك ، لا يوجد الكثير ، وسأقدم على قرض» ، «وعندما لا يتبقى لك شيء» ، «ربما قد تنتهى المغامرة قبل نفاد المال» ، «وهل نعرف ما ينتظرنا» ، «سنجد وسيلة للعيش ، وإذا لزم الأمر سنسرق» ، قال جواكيم ساسا ذلك وهو يبتسم . لكن لن تكون هناك ضرورة بلا شك للوصول إلى هذا الحد من مخالفة القانون ، فخوسيه انايسو سيذهب ايضا إلى فرع البنك الذى اودع فيه كل مدخراته ، هنا ، فى بورتو ، أما بيدرو اورس فلقد حمل معه كل بيزيتاته ، فى حين لا يعرف أحد شيئا عن موارد جوانا كاردا ، لكن كما سبق

التـأكد منه من قبل فإنها ليست من النوع الذى يعيش على الاحسـان أو على حساب الذكر . إن الأمر المشكوك فيه هو أن يجدوا عملا ، فالعمل يتطلب مداومة واستقرارا ومحل إقامة ثابتا ، في حين أن مصيرهم المباشر ، في الوقت الراهن ، هو تعـقب كلب يمكن فـقط أن يأملوا أنـه يعـرف إلى أين هو ذاهب ، لكن زمن الحيـوانات التى تتكلم وتقول أين تريد الذهاب لم يحن بعـد ، فـضـلا عن أن هذا الكلب ليست لديه احبال صوتية .

في الغرفة المجاورة ، كان العاشقان المنهكان ينامان في حضن بعضـهما ، وهى آية لا تستطيع للأسف أن تدوم طويلا ، وذلك أمر طبيعى ، لأن الجسد هو هذا الجسد وليس جسداً آخرا ، له بداية ونهاية ، يبدأ بالجلد وينتهى معه ، كل ما في الداخل ملك له ، لكنه يحتاج إلى هدوء وحرية واستقلالية تشغيل ، في حين يتطلب النوم في وضع الاحتضان تناسقا في التركيب والدمج ، وهو ما يتولى النوم نقضه ، ويتم الاستيقاظ على مرفق في الضلوع ، والذراع نمل ، عندئذ يقال بصـوت خفيض وضـع فيه كل حنان العالم ، «حبى ، افسح قليلا» . تنام جوانا كاردا وخوسيه انايسو منهكين ، لانهما في وسط الليل التحما مرة ثالثة ، إنهما في بداية قصتهما ، ومن ثم فإنهما ينفذان القاعدة الجيدة التى تتلخص في ألا نرفض ما يطالب به الجسد لأسباب خاصة به ، خرج جواكيم ساسا وبيدرو اورس والكلب وهم يسيرون بحذر ، وذهبا للبحث عما ينهون به صيامهم ، إن جواكيم ساسا يسمى ذلك افطارا ، وهو تعبير فرنسي ، وهو بالنسبة لبيدرو اورس «الديزا يونو» أى الافطار ، ولنترك لشهيتهما المشتركة أن تنهيا هذا الاختلاف اللغوى ، وعندما عـادوا كان خوسيـه انايسو وجوانا كاردا قد استيقظا ، وكانت تسمع حركتهما في الحمام حيث تسيل مياه الدش ، إن هذين اللاثنين لسعداء ،

ومشاءان كبيران ايضا ، لأنهما لم يستغرقا وقتا طويلا ليقطعا مثل هذا الطريق الطويل .

فى لحظة الرحيل ، وهم لا يزالون فى المنزل ، ظل الأربعة ينظرون إلى الكلب وعلى وجوههم ارتباك وحيرة من ينتظر الأوامر وهو يشك فى مدى الثقة التى يمكن أن يوليها لهذه الأوامر ، كما يشك بالقدر نفسه فى حكمة اتباعها . وقال جواكيم ساسا ، «لنأمل أن يولينا ثقته فى الخروج من بورتو كما فعل عند دخولها» ، وفهم الجميع ما يلمح إليه ، لأننا لو تصورنا قليلا لو اصر الكلب «مخلص» ، المخلص لنزوته فى متابعة طريقه نحو الشمال ، على اختيار الشوارع ذات الاتجاه الواحد، وبالذات تلك التى يكون فيها اتجاه الشمال هو الاتجاه المحظور ، فإن ذلك كفيل بإثارة سلسلة من النزاعات مع الشرطة ، والحوادث والاختناقات ، فضلا عن تجمع شعب بورتو للاستمتاع بالمشهد . لكن هذا الكلب ليس كلب حراسة عاديا اصوله سرية أو مشكوك فيها ، إنما تنغرس جذور شجرة نسب هذا الكلب فى الجحيم ، وهو، كما يعرف كل فرد، المكان الذى تفضى إليه كل المعرفة ، القديمة الموجودة فيه من قبل ، والحديثة والمستقبلية ، التى ستتبع الطريق نفسه بدون شك. لهذا السبب ، وربما أيضا لأن بيدرو اورس استأنف ألاعيبه ، وهمس له فى أذنه بكلمات لم ينجح أحد بعد فى توضيحها ، دخل الكلب السيارة بشكل طبيعى تماما، كما لو كان يسافر هكذا طوال حياته . لكن مع ملاحظة أنه لم يضع رأسه هذه المرة على ساعد جوانا كاردا ، وإنما ينظر بانتباه إلى جواكيم ساسا الذى يقود السيارة عبر المنحنيات ومنعطفات الشوارع، فى جميع الاتجاهات ، قد يقول من يراهم يمرون ، ويجد التسلية فى هذا النوع من المراقبة ، «إنهم يتجهون نحو الجنوب» ، ثم سيصحح ما قاله بعد قليل ، «إنهم ذاهبون نحو الغرب» أو «أنهم

يتجهون نحو الشرق» ، وهى الجهات الرئيسية أو الأصلية ، لكن إذا تم استعراض دوارة الرياح بالكامل ، لن يتسنى الخروج أبدا من بورتو ومن الحيرة والارتباك .

هناك ميثاق يربط بين هذا الكلب وهؤلاء الناس ، هؤلاء الاشخاص المنطقيين الأربعة الذين يوافقون على أن يتركوا قيادهم للغريزة الحيوانية ، إلا إذا كان هناك مغناطيس يقع فى الشمال ويجذبهم إليه ، وأنهم مجرورون بالطرف الآخر من خيط أزرق ، توأم الخيط الذى يمسك به الكلب دائما فى خطمه . لقد خرجوا من المدينة، والطريق ، بالرغم من المنعطفات ، يقودهم فى الاتجاه الصحيح ، عندئذ بدأ الكلب يبدى نفاد صبر ، ففتحوا له الباب ، وانطلق مبتعدا ، وقد استعاد نشاطه إثر الراحة الليلية والطعام الجيد الذى قدم له . إن خطوته سريعة جدا ، وتتبعه السيارة القديمة بمرح ، فهى لم تعد تحتاج إلى المعاناة لكبح سرعتها . إن الطريق حاليا لا يحازى البحر لكنه يتقدم فى داخل الأراضى ، ولذلك فقط لن نرى الشاطىء الذى اثبت عنده جواكيم ساسا ، فى ساعة معينة من حياته ، أنه أقوى من شمشون . لقد قال ذلك هو نفسه ، «يا للخسارة ألا يرغب الكلب فى محازاة الساحل ، كنت ساريكم المكان الذى وقعت فيه قصتى مع الحجر ، حتى شمشون المذكور فى التوراة ما كان ليستطيع أن يفعل ما فعلته» ، مع أن التواضع كان يدعوه للصمت ، لأن جوانا كاردا عرفت معجزة أكبر فى حقول اريرا ، كما أن الزلزال الذى يهز بيدرو اورس أكثر غموضا ، وإذا كان مرشدنا الأرضى هو حاليا كلب من العالم الآخر ، فماذا يمكن أن يقال عن آلاف الزرازير التى رافقت خوسيه انايسو ولفترة طويلة ، ولم تتركه إلا فى اللحظة التى بدأ فيها نوع آخر من الطيران بالنسبة له .

يصعد الطريق وينزل ، ليصعد مرة أخرى ويستمر فى الصعود ، وعندما ينزل أحيانا من جديد فذلك لكى نتنفس قليلا ، هذه الجبال ليست شديدة الارتفاع لكنها

تنهك قلب السيارة الستروين الصغيرة التى تسترد أنفاسها فى الطرق المنحدرة ، ويتقدم الكلب السيارة بلا كلل . لقد توقفوا فى مطعم صغير على الطريق ، واختفى الكلب من جديد لكى يصطاد ما يأكله ، وعندما عاد كان هناك دم على خطمه ، إننا نعرف من قبل السبب فى ذلك ، لا يوجد غموض أو أسرار ، إذا لم يكن لديك أحد لكى يملأ لك قصعتك ، فعليك أن تدبر امرك بما تجده . إنه الطريق من جديد ، ودائما نحو الشمال ، وعند لحظة معينة ، قال خوسيه انايسو موجها حديثه إلى بيدرو اورس، «إذا استمر بنا الحال هكذا ، فسرعان ما سندخل فى إسبانيا ، إننا نعود إلى أرضك» ، «ارضى هى الأندلس» ، «الأرض أو البلد ، إنهما نفس الشىء » ، «هذا ليس حقيقيا ، فمن الممكن ألا يعرف المرء بلده لكنه يعرف ارضه» ، «إنك فى جاليزا» ، «ابدا ، إن جاليزا هى أرض الآخرين» .

يبقى معرفة إذا كان الأمر سينتهى بهم بالوصول إليها ، لأنهم قضوا تلك الليلة ايضا فى البرتغال . سجل خوسيه انايسو وجوانا كاردا انفسهما فى الفندق العائلى كزوج وزوجة ، وحجز بيدرو اورس وجواكيم ساسا غرفة واحدة من باب الاقتصاد ، أما بالنسبة للكلب فلقد ذهب لينام مع السيارة ، وكان الحيوان الضخم قد سبب الرعب لصاحبة الفندق، «لا اريد مثل هذا الشبح فى الداخل ، ليبق فى الشارع ، فهو مكانه ، إنه كفيل بأن يملأ المكان بالبراغيث» ، واحتجت جوانا كاردا بلا طائل ، «هذا الكلب ليس به براغيث» ، لأن المشكلة ليست فى البراغيث . وفى وسط الليل نهض بيدرو اورس من سريره ، متمنيا أن يجد باب الشارع مفتوحا ، وكان الأمر كما أراده ، وبالتالى خرج وذهب لينام ساعتين فى السيارة ، ممسكا بالكلب بين ذراعيه ، فعندما لا يستطيع المرء أن يكون عاشقا ، كما هو الحال هنا ولأسباب طبيعية واضحة ، تقوم الصداقة بالمهمة خير قيام . وعندما دلف بيدرو اورس إلى السيارة ، تصور أنه يسمع الكلب ينبح بصوت

خفيض ، لكن تلك كانت هلوسة بالطبع مثل التى تحدث عندما نرغب بشدة فى شىء ما ، فإن الجسم المدرب يرثى عندئذ لنا ويتظاهر بإرضاء الرغبات ، ذلك هو الحلم ، ماذا تعتقدون، «لو كان الأمر غير ذلك ، قولوا لى قليلا ، كيف كان يمكن تحمل هذه الحياة الزاخرة بالاحباطات؟» ، يأتى التعليق من الصوت المجهول ، الصوت الذى يتكلم من آن لآخر .

عندما عاد بيدرو اورس إلى غرفته ، تبعه الكلب ، لكن بما أنه كان ممنوعا من الدخول ، فلقد تمدد على الدرجات وانتظر ، ولا توجد كلمات لوصف رعب وصباح صاحبة الفندق المبكرة والتى وصلت مع الفجر لكى تبدأ يوم عملها الجديد وفتحت مصراعى الباب وفى نداوة الصباح لتقع على الأسد ذى الفم المفتوح الذى وقف منتصبا على ممسحة الاقدام، كان ذلك مجرد تثاؤب من لم ينم ملء جفنيه ، لكن من المناسب الاحتراس من التثاؤب إذا اظهر اسنانا معقوفة رهيبة بهذا الشكل ولسانا شديد الاحمرار وكأن الدم يسيل منه . كانت الفضيحة كبيرة حتى أن رحيل الزبائن كان أقرب للطرد منه للانسحاب الهادىء ، وكانت السيارة قد أصبحت بعيدة ، عند منعطف الطريق تقريبا ، بينما صاحبة الفندق على عتبة بابها مازالت تكيل اللعنات على الوحش الأخرس ، على أية حال ، إذا كان لابد من تصديق المثل القائل بأن الكلب الذى ينبح لا يعض ، فإن تلك الحيوانات هى الأسوأ ، إن هذا الكلب لم يعض بعد ، هذا صحيح ، لكن لو كانت قوة فكيه تتناسب مع صمته ، فليحمنا اذن الله . فى الطريق ، كان المسافرون مازالوا يضحكون من الحادثة ، ووازنت جوانا كاردا كلماتهم بعض الشىء ، بروح التضامن النسائى، «لو كنت فى مكان هذه المرأة لانتابنى الخوف أنا ايضا ، لا تكونوا ادعياء ، ولا تعتقدوا أنكم مضطرون للقيام بدور الشجعان» ، اصابت تلك

الملحوظة هدفها ، واسترجع كل واحد من الذكور الحاضرين فى سره قائمة بحالات جبنه ونذالته ، وكانت الحالة الأكثر إثارة هى حالة خوسيه انايسو ، الذى قرر أن يرويها لجوانا كاردا عند أول فرصة ، لأن الحب لا يكون حبا حقيقيا إذا لم يتصارح المحبان بكل شىء ، تكمن المشكلة عندما يكون المعترف مشرفا على الموت، لأنه عندئذ يطلب التوبة ، وقد يستغل المعترف له هذا الاعترف ، وهو أمر غير نادر فليفعل خوسيه انايسو وجوانا كاردا بحيث لا يحدث ذلك هذه المرة.

إن الحدود لم تعد بعيدة . ولأنهم اعتادوا على الفضائل الكشفية لمرشدهم ، فإن المسافرين لم يلحظوا الطريقة العجولة التى اختار بها الكلب ، فيدل اوبيلوت، لابد أن يختار له يوما أحد هذين الاسمين ، الطريق الفرعى الذى يتعين عليه اتباعه ، دون أن يتردد ولا لثانية واحدة ، وذلك عندما وصل إلى تفرع طريقين، بل اسوأ من تفرع طريقين ، إنه ملتقى طرق . حتى إذا كان هذا الحيوان الذكى قد قطع من قبل هذا الطريق من الشمال إلى الجنوب ، وإن كان لا أحد متيقنا من ذلك بعد ، فإن التجربة لم تكن لتفيده فى شىء ، لاننا إذا فكرنا فإن كل شىء يكمن فى اختلاف وجهة النظر ، وهو ما لا نجهله لحسن الحظ . قد يعيش الناس إلى جوار معجزات وآيات ويجهلون عنها كل شىء تقريبا ، هذا صحيح ، بل قد يحدث أن ينخدعوا فى القليل الذى يعرفونه ، وذلك لأنهم يريدون بكل قوة أن يكون ذلك العالم والعوالم الأخرى على صورتهم وأن تشبههم ، ولا يهمهم كثيرا معرفة من الذى خلق هذه العوالم . إن الغريزة تقود هذا الكلب ، لكننا نجهل ما ومن يقود الغريزة ، وإذا حدث لنا ذات يوم أن حصلنا على بداية تفسير لهذه الظاهرة الغريبة ، فمن الأرجح أن الأمر سيتعلق عندئذ بتفسير خيالى، إلا إذا تم الحصول على تفسير للتفسير وهكذا حتى اللحظة الأخيرة حيث

لن يبقى شيء للتفسير أعلى من المفسر والذى من المفترض أن يعم السديم فيما وراءه ، لكن الأمر لا يتعلق هنا بتكوين الكون ، فما الذى نعرفه عن ذلك فى الحقيقة ، إنما يتعلق الأمر بالكلاب .

وبالأشخاص . هؤلاء الذين يتبعون كلبا . نحو حدود قريبة. سيغادرون الأرض البرتغالية عند نهاية النهار ، وفجأة لاحظوا أن الحيوان اختفى ، بسبب اقتراب الغروب بلا شك ، وسرعان ما اصبحوا مثل اطفال تائهين فى الغابة ، ما العمل الآن ، وانتهز جواكيم ساسا الفرصة للتقليل من قيمة الوفاء الكلبى ، لكن لحسن الحظ يوجد بيدرو اورس بحكمته الهادئة ، ثمرة تجربته الوجودية ، «ربما عبر النهر سباحة وينتظرنا على الجانب الآخر » ، لو أن الناس ينتبهون حقيقة للروابط والتكافؤات التى تربط الحيوات والكيميائيات ، لكان خوسيه انايسو وجواكيم ساسا قد فهما على الفور أن مبررات الكلب يمكن أن تتطابق مع مبررات ألف من الزرازير ، وإذا كان فيدل قد قدم من الشمال وعبر من قبل هذا الموقع الحدودى ، فإنه ربما لا يحرص على تكرار التجربة ، وهو بدون طوق ولا كمامة ومشتبه فى أنه مصاب بمرض الكلب ، لا سيما وأن هناك احتمالا بأنه تعرض لإطلاق نار عليه.

يلقى رجال الجمارك نظرة.شاردة على الأوراق ويتركونهم يمرون ، من الواضح تماما أن هؤلاء الموظفين ليسوا مرهقين بالعمل ، وإن كاق الناس يسافرون كثيرا ، هذا صحيح ، ولقد سبق أن اتيحت الفرصة لملاحظة ذلك ، لكن الناس تسافر حاليا أكثر داخل الحدود ، كما لو كانوا يخشون من الضياع فى بيتهم الكبير ، بلدهم ، بعد أن غادروا الآن بيتهم الصغير ، بيت حياتهم اليومية الصغيرة والحقيرة . ومن الجانب الآخر لمينهو، وجدوا قلة الاهتمام نفسها ، يلاحظ فقط

بريق فضول صغير يرجع إلى أن الاسبانى الذى يرافق البرتغاليين لا ينتمى لنفس الجيل ، لكن لو كانت الفترة هى فترة اجازات وعمليات دخول وخروج دائمة، لما أولاه أحد أى اهتمام . سار جواكيم ساسا لمسافة كيلو متر واوقف السيارة على حافة الطريق ، «لننتظر هنا ، إذا كان الكلب يعرف ما يفعله كما يقول بيدرو اورس فإنه سيحضر للبحث عنا» . ولم يتسع الوقت للانتظار فبعد عشر دقائق ، ظهر الكلب امام السيارة وشعره لا يزال مبتلا . كان بيدرو اورس على حق ، أما بالنسبة لنا ، إذا لم يكن قد خالجنا الشك قليلا، لكنا بقينا عند حافة النهر لمشاهدة العبور الشجاع، والذى كان وصفه سيكون ممتعا أكثر من عبور الحدود العادى هذا، مع رجال جمارك لا يختلفون إلا فى زيهم . «تقدموا ، هيا» ، لقد تلخص المشهد فى ذلك ، ولم تكن شرارة الفضول إلا ابتكار فقير يهدف إلى حشو الموضوع .

يتعين الآن العثور على أفكار أفضل لتزيين وتجميل باقى الرحلة ، مع ليلتين امضوهما فى فنادق ريفية ويومين على طرق قديمة متجهة نحو الشمال ، والشمال دائما ، نحو أراضى جاليزا أراضى الضباب ، مع أمطار خفيفة تعلن عن قدوم الخريف ، ذلك هو ما نريد قوله ولا داعى لاختراعه . وعلى الأكثر كان من الممكن ذكر احضان جوانا كاردا وخوسيه انايسو الليلية ، وأرق خوسيه انايسو المتقطع، ويد بيدرو اورس على ظهر الكلب ، لأنه سمح للكلب هنا بدخول الغرف . وتمر الأيام على الطريق ، فى خط مستقيم نحو افق لا يدنو . وكرر جواكيم ساسا من جديد أن كل ذلك ليس سوى ضرب من الجنون، السير بهذا الشكل وراء كلب ابله حتى نهاية العالم ، دون معرفة إلى أين أو لماذا ، وهو ما أجاب عليه بيدرو اورس ، بنوع من السخرية العنيفة ، «حتى نهاية العالم ، بالطبع لا، سنقابل

البحر قبل ذلك». من الواضح أن الكلب منهك ، فهو يتقدم خافضا رأسه وقد تهدل ذيله المتموج ، لابد أن وسائد قدميه ، بالرغم من سمك جلدها ، تؤلمه من فرط احتكاكها بالأرض والأحجار ، سوف يقوم بيدرو اورس بفحصها ، هذه الليلة ، وسيكتشف سحجات دامية ، لا عجب أنه رد بجفاء لهذه الدرجة على جواكيم ساسا الذى يراقبه فى ركن ويقول له ، وكأنه يحاول أن يبرىء نفسه ، «إن كمادات مياه الاكسجين هى التى ستفيده» ، إنه مثل من يعلم الدين لراعى الكنيسة ، لأن بيدرو اورس خبير بما فيه الكفاية فى مجال الصيدلة والأدوية بحيث لا يحتاج إلى نصائح . لكن هذه الكلمات القليلة كانت كافية لإعادة السلام فى النهاية .

عندما وصلوا عند مستوى سان – جاك – دى – كومبوستل ، تحول الكلب نحو الشمال الغربى . وكان واضحا من نشاط وقوة مشيته ، ومن ثبات اقدامه ، ومظهر وهيئة رأسه وتماسك ذيله ، أنه اقترب من الهدف ، واضطر جواكيم ساسا أن يزيد من سرعة السيارة قليلا ليتمكن من متابعته ، ولما كانوا قد اقتربوا من الحيوان لدرجة أنهم كادوا يلامسونه ، صاحت جوانا كاردا قائلة ، «انظروا انظروا الخيط الأزرق» . لقد رآه الجميع . وكأنه خيط آخر . كان الخيط الأول متسخا لدرجة أن لونه يكاد يكون ازرق أو بنيا أو اسود ، لكن ذلك الخيط كان يلمع بكل لونه ، لون ازرق ليس مثل زرقة السماء ولا زرقة البحر ، من الذى صبغه وحل غزله هكذا ، وإذا كان الأمر يتعلق بنفس الخيط السابق فمن الذى غسله وأعاده بعد ذلك فى خطم الكلب قائلا ، «اذهب» – بدأ الطريق يضيق ، وأصبح الآن مجرد درب يحازى التلال . ستغرب الشمس فى البحر الذى لا يرى بعد من هنا ، إن الطبيعة ملكة بالنسبة لتشكيل المشاهد الملائمة للظروف البشرية ، كانت

السماء هذا الصباح ، وطوال فترة ما بعد الظهر . حزينة وغائمة تسرب المطر الجاليزى الخفيف والآن ينتشر ضوء اشقر على الحقول ، ويشبه الكلب الدرة اللامعة، إنه حيوان من الذهب . حتى السيارة، لم تعد لها علاقة بالسيارة المنهكة التي نعرفها ، والركاب في الداخل جميعهم كائنات رائعة ، ويسقط عليهم الضوء مباشرة ، ويتقدمون مثل السعداء ، وينظر خوسيه انايسو إلى جوانا كاردا وتسرى في جسده قشعريرة لرؤيتها جميلة لهذه الدرجة ، ويخفض جواكيم ساسا مرآة السيارة لكي يرى عينيه وهما متألقتان ، أما بيدرو اورس فيتأمل يديه العجوزتين ، هما ليستا عجوزتين لكنهما تخرجان من عملية خيمانية جعلتهما خالدتين ، وإن كان باقي جسده لابد أن يموت .

وفجأة توقف الكلب . الشمس عند مستوى التلال ، ويستشعر المرء وجود البحر من الجانب الآخر . ينزل الطريق متعرجا بين تلين يبدوان وكأنهما يخنقانه، لكنه خداع البصر والمسافة. عند منتصف المنحدر وفي الجهة المقابلة يوجد بيت كبير ذو معمار بسيط ، شكله قديم ومهجور ، وإن كانت الحقول المحيطة به مزروعة. يقع جزء من البيت في الظل ، وينسحب الضوء ، وكأن العالم كله يتلاشى في الوحدة ، اوقف جواكيم ساسا السيارة ونزل الجميع .إن صوت الصمت يسمع وهو يتذبذب كصدى أخير ، قد لا يكون ذلك سوى هدير الأمواج البعيدة التي تتحطم على الصخور ، إنه التفسير الذى يقدم دائما ، حتى في القواقع حيث تستمر في الرنين الذكرى التي لا تنتهي للأمواج ، غير أن الأمر مختلف هنا حيث لا يسمع سوى الصمت ، يجب ألا يموت المرء قبل أن يعرف الصمت ، هل سمعته، اذن يمكنك الرحيل ، إنك تعرف ما هو . لكن هذه الساعة لم تحن بعد بالنسبة للأربعة . . إنهم يعرفون أن قدرهم هو هذا المنزل الذى قادهم إليه الكلب

الغريب ، الذى يقف ساكنا ينتظرهم مثل التمثال . يقف خوسيه انايسو إلى جوار جوانا كاردا ، لكنه لا يلمسها ، ويشعر أنه يجب ألا يلمسها ، وهى ايضا تشعر بذلك ، هناك لحظات حيث يجب على الحب نفسه أن يقبل بتفاهته ، السماح والعفو لتحويل الحب إلى لا شىء تقريبا ، هو الذى فى ظروف أخرى يكون كل شىء . كان بيدرو اورس آخر من خرج من السيارة ، ووضع قدميه على الأرض وشعر بأنها تهتز بقوة مخيفة ، كانت ابر أى جهاز لتسجيل الزلازل ستتحطم هنا ، وتبدو هذه التلال وكأنها تتماوج مع حركة الامواج التى تتداخل فوق بعضها فى البحر البعيد ، يشدها هذا الطوف الحجرى ، وترتمى عليه فى الارتداد القوى الذى يجرفنا .

لقد اختبأت الشمس . وعندئذ بدأ خيط ازرق ، غير مرئى تقريبا فى شفافية الهواء، يتماوج وكأنه يبحث عن متكأ ، لقد داعب الأيادى والوجوه ، والتقطه جواكيم ساسا ، هل هى الصدفة؟.. هل هو القدر؟.. لنترك هذه الافتراضات تحلق ، حتى وإن كانت لدينا كل الأسباب والمبررات لكى لا نعتقد فى الصدفة ولا فى القدر ، والآن ماذا سيفعل جواكيم ساسا ، فهو لا يستطيع ركوب السيارة ، ويده فى الخارج ممسكا بالخيط ومتعقبا له ، إن خيطا يحمله الهواء ويدفعه لا يخضع لتخطيط الطرق ، وتساءل، ماذا افعل ، لكن الآخرين لا يستطيعون الرد عليه ، على نقيض الكلب الذى ترك الطريق وبدأ ينزل المنحدر الخفيف ، وكان جواكيم ساسا يسير خلفه ، ويده مرفوعة ، يتبع الخيط الأزرق وكأنه يلامس اجنحة أو زور طائر فوق رأسه . عاد خوسيه انايسو إلى السيارة مع جوانا كاردا وبيدرو اورس ، وقام بتشغيل المحرك ونزل الطريق ببطء وهو يتابع دائما جواكيم ساسا بعينيه ، كان لا يريد أن يصل قبله ولا بعده بوقت طويل ، لأن الانسجام الممكن للأشياء يتوقف على توازنها وعلى اللحظة التى تحدث فيها ، لا قبل الأوان ولا بعده ، ولذلك فإن بلوغ الكمال أمر

شديد الصعوبة .

وعندما توقفوا عند مصطبة أمام المنزل ، كان جواكيم ساسا على بعد عشر خطوات من الباب المفتوح . وتنهد الكلب تنهيدة بدت وكأنها آدمية وتمدد واضعا عنقه على قدميه ، ونزع بقدميه قطعة الخيط من فمه واسقطها على الأرض ، وظهرت امرأة من الداخل المظلم للبيت . وكان فى يدها خيط ، الخيط نفسه الذى كان جواكيم ساسا لا يزال ممسكا به . ونزلت المرأة حتى آخر درجة ، وقال : «ادخلوا . لابد أنكم متعبون» . وكان جواكيم ساسا أول من تقدم ، وطرف الخيط الأزرق ملفوف على معصمه .

حكت ماريا جافيرا ، «لقد ظهر الكلب منذ بعض الوقت ، في الساعة نفسها مثل اليوم ، وكان الضوء مماثلا أيضا ، كان يبدو عليه أنه قادم من بعيد جدا، وكان شعره متسخا وقدماه تدميان ، ضرب الباب برأسه ، وعندما ذهبت لأفتح ، معتقدة أنه أحد هؤلاء المتسولين الذين يتجولون هنا وهناك ، وعندما يصلون إلى مكان ما يضربون الباب بعصاهم ويقولون «حسنة صغيرة ، يا سيدتي ، لرجل مسكين» ، ماذا أرى ، الكلب ، كان يلهث كما لو أنه وصل راكضا من آخر العالم ، وكان الدم يبقع الأرض تحت قدميه ، لكن أغرب ما في الأمر أنني لم أشعر بالخوف ، بالرغم من وجود ما يدعو لذلك ، فعندما يجهل المرء إلى أي مدى هو مسالم يمكنه الاعتقاد بأنه امام أكثر الوحوش ضراوة ، المسكين بمجرد أن رآني فوض امره لي ، كما لو أنه انتظر أن يجدني لكي يرتاح أخيرا ، كان يبدو وكأنه يبكي مثل شخص يريد أن يتكلم ولا يستطيع أن يفعل ذلك ، وطوال الوقت الذي مكثه هنا لم اسمعه ينبح مرة واحدة» وقالت جوانا كاردا، «إنه معنا منذ ستة أيام ولم ينبح ابدا ايضا» ، «ابقيته في البيت ، وعالجته ، واهتممت به ، إنه ليس بالكلب الضال ، هذا واضح من شعره ، لابد أن اصحابه كانوا يحسنون معاملته ويغذونه بشكل جيد أيضا ، لادراك ذلك يكفي مقارنته بالكلاب الجاليزية التي تولد وهي تتضور جوعا وتموت وهي تتضور جوعا بعد أن تكون قد عاشت وهي تتضور جوعا طوال حياتها، ويتعامل الناس معها بضربات الحجارة أو العصا ، لذلك لا يستطيع الكلب الجاليزي أن يرفع ذيله ، فهو يخفيه بين قدميه على أمل أن يمر دون أن يلحظه أحد ، ودفاعه الوحيد ، عندما يستطيع ذلك ، هو أن يعض» ، «هذا الكلب لا يعض» ، قال بيدرو اورس ، واضاف خوسيه انايسو، «ربما لن نعرف ابدا من اين جاء ، وليس لذلك أهمية كبيرة على أية حال ، إن ما يحيرني هو أن يكون قد رحل بحثا عنا ليرجع بنا

إلى هنا ، والتساؤل الحقيقي هو لماذا؟» ، «انني اجهل ذلك ، كل ما اعرفه أنه رحل ذات يوم وبين اسنانه قطعة خيط ، ونظر لى وكأنه يريد أن يقول، «لا تخرجي من هنا إلى أن أعود»، ثم رحل إلى الجبل، هذا الجبل، الذى نزل منه توا»، «ما هو هذا الخيط؟»، سأل جواكيم ساسا، بينما هو يلف ويفك على معصمه طرف الخيط الذى كان لايزال يربطه بماريا جافيرا، «ماذا أعرف عن ذلك»، أجابت وهي تلف طرف الخيط بين أصابعها وتمطه مثل وتر جيتار، لا أحد منهما كان يلاحظ، على مايبدو، انهما مربوطان معا، لقد لاحظ الآخرون ذلك وكانوا يراقبونهما، لا، لن يقال شيء عن أفكارهم، وإن كان ليس من الصعب تخمينها، «لم أفعل سوى انني قمت بفك جورب صوف قديم، من تلك الجوارب التى تستخدم لحفظ النقود، كان من المفترض أن يعطى الجورب حفنة من الصوف بالكاد، لكن الموجود هناك يقابل صوف مائة خروف، وعندما أقول مائة كان على أن أقول مائة ألف، ما هو تفسير مثل هذا الأمر»، وأجاب خوسيه أنايسو، «لقد تبعتنى آلاف الزرازير طوال عدة أيام»، «لقد قذفت حجرا فى البحر، وكان الحجر أثقل منى، وذهب ليقع بعيدا»، أضاف جواكيم ساسا، وهو يعلم أنه يبالغ، وقال بيدرواورس ببساطة، «لقد اهتزت الأرض، ومازالت تهتز حتى الآن».

وقامت ماريا جافيرا لتفتح بابا، وقالت، «انظروا»، كان جواكيم ساسا الى جوارها، لكن لم يكن الخيط هو الذى شده، ولمح سحابة زرقاء، كانت زرقتها تزداد كثافة باطراد حتى تكاد تكون سوداء عند مركزها، «لو أترك الباب مفتوحا تخرج دائما قطع من الخيط، مثل القطعة التى تسلقت الطريق وقادتكم حتى هنا»، قالت ماريا جافيرا لجواكيم ساسا، وأصبح المطبخ، الذى كانوا يقفون فيه جميعا، خاليا، لم يعد فيه غير هذين الاثنين، المربوطين بالخيط الأزرق والسحابة الزرقاء

التى كانت تبدو وكأنها تتنفس، وكانت طقطقة الخشب تسمع فى الموقد حيث يجرى تسخين حساء الكرنب المضافة اليه قطع اللحم، وهو حساء جاليزى مخفف.

لا يمكن أن يظل جواكيم ساسا وماريا جافيرا مربوطين هكذا لمدة أطول دون أن ينتهى هذا الرباط بأن يتخذ معنى مريبا، ولذلك أعادت لف الخيط، وعندما وصلت إلى معصم جواكيم ساسا، لفت حوله كما لو كانت تربطه بشكل خفى مرة أخرى، ثم وضعت لفافة الخيط الصغيرة على نهدها، ولا يشك فى معنى هذه الحركة إلا أبله، ويتعين أن يكون كذلك فعلا لكى يشك فى ذلك. ابتعد خوسيه انايسو عن النار التى كانت تحرقه، «ورغم أن كل ذلك يبدو عبثيا وغير معقول، إلا أننا انتهينا إلى الاعتقاد بوجود علاقة بين ما حدث لنا وانفصال إسبانيا والبرتغال عن باقى أوروبا، لابد أنك سمعت عن ذلك»، «نعم، لكن لم يدرك أحد هنا أن شيئا قد تغير، إذا عبر أحدهم التلال ونزل نحو الساحل فسيجد أن البحر موجود دائما هناك»، «لقد عرض التليفزيون صورا»، «ليس عندى تليفزيون»، «وقدمت الاذاعة أنباء ومعلومات»، «إن المعلومات عبارة عن كلمات لكن لايتم التوصل أبدا الى معرفة ما إذا كانت الكلمات هى معلومات».

وتوقفت المحادثة لبضع لحظات عند هذه الوقفة المتشككة، لقد ذهبت ماريا جافيرا لتأتى بالأقداح من على الرف، وصبت فيها الحساء، وأعطت القدح قبل الأخير لجواكيم ساسا واحتفظت بالأخير لنفسها، وظن فجأة ان هناك ملعقة ناقصة، لكن لا، كان العدد كافيا للجميع، لذلك لم تكن ماريا جافيرا بحاجة الى انتظار أن ينتهى جواكيم ساسا من طعامه، ومن ثم أراد أن يعرف إذا كانت تعيش وحدها، ولماذا لم يروا أحدا فى البيت، وأجابت بأنها أرملة منذ ثلاثة أعوام،

وأن العمال الزراعيين يأتون لحرث الأرض، «إنني اعيش بين البحر والجبال، بلا أبناء ولا أسرة، لقد هاجر إخواني إلى الأرجنتين، وتوفى أبى، وتعيش أمى فى لاكوروني* ، فهى مجنونة، لابد أن قلة فقط، من الأشخاص على امتداد العالم فى مثل وحدتى»، وقالت جوانا كاردا ، «كان يمكنك أن تتزوجي من جديد»، لكنها ندمت على الفور لقولها ذلك، فلم يكن من حقها أن تقول شيئا كهذا ، هى التى حطمت زواجها منذ قليل وتعيش حاليا مع رجل آخر، لقد كنت متعبة، وإذا تزوجت امرأة فى مثل سنى مرة أخرى فيسكون ذلك بسبب أرضها فقط، فالرجال يأتون لكى يتزوجوا الأرض وليس المرأة»، «انك لازلت شابة»، «لقد كنت كذلك، ولم أعد أتذكر ابدا ذلك الزمن»، وبعد أن قالت ذلك انحنت على الموقد، لكى يضيئها الضوء بشكل أفضل، ونظرت إلى جواكيم ساسا من فوق اللهب وكأنها تقول له: ها أنذا، كما أنا، انظر الى جيدا، لقد جئت حتى بابى مشدودا بخيط كان فى يدى،. وإننى استطيع إذا أردت ذلك، أن أقودك حتى مخدعى، وسوف تأتى، أنا على يقين من ذلك، لكننى لن أكون أبدا جميلة، إلا إذا جعلت منى أجمل امرأة يمكن رؤيتها، إن الرجال وحدهم قادرون على القيام بذلك، لكن ذلك لايدوم للأسف.

وكان جواكيم ساسا يراقبها من الناحية الأخرى من الموقد، ويجد أن اللهب يبدل وجهها، حافرا السطوح بالتناوب وماسحا الظلال، لكن ما لم يتغير أبدا كان بريق عينيها السوداوين، انهما دمعتان معلقتان تحولتا إلى غشاء رقيق من النور الصافى، وفكر جواكيم ساسا، «إنها ليست جميلة، لكنها ليست دميمة أيضا، إن يديها منهكتان وتالفتان، لا علاقة لهما بيديه، بدا موظف مكتبى يتمتع بإجازات مدفوعة، وبالمناسبة، إذا لم أكن مخطئا، فإننا فى اليوم الأخير من الشهر، ومن

* مصحة للأمراض العقلية.

الطبيعي أن استأنف عملي بعد غد، لكن لا، هذا غير ممكن، كيف يمكنني أن أترك هنا خوسيه وجوانا، وبيدرو والكلب، فليس لديهم أي مبرر لان يتبعوني، وإذا أخذت السيارة، ستواجههم أكبر الصعوبات في العودة إلى بيوتهم، وهو الأمر الذي لايرجونه بالطبع على أية حال، إن الشيء الوحيد الموجود على الأرض في هذه اللحظة هو أن نظل جميعا معا هنا، جوانا كاردا وخوسيه انايسو، اللذان يتناقشان بصوت خفيض عن حياتهما أو حياتنا، وبيدرواورس الذي يضع يده على رأس بيلوت ليقدر الذبذبات والاهتزازات، التي لم يعد أحد يشعر بها بينما أنا انظر، وانظر من جديد الى ماريا جافيرا التي لديها طريقة خاصة تماما للنظر، فهي لاتنظر وانما تكشف عن عينيها، هي أرملة تلبس السواد، لقد حررها الزمن من حزنها وإن كانت التقاليد والنقود يواصلان فرض الحزن عليها، لحسن الحظ أن عيونها تلمع، وهناك أيضا تلك السحابة الزرقاء التي لايبدو عليها أنها جزء من هذا البيت، الشعر بني والوجه مستدير والشفاه ممتلئة، والأسنان بيضاء، الحمد لله، لقد رأيتهم توا، إن هذه المرأة جميلة في نهاية الأمر، ولم ألحظ ذلك، كنت مربوطا بها، وأنا أجهل ذلك، يجب أن أقرر وأحسم أمري، أعود الى وطني أم أبقى هنا، حتى إذا استأنفت العمل، متأخرا بضعة أيام فإنهم لن يحقدوا علي، ومن ناحية أخرى من الذي سيلتفت ويهتم بتأخير العاملين في ظل هذه الفوضى التي عمت شبه الجزيرة ويمكن الاحتجاج بصعوبة المواصلات، آه، انها لم تعد عادية الآن، الآن أصبحت أجمل والآن، الآن فإن جواناتك لا تساوي شيئا يا سيد خوسيه أنايسو الى جانب ماريا جافيرا، ان حبيبتي أجمل بكثير، لنر قليلا .. هل يمكن مقارنة صديقتك بنت المدينة المغرورة بهذه المخلوقة التي نمت وسط الطبيعة التي تعرف بالطبع رائحة الملح التي يحملها الهواء القادم من الناحية الأخرى من الجبال، ولابد أن جسدها أبيض تحت ملابسها، لو كنت استطيع لقلت لك شيئا

يابيدرواورس، «ماذا كنت تقول لى؟»، «إننى أعرف أخيرا من أحب»، «حمدا لله، قد يستغرق البعض وقتا أطول لمعرفة ذلك أو قد لا يعرفونه أبدا»، «اتعرف أحدا كذلك»، «أنا مثلا»، وبعد أن رد بهذا الشكل قال بيدرواورس بصوت عال، «سأقوم بجولة مع الكلب».

لم يصبح الليل شديد السواد بعد لكن الجو بارد، ويوجد على التل الذى يخفى البحر طريق يصعد تدريجيا بدرجات متتالية، مرة يمينا ومرة يسارا، قبل أن يضيع فى غير المرئى الذى لا تستطيع العيون اختراقه، وسرعان ما سيسقط هذا الوادى فى ليل بهيم، وإن كان الأصح هو القول بأن كل ليالى الوادى الذى تعيش فيه ماريا جافيرا شديدة السواد، ولهذا السبب لم تكن هناك حاجة لقطع خطوط الكهرباء القادمة من أوروبا المتحضرة المثقفة، لقد غادر بيدرواورس المنزل لأنه لم يكن هناك أحد يحتاج اليه، ويتقدم دون أن ينظر خلفه، وبكل السرعة التى تسمح بها قواه، ثم ببطء أكثر، عندما بدأت هذه القوى تتخلى عنه، انه لا يشعر بأى نوع من الخوف فى هذا السكون بين أسوار الجبال، لقد ولد هذا الرجل وعاش فى صحراء وسط التراب والأحجار، هناك، حيث ليس بالأمر النادر العثور من وقت لآخر، على فك حصان، وحافر بحدوته الحديدية. ويروى البعض أن خيول نهاية العالم ذاتها ما كان بإمكانها الحياة هناك إن حصان الحرب مات فى الحرب وحصان الطاعون مات من الطاعون، وحصان الجوع مات من الجوع، إن الموت هو باختصار مبرر كل الأشياء ونهايتها المؤكدة، لكن ما يخدعنا هو هذه السلالة من الأحياء التى ننضوى تحت رايتها والتى تتقدم نحو ما نسميه المستقبل. وذلك فقط لأنه يتعين اعطاؤه اسما، ونضم الينا أشخاصا جددا باستمرار،. ونترك على الطريق بشكل مستمر اشخاصا مسنين، تم منحهم اسم موتى، لكى لا ينبثقوا مرة أخرى من الماضى.

إن قلب بيدرواورس منهك وعجوز ويتعين عليه حاليا ان يستريح كثيرا ولفترة أطول فى كل مرة، لكنه مع ذلك لا يستسلم، إن وجود الكلب يريحه، إنهما يتبادلان الإشارات، شفرة اتصال تناسبهما، وإن كانت صعبة الفهم، لأن مجرد حقيقة وجودها تكفيهما، ويمس كتف الحيوان فخذ الرجل، وتداعب يد الرجل الجلد الرقيق داخل أذن الكلب، وتغمر العالم ضجة خطوات وأنفاس وحفيف، ويسمع الآن صخب البحر المخنوق القادم من الناحية الأخرى من القمة الجبلية، ويصبح الصوت أقوى وأوضح فى كل مرة ليظهر البحر أخيرا أمام عينيه، مساحة شاسعة آثرة بشكل غامض تحت ليل بدون قمر وتلمع فيه بعض النجوم، وعلى مستوى أدنى يلمع البياض الشديد للزبد الذى ينحل ويتكون من جديد على نسق واحد ، مثل خط الحياة الذى يفصل الليل عن الموت. إن لون الصخور التى تأتى الأمواج لتتكسر عليها أكثر دكانة، وكأن الحجر فى هذا المكان كان أكثر كثافة، أو كان مغمورا فى البحر منذ الأزل، إن جزءا من الهواء القادم من البحر هو هبوب طبيعى، أما الجزء الآخر، وهو أقل أهمية فقد يكون من تأثير انزلاق شبه الجزيرة على المياه، انه لا شيء سوى نسمة بحرية خفيفة، اننا نعلم ذلك جيدا، ومع ذلك فلم يعرف أبدا، منذ أن أصبح العالم عالما، إعصار مماثل. إن بيدرواورس يقدر حجم المحيط، ويجده فى هذه اللحظة بالذات صغيرا، لأنه عندما يستنشق بعمق تتمدد رئتاه لدرجة يمكن لكل البحار أن تندفع فيهما مرة واحدة، تاركة بعض المكان للطوف الذى يرسم طريقه بواسطة نتوءاته الصخرية وسط الأمواج. لم يعد بيدرواورس يعلم إن كان انسانا أم سمكة. وينزل نحو البحر، يسبقه الكلب للتعرف واختيار الطريق، إن هذا الكشاف الماهر الحكيم مفيد جدا لأنه لم يكن بمقدور بيدرواورس أن يعثر بمفرده على مدخل ومخرج هذه المتاهة من الأحجار قبل

شروق النهار، بلغا أخيرا البلاطات الكبيرة التى تميل بانحدار خفيف نحو البحر، حيث يبعث ضخب الأمواج على الصمم، لو أن القمر صعد فى هذه اللحظة وسط صياح البحر وتحت السماء المظلمة، فلن يكون هناك انسان يعتقد أنه يموت من الرعب والجزع والوحدة، ولا يكون قادرا فى الواقع أن يموت من السعادة. لم يعد بيدرواورس يشعر بالبرد، أصبح الليل أقل اظلاما، هناك عدد أكبر من النجوم، وعاد الكلب الذى ابتعد لمدة دقيقة، راكضا، لم يعلمه أحد أن يجذب صاحبه من أسفل سرواله، لكننا نعرفه من قبل بما يكفى لأن نعلم أنه قادر تماما على توصيل ارادته، وسيتعين الآن على بيدرواورس مرافقته فى اكتشافاته،. غريق أعاده البحر الى الساحل، أو صندوق كنز، أو بقايا قارة اطلنتس، أو حطام الهولندى الطائر، إنها ذاكرة يتسلط عليها وسواس قسرى، وعندما بلغ الساحل الرملى، لم يجد سوى أحجار وسط أحجار، لكن بما أن هذا الكلب ليس من الذين يضلون أو يضللون، فإن بيدرواورس يعتقد أن هناك شيئا غير عادى بالضرورة، وعندئذ لاحظ أن قدميه شخصيا تقفان عليه على هذا الشىء، انه حجر ضخم، يتخذ بالتقريب شكل مركب ، وهناك حجر آخر، طويل وضيق مثل الصارى، وحجر ثالث يمكن اعتباره دفة مقبضها مكسور، ولأنه تصور أن الضوء شديد الضعف قد خدعه، قام بجس محيط الصخور واختبرها بيده، وسرعان ما تأكد، فهذا الجانب العالى والمدبب هو مقدمة السفينة وهذا الجانب الآخر المغلول هو المؤخرة، وهنا لايمكن الخطأ أنه الصارى، أما بالنسبة للدفة فلو كان كل ذلك فى نهاية المطاف ليست سفينة حقيقية من الحجر، فيمكن أن تكون سيف العملاق العريض ذى النصلين، من المؤكد انها ظاهرة جيولوجية، إن بيدرواورس خبير بما يكفى فى مجال الكيمياء لكى يفسر الأمر لنفسه، انه مركب قديم من الخشب دحرجته

الأمواج أو تركته حركات المد والجزر، وسقط على هذه البلاطات منذ أزمنة سحيقة فى القدم وغطاه الثرى بعد ذلك ، وحول المادة العضوية فيه الى مادة معدنية إلى أن انسحب الثرى من عليه مرة أخرى، وتتطلب تصغير الأحجام آلاف السنين، والرياح والمطر والتآكل الناجم عن البرد والحرارة بحيث لايوجد الآن فرق بين حجر وآخر. وجلس بيدرواورس فى قاع المركب وهو لايميز من هذا الوضع سوى السماء والبحر على مسافة بعيدة، لو كان هذا المركب يتأرجح قليلا لاستطاع أن يقسم انه يبحر، ان الخيـال لشديد القدرة والقوة، ومرت فى ذهنه فكرة غير معقولة، لقد كان هذا المركب المتحجر يسير على الماء بشكل جيد لدرجة انه سحب فى أثره شبه الجزيرة، كان من الممكن أن يحدث ذلك، هذا امر مسلم به، لقد سبق رؤية حيل أكثر صعوبـة، لكن يجب عدم الاستسلام قط لهذيان الخيال، ولقد أرادت سخرية القدر أن تكون مؤخرة المركب هى المتجهة نحو البحر، ولم يبحر مركب، أهل بهذا الاسـم، القهقرى أبدا. قام بيـدرواورس،. فهو يشعر بالبرد وقفز الكلب من فوق حافة المركب، لقد حان وقت العودة إلى المنزل، لم تعد سن سيدى الحبيب تسمح له بقضاء الليل ساهرا، انه لم يعرف ذلك عندمـا كان شابا، وقد فات الآن أوان ذلك.

عندما بلغا قمة التلال، لم يعد بإمكان بيدرواورس التقدم خطوة، كانت رئتاه المسكينتان، اللتان كانتا قادرتين منذ لحظة على ابتلاع المحيط كله، تلهثان مثل منفاخ ممزق، وكان الهواء القارس يحك أنفه من الداخل، وأصبح حلقه جافا، هذه المغامرات الجبلية ليست لصيدلى فى شيخوخة عمره، وارتمى على حجر لكى يسترد أنفاسه، ومرفقاه على ركبتيه ورأسه بين يديه، وكان العرق يجعل جبهته تلمع، ويحرك الهواء ما تبقى من شعره، إنه اطلال رجل حزين ومنهك، ولم تخترع

بعد، للأسف، طريقة التحجر التي ستحول اشخاصا لايزالون فى شرخ الشباب إلى تماثيل، غدا تنفسه اهدأ، فالهواء المعتدل يدخل الآن ويخرج دون ان يحدث حكة ورق السنفرة. وكأن الكلب الذى كان راقدا ينتظر قد أدرك هذه التحولات، فتحرك ليقوم. ورفع بيدرواورس رأسه، ونظر إلى أسفل نحو الوادى حيث يوجد المنزل، كانت هناك هالة تبدو وكأنها تحلق فوق المنزل، ضوء بدون بريق، نوع من النور غير المضىء، لكن هذه الجملة التى تتكون، مثل كل الجمل تقريبا، من كلمات فقط، هل تستطيع أن تفلت من اللبس ومن أن تحتمل معنيين. عندئذ تذكر بيدرواورس رجل بلدة أورس المصاب بالصرع الذى كان يحاول، بعد أن تمر النوبات التى كانت تهده، تفسير الأحاسيس الغامضة التى تعلن عن قدوم تلك النوبات، ذبذبة جسيمات الهواء غير المرئية، واشعاع طاقة مثل طاقة الحرارة فى الأفق، وانحراف الأشعة الضوئية التى فى متناوله، إن هذه الليلة عامرة حقا بالمعجزات، خيط وسحابة الصوف الزرقاء، والمركب الحجرى الذى جنح على بلاطات الساحل، والآن هذا المنزل الذى يبدو، عند النظر اليه من هنا، وكأنه يهتز بطريقة غير عادية، وفجأة تنقلب الصورة، وتنمحى حدود الأشياء، ويدأ البيت يبتعد، ويتحول الى نقطة غير مرئية تقريبا، ثم يعود من جديد، مختلجا برفق، وخشى بيدرواورس لمدة ثانية، ان يجد نفسه متروكا وحده فى هذه الصحراء الأخرى لكن الرعب تلاشى، تاركا له بالكاد الوقت لكى يفهم ان ماريا جافيرا وجواكيم ساسا قد اتحدا هناك فى الأسفل. نهض بيدرواورس لكى يشرع فى النزول، لكنه جلس مرة أخرى بأناة، وهو يرتعد من البرد، وظل ينتظر أن يستعيد المنزل شكله الطبيعى الذى لايوجد فيه لهب آخر غير اللهب الذى لايزال يشتعل فى الموقد، لكن إذا دام انتظاره طويلا فمن المحتمل ألا يجد سوى الرماد مكان النار.

استيقظت ماريا جافيرا مع أول ضوء للفجر. كانت فى غرفتها وفى سريرها، وكان هناك رجل نائم الى جوارها، كانت تسمعه يتنفس بعمق وكأنه ذهب يستمد تجدد القوى فى نخاع عظامه، وودت، وهى لم تفق بعد، أن يصاحب تنفسها تنفسه، وكانت حركة صدرها المختلفة هى التى أشعرتها انها عارية. ومرت بأصابعها على جسدها وسط الفخذين، ثم دارت حول العانة والبطن وصولا الى الثديين، وفجأة تذكرت صرخة الدهشة التى أطلقتها عندما انفجرت اللذة داخلها مثل الشمس. والآن وقد استيقظت تماما، تعض أصابعها، لكى لا تصرخ من جديد وهى تتمنى فى الوقت نفسه، أن تستعيد الاحاسيس نفسها فى الصوت الذى تكبته وأن تجعلها لا تنفصل عنه ابدا، إلا إذا كانت الرغبة قد استيقظت من جديد، قد يكون القلق أو ربما الندم هو الذى جعلها تنطق الجملة المعروفة، «والآن ما الذى سيحدث لى»، ان الأفكار ليست مستقلة عن بعضها البعض، ولا تخلو التعبيرات عن تعبيرات أخرى، فهذه المرأة تعيش فى الريف، بعيدا عن حيل الحب الحضارية، فسرعان ما سيصل الرجلان اللذان يعملان فى الأرض، ماذا ستقول لهما والبيت ملىء بالأغراب، لا يوجد شىء مثل ضوء النهار لتغيير وجه الأشياء. لكن هذا الرجل النائم قد قذف بصخرة فى البحر، وقطعت جوانا كاردا الأرض نصفين، وكان خوسيه انايسو ملكا للزرازير، وبيدرواورس يجعل الأرض تهتز تحت قدميه والكلب الذى وصل من حيث لا يعرفه أحد ليجمع كل هؤلاء الأشخاص، «ولقد ربطنى بك، أكثر من الآخرين، اننى جذبت الخيط واتيت انت الى بابى والى سريرى، والى داخل جسدى، وإلى روحى، لأن الصرخة التى أطلقتها لايمكن أن تصدر الا من هناك». واغمضت عينيها لبضع لحظات، وادركت وهى تفتحهما ان جواكيم ساسا قد استيقظ، وشعرت عندئذ بصلابة جسده، وانفتحت

لــه، وهى تشـــهق من القلق، وبدون أن تصـــرخ هذه المرة، أخـــذت فى البـكاء والضـحك فى آن واحـد، وكـانت الشـمس قـد أشـرقت تمامـا. ان تكرار مـا قـالاه لبعضـهما سـيكون امرا غير مـجد وحسـاسـا، وليقم كل واحد بتشـغيل خيـاله، ويتصرف حسب فكرته، ولا شك أنكم ستخطئون على أية حـال بكل تأكيد، بالرغم من أن مفردات الحب محدودة جدا، نهضت ماريا جافيرا وبدا جسدها أبيض كما حلم به جواكيم ساسا، وقالت، «ما كنت أحب أن ارتدى هذه الملابس الداكنة، لكن لم يعـد لدى وقت لكى أبحث عن غـيـرهـا، فلن يلبث أن يـأتى العـمـال»، وارتدت ملابسها وعادت نحو السرير، وغطت وجه جواكيم ساسا بشعرها وقبلته، ثم فرت، وغادرت الغرفة، وتقلب جواكيم سـاسـا فى السرير، ثم اغمض عينيه، سينام من جديد. وكانت هناك دمـعة على خده، إنهـا دمـعـة ماريا جـافيـرا أو ربما دمـعـتـه، فالرجال يبكون أيضا، ولا يوجد فى ذلك مدعاة للخجل بل إن البكاء لايمكن إلا أن يكون مفيدا لهم.

ها هى غرفـة جوانا كاردا وخوسيه أنايسو، بابهـمـا مـغلق، لايزالان نـائمين، الباب الآخر موارب، جاء الكلب ليرى ماريا جافيرا، ثم عاد من حيث أتى، ورقد من جـديد، سـاهرا على نوم بيـدرواورس الذى يرتاح من مـغامـراته واكتشـافـاته. يوحى الجو بأن النهار سيكون حارا، فـالسـحب تأتى من البـحر وتبدو وكأنها تعدو أسـرع من الريح. يقف رجـلان الى جـوار السـيارة، انـهـمـا العـامـلان الزراعيـان، ويقولان ان الأرملة التى لا تكف عن الشكوى من انتاج الأرض، قد نجحت بالرغم من ذلك فى أن تشترى سيارة، وقـال أكبرهمـا سنا بلهجة سـاخـرة، «بمجرد أن يمـوت الرجـل، تتـصـرف الزوجـات على هواهن»، نادت مـاريا جـافـيـرا عليـهـمـا، وشرحت لهمـا، وهى تشعل النـار وتسـخن القهوة، إنها استضافت مسافرين ضلوا

الطريق، ثلاثة منهم برتغاليون اما الرابع فهو إسباني، وانهم لايزالون نائمين، المساكين، ورد أصغر الاثنين سنا قائلا، «إنك ياسيدتي معزولة جدا، ووحدك هنا» لكن هذه الجملة التي تتسم بتضامن مفعم بالانسانية، «لم تكن سوى أحد البدائل المختلفة للعديد من الجمل الأخرى التي تفوه بها من قبل، «يجب أن تتزوجي مرة أخرى»، «انت تحتاجين إلى أن يعتني رجل ببيتك»، «لن تجدي، انا أقول ذلك بتواضع، رجلا اقدر مني بالنسبة للعمل كما للباقي»، «انت تعرفين انني معجب بك جدا»، «ذات يوم سأقتحم بابك، وسيكون ذلك لكي أبقى»، «انك تجعليني أفقد عقلي، ربما تعتقدين ان الرجال من خشب»، وذات مرة قالت له ماريا جافيرا، «انا لا أعرف شيئا عن ذلك، لكنني استطيع معرفته، لانك اذا اقتربت مني سأقذف بجمرة في وجهك»، ولم تكن أمام الشاب سبيل سوى العودة الى الجملة الأولى التي عدلها قليلا، «انك تحتاجين لمن يهتم بك»، لكنه حتى بهذه الطريقة لم ينجح في الوصول الى غايته.

وبدأ العاملان عملهما في الحقول، وعادت ماريا جافيرا الى حجرتها. كان جواكيم ساسا نائما، فتحت الصندوق بهدوء، لكي لا توقظه وبدأت في اختيار ملابس ترجع الى فترة ما قبل الحداد، ملابس لونها وردي وأخضر، وأزرق وأبيض وأحمر وبرتقالي وليلكي، والعديد من الألوان النسائية الأخرى، ولا يعني ذلك انها تملك خزانة ملابس مسرحية ولا انها مزارعة ثرية، لكن الكل يعرف أن زوجا من الملابس النسائية يكفي لخلق جو العيد، وأنه يمكن تكوين قوس قزح بقميصين وجونلتين، ان رائحة النفتالين والتخزين تفوح من الملابس، ستقوم ماريا جافيرا بنشرها لكي تتبخر في الشمس روائح الكيمياء والوقت الميت، وبينما تستعد للنزول، وذراعاها محملتان بالألوان، التقت بجوانا كاردا التي تركت هي أيضا

رجلها فى دفء أغطية السرير، وفهمت جوانا على الفور مايدور، وارادت مساعدتها، وتضحك المرأتان وهما تنشران الغسيل، ويرفع الهواء شعرهما، وتخفق ملابسهما وتصفق مثل الرايات، وتستبد الرغبة في الهتاف، «تحيا الحرية».

ثم عادت بعد ذلك إلى المطبخ، حيث تفوح رائحة القهوة الطازجة، لتحضير الإفطار، يوجد لبن، وخبز طيب المذاق بالرغم من أنه ليس طازجا، وجبن جاف ومربى، لقد أيقظت كل هذه الروائح متجمعة الرجال فى نهاية الأمر، وكان خوسيه انايسوا أول من ظهر، ثم جواكيم ساسا، اما الثالث فلم يكن رجلا وانما كلب، ظهر على العتبة وألقى نظرة ثم عاد على أعقابه، وقالت ماريا جافيرا، التى لديها من الناحية النظرية حقوق ملكية اكبر عليه وان كانت قد تخلت عنها، «لقد ذهب ليأتى بسيده»، وأخيرا ظهر بيدرواورس، وحيا الجميع وجلس صامتا، وكان نوع من الضيق يبدو فى نظرته عندما يلاحظ حركات الود، وإن كانت شديدة الاحتشام، التى يتم تبادلها بشكل ثنائى أو الجميع معا، الأربعة الآخرون، ان عالم المتعة له شمسه الخاصة به، وهي مختلفة تماما.

إن الغيظ لايناسب قط بيدرواورس الذى يعرف انه عجوز، لكن من واجبنا أن نفهم انه لايريد الاستسلام لذلك بعد. حاول خوسيه انايسو ان يشركه فى الحديث بأن سأله اذا كانت نزهته الليلية ممتعة، وهل كان الكلب رفيقا طيبا عندئذ هدأ خاطر بيدرواورس وشكر في داخله هذه اليد الممدوة التى وصلت فى اللحظة المناسبة تماما، قبل أن تضاف المرارة الى الاحساس بالإهمال، وقال، «لقد ذهبت حتى البحر»، وكانت الدهشة كبيرة، وكانت دهشة ماريا جافيرا أكبر فهى تعرف تماما أين يقع البحر وكم يصعب الوصول اليه. وأوضح بيدرواورس، «ماكنت

لأنجح فى ذلك لو لم اتبع الكلب». ثم تذكر فجأة المركب الحجرى، واربكته هذه الذكرى لعدة ثوان، كان عاجزا عن معرفة هل كان كل ذلك حلما أو أنه حدث بشكل حقيقى وملموس، «إن كنت لم أحلم، ولم يكن كل ذلك صورة من اختراعى، فإنه إذن موجود، وهو هناك فى هذه اللحظة المحددة، انا جالس هنا احتسى القهوة، والمركب هناك»، ان قدرات الخيال قوية لدرجة انه يستطيع الآن، فى وضح النهار، وتحت الشمس والسماء الزرقاء، ان يتمثل ذهنيا الصخرة السوداء تحت المركب المتحجر، بالرغم من انه لم ير المركب الا فى الضوء الخافت لبعض النجوم النادرة، وقال، «لقد عثرت على مركب»، وبدون أن يفكر فى احتمال أن يكون على خطأ، عرض نظريته بإسهاب، وشرح العملية الكيميائية، وان كان لم يخل هذا الشرح من عدم دقة فى المصطلحات، غير ان الحديث بدأ يرتج عليه تدريجيا، لقد اربكه تعبير ماريا جافيرا المستهجن لما يقول، وبالتالى انهى كلامه بافتراض يسمح له بالتراجع، «اننى اقر تماما، بالطبع، بأن كل ذلك يمكن أن يكون نتاجا عجيبا لعوامل التعرية والنحر».

اعلنت جوانا كاردا انها تريد أن ترى هذا المركب، وقلدها كل من خوسيه انايسو وجواكيم ساسا، ماريا جافيرا فقط لم تقل شيئا، وكانت تتبادل النظرات مع بيدرواورس. ورويدا رويدا صمت الآخرون، مدركين ان الكلمة الأخيرة لم تقل بعد، وإذا كانت توجد حقا كلمة أخيرة لكل الأمور، فإن ذلك يثير قضية حساسة ألا وهى معرفة كيف ستكون الأمور بعد أن تقال فيها الكلمة الأخيرة. أخذت ماريا جافيرا يد جواكيم ساسا وكأنها تؤدى قسما، واعلنت، «انه مركب من الحجر»، «ذلك ما قلته، لقد تحول مع الوقت الى حجر، ربما نتيجة عملية تمعدن، ومن الممكن أيضا أن يكون ذلك من عمل الصدفة وقد صاغت الرياح والعوامل المناخية الأخرى

شكله الحالى، المطر مثلا، أو حتى البحر، فهناك بالطبع فترة كان فيها مستوى البحر أعلى منه حاليا»، «انه مركب حجرى وكان دائما من الحجر، انه مركب جاء من مسافات بعيدة جدا وظل هناك بعد أن غادره كل ركابه»، وسأل خوسيه انايسو، «ركاب؟»، «او راكب واحد، لست متأكدة»، وتساءل بيدرواورس الذى كان يتشكك في الأمر، «وما الذى يمكن التيقن منه، وما هو اليقين الذى نمتلكه؟»، «كان القدماء يحكون ان آخرين أقدم منهم قالوا لهم، ان اسلافهم اخبروهم، «ان مراكب حجرية رست هنا، جاءت من صحارى تقع فى الجانب الآخر من العالم وان قديسين نزلوا منها، وصل بعضهم أحياء والبعض الآخر موتى، كما كانت حالة سان جاك»، وسألها بيدرواورس، «اتصدقين ماتقولينه؟»، «ان القضية ليست هل أصدق أم لا، ان كل ما نقوله يضاف إلى ما هو موجود، الى ماهو كائن، فى البداية يقال صوان ثم يقال مركب، وعندما يتم الوصول الى نهاية ما ينبغى أن يقال، وحتى إذا لم نصدق ما نقول، يتعين ان نصدق اننا قلناه، ويكون ذلك كافيا فى أغلب الأحيان، إن الماء والدقيق والخميرة تصنع خبزا.

لقد وقع جواكيم ساسا إذن على راعية علامة، آلهة حكمة جبال جاليزى، إن الناس عامة لاينتبهون الى هذه الأمور، لكن الحقيقة ان الناس يعرفون دائما أكثر بكثير مما يعتقد الآخرون انهم يعرفوه. بل إن أغلب الناس لا يتصورون انهم يعرفون كل هذا الكم من الأشياء، والأمر المؤسف انهم فى الغالب يريدون أن يظهروا بما ليس فيهم، ويفقدون بذلك المعرفة واللطافة فى آن واحد. الأفضل أن نفعل مثل ماريا جافيرا التى تكتفى بأن تقول، «لقد قرأت بضعة كتب فى حياتى»، وانه لأمر خارق أن تكون جنت منها كل هذه الفائدة الكبيرة، هذه المرأة ليست مدعية بما يكفى لتقول ذلك عن نفسها، إنه الراوى، العاشق للعدل، الذى لم يقدر

على مقاومة قول هذا التعليق. وفى اللحظة التى كانت جوانا ستسأل فيها متى يمكنهم الذهاب لرؤية المركب الحجرى، قامت ماريا جافيرا، لكى لا ينتقل النقاش، بدون شك، على أرض قد تفلت من مجال اختصاصها وخبرتها، كنا نقول اذن إنها فى هذه اللحظة بالذات قامت بتشغيل المذياع الموجود فى المطبخ، كان من المؤكد ان لدى العالم أنباء لهم، فالأمر كذلك كل صباح، وكانت هذه الأنباء مرعبة، وان كانت قد فاتتهم الكلمات الأولى منها، إلا أنهم تمكنوا بعد ذلك من اعادة تكوينها، «تغيرت منذ مساء الأمس سرعة انتقال شبه الجزيرة بشكل غير مفهوم، ويرتفع آخر تقدير لها الى ألفى متر فى الساعة، اى حوالى خمسين كيلو مترا، فى اليوم، وهو مايساوى ثلاثة أضعاف ماتم رصده منذ بداية الانجراف».

فى هذه اللحظة يسود الصمت فى شبه الجزيرة كلها بدون شك، ففى البيوت والساحات يستمع الجميع الى الأنباء، وان كان البعض لن يعرفوا هذه الأنباء الا بعد ذلك بقليل، وهى بالذات حالة الرجلين اللذين يعملان لدى ماريا جافيرا، فهما هناك فى الحقول، ولنراهن ان اصغر الاثنين سيترك المجاملات والغزل جانبا لكى يفكر فقط فى حياته الخاصة وأمنه. لكن هناك ما هو اسوأ، وبدأ المذيع يقرأ نبأ ورد من لشبونة، كان يجب ان يعرف ذلك عاجلا أو آجلا، إذ لايمكن الاحتفاظ بالسر لمدة أطول ويقول النبأ مايلى، «تشعر الأوساط الرسمية والعلمية البرتغالية بالقلق البالغ من أن ارخبيل الأزور يقع بالضبط على الطريق الذى تتبعه شبه الجزيرة حاليا، لقد شوهدت أولى دلائل الاهتياج بين السكان، لايمكن الحديث بعد عن حالة رعب لكن يجرى إعداد خطة، خلال الساعات القادمة، لإخلاء المدن والقرى الساحلية، المهددة بشكل مباشر أكثر من غيرها نتيجة للاصطدام، أما فيما يتعلق بنا، نحن الإسبان، نستطيع أن نعتبر أنفسنا فى مأمن من الآثار

المباشرة، نظرا لأن جزر الآزور تقع بين خطى طول سبعة وثلاثين وأربعين، فى حين تقع الجاليزا شمالى خط طول اثنين واربعين، وبالتالى فمن المتوقع أن يتعرض البلد الشقيق، السيىء الحظ حتما، وحده للاصطدام المباشر، إلا فى حالة تغير الاتجاه دون أن ننسى بالطبع الجزر التى ليست أقل فى سوء الحظ، والتى تتعرض نظرا لصغر حجمها لخطر أن تختفى تحت كتلة الحجر الكبيرة، التى تتحرك كما قلنا آنفا، بسرعة كبيرة تصل الى خمسين كيلو مترا فى اليوم، ومن ناحية أخرى، فمن الممكن جدا أن تمثل هذه الجزر نفسها عائقا سماويا قد يعطل هذا التحرك الذى لم يتوقف حتى الآن، اننا نسلم أمرنا الى الله لأن القوى البشرية البسيطة لا تكفى لتفادى الكارثة، اذا كان لابد أن تقع، وإننا نكرر بالنسبة لنا نحن الإسبان، فإننا لحسن الحظ فى مأمن بدرجة أو بأخرى، لكن لاداعى للافراط فى التفاؤل، فهناك دائما خطر العواقب الثانوية، للاصطدام، لذلك فإننا نوصى باتخاذ أكبر قدر من الحذر، وننبهكم الى أنه ليس مسموحا بالبقاء على الساحل الجاليزى، إلا لمن تمنعهم طبيعة واجباتهم والتزاماتهم من الانتقال الى المناطق الداخلية» وصمت المذيع. واعقبته موسيقى وضعت لظروف مختلفة تماما وقال خوسيه انايسو لجواكيم ساسا. «لقد كنت على حق عندما تحدثت عن جزر الأزور»، ان الزهو البشرى قوى جدا لدرجة ان جواكيم ساسا، حتى فى مثل هذه الظروف المأساوية شعر بالابتهاج للاعتراف أخيرا أمام ماريا جافيرا بأنه كان على حق، حتى لو لم يكن له أى فضل فى ذلك، لقد سمع هذا الحديث يقال على عجل فى المعامل التى اقتيد اليها لاستجوابه بصحبة بيدرواورس.

كان خوسيه انايسو يجرى حساباته، ويطلب ورقا وقلما، وكأنه حلم يتكرر، لكنه فى هذه المرة، لم يكن لإعلان متى سيمر جيل طارق أمام أنوار سلسلة جبال جادور، لقد كان ذلك فى زمن الابتهاج، اما الآن فعليه أن يتأكد من عدد الأيام

المتبقية لهم قبل أن تصطدم رأس داروكا بجزيرة ترسيرا، وكان يكفي تخيل اللحظة الرهيبة التى ستنغرز فيها جزيرة ساو ميجل مثل مهماز فى أراضى النتيجو اللينة، لكى يصاب المرء بالقشعريرة، ويقف شعر رأسه، الحقيقة، فى الحقيقة اننى اقول لكم، ان متاعبكم لم تنته بعد. واعلن خوسيه انايسو، بعد أن انتهى من حساباته، «لقد قطعنا حوالى ثلاثمائة كيلو متر، وبما أن المسافة بين لشبونة وجزر الآزور تبلغ حوالى ألف ومائتى كيلو متر، فإن ما يتبقى لنا هو تسعمائة كيلو متر، وبمعدل خمسين كيلو مترا فى اليوم فإن التسعمائة كيلو متر تعطى بشكل تقريبى ثمانية عشر يوما، وهو ما يعنى اننا سنلامس جزر الازور يوم عشرين سبتمبر تقريبا وربما قبل ذلك»، واتسمت حيادية الخلاصة التى انتهى اليها بسخرية مريرة ومغتصبة لدرجة أن أحدا لم يبتسم، وقالت ماريا جافيرا مذكرة، «لكننا هنا فى جاليزا، وبالتالى نحن فى مأمن»، وحذر بيدرواورس، «يجب عدم الاعتماد على ذلك، إذ يكفى أن يحدث تعديل صغير نحو الجنوب لنتلقى الصدمة مباشرة عندئذ، إن أفضل شىء يمكن عمله، وهو الحل الوحيد، كما قال المذيع هو الهروب نحو المناطق الداخلية، وحتى لو فعلنا ذلك لن نكون متأكدين من شىء». «واترك البيت والأرض؟!»، «إذا حدث فعلا ما يقولونه لنا، فلن يكون هناك بيت أو أرض»، لقد كانوا جالسين وبإمكانهم ان يفعلوا ذلك حتى الآن، وسيظل الأمر هكذا لمدة ثمانية عشر يوما، كانت النار مشتعلة فى الموقد، والخبز على المائدة مع أشياء أخرى كثيرة، لبن، قهوة، جبن، لكن الخبز هو الذى كان يجذب أنظار الجميع، نصف قالب خبز بقشرة سميكة، ولب متماسك، لايزال مذاقه فى فمهم، كان ذلك منذ وقت طويل، لكن اللسان يتعرف على الحبة التى بقيت بعد المضغ، عندما يأتى يوم نهاية العالم سننظر إلى آخر نملة بذلك الصمت الأليم الذى يعرفه من يدرك أنه يستأذن للانصراف للأبد.

قال خوسيه انايسو، «ان اجازتى تنتهى اليوم، ولابد أن أكون فى بورتو غدا

لكى تمضى الأمور حسب الأصول»، كانت هذه الكلمات الموضوعية مجرد بداية لتصريح، «لا أعرف اذا كنا سنظل معا، يجب حل هذه المسألة الآن، لكن فيما يخصنى، أنا أريد أن أكون حيث توجد ماريا، إذا قبلت ذلك وتمنته أيضا».

ولأن كل شيء يجب أن يقال في وقته، ولأن كل قطعة يجب أن تكون فى مكانها، انتظروا أن تتكلم ماريا جافيرا أولا، فهى المطلوب ردها بإلحاح، وقالت، «اننى اريد ذلك»، دون مزيد من الكلمات غير الضرورية، وقال خوسيه انايسو، «إذا كانت شبه الجزيرة ستصطدم بجزر الآزور، فإن المدارس لن تفتح أبوابها الآن، وربما لن تفتح قط، سأظل مع جوانا، ومعكم إذا كان ذلك هو اختيارها»، كان الدور الآن على جوانا، التي قالت كلمتين، مثل ماريا جافيرا، ان النساء لسن ثرثارات، «سأبقى معك»، لأنها كانت تنظر إليه هو، وفهم الجميع الباقى، وأخيرا، جاء دور الأخير، لأنه لابد أن يكون هناك أخير، قال بيدرواورس، «سأذهب حيث يقال»، ان هذه الجملة التى تهين النحو والمنطق، بشكل واضح نتيجة افراط لاشك فيه في المنطق وفى النحو أيضا، ستظل كما هى، ربما سينتهى الأمر بأن يعثر لها على معنى خاص يبررها، إن من لديه تجربة الكلمات يعرف أنه يمكن توقع كل شيء منها. إن الكلاب، كما هو معروف، لا تتكلم، ولم يستطع هذا الكلب حتى أن ينبح بشكل مسموح كعلامة على الموافقة الفرحة.

وذهبوا فى نفس اليوم الى الشاطيء ليروا المركب الحجرى، كانت ماريا جافيرا ترتدى ملابسها الملونة، ولم تكلف نفسها عناء كيها، لقد تولى الهواء والضياء مهمة محو كسرات اقامتها الطويلة فى الصندوق العميق. تقدم بيدرواورس المجموعة، الدليل المحنك الذى يثق فى غريزة وحواس الكلب اكثر من ثقته فى عينيه، حيث يبدو لهما كل شيء جديدا فى وضح النهار. اما بالنسبة

لماريا جافيرا، فلا جدوى من الاعتماد عليها حاليا، ان طريقها مختلف، فكل شيء يصلح مبررا للإمساك بيد جواكيم ساسا ولأن تترك نفسها ليجذبها اليه، ويلتصق جسدها بالجسد الآخر للوقت الذى تستغرقه القبلة والتى يعرف الجميع ان مدتها تختلف، لهذا السبب يتباطآن خلف الحملة الاستكشافية التى يتبعانها أكثر من كونهما يرافقانها، ان خوسيه انايسو وجوانا كاردا أكثر احتشاما، لقد مر عليهما اسبوع وهما معا، واشبعا جوعهما الأول، ورويا عطشهما الأول، لنقل إن الرغبة لا تأتى إلا اذا التمساها وللحق فإنهما لايحرمان نفسيهما. هذه الليلة أيضا، عندما لمح بيدرواورس من بعيد ألق النور الكبير، لم يكن جواكيم ساسا وماريا جافيرا وحدهما اللذان. اتحدا هناك،. ولو نام عشرة أزواج فى البيت، لكانوا تبادلوا الحب جميعا فى آن واحد.

تأتى السحب من البحر وتجرى بسرعة كبيرة، تتكون وتنحل بحيوية ونشاط وكأن كل دقيقة لم تعد تدوم سوى ثانية أو جزء من الثانية، ان كل حركات هاتين السيدتين وهؤلاء الرجال، بطيئة ورشيقة فى آن واحد، أو هكذا تبدو، بحيث يمكن تصديق أن العالم قد تغير اذا كان ذكاؤنا يمكنه النفاذ تماما إلى معنى هذا التعبير الفقير والشعبى للغاية، وعندما بلغوا أخيرا قمة الهضبة، كان البحر صاخبا، إن بيدرواورس لا يكاد يتعرف على المكان، كتل الحجر الضخمة التى تتكدس والمنحدر المختفي تقريبا والذى ينزل تدريجيا، كيف استطعت التنزه هنا فى عز الليل، حتى بمساعدة الكلب، انه انجاز باهر يعجز عن تفسيره، ويبحث بعينيه عن المركب الحجرى ولا يراه، لكن ماريا جافيرا تتقدم الآن العمليات، لقد حان الوقت لذلك، إنها تعرف الطريق أفضل من أى شخص آخر. وعندما وصل إلى المكان، فتح بيدرواورس فمه ليقول، «ليس هنا»، لكنه صمت، كان حجر الدفة

بمقبضها المكسور امامه، والصارى الكبير الذى يبدو اكبر حجما تحت ضوء النهار، واخيرا المركب، وعندئذ اكتشف الاختلافات الكبيرة جدا، كأن النحر الذى تحدث عنه هذا الصباح قد فعل خلال ليلة واحدة ما يتطلب انجازه آلاف السنين، أين مقدمة المركب المرتفعة المدببة، إننى لاأراها ، والبطن المجوف، أن الحجر له هيئة مركب ولو بشكل تقريبى، هذا حقيقى، لكن حتى أفضل القديسين ماكان ليحقق معجزة تعويم هذا الزورق المشكوك فى أمره والذى يفتقد الى جدران تضم أطراف السفينة، فالمشكلة ليست فى كون المركب من الحجر وإنما فى أن شكل المركب بات وكأنه تلاشى، ويحدث بيدرواورس نفسه ، لكن الطائر لا يطير فى نهاية الأمر لانه فقط يشبه الطائر ، بينما تقول ماريا جافيرا فجأة ، «هاهو المركب الذى وصل على متنه قديس من الشرق، ويمكن رؤية آثار اقدامه فى المكان الذى نزل فيه قبل أن يختفى فى داخل الأراضى ، وكانت الآثار المعنية تجويفات فى الصخور ، بحيرات صغيرة كان ذهاب وإياب الموج يجددها دون توقف، فالمد عالٍ، ان الشك مسموح به بالطبع، فالامور تتوقف على ما نقبله او نرفضه إذا كان هناك قديس قد جاء من بعيد، مبحرا على بلاطــة، فلا يوجد سبب لاستحالة أن تكون اقدامه النارية قد صهرت الصخر تحتها ، وأن يكون هذا الأثر قد ظل باقيا، لم يكن امام بيدرواورس حل آخر سوى قبول الأمر وتأكيده، غير أنه يحتفظ فى سره بذكرى مركب آخر هو وحده الذى رآه فى ليل رغم أنه كان بلا نجوم إلا أنه كان زاخرا بالرؤى الفائقة .

يقفز البحر على الصخور كأنه يناضل كى لايتقدم هذا المد الذى لا يقاوم من الأحجار والأرض . لم يعودوا ينظرون إلى المركب الاسطورى وإنما إلى الأمواج التى تتركب وتتداخل مع بعضها، وقال خوسيــه أنايسو، «لننطلق، لقد كنا

نعرف ذلك، ولم نشعر به أبد».. وأجابت جواناكاردا ، «إلى أين؟» عندئذ أخذ جواكيم ساسا الكلمة، «نحن خمسة أشخاص وكلب، ولا تتسع السيارة لنا جميعا، إنها مشكلة يتعين علينا حلها، هناك اقتراح، نستطيع خوسيه وأنا أن نرحل للبحث عن سيارة أكبر، إحدى تلك السيارات المتروكة في كل مكان، إن المشكلة هى فى العثور على سيارة فى حالة طيبة ، فكل السيارات التى رأيناها حتى الآن كانت معيبة»، وقال خوسيه انايسو ، «سنقرر مانفعله عندما نصل إلى المنزل مازال لدينا وقت»، وتمتمت ماريا جافيرا، «لكن المنزل والارض»، ورد بيدرواورس، «ليس لدينا خيار ، إما أن نرحل من هنا، أو نموت جميعا، وكانت هذه الكلمات حاسمة .

بعد الغداء ، أخذ جواكم ساسا وخوسيه انايسو السيار وذهبا للبحث عن سيارة أكبر، الافضل أن تكون سيارة جيب، وستكون رائعة لو كانت سيارة عسكرية، أو إحدى حافلات النقل، او شاحنة صغيرة يمكن تحويلها الى بيت متنقل وعنبر نوم، لكن، كما توقع جواكيم ساسا، لم يعثرا على شئ يؤدى الغرض، فالمنطقة على أية حال ليست غنية بمواقف السيارات، وعادا عند هبوط الليل عبر طرق اكتظت تدريجيا بمرور كثيف، لقد شهدت الطرق منذ الغروب وحتى الشروق بداية فرار السكان المقيمين على الساحل، وكانت هناك سيارات وعربيات وحمير مرة أخرى ، قديمة قدم الدهر ومحملة فوق طاقتها ، وعدد قليل من الدراجات ، نظرا للطبيعة الوعرة للأرض ، ودراجات نارية، وحافلات تتسع لخمسين راكبا وكانت تنقل قرى كاملة ، إنها أكبر هجرة فى تاريخ جاليزا، وكان البعض ينظرون بفضول إلى هذين المسافرين الذاهبين فى الاتجاه المضاد للتيار، وفى النهاية استوقفوهما ، ربما لا يعلمان ما حدث، «شكرا جزيلا ، إننا على علم بما حدث،

اننا ذاهبان لاحضار بعض الاشخاص ، ولا يوجد خطر بعد فى الوقت الراهن»، وقال خوسيه انايسو ، «إذا كان الأمر بهذا الشكل هنا ، فكيف سيكون الحال فى البرتغال»، وفجأة بزغت الفكرة المنقذة ، «كم نحن اغبياء، ان الحل بسيط ، لنقم بالرحلة على مرتين أو ثلاث مرات، حسب ما يتطلب الأمر، ولنختر مكانا فى داخل البلاد لكى نقيم فيه، ولن يكون من الصعب العثور على منزل ، فالناس يتركون كل شىء» .

هذا هو النبأ السعيد الذى احضراه ، ولقد تم الاحتفال به كما ينبغى ، وبدأ من اليوم التالى فى انتقاء الأشياء ووضع ما سيحملانه معهما جانبا، وللاسراع فى العمل، عقدت جلسة شارك فيها الجميع بعد العشاء، وسجل بيان بالاحتياجات، واعدت قوائم، يتم إلغاء بعض مفرداتها واضافة اخرى إليها ، وكان على السيارة أن تسير لمسافات طويلة وتتنقل الكثير .

وفى صباح اليوم التالى ، لم يحضر العاملان الزراعيان ، ورفض محرك السيارة أن يدور . وقد يبدو أن القصد من صياغة الخبرين بهذه الطريقة هو الإيحاء بوجود علاقة أكيدة بين الحدثين، مثلا، أن يكون العاملان الزراعيان الغائبان قد سرقا قطعة اساسية من السيارة لاحتياج ماس او بنية سيئة. ان الأمر ليس على هذا النحو . لقد جرفت الهجرة الجماعية الكهول والشباب وسرعان ما أفرغت كل الشريط الساحلى على مدى أكثر من خمسين كيلو مترا من سكانه ، لكن فى غضون ثلاثة أيام من الآن، عندما يكون سكان المنزل قد رحلوا، سيعود أصغر العاملين سنا، ذلك الذى كان يتودد إلى ماريا جافيرا وإلى ارضها، ولن نعلم ابداً إن كان قد عاد لتجسيد حلمه بان يكون مالكا لأرض ومنزل، حتى لو كان ذلك لبضعة أيام، قبل أن يموت فى كارثة جيولوجية ستجرف معها الأرض

وحلمه، أم انه قرر أن يحرس الأرض والمنزل، مقاوما الوحدة والخوف، مجازفا بكل شيء لكي يكسب كل شيء، يد ماريا جافيرا وأموالها، إذا لم يتحقق ذلك التهديد المرعب، من يدري. ويوم ان تعود ماريا جافيرا، إذا عادت، ستجد رجلاً يحرث الأرض أو ينام، منهكا، في سحابة من الصوف الأزرق.

لقد كافح جواكيم ساسا، طوال اليوم، ضد الميكانيكا المعاندة، وساعده في ذلك خوسيه انايسو الذي كان يفعل كل ما في مقدوره،لم يكن ما يعرفانه مجتمعين كافيا لحل المشكلة. لم تكن تنقص السيارة قطعة غيار ولا طاقة، لكن كان هناك شيء ما في اعماق المحرك الدفينة قد استهلك وكسر، أوتلف ببطء، يحدث ذلك مع البشر، وبالتالي يمكن أن يحدث مع الآلات، ففي يوم ما وبدون سابق إنذار، يقول الجسد،"لا"، أو قد يحدث ذلك للروح أو النفس أو الارادة، ولا يستطيع شيء أن يجعلها تغير رأيها، لقد وصلت السيارة هي أيضا إلى هذه النقطة، لقد قادت جواكيم ساسا وخوسيه انايسو حتى هنا، لم تتركهما في وسط الطريق، كان يمكن على الأقل أن يشكرانها بدلا من القيام بدور الساخطين، فالكلمات لا تجل شيئاً، والركلات لن تجعلها تتقدم، فالسيارة قد ماتت. وعندما انتابهما اليأس دخلا إلى المنزل، يغطيهما الزيت والشحم، وقد اتلف يديهما الكفاح بدون ادوات تقريبا ضد البراغي والحلزونات والتروس، وبينما كانا يغتسلان وتعاونهما بحنان امرأة كل منهما، كان الجو يشير إلى كارثة، وتساءل جواكيم ساسا، « كيف سنخرج الآن من هنا؟»، فهو كمالك للسيارة كان يشعر بأنه مذنب وليس مسئولا فقط، فمن وجهة نظره كان ذلك جحودا من القدر، واهانة شخصية، ان كونهم حمقى لا يعني أن حساسيات الكرامة تحكنا بدرجة اقل.

وعندئذ تمت دعوة مجلس العائلة للانعقاد، وكانت الجلسة تعد بأن تكون

مضطربة، لكن ماريا جافيرا اخذت الكلمة على الفور لتقدم اقتراحا، « لدى عربة نقل قديمة، ربما يمكن استخدامها، وحصان لايزال يستطيع جرنا، وإن لم يعد شابا، وذلك إذا احسنت معاملته» . وساد لثوان جو من الحيرة والتردد، وهو رد فعل طبيعي تماما بالنسبة لأناس اعتادوا على التحرك بالسيارة ثم يجدون انفسهم فجأة بحكم الظروف مضطرين للعودة إلى العادات القديمة. وسأل بيدرو اورس، «هل عربة النقل مغطاة؟»، إنه عملي وينتمي إلى جيل أقدم، «القماش الكتانى ليس فى افضل حالاته بالطبع لكن يمكن رتقه، لدى قماش كتانى سميك للأعمال الأولية»، «إذا حكمت الضرورة ، يمكننا استخدام غطاء السيارة، اننا لم نعد فى حاجة اليها، وسيكون ذلك بمثابة آخر معروف يقدم لها». ونهضوا واقفين، سعداء، تبدو لهم المغامرة غير قابلة للتصديق، يجوبون العالم الواسع بعربة نقل ، إنها مجرد طريقة للتعبير فى نهاية الأمر ، «لنذهب لرؤية الحصان والعربة»، واضطرت ماريا جافيرا ان تشرح لهم ان عربة النقل مختلفة تماما عن العربة الفاخرة التى تجرها اربعة خيول، فهى تتكون من أربع عجلات ومقود، ويوجد تحت الغطاء ، الذى سيقيهم تقلبات الجو ، حيز يكفى عائلة كاملة ويفترض انه بقليل من النظام وحسن ادارة الامكانيات، لن يكون مختلفا عن المنزل. ان الحصان عجوز ، ينظر اليهم وهم يدخلون الاسطبل ويدير نحوهم عينيه الكبيرتين السوداوين مفزوعا من الضوء والضوضاء . كان الحكيم يقول ، «طالما أن ساعة النهاية لم تدق بعد، فلا تيأس ، فكل شيء ممكن الحدوث»، وكان الحكيم على حق .

نظرا للوجود بعيدا عن الأحداث لم نعرف سوى القليل عن المغامرات والمشاكل الأخرى الناجمة عن الأزمة التى تهز الحكومات، تلك الأزمة التى ظلت كامنة منذ بداية انجراف شبه الجزيرة ، ثم تفاقمت مع الغزو الشهير للفنادق الذى قامت به تلك الجماهير الجاهلة التى داست القانون والنظام بالأقدام ، لدرجة انه لم يعد بإمكان أحد توقع كيفية حل الموقف فى المستقبل القريب ، ولا كيف يمكن إعادة الممتلكات لأصحابها ، طبقا للمصالح العليا للأخلاق والعدالة. وذلك اساسا لأنه من غير المعلوم إذا كان هناك مستقبل قريب. ان نبأ التقدم السريع لشبه الجزيرة نحو جزر الآزور، بسرعة كيلو مترين فى الساعة ، قد سمح للحكومة البرتغالية ان تقدم استقالتها ، متعللة بالخطورة الواضحة للوضع والهلاك الجماعى المحدق وهو مايدفعنا إلى التفكير فى أن الحكومات لا تكون فعالة وقادرة إلا فى اللحظات التى لا يوجد مبرر هام لمطالبتها باقصى الفاعلية والكفاءة . وأكد رئيس الوزراء فى بيانه الى البلاد ان كون حكومته ترتكز على حزب واحد انما يمثل عقبة امام الاجماع القومى العريض، الذى يعتقد ان لا غنى عنه لاعادة البلاد الى حالتها السوية، فى ظل ظروف القلق الرهيبة التى تمر بها البلاد . لذلك اقترح على رئيس الجمهورية تشكيل حكومة انقاذ وطنى يمكن ان تشارك فيها كل القوى السياسية، ذات التمثيل البرلمانى أو تلك التى لا تتمتع بذلك ، انطلاقا من المبدأ القائل بأنه من الممكن دائما العثور على منصب وكيل وزارة مساعد لأى مساعد وزير من أجل تمثيل احزاب ماكان يسمح لها ، فى الوقت العادى ولا حتى بفتح الأبواب. ولم ينس ان يحدد وأن يفهم الآخرين انه شخصيا ووزراءه يضعون انفسهم فى خدمة البلاد، وانهم سيتعاونون على الفور ، فى الوظائف التى حددت لهم مؤخرا. من أجل سلامة الوطن وسعادة الشعب .

وقبل رئيس الجمهورية طلب الاستقالة ، وحسب مايقضى الدستور وضوابط

العمل الديمقراطي للمؤسسات ، دعا رئيس الوزراء المستقيل ، القائد الأعلى للحزب الذى حصل على أعلى الاصوات وحكم حتى تلك اللحظة بدون تحالفات ، دعاه إذن إلى تشكيل حكومة الانقاذ الوطنى ا لمقترحة . إن حكومات الانقاذ الوطنى ممتازة ايضا، ومن المفيد الا يكون ذلك محل شك من جانب أحد، بل يمكن القول إنها أفضل الحكومات ، لكن المؤسف أن الأوطان لا تحتاج اليها إلا على فترات متباعدة ، وهو السبب فى أننا لا نحصل عامة على حكومات تحسن الحكم بشكل قومي. لقد عقد عدد لا نهائى من جلسات النقاش التى ضمت برلمانيين وعلماء فى مجال السياسة ومتخصصين آخرين حول هذا الموضوع الحساس، ولم تزد كل هذه السنوات الشيء الكثير للمعنى الواضح لهذه الكلمات ، ألا وهو ان حكومة الانقاذ الوطنى، ابتداء من لحظة كونها قومية وللانقاذ ، فإنها تكون للانقاذ الوطنى . هذا ماكان سيقوله بيرو جرولهو وسيكون عندئذ على حق. إن أكثر ما يثير الاهتمام فى كل ذلك، هو أنه بمجرد الاعلان عن تشكيل الحكومة الشهيرة، شعر السكان على الفور بانهم خارج نطاق الخطر او فى الطريق الى ذلك، حتى وإن كان من المستحيل تفادى بعض مظاهر التشكك الفطرى منذ نشر قائمة الوزراء وصورهم فى الصحافة والتليفزيون. انها نفس الرؤوس ماذا كنا نأمل فى النهاية طالما نرفض تقديم رؤوسا .

لقد جرى الحديث عن الاخطار التى قد تتعرض لها البرتغال اذا ما تصادمت مع جزر الآزور وذكرت الآثار الجانبية او المباشرة التى تهدد الجاليزا ، لكن موقف سكان الجزر اخطر بكثير بالطبع. ففى نهاية الأمر، ما هى الجزيرة. ان الجزيرة، والأمر فى هذه الحالة بالذات يتعلق بارخبيل كامل ، هى بروز السلاسل الواقعة تحت سطح البحر، أى أنها فى أغلب الأوقات عبارة عن قمم مدببة من الإبر

الصخرية التى تقف متماسكة بمعجزة على قاع من آلاف الامتار من المياه ، باختصار، ان الجزيرة هي اكثر المخاطرات جوازا . والآن ها هو شيء مايظهر ، وهو جزيرة ايضا ، لكنها كبيرة وسريعة حتى اننا نوشك ان نشاهد، وعسى أن يكون ذلك من بعيد ، قطع رأس جزيرة ساوميجل وجزيرة ترسيرا، وساو جورج وفيال على التوالى والعديد من جزر الآزور الأخرى ، مع ما يصاحب ذلك من فقد الكثير من الأرواح البشرية إذا لم تجد حكومة الانقاذ الوطنى، التى يجب ان تبدأ عملها منذ الغد حلا سريعا لنقل مئات الآلاف ، بل ملايين الافراد إلى مناطق اكثر أمنا شريطة وجود مثل هذه المناطق . لقد وجه رئيس الجمهورية حتى قبل تسلم الحكومة الجديدة مهام عملها نداء للتضامن الدولي ، هذا التضامن الذى سمح بتفادى الجوع فى افريقيا وهو مايتذكره الجميع ولا يمثل ذلك سوى مثال واحد من بين العديد من الامثلة. ويلاحظ فى الدول الاوروبية ، أن اللهجة اصبحت اكثر ودا نسبيا ، لحسن الحظ فيما يتعلق بالبرتغال واسبانيا بعد أزمة الهوية الخطيرة التى مرت بها هذه الدول عندما قرر آلاف الاوروبيين أن يعلنوا انهم ايبيريون لقد استقبلت تلك الدول هذا النداء بتعاطف واستعلمت عن الطريقة التى يود الايبيريون ان تتم مساعدتهم بها ، علما بأن الامر كله مرتبط، كما هو معتاد بمعرفة هل يمكن إشباع احتياجاتنا بما هو متاح من الفائض لديهم. أما الولايات المتحدة لامريكا الشمالية ، التى من المفروض دائما ذكر اسمها بالكامل هكذا، فلقد اوضحت ان صيغة حكومة الانقاذ الوطنى لا تعجبها إطلاقا، لكنها نظرا للظروف ، اعلنت عن استعدادها لاجلاء كل سكان جزيرة الآزور، حوالى مائتين وخمسين ألف نسمة فقط، وهو مالا يلغى بالطبع مشكلة معرفة المكان المناسب لإقامتهم بعد الاجلاء علما بأن قوانين الهجرة تمنع دخولهم الولايات المتحدة التى انقذتهم ، ومن

جهة أخرى، لو اردتم ان تعرفوا ، فإن الحلم السرى لوزارة الخارجية الأمريكية والبنتاجون هو أن توقف جزر الآزور شبه الجزيرة وسط المحيط الاطلنطى انه الحل الامثل لمصلحة السلام فى العالم والحضارة الغربية وايضا لمصلحة المواقع الاستراتيجية بالطبع، حتى لو ادى ذلك لبعض الخسائر بالضرورة .

أما الشعب ، فلن يقال له سوى أن اساطيل امريكا الشمالية قد تلقت الامر بالتوجه نحو منطقة جزر الآزور حيث سيتجمع الاف الآزوريين، وسيتم انقاذ الباقين بواسطة الجسر الجوى الذى يجرى تنظيمه حاليا. اما البرتغال وإسبانيا فعليهما ان يحلا مشاكلهما المحلية ، وان كانت مشكلات الإسبان اقل منا، لان التاريخ والقدر تعاملا مع البلدين دائما بمحاباة شديدة الوضوح .

وإذا تركنا حالة الجاليزا جانبا، لانها حالة أو منطقة بعيدة تماما عن المركز او بتعبير أدق هى منطقة زائدية ، فإن اسبانيا فى مأمن من عواقب التصادم المدمرة، لأن البرتغال ستقوم اجمالا بدور المصد او واقى الصدمات بالنسبة لها. هناك بالطبع مشكلات معقدة يتعين حلها فى مجال النقل والايواء وتوفير الامدادات ، كما فى المدن الكبيرة مثل فيجو وبونت فدرا وساد جاك دى كمبو ستل ولاكوروني، لكن فيما يتعلق بالباقى فإن سكان القرى معتادون تماما على عدم ثبات ظروف حياتهم، لدرجة انهم توجهوا نحو الداخل، دون انتظار لأوامر او نصائح او آراء مسالمين ومستسلمين ، واستخدموا فى ذلك الوسائل التى سبق ذكرها ووسائل اخرى أيضا بدءا بأكثر الوسائل بدائية على الاطلاق ، ألا وهى الأقدام .

لكن وضع البرتغال مختلف جذريا. ان الساحل كله، فيما عدا الجزء الجنوبى من الجرف معرض لرجم جزر الآزور، ويرجع استخدام تعبير الرجم هنا إلى انه لايوجد، على مستوى النتائج، اى فرق فى نهاية الامر بين ان يضربنا حجر أو أن

نضرب نحن الحجر، الامر كله يرتبط بالسرعة والقصور الذاتي، دون ان ننسى ان الرأس المجروح والمشجوج يستطيع في الحالتين تحويل كل هذا الحصى الى فتات. بالتالي، ومع ساحل مماثل، يتكون بالكامل تقريبا من أراض منخفضة ومدن جالسة على حافة الماء، ومع الأخذ في الاعتبار غفلة البرتغاليين بالنسبة لكل ما يتعلق بالكوارث العامة، مثل زلزال او فيضان أو حريق غابات او جفاف مستمر ، بل وحتى التافه من هذه الكوارث، فإنه من حقنا ان نشك في قدرة حكومة الانقاذ الوطني على انجاز واجبها . قد يكون الحل هو نشر الفزع بشكل فعلي حتى يترك الناس منازلهم على عجل ويلجأوا الى أكثر الحقول بعدا عن الساحل. لكنها ستكون كارثة حقيقية اذا عانوا من نقص في الغذاء اثناء السفر او عند استقرارهم ، فعندئذ يستحيل تصور الى أين يمكن ان تقودهم الثورة والاحتجاج، كل ذلك يهمنا بالطبع، لكن لنعترف، اننا كنا سنهتم بذلك أكثر، لو أن القدر لم يرد لنا أن نوجد في جاليزا، نراقب استعدادات ماريا جافيرا وجواكيم ساسا، وجوانا كاردا وخوسيه انايسو، وبيدرو اورس والكلب، إن الأهمية النسبية للاحداث متغيرة، فهي تتوقف على وجهة النظر، ومزاج اللحظة، والتعاطف الشخصي، إن موضوعية الراوي ليست سوى ابتكار حديث.

مر يومان ، والحصان، الذي كانت جرايته قد خفضت إلى حصة لا تقيم الأود، أصبح يعلف بالشوفان والفول كما يريد، بل وصل الأمر بجواكيم ساسا أن اقترح تقديم حساء النبيذ للحصان، والعربة، بعد ترميم ثقوب غطائها بفضل الغطاء الذي نزع من السيارة، اصبحت توفر راحة داخلية ستسمح على الأقل بالوقاية.من المطر، الذي سيعاود الهطول بشكل متكرر أكثر من ذي قبل، بعد أن حل شهر سبتمبر، فضلا عن أن هذه الأراضي رطبة المناخ جداً. وفي غضون هذه الحركة

المستمرة، وطبقا لآخر الحسابات الخبيرة لخوسيه انايسو، فان شبه الجزيرة قطعت حوالى مائة وخمسين كيلو مترا، ويتبقى اذن سبعمائة وخمسون كيلو مترا، أى أكثر أو أقل قليلا من خمسة عشر يوما، لمن يفضلون القياسات التجريبية، قبل مشاهدة الاصطدام الأول، «يا يسوع يا مريم يا يوسف»، مساكين سكان النتجانوس، لحسن الحظ انهم معتادون على ذلك، وأن جلدهم صلب مثل الجاليزيين، وهو ما يعفينا من تفسيرات اكثر اسهابا. أما هنا، فى هذه الأراضى الشمالية، فى هذا الوادى الفردوسى، وادى جاليزا، فان الوقت متاح بما يكفى لوضع الصحبة فى مأمن. لقد تم تزويد العربة بالمراتب والملايات والأغطية، ووضع كل منهم امتعته داخلها، وتتسع العربة ايضا لأدوات المطبخ، ومواد غذائية للأيام الأولى، واغذية ريفية ومتنوعات أعدت فى المنزل، فاصوليا بيضاء وحمراء، وارز وبطاطس، وبرميل ماء، وبرميل نبيذ، ودجاجتين للطهى وقد نتف ريش رقبة احداهما وهى منقطة ابيض واسود، وسمك المورة وصفيحة زيت وقارورة خل، وملح الذى لايمكن للمرء الاستغناء عنه إلا إذا افلت من التعميد وفلفل اسود وبهار مسحوق وكل الخبز المتبقى فى المنزل، وكيس به دقيق، وتبن وشوفان وفول للحصان، أما الكلب فلا داعى للاهتمام به، فهو يتدبر امره وحده وإن قبل شيئا كان ذلك فقط لإرضاء الآخرين. وقامت ماريا جافيرا بعمل اساور للجميع من خيط الصوف الازرق، وعقد للكلب وآخر للحصان، دون أن تبدى سببا لذلك، ولو سئلت، لما عرفت على أية حال، ان تفسر تصرفها، ان جبل الصوف مرتفع جدا بحيث لا يلحظ اى فارق. ومهما يكن من أمره، فانها اذا رغبت فى حمل الصوف الازرق معها، وهو مالم يكن متوقعا لما استطاعت ان تحمله فى العربة ثم اين كان سيرقد العامل الزراعى الشاب الذى لابد أن يأتى ليقيم هنا.

لقد ناموا فى وقت متأخر فى آخر ليلة امضوها فى المنزل، وظلوا يتنافشون

لعدة ساعات وكأنه يتعين عليهم ان يقولوا وداعا فى اليوم التالى وان يرحل كل واحد منهم فى اتجاه مختلف. لكن جلوسهم هكذا معا كان ايضا وسيلة للتشجيع المتبادل فمن المعروف ان الاعضاء تبدأ فى التحطم، لحظة انفصالها عن الحزمة، لقد تحطم كل مالابد له ان يتحطم وفردوا خريطة شبه الجزيرة على مائدة المطبخ ، وكانت لاتزال شبه الجزيرة مرتبطة بفرنسا وهو مابدا غير لائق، ورسموا خط سير يومهم الافتتاحى الأول وتركز اهتمامهم على اختيار المسارات الأقل وعورة نظرا لضعف قوة الحصان. لكن سيتعين عليهم التحول عن الطريق فى اتجاه الشمال حتى مدينة لاكورونى، حيث توجد والدة ماريا جافيرا المجنونة والمحتجزة هناك، فالحب البنوى البسيط يأمرها ، فى الحقيقة، بأن تذهب لإخراجها من مصحة ريلها فول، إذ يمكن تصور الرعب الذى سيسود مصحة للمجانين عندما يرون جزيرة تقتحم ابوابهم وتندفع، ضخمة، عبر المدينة دافعة امامها المراكب التى كانت فى المرساة بينما يتحطم فى لحظة واحدة زجاج جميع النوافذ فى الشارع الساحلى، سيعتقد المجانين ، لو سمح لهم جنونهم بذلك ، أن يوم الحساب قد جاء اخيرا ، وكانت لدى ماريا جافيرا الأمانة الكافية لتقول ، «لا أعرف كيف ستكون حياتنا مع أمى فى العربة، مع أنها ليست عنيفة ، لكن الأمر لن يدوم إلا بضعة ايام، الوقت اللازم فقط للوصول الى مكان آمن، فلتكونوا صبورين». وأجابوا بأنهم سيكونون كذلك ولا يجب أن تقلق ، وأن كل شىء سيسير على مايرام لكننا نعرف جيدا أن أكبر حب لا يستطيع تحمل الاتصال مع جنونه ذاته، فما بالك باحتمال جنون شخص آخر ، وفى هذه الحالة بالتحديد، الأم المجنونة لإحدى المجانين . لكن لحسن الحظ خطرت لخوسيه انايسو فكرة ان يقترح عليهم الاتصال هاتفيا بمجرد أن يكون ذلك ممكنا ، لمعرفة الانباء، فمن المحتمل جدا ان تكون السلطات

الصحية قد نقلت المحتجزين إلى مكان آمن ، أو أنها تقوم بذلك حاليا، ولان هذا الغرق غير عادى ، فيتم اولا انقاذ الذين قد ضاعوا بالفعل .

وفى النهاية انسحب كل من الزوجين الى غرفته لكى يفعلا مايفعل دائما فى مثل هذه المناسبة من يعلم اذا كنا سنعود هنا ذات يوم فلتبق اذن على الأقل اصداء الحب البشرى الشهوانى، ذلك الحب الذى ليس له مثيل بين الأنواع الأخرى لأنه يتكون من تنهدات وتأوهات وهمسات وكلمات مستحيلة، ومن ريق وعرق ، واحتضار ومن التماس للألم، «ليس بعد»، يموت من العطش ويرفض الماء المنقذ ، «الآن، الآن، ياحبى»، هذا ماسوف تسرقه منا الشيخوخة والموت. اما بيدرو اورس ، فهو عجوز ويحمل اولى علامات الموت ألا وهى الوحدة ، فلقد خرج مرة اخرى من المنزل لكى يرى المركب الحجرى ، يرافقه الكلب الذى له كل الاسماء ولا اسم له ، وإذا أعلن أحد أن بيدرواورس ليس وحده طالما أن الكلب هناك ، فإننا نذكره بالأصل البعيد للحيوان، وأن جميع الكلاب جاءت من جهنم وبما أن حياتها طويلة فإنها لا تستطيع مرافقة احد ، إنما البشر هم الذين يرافقون الكلاب، لأن حياة البشر قصيرة، كان المركب الحجرى هناك ، ومقدمته عالية ومشيقة كما كانت فى الليلة الاولى، لم يندهش بيدرواورس من ذلك ، فكل منا يرى العالم بعيونه، والعيون ترى ماتريد، وتخلق تنوع العالم وتصنع العجائب ، حتى وإن كانت هذه العجائب من حجر ومقدمات مرتفعة لمركب، حتى لو لم تكن سوى وهم.

لقد نهض الصباح غائما وممطرا، إن هذه الطريقة فى الحديث ليست صحيحة تماما، بالرغم من شيوعها، لأن الصباح لا ينهض، وانما نحن الذين ننهض ونلاحظ عندما نطل من النافذة، أن السماء غائمة والسحب منخفضة وان مطرا

خـفـيفـا يهطل ويبلل الأغـبـيـاء الذيـن ذهبـوا لكى يقـفـوا تحتـه، ومع ذلك فـان قـوة العادات والتقاليد كبيرة جدا لدرجة اننا إذا سجلنا يوميات هذه الرحلة، فان كاتب دفتر يوميات السفينة كان بدون شك سيكتب صفحته الأولى كما يلى، «لقد نهض الصباح، غائما وممطرا، وكأن السماوات لا توافق على المغامرة»، يشار دائما فى هذا النوع من المناسبات إلى السماوات، سواء كان الجو صحوا أو ممطرا. لقد دفع بالسيارة لكى تحتل مكان عربة النقل تحت الافريز، أو بشكل أكثر دقة، تحت السقف المصنوع من القش، لأن ذلك ليس بالجراج وانما مخزن مفتوح للرياح الأربع. وبدت السيارة، وهى متروكة ومهملة هكذا، بعد أن نزع عنها الغطاء الذى استخدم فى اصلاح غطاء عربة النقل ، بدت كأطلال ، إن ما يحدث لها هو نفس ما يحدث للبشر عندما يصبحون بلا نفع عندئذ ينتهون ، انهم ينتهون بمجرد ان يكفوا عن النفع. ولقد بدت العربة بالرغم من قدمها وكأن خروجها الى الهواء الطلق قد اعاد اليها شبابها، والمطر الذى يهطل كأنه حمام فتوة، ان للحركة والفعل دائما تأثيرا رائعا، انظروا الى الحصان تحت واقى المطر الذى يحمى قطنه، وإنه لأمر طريف تخيله كحصان سباق، مزين ومزركش للمعركة .

ويجب ألا يدهش هذا الوصف المطول احدا، لأنه يبين مدى صعوبة ان ينتزع الناس انفسهم من الاماكن التى كانوا سعداء فيها ، فضلا عن ان هؤلاء لم يستسلموا لأى رعب أو فزع خارج نطاق السيطرة، فإن ماريا جافيرا تقفل الأبواب بعناية، وتطلق سراح الدجاجات المتبقية وتخرج الارانب من قفصها والخنزير من الزريبة الخاصة به ، لقد اعتادت هذه الحيوانات على أن يقدم لهم الطعام جاهزا، وهاهى الآن وقد ردت مرة أخرى الى رحمة الله ، أو لفنون الشيطان لأن الخنزير يستطيع تماما القيام بعملية غزو بين الحيوانات الاخرى وعندما يعود

العامل الزراعى الاصغر سنا، سيتعين عليه كسر احدى النوافذ ليتمكن من الدخول الى المنزل، ولا يوجد احد ، على امتداد عدة فراسخ ، ليشهد على الواقعة، وسيقول، «لقد كنت اعتقد انني افعل خيرا»، وربما يكون ذلك صحيحا .

لقد صعدت ماريا جافيرا الى المقدمة ، وجلس جواكيم ساسا الى جوارها ، والمظلة مفتوحة ، فمن واجبه ان يتبع المرأة التى يحبها ويحميها من رداءة الجو ، لكنه للأسف لا يستطيع القيادة بدلا منها ، لأن ماريا جافيرا هى الوحيدة من الاشخاص الخمسة الحاضرين التى تعرف كيف تقود العربة والحصان. بعد ذلك، عندما تغدو السماء اكثر صفاء، ستعطي دروسا فى القيادة وسجل بيدرواورس نقطة شهامة بأن كان أول من يتلقى التدريب وهو ما يمثل منتهى النبل من جانبه ، لأن كل زوج منهما سيتمكن بذلك من ان يرتاح تحت الغطاء دون ان يفترق الاحبة، وبما أن مقعد الحوذى فسيح جدا فمن الممكن ان يسافر عليه ثلاثة منهم، وهو حل مثالى لحميمية الاثنين المتبقيين اللذين سيكونان معا، وفى حالة صفاء، حتى وإن كانا صامتين . هزت ماريا جافيرا الزمام، واعطى الحصان، المربوط وحده بدون شريك فى مجر العربة، رجة اولى، واحس فى اللحظة نفسها مقاومة الاوتار ثم وزن الشحنة ، وعادت الذاكرة لعظامه العجوزة ولعضلاته ، وتجدد مرة أخرى صوت الارض المسحوقة تحت دوران الحديد، هذا الصوت الذى كاد ينساه ، اذ يتم تعلم كل شيء ونسيانه ثم يعاد تعلمه من جديد تبعا للاحتياجات . لقد تبع الكلب العربة تحت المطر لمسافة مائة متر تقريبا ثم أدرك أن بإمكانه السفر ، سيرا على الأقدام دائما ، لكن وهو فى مأمن . نزل تحت العربة ، وضبط خطوته على خطوة الحصان ، وسيظل الأمر كذلك طوال الرحلة كلها ، سواء كان الجو صحوا أو ممطرا ، إلا عندما تنتابه الرغبة فى أن يلعب دور المرشد وأن يتسلى بروحات

وغدوات لا معنى لها ظاهريا لكنها تجعل البشر والكلاب يتشابهون لدرجة كبيرة .

لم يتقدموا فى ذلك اليوم . كان يجب عدم ارهاق الحصان ، لاسيما وأن الأرض الوعرة كانت تتطلب منه مجهودا كبيرا حيث كان يتعين عليه أن يشد فى المرتفعات وأن يكبح من سرعته في المنحدرات . وكان البصر اينما توجه لا يرى روحا تنبض ، وقالت ماريا جافيرا ، «يبدو أننا آخر من غادر المنطقة» ، وكانت السماء الغائمة ، والضوء الرمادى والمنظر الموحش تشكل تلاشى عالم مهجور ، عالم يستحق بعض الشفقة ، لأنه تعب من كثرة ما عانى وتعذب وعاش ، ومن كثرة ما رأى من موتى ومن تكالب على الحياة . لكن ، في هذه العربة المتجولة ، توجد حالات حب جديد ، والحب الجديد ، كما يعلم المراقبون ، هو أقوى شيء يمكن أن يوجد فى العالم ، ولذلك لا يخشى الحب الحوادث ، لأنه هو ذاته التمثيل الأسمى للحادثة ، سهم مفاجىء ، سقوط باسم ، ثم انقلاب . وبالتالى يجب ألا نمنح الانطباعات الأولى ، وهذا الوداع شبه المأتمى لبلدة خالية تحت مطر كئيب ، مثل هذه الثقة العمياء ، ولولا الرصانة لكان من الأفضل إرهاف السمع للحوار الدائر بين جوانا كاردا وخوسيه انايسو ، وبين ماريا جافيرا وجواكيم ساسا ، كما أن صمت بيدرو أورس أكثر رصانة ، بحيث يمكن أن يقال عنه إنه يبدو وكأنه غير موجود هناك .

لم يكن سكان أول قرية مروا بها قد هجروها كلهم . لقد اعلن بعض المسنين لابنائهم وأسرهم المكروبة ، أنه إذا لم يكن من الموت بد فإنهم يفضلون أن يموتوا بهذه الطريقة عن الموت جوعا أو بمرض خبيث ، لو تم اختيار شخص ما مجلل بالمجد لكى يذهب ليموت مع عالمه الخاص ، فان مثوى الشهداء الأعلى ينتظره، حيث تتضافر كل الكوارث ، حتى وإن كان الأمر لا يتعلق قط بأحد ابطال ڤاجنر .

إن عجز جاليزا وعجز البرتغال يجهلون كل هذه الأمور ، لكنهم اعلنوا ، ولسبب غير قابل للتفسر ، «لن أخرج من هنا ، ارحلوا إذا كنتم خائفين» ، ولا يعنى ذلك اطلاقا أنهم غاية فى الشجاعة ، لكنه يعنى فقط أنهم فى هذه اللحظة بالذات من حياتهم أدركوا أخيرا أن الشجاعة والخوف ليسا سوى كفتى الميزان المتأرجحتين فى حين تظل ذراع الميزان ساكنة مشلولة من الدهشة من الابتكار غير المجدى للانفعالات والمشاعر .

عندما عبرت العربة القرية ، دفع الفضول ، الذى قد يكون آخر صفة يفقدها الإنسان ، العجز للخروج إلى الشارع ، وكانوا يهزون رؤوسهم ببطء كأنهم يقولون وداعا لأنفسهم، عندئذ اعلن خوسيه انايسو أنه سيكون من الحكمة الاستفادة من أحد البيوت المهجورة لقضاء الليل ، هنا أو فى قرية أخرى ، أو فى مكان معزول ، ستكون هناك أسرة بالطبع ، وراحة أكثر من العربة ، لكن ماريا جافيرا اعلنت أنها لن تقيم ابدا فى أحد البيوت دون إذن أصحابها ، وهكذا يوجد أشخاص لهم ضمائر حية ، وآخرون يرون نافذة مغلقة ويحطمونها ، ثم سيقولون بعد ذلك، «كنت أعتقد أننى أفعل خيرا» ، وسواء كان الأمر يتعلق بخيرهم هم أو خير الآخر، فان الشك سيظل قائما دائما بالنسبة لأول وآخر دافع ، ندم خوسيه أنايسوا على فكرته ، التى وإن لم تكن رديئة فانها غير معقولة ، وكنت كلمات ماريا جافيرا كافية لتحديد قاعدة للكرامة ، «عش مكتفيا بنفسك لأطول فترة ممكنة ، وبعد ذلك اركن إلى من يستحق ذلك ، وإذا كان هذا الشخص يستحقك ، فان ذلك سيكون أفضل» .

وتوضح الطريقة التى تسير بها الأمور أن هؤلاء الخمسة يستحقون بعضهم البعض على ما يبدو بشكل متبادل ومتكامل ، ويبقون إذن فى العربة ويأكلون

التورتيلاس * ، ويتكلمون عما تم من الرحلة وما تبقى منها ، وعززت ماريا جافيرا النظرية بدروس سلوكية عملية ، الحصان تحت الشجرة يهرس ويعيد هرس حصته من الشوفان ، ويكتفى الكلب هذه المرة بحصته المنزلية ، وانسحب إلى الركن حيث يشم ويرعب طيور السبد ** . لقد توقف المطر ، ويضيء فانوس العربة من الداخل ، لو مر أحد ، سيقول ، «اوه ، مسرح» ، وإذا كان صحيحا أنهم شخصيات إلا أنهم ليسوا فى حالة عرض مسرحى .

وفى اليوم التالى ، عندما ستتمكن ماريا جافيرا أخيرا من الاتصال هاتفيا بمدينة لاكوروني ، سيقولون لها إنه قد تم نقل والدتها والمرضى الآخرين إلى الداخل ، «وكيف حالها ؟» ، «مجنونة كالسابق» ، لكن هذا الرد ينطبق على كل الناس . سيواصلون الرحلة إلى أن تقابلهم مناطق مأهولة . وسينتظرون حتى ذلك الحين .

★ التورتيلاس: أكله إسبانية.

★★ جنس من الطيور من رتبة الجواثم يصطاد الحشرات ليلا.

لقد باشرت حكومة الانقاذ الوطنى للبرتغاليين عملها على الفور بمجرد أن تشكلت وظهر رئيس الوزراء فى التليفزيون ليلقى جملة لابد حتما أن يحفظها التاريخ ، شىء من قبيل «الدم ، والعرق والدموع» ، أو ، «ادفنوا الموتى وعالجوا الأحياء» ، أو ، «المجد للوطن لأن الوطن يشاهدكم» ، أو ، «إن تضحية الشهداء ستنبت حصاد المستقبل» . لكن فى الحالة التى تعنينا ومع الأخذ فى الاعتبار السمات الخاصة للموقف ، رأى رئيس الوزراء أنه من الأفضل أن يقول ببساطة ، «أيها البرتغاليون والبرتغاليات ، إن النجاة فى الفرار» .

غير أن التوصل إلى تسكين ملايين الأشخاص ، الذين كانوا يعيشون على الشريط الساحلى ، فى المناطق الداخلية أبعد ما يكون عن الساحل ، كانت مهمة شديدة التعقيد لدرجة أنه لم يوجد أحد ليدعى أن لديه خطة قومية للاخلاء قادرة على دمج المبادرات المحلية ، لأن مثل هذا الادعاء سيكون ضربا من الجنون . بالنسبة لمدينة لشبونة وضاحيتها ، مثلا ، انطلق تحليل الموقف والاجراءات التى تنبع منه من افتراض موضوعى وذاتى فى آن واحد ، وكان يمكن تلخيصه بالطريقة التالية ، «إن أغلبية سكان لشبونة ، إن لم تكن الأغلبية الساحقة منهم ، ليسوا من مواليد المدينة ، والذين ولدوا فيها تربطهم بتلك الأغلبية روابط اسرية. إن لهذه الحقيقة نتائج هامة وحاسمة، أولى هذه النتائج ، أنه سيتعين على الفريق الأول والفريق الآخر أن ينتقلا إلى موطنهما الأصلى ، حيث لاتزال لديهم ، كقاعدة عامة ، عائلة هناك ، حتى وإن كانت عوارض الحياة قد جعلتهم لايرون بعضهم ، وستكون هذه المناسبة الاجبارية بداية لانسجام جديد داخل العائلات ، بأن تهدىء الصراعات القديمة ، والاحقاد الناجمة عن الإرث أو عن القسمة غير العادلة ، والنزاعات التى تعقب النميمة ، وسيكون للمصيبة الكبيرة التى تقع فوق كاهلنا

فضل تقريب القلوب على الأقل . والنتيجة الثانية ، التى تنبع طبيعيا من الأولى ، تتصل بمشكلة توفير الغذاء للأشخاص النازحين . لأن الجماعة الأسرية ستلعب هنا أيضا دورا كبيرا ، وبدون أن تضطر الدولة للتدخل ، إن ترجمة هذا الدور إلى أرقام ، يمكن أن تأخذ فى مجال الاقتصاد الكلى شكل تفعيل للقول المأثور الذى يقول ، «ما يكفى لاثنين ، يكفى لثلاثة» ، إن الأسر التى تنتظر طفلا تعرف جيدا هذا الاستسلام الحسابى ، والآن يمكن القول ، وبلهجة تتسم بمزيد من السلطة ، «مايكفى لخمسة ملايين، يكفى عشرة ملايين» ، ويضاف بابتسامة عذبة ، «وما البلد سوى عائلة كبيرة» .

لن يتوافر هذا المورد للمنعزلين ومن لا عائلة لهم ، والكارهين للمجتمع ، لكنهم لن يجدوا أنفسهم مع ذلك منبوذين من المجتمع ، إذ لابد من الثقة فى التضامن العفوى التلقائى ، وفى هذا الحب للآخر الذى يتعذر كبته ويظهر فى كل مناسبة ، وخاصة اثناء السفر فى القطار ، بالذات فى الدرجة الثانية ، عندما تحين ساعة فتح سلة الطعام ، فإن ربة الأسرة لا تنسى أبدا أن تدعو المسافرين الغرباء ، خاصة اولئك الأقرب منها ، إلى مشاركتها وجبتها ، وتسأل ، «اترغبون فى شىء؟»، وإذا قبل أحدهم ذلك لا يسبب أى استياء ، حتى وإن كان المرء يتمنى أن يجيب الجميع فى صوت واحد ، «لا ، شكرا ، بالهناء والشفاء». لكن الصعوبة الحقيقية هى السكن ،لأن تقديم فطيرة سمك صغيرة وكوب نبيذ شىء وتقديم نصف السرير الذى سينام فيه شىء آخر ، ومختلف تماما ، غير أننا لو نجحنا فى أن ندخل فى رؤوس الناس أن هؤلاء المنعزلين والمهجورين هم التجسيد الجديد للسيد المسيح ، كما ظهر عندما كان يجوب العالم متخفيا فى هيئة فقير مسكين ليختبر الخير والطيبة فى البشر ، عندئذ سيتم العثور دائما على مكان لهؤلاء الذين

لا مأوى لهم ، تحت السلم ، أو فى زاوية مخبأة من مخزن غلال ، أو بتعبير أكثر ريفية ، سقف وحزمة قش .

لقد تحدثنا عن لشبونة ، إلا أن الحديث ينطبق أيضا ، مع اختلاف مصطلحى كمي بحت ، على المدن الأخرى مثل بورتو أو كويمبرا ، أو ستبال أو اڤيرو أوفيانا أو فيجيرا ، دون أن ننسى هذا العدد الكبير من القرى والمدن الصغيرة المنتشرة فى كل مكان ، مع أنه من المسموح به فى بعض الحالات طرح سؤال مربك ، ألا وهو معرفة اين يتعين أن يذهب من يعيشون بالذات حيث ولدوا ، وأولئك الذين يعيشون فى قرية ساحلية وولدوا فى قرية اخرى تقع ايضا على الساحل . وعند عرض هذه العقد غير القابلة للحل على مجلس الوزراء ، صرح المتحدث باسم هذا المجلس بالرد التالى ، «تعتمد الحكومة على روح المبادرة الخاصة لحل المواقف التى لا تدخل فى الخطة القومية لإخلاء السكان واعادة تسكينهم» ، وربما يكون الحل مبتكرا ، ومن يدرى قد يكون لصالح كل السكان لاحقا . لذلك سنكتفى فى حالة مدينة بورتو بالاهتمام فقط برؤساء وزملاء جواكيم ساسا ، بعد ما سمحت لنا السلطات العليا أن نترك جانبا تلك المصائر الشخصة . سيكون كافيا أن نقول ، لو كان جواكيم ساسا قد نزل من الجبال الجاليزية على صوت قرع الطبول، مدفوعا بالنظام وضميره المهنى ، وترك الحب والأصدقاء لمصيرهم ، لكان سيجد المكتب مغلقا وعلى الباب لافتة مكتوب عليها رأى الإدارة الأخير ، «يرجى من العاملين العائدين من الاجازة أن يحضروا إلى مقرنا الجديد فى بنافيل ، حيث نأمل فى الاستمرار فى تلقى طلبات عملائنا المحترمين» . أماقارب جوانا ، الذين يسكنون فى ايريرا ، فيوجدون حاليا فى كويمبرا ، فى منزل ابن العم المهجور الذى لم يحسن استقبالهم ، وهو أمر مفهوم ، فهو التعيس فى النهاية ، ولو أنه

كان لديه بصيص من أمل عندما اعتقد أن اقاربه جاءوا لتهيئة عودة الهاربة ، ولكن عندما طالت إقامتهم ، سأل ، « وجوانا ؟» ، واضطرت ابنة عمه أن تعترف وهى نادمة ، «إننا لا نعرف شيئا ، لقد كانت فى المنزل ، لكنها اختفت قبل هذه الفوضى بعض الوقت ، ومنذ ذلك الحين لم تصلنا أية انباء عنها» ، وتجنبت تماما الحديث عما تعرفه من القصة ، لأنه إذا كان القليل الذى تعرفه قد افزعها ، فما الذى يمكن أن تقوله لو عرفت الباقى .

إن العالم معلق إذن فى حالة انتظار وترقب قلق ، ما الذى سيحدث والذى لن يحدث للشواطىء البرتغالية والجاليزية فى الغرب . لكننا نكرر مرة أخرى ، وإن كان يملل ، إن كل شىء ينطوى على شىء طيب ، إنها وجهة نظر الحكومات الأوروبية على أية حال ، التى رأت الحماس الثورى للشباب يقل تدريجيا وينطفىء تماما تقريبا ، بالتوازى مع النتائج الناجعة للقمع الذى سبق ذكره ، ويقول الآن الأهالى العقلاء لأولئك الشباب ، «اترى ، يابنى ، الخطر الذى كنت ستتعرض له لو اصررت على رغبتك بأن تكون ايبيريا» ، يورد الابن الذى اقتنع قائلا : «نعم يا ابتاه» . وبينما تدور مشاهد المصالحة العائلية تلك ، واعادة السلام الاجتماعى ، كانت الأقمار الصناعية ، التى تم ضبطها لكى تحافظ على موضع ثابت نسبيا فى الفضاء ، ترسل نحو الأرض الصور والقياسات ، لا تغيير فى الصور ، فيما يتعلق بالطبع بشكل الجسم المتحرك ، أما القياسات فإنها تسجل فى كل دقيقة تمر تناقصا يقدر بحوالى خمسة وثلاثين مترا فى المسافة بين الجزيرة الكبيرة والجزر الصغيرة . قد يبدو الاهتمام بخمسة وثلاثين مترا فى الدقيقة أمرا مثيرا للسخرية فى العصر الذى نعيش فيه ، عصر معجلات الجسيمات ، لكن لو تذكرنا أن وراء هذه الشواطىء الجميلة الناعمة ، وهذه السواحل الرائعة ، وهذه المصاطب

المنحدرة المطلة على البحر ، تتقدم مساحة تقدر بخمسمائة وثمانين ألف كيلو متر مربع وكمية فلكية لا تحصى من ملايين الأطنان ، وأننا لم نذكر سوى الجبال والسلاسل الجبلية ، ولو حاولنا أن نتصور ما يمكن أن ينتج عن القصور الذاتى لكل هذه النظم الجبلية لشبه الجزيرة المتحركة حاليا ، دون إغفال جبال البرانس التى تحولت إلى نصف حجمها القديم ، عندئذ لن يبقى لنا سوى الإعجاب بشجاعة هذه الشعوب التى اختلطت فيها دماء كثيرة ، والثناء ايضا على حسهم القدرى بالوجود الذى انتهى بأن تركز ، مع التجربة المتراكمة عبر القرون ، فى القاعدة الشهيرة التى تقول ، «بين كل هؤلاء الموتى وكل هؤلاء الجرحى سيوجد دائما من ينجو بحياته» .

إن لشبونة مدينة خالية . ولا تزال بعض دوريات الجيش تجوب الشوارع ، وتساعدها طائرات هليكوبتر مماثلة لتلك التى سبق رؤيتها فى فرنسا وأسبانيا عند حدوث التصدع وأثناء الأيام المضطربة التى أعقبت ذلك . إن مهمة الجنود هى السهر والمراقبة ، طالما أنهم لم يتلقوا الأمر بالانسحاب ، والذى من المتوقع حدوثه فى غضون الأربع عشرة ساعة التى ستسبق التصادم ، مع أن الأمر لا يستحق التعب ، لأن كل ما له قيمة قد تم سحبه من البنوك منذ وقت طويل . لكن لا يمكن لأحد أن يسامح أية حكومة لو هجرت مدينة مثل لشبونة ، جميلة ومتناسقة ، سواء بحجمها أو بالسعادة التى تسببها ، وهو ما سيتم الإقرار به، بالطبع، بمجرد أن تكون قد دمرت لذلك فإن الجنود هنا ممثلون رمزيون ، للشعب الغائب ، وحرس شرف ، وإذا توافر لهم الوقت ، فإنهم سيطلقون الرشقات الأخيرة فى أهم لحظة ، اللحظة التى ستغوص فيها المدينة فى الماء .

وفى انتظار هذه اللحظة ، يطلق الجنود بعض الطلقات من بنادقهم على اللصوص والنهابين ، ويرشدون ويوجهون الأشخاص القلائل الذين يصرون على

عدم ترك منازلهم وأولئك الذين قرروا الرحيل أخيرا ، وعندما يقابلون ، كما يحدث ذلك من وقت لآخر ، مجانين يهيمون فى الشوارع ، من أولئك المجانين الوديعين الذين حصلوا لسوء حظهم على حق الخروج من المعزل يوم الهروب الكبير ، ولم يخطرهم أحد ، أو لم يفهموا أنه يتعين عليهم العودة ، وانتهى بهم الأمر إلى التسكع فى الزاوية بلا عناية ، وعندئذ تتم مشاهدة طريقتين للتصرف . يعتبربعض أصحاب الرتب من الجنود أن المجنون أكثر خطورة من اللص ، فالأخير يحتفظ على الأقل بقدرة على التمييز مساوية لقدرتهم . وفى هذه الحالة ، فإنهم لا يفكرون مرتين ويعطون الأمر بفتح النار . وهناك آخرون أكثر تسامحا ، ويدركون بشكل خاص الضرورة الحيوية لتخفيف الضغط على الجنود ، خاصة فى زمن الحرب أو ما يشابهه ، ولذلك فإنهم يسمحون لمرؤسيهم بأن يتسلوا على حساب المجنون المسكين ، ثم يتركونه بعد ذلك يواصل طريقه في هدوء ، إلا إذا كانت مجنونة وليس مجنونا ، وذلك بالطبع لأن العديد من الأفراد بين الجند ، لكن خارج دائرة الجند أيضا ، يسيئون استخدام التحقيق الأولى والواضح ، بأن الجنس ، بمفهوم الأداة ، ليس فى الرأس .

لكن بعد قليل ، عندما لم يعد يلمح أحد قط فى شوارع المدينة وساحاتها وأحيائها وحدائقها ، ولم يعد يرتسم ظل واحد وراء النوافذ ، وعندما غنت طيور الكنارى ، التى لم تمت بعد من الجوع والعطش ، فى صمت المنزل المطبق أو من الشرفة للحدائق الخاوية ، ولمعت فى الشمس مياه النافورات وأسبلة الماء ولم تعد تأتى أى يد لتبتل فيها ، وبدأت العيون الميتة للتماثيل تبحث حولها عن العيون التى كانت تنظر إليها ، وعندما أوضحت بوابات الجبانات المفتوحة أنه لا يوجد فرق بين نوعى الغياب ، وأخيرا ، عندما اقتربت المدينة تماما من دقيقة الاحتضار تلك ، فى

انتظار أن تأتى جزيرة من البحر لتدمرها ، عندئذ وقعت القصة المذهلة والإنقاذ المعجز للملاح الوحيد .

كان الملاح يجوب بحار الكرة الأرضية منذ أكثر من عشرين عاما ، وكان قد ورث مركبا ، أو اشتراه ، أو قد أهداه له ملاح آخر ، كان قد سافر لمدة عشرين عاما أيضا ، ويبدو أن ملاحا آخر قبله كان قد جاب هو أيضا المحيطات لمدة عشرين عاما ، إذا كانت الذاكرة بعد مرور كل هذا الزمن لم ينته بها الأمر بأن تخلط الأشياء كلها . إن تاريخ السفن والبحارة الذين يقودونها ملىء بالأحداث والمغامرات حيث العواصف المرعبة وفترات خمود الريح التى تثير الرعب أكثر من أسوأ تيفون*، ولكى لا يغيب العنصر الرومانسى ، من المعتاد أن يقال ، إنه توجد امرأة فى كل ميناء تنتظر البحار ، بل هناك أغنيات كتبت حول هذا الموضوع ، وهى طريقة شديدة التفاؤل للنظر للأمور لكن مواقف المرأة تكذبها فى أغلب الأحيان وكذلك أمور الحياة ، عندما ينزل ملاح وحيد من مركبه ، يكون ذلك من أجل التموين بالماء والتزود بالتبغ وقطع غيار المحرك ، أو لشراء زيت ووقود ، ومنتجات صيدلانية ، وابر من أجل الأشرعة ، وواق من المطر والرذاذ ، وصنانير ، وخيط للصيد ، أو حتى لشراء صحيفة اليوم التى تؤكد له ما كان يعرفه من قبل ، والذى لم يكن يستحق العناء ، لكن الملاح لا يضع قدمه على اليابسة أبدا بهدف العثور على امرأة لترافقه أثناء رحلته البحرية ، هيهات ، هيهات ، ثم هيهات . وإذا حدث وكانت هناك بالفعل امرأة فى انتظاره فسيكون من العبث تجاهلها ، إلا أنها بشكل عام هى التى تقرر ، وللفترة الزمنية التى تريدها ، لن يقول لها الملاح الوحيد أبدا ، «انتظرينى ، سأعود يوما ما» ، لن يسمح لنفسه أن يطلب منها مثل

---

* إعصار استوائي مدمر فى منطقة بحر الصين واليابان.

هذا الطلب ، «انتظرينى» ، لأنه هو نفسه لا يستطيع أن يضمن عودته فى ذلك اليوم أوأى يوم آخر ، وإذا عاد كم مرة سيحدث له أن يجد رصيف الميناء خاليا ، أو يرى امرأة تنتظر رجلا آخر ، وليس نادرا ، على أية حال ، إن لم يصل هذا الأخير ، أن يحل محله الآخر الذى نزل من السفينة وتجب الاشارة إلى أن الخطأ لا يقع على النساء ولا على الملاحين لكن على هذه الوحدة التى يصعب أحيانا تحملها ، فهى التى تدفع الملاح نحو الميناء والمرأة نحو رصيف الميناء .

إنها فى نهاية الأمر تأملات روحانية وميتافيزيقية لم نتمكن من مقاومتها ، لكنها وإن كانت امينة للوقائع البسيطة فإنها لا تجعلها أكثر وضوحا . وللتعبير بشكل أبسط ، سنقول إن ذلك الملاح الوحيد ، بذلك الصبر اللانهائى لمن قرر ذات يوم اقتسام حياته بين السماء والأرض ، كان يبحر فى عرض البحر بشراعه ومحركه ومذياعه ومنظاره ، بعيدا عن شبه الجزيرة تلك التى تحولت إلى جزيرة جوالة. وفجأة هدأت الريح ، وسحب عندئذ الشراع ، وفقدت الموجة الواسعة التى كان المركب يندفع قوتها ببطء ، وانهارت ذروتها ، وفى غضون ساعة أصبح البحر مسطحا وساكنا ، وكان يبدو مستحيلا أن تستطيع هذه اللجة من المياه ، بأعماقها التى تصل إلى آلاف الأمتار ، أن تحتفظ بتوازنها دون أن تسقط من جانب أوآخر، ولن تبدو هذه الملحوظة غبية إلا بالنسبة لمن يعتبرون أنه يمكن تفسير كل أمور هذه العالم بمجرد كونها موجودة كما هى ، يمكن بالطبع قبول ذلك ، غير أنه لا يكفى ويدور المحرك ، تنك ، تنك ، تنك – تنك ، والبحر على امتداد الرؤية يماثل الصورة التقليدية للمرأة ، لمعانا بلمعان ، ويغمض الملاح عينيه ، رغم أنه نظم منذ وقت طويل توقيت نومه ويقظته ، وينام ، لقد خدرته الشمس ، وظن أن عدة دقائق قد مرت أو حتى عدة ساعات ، فى حين لم يستغرق الأمر سوى بضع ثوان ، وهاهو

يستيقظ ، مهتزا بما يعتقد أنه فرقعة ضخمة، وفى التباس النوم حلم انه ارتطم بهيكل حيوان ، حوت ، وبحث وهو لم يفق بعد ، وقلبه يدق بإيقاع متقطع ، عن مصدر الصوت ، دون أن يلاحظ على الفور أن المحرك قد توقف . وفجأة أيقظه الصمت تماما ، لكن جسمه ، لكى يتمكن من الاستيقاظ بشكل طبيعى ، اخترع الحوت والاصطدام والحدث المفاجىء ، إن أعطال المحرك هى من أكثر الأشياء المعتادة ، سواء فى البحر أو على اليابسة ، إننا نعرف محركا لم يتمكن أحد من إصلاحه ، لأن روحه قد ماتت ، وترك عندئذ فى سقيفة مفتوحة للرياح الأربع، هناك نحو الشمال ، حيث بدأ الصدأ يغطيه . لكن هذا الملاح ليس مثل مستخدمى السيارات ، إن لديه تجربة وهو خبير بذلك ، ولقد اشترى قطع غيار فى آخر مرة لمس فيها اليابسة وامرأة ، سوف يفك ما سيقدر عليه ويفحص الآلية ، جهد ضائع، لقد جرحت أحصنة هذا المحرك فى مقتل ، فالتلف يكمن فى السواعد* وهو تلف عميق .

الكل يعرف أن اليأس سلوك بشرى ، فالتاريخ الطبيعى لم يذكر أبدا حيوانات يائسة . لكن هذا الإنسان نفسه ، الذى لا يمكن فصله عن اليأس ، تعود أن يتعايش معه إنه يحتمله حتى فى حدوده القصوى ، ولن يقف الشعر فوق رأس الملاح لمجرد عطل فى المحرك وسط المحيط ، ولن يجعله هذا العطل يتضرع إلى السماء أو يطلق اللعنات ضدها ، وكلاهما غير مجد ، إن العلاج هو الانتظار ، فمن أخذ الريح سيعيدها . لكن الريح التى ذهبت لم تعد . ومرت الساعات وهبط الليل وأشرق يوم آخر ولم يتحرك البحر بعد ، لو علق خيط من الصوف هنا لسقط وكأنه من الرصاص ، لا توجد أدنى حركة موج ، إنه ليس أول سكون مسطح ،

* الساعد هو قضيب من الحديد أو الفولاذ، متحرك عند طرفيه، ويستعمل لتحويل الحركة المتناوبة إلى حركة رحوية.

لكن المذياع توقف أيضا عن العمل ، وهو أمر غير قابل للتفسير ، ولم يعد يسمع سوى طنين ، طنين الموجة الحاملة ، لو كانت لا تزال موجودة ، وتحمل شيئا آخر غير الصمت ، وكأن العالم وراء هذه الدائرة من الماء المسمر قد صمت ، ليشاهد ، بشكل خفى ، قلق الملامح المتزايد ، وجنونه ، وربما موته فى البحر ، لا يوجد نقص فى الماء أو الغذاء ، لكن الساعات تمر كل واحدة أطول من سابقتها ، والصمت يضيق حول المركب مثل حلقات ثعبان الكوبرا ناعمة الملمس ، ويضرب الملاح حافة المركب بكلاب فريدة من وقت لآخر ، إنه يريد أن يسمع صوتا غير صوت دمه نفسه الذى يجرى فى أوردته ، أو صوت قلبه الذى ينساه أحيانا ، عندئذ يستيقظ معتقدا أنه سبق له الاستيقاظ ، لأنه حلم بأنه قد مات ، يحتفظ سكون الهواء بالحرارة بالرغم من أن الشراع منشور فى مواجهة الشمس ، لقد احترق جلد الملاح الوحيد وتشققت شفتاه . ومر النهار ، ونهار آخر ، كلها متماثلة، ويلوذ الملاح بالنوم ، ونزل فى القمرة الصغيرة بالرغم من أنها أشبه بالفرن ، لا يوجد بها سوى سرير واحد ضيق ، وهو إثبات أنه وحيد حقا ، وعار تماما ، يغرق فى العرق فى أول الأمر ثم يقشعر الجلد الجاف برعشات ، يصارع الملاح أحلامه ، ممر من الأشجار العالية جدا تتأرجح تحت الريح التى تحرك الأوراق من ناحية ثم من الناحية الأخرى ، ثم تتوقف الريح لتبدأ على الفور من جديد، يستيقظ الملاح ليشرب ماء والماء نفد . عاد للنوم ، لم تعد الأشجار تتحرك لكن جاء نورس ليقف على الصارى .

وتتقدم فى الأفق كتلة قاتمة ضخمة . وعندما تقترب أكثر ، يمكن رؤية المنازل على حافة الشواطىء وأشرعة الصوارى التى تبدو وكأنها أصابع بيضاء مرفوعة ، وخيط رفيع من الزبد ، وفيما وراء المصب الواسع لنهر تظهر مدينة كبيرة مقامة

على التلال ، وجسر أحمر يربط الضفتين ، ويبدو المنظر من هذه المسافة وكأنه رسم بالمنحت ، يستمر الملاح في النوم ، مستغرقا فى خدر نهائي ، لكن فجأة عاد الحلم ، وتهز نسمة سريعة فروع الأشجار ، ويتأرجح المركب فى هدير الأمواج العالية عند مصب النهر ، وينغرز المركب الذى يبتلعه النهر فى اليابسة ، ناجيا من البحر ، الذى لا يزال ساكنا ، فى حين أن اليابسة ليست كذلك. شعر الملاح الوحيد بالتمايل فى عظامه وعضلاته ، فتح عينيه ، وفكر ، «الريح ، لقد عادت الريح» ، وانزلق من فراشه وهو خائر القوى تقريبا ، وانطلق إلى الخارج ، وبدا أنه يموت ويولد من جديد فى الثانية نفسها ، أعماه ضوء الشمس، لكنه كان ضوءا قادما من اليابسة، ويحمل معه ما استطاع أن يختلسه من خضرة الأشجار ، ومن السواد العميق للحقول، ومن الألوان اللطيفة للمنازل . لقد نجا. ولم يفهم فى التو كيف تم ذلك، كان الهواء لا يتحرك ، وهبوب الريح لم يكن سوى وهم . لقد استغرق بعض الوقت لكى يفهم ما الذى أنقذه ، لقد كانت جزيرة كاملة، شبه الجزيرة القديمة التى أبحرت لملاقاته وفتحت له أذرع نهر. بدا ذلك مستحيلا لدرجة أن الملاح الوحيد لم يتخيل أبدا إمكانية إنقاذه بهذه الطريقة ، بالرغم من أنه سمع منذ عدة أيام خلت عن الانفصال الجيولوجى، ويعلم أنه يوجد على طريق السفينة الأرضية، فهى المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك منذ أن وجدت سفن غارقة وغرقى. غير أنه لم يكن هناك أحد على اليابسة، ولا حتى خيال على سطح السفن المثبتة بالهلب أو بالقلس، إن الصمت هو نفس صمت البحر القاسي مرة أخرى. وهمس الملاح، «إنها لشبونة، لكن أين الناس»، إن نوافذ المدينة تلمع، وتوجد سيارات وحافلات واقفة، وساحة ضخمة تحيط بها أروقة مقنطرة، وفى الخلفية قوس نصر وتماثيل حجرية على رؤسها أكاليل من البرونز، حسب لونه، إنه

بالتأكيد برونز. إن الملاح الوحيد الذى يعرف جزر الأزور، ويعرف كيف يعثر عليها سواء على الخريطة أو فى البحر، تذكر أن هذه الجزر تقع على طريق التصادم، وأن ما أنقذه هو ما سيدمرها، وما سوف يدمرها سيدمره هو أيضا إذا لم يغادر سريعا هذه النواحى. لكنه لن يستطيع السير نحو عالية النهر بدون ريح وبمحرك معطل، إن الحل الوحيد أن ينفخ قارب النجاة ويرمى الهلب لإيقاف المركب، وهى حركة لا جدوى منها، ثم يجدف إلى اليابسة. إن الطاقة تعود دائما عندما يولد الأمل من جديد.

وارتدى الملاح الوحيد ملابسه لكى ينزل من المركب، وهى عبارة عن سروال وقميص ، وطاقية على رأسه، وحذاء من القماش، وكل الملابس بيضاء مثل الثلج، إن ذلك هو موطن اعتزاز البحارة، وجذب القارب المطاطى على درجات رصيف الميناء المائلة، وظل دون حراك لعدة ثوان لكى ينظر، فى انتظار استعادة قواه، لكنه كان بشكل خاص يترك الوقت لأى شخص لكى يظهر ويغادر ظل الأروقة المقنطرة، أو أن تستأنف السيارات والحافلات عملها، وأن تمتلىء الساحة بالناس، ربما تقترب منه امرأة وهى تبتسم وتؤرجح أردافها بتمهل، دون مبالغة، مجرد النداء الموحى الذى يربك نظرة الرجل وحديثه، خاصة إذا كان قد وضع لتوه قدمه على اليابسة. لكن ما كان خاليا ظل كذلك، وأخيرا فهم الملاح ما لم يكن قد فهمه بعد، «لقد رحلوا بسبب التصادم مع الجزر». ونظر خلفه، ورأى مركبه وسط النهر ، إنها المرة الأخيرة، كان على يقين من ذلك، حتى المركب المدرع ما كان يستطيع أن يفلت من التصادم المرعب، فما الذى يمكن أن يفعله إذن زورق شراعى سريع العطب هجره صاحبه. وعبر الملاح الساحة، وهو لايزال يترنح بسبب الفترة الطويلة التى قضاها بدون حراك، وكان بجلده المحروق وشعره المنفوش خارج الطاقية، وحذائه القماش الذى يتزحلق، أشبه ما يكون

بالفزاعـة، ورفع عينيه وهو يقترب من القوس الكبير، وبدأ يقرأ الكلمات اللاتينية المكتوبة .

virtutilus majorum at sit omnibus documento ppd

لم يتعلم اللاتينية أبدا لكنه فهم بشكل غامض أن النصب مكرس لتخليد ذكرى بسالة أسلاف شعب هذا البلد ، وتقدم فى شارع ضيق على جانبيه عمارات كلها متماثلة، إلى أن نفذ إلى ساحة أخرى، أصغر ، يقع فى آخرها بناء إغريقى أو رومانى، وفى وسطها تماما ، نافورتان مزينتان بنساء عرايا، والمياه تسيل وشعر فجأة بعطش شديد، وبرغبة فى أن يغوص بفمه فى هذه المياه وبجسده فى هذا العرى، ويتقدم ويداه ممدودتان أمامه ، مرتعدا من الإثارة، وكأنه فى حالة هذيان أو فى حلم، ويغمغم دون أن يعرف ما يقوله، فهو يعرف فقط ما يريده .

وظهرت الدورية فى ركن الشارع، خمسة جنود تحت قيادة ملازم ، لقد رأوا المجنون الذى كان يقوم بحركات مجنونه، وسمعوه ينطق مثل مجنون بكلام مشوش، ولم يكن هناك داعٍ لإصدار الأمر، وظل الملاح الوحيد ممددا على الأرض، كان لايزال أمامه طريق ليقطعه لكى يصل إلى الماء، أما النساء فهن من حديد، إنه أمر معروف تماما.

وكانت هذه الأيام كذلك هى أيام الخروج الجماعى الثالث.

كان الخروج الأول والذى تم الحديث عنه بإسهاب، هو خروج السياح الأجانب الذين فروا، مفزوعين، أمام ما كان مجرد تهديد برؤية جبال البرانس تنشق حتى مستوى البحر، كم يمر الوقت سريعا، فالحادثة المفاجئة لم تتوقف للأسف عند هذا الحد، لكم أن تتصوروا قليلا زهو أوروبا التى سيكون لديها فجأة شعب جيولوجى لا يقارن بشعب كولورادو، الذى سيبدو إلى جواره أقرب للخندق الصغير ، والخروج الثانى، هو خروج الأغنياء وأصحاب السلطة، ولقد حدث ذلك عندما أصبح الصدع غير قابل للانعكاس، وبدأت شبه الجزيرة فى الانجراف بطريقة فاترة، وكأنها توازن بين المزايا والعيوب ، وأثبتت بذلك، وبشكل نهائى، فى رأينا ، عرضية وعدم ثبات البنيات والأفكار الراسخة. وعندئذ أمكن التأكد من أن البنيان الاجتماعى، بالرغم من كل تعقيده، ليس سوى قصر من ورق، متين ظاهريا فقط، لأن منجرد إحداث هزة فى اللوح المشيد عليه هذا البنيان، ينهار كل شىء، وفى الحالة التى تهمنا، ولأول مرة فى التاريخ، تحرك اللوح من تلقاء نفسه، «يا إلهى ، يا الهى، لنهرب من أجل إنقاذ ممتلكاتنا الثمينة وحياتنا النفيسة».

أما الخروج الثالث، الذى كان موضوع حديثنا قبل أن نبدأ فى تلخيص الخروجين الآخرين، فيتكون بشكل ما من مكونين، أو قسمين ، ولو أخذ فى الاعتبار الظروف الرئيسية التى تميزهما، فإنه سيتعين، طبقا لرأى البعض، منحهما لقب الخروج الثالث والرابع. وغدا، أى فى المستقبل البعيد، سيقرر ذلك علماء التاريخ الذين سيخصصون وقتهم لدراسة الأحداث التى غيرت وجه العالم، ليس بمعنى مجازى ولكن بالمعنى الحرفى، ونأمل أن يضعوا فى عملهم كل اعتدال وحكمة وتجرد من يراقبون ظواهر الماضى بدون هوى، سيقررون ما إذا كان من المناسب إجراء الازدواج الذى ينادى به بعضهم حاليا. فى الحقيقة، يعتقد هؤلاء

أن وضع انسحاب ملايين الأفراد، الذين تركوا المناطق الساحلية إلى الأراضى الداخلية، على قدم المساواة مع هروب عدة آلاف من الأفراد إلى الخارج، يدل على غياب تام للحس النقدى ولمفهوم التكافؤ والتناسب، حتى وإن كان هناك توافق زمنى لا يمكن إنكاره بين أحد الخروجين والآخر. وبما أنه لا يدخل فى نوايانا الاشتراك فى هذا الجدل ولا تقديم رأى فيه، فليس من الصعب علينا الاعتراف بأن الخوف كان متماثلا، إلا أن الجانبين لم يستخدما الوسائل نفسها لمعالجة هذا الخوف.

ففى الحالة الأولى، تم مشاهدة رد الفعل الشائع لدى من ليسوا بالأثرياء، والذين يأملون، عندما تضطرهم السلطات والظروف الأليمة للانتقال إلى أماكن أخرى، أن ينقذوا حياتهم بواسطة وسائل تقليدية، معجزة، حظ، صدفة، قدر، حسن طالع، صلاة، الإيمان بالروح القدس، أو تميمة، تعويذة وقرن صغير يعلقان حول الرقبة، أو ميدالية مباركة، بالإضافة إلى كل ما لن نذكره من أجل توفير المساحة، ولكن الذى يمكن تلخيصه تحت هذه الصيغة الشهيرة التى تقول: «إن ساعتى لم تكن قد حانت بعد». فى الحالة الثانية، كان الهاربون أشخاصا يملكون موارد واسعة ووسائل سريعة، وانتظروا قليلا لرؤية إلى أين سينتهى كل ذلك، لكن عندما أصبح لا مجال للشك، بدأوا فى اجتياح طائرات الجسر الجوى الجديد، والبواخر وسفن الشحن وزوارق أخرى ذات أحجام أصغر، وحملوا معهم كل ما أمكنهم حمله، وسنلقى بغلالة حياء على الوقائع التى دارت عندئذ من حالات خضوع وامتثال، ومكائد، وخيانات، بل وجرائم، كان أحدهم يقتل لمجرد الحصول على تذكرة ، منظر مخزٍ وشائن، لكن بما أن العالم هو كما نعرفه فإن توقع شىء آخر سيكون دليلا على السذاجة. وأخيرا، وبعد فحص كل شىء، من المحتمل جدا

أن تنتهي كتب التاريخ بأن تذكر أربع عمليات خروج جماعي وليس ثلاث عمليات، ولا يرجع ذلك إلى مغالاة في الدقة التصنيفية، لكن حتى لا تختلط الأمور ولكي تتم معاملة الناس حسب قيمتهم وقدرهم.

غير أننا نلفت النظر إلى ما في تحليلنا الموجز هذا مما قد يعكس، وإن كان بشكل لا إرادي، نوعا من الموقف الذهني الملوث بالمانوية *، بمعنى الميل نحو رؤية مثالية للطبقات الأدنى وإدانة مسبقة للطبقات العليا، المسماة، بالأغنياء وأصحاب السلطة، وإن كانت تلك التسمية لا تكون ملائمة دائما، ومن الطبيعي أن يثير ذلك الكراهية والنفور ، وهما متساويان مع هذا الإحساس الدنيء ، ألا وهو الحقد، مصدر كل الشرور والآلام، إن الفقراء موجودون بلا أدنى شك، من الصعب نفي هذه البداهة، لكن يجب عدم المبالغة في تقييمهم. لا سيما وأنهم ليسوا، ولم يكونوا، نموذجا للصبر والتسليم بالقدر والانضباط المقبول به طوعيا، بالرغم من أن ذلك كان هو المتوقع في هذه الظروف، إن من تخيل، لأنه بعيد عن الأحداث والمكان، أن الفارين الأيبيريين، المكدسين في المنازل، والملاجي، والمستشفيات ، والثكنات، والمستودعات، والمعسكرات، أو تحت الخيام والملاجيء المؤقتة التي أمكن الاستيلاء عليها، وتلك التي قام العسكريون بمنحها وتركيبها، بالإضافة إلى كل الآخرين، الأكثر عددا الذين لم يجدوا ملجأ ويعيشون تحت الجسور والأشجار وفي السيارات المهجورة، أو في العراء تماما، إن من اعتقد أن الله جاء ليعيش وسط هؤلاء الملائكة يعرف الله تماما بدون شك وكذلك الملائكة لكنه يجهل كل شيء عن البشر.

ويمكن القول بدون أية مبالغة إن جهنم ، التي كانت في الأزمنة الأسطورية ، موزعة بانتظام على كل شبه الجزيرة كما أشرنا إلى ذلك في بداية قصتنا، قد

★ مذهب ماني الفارسي صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام.

تركزت حاليا على شريط رأسى ضيق يبلغ عرضه حوالى ثلاثين كيلو مترا، ويمتد من شمال جاليزا إلى الجرف، ولا يوجد سوى قلة من الناس يصدقون التأثير الواقى من الصدمات لأراضى الغرب التى أصبحت مهجورة، وإذا كانت الحكومة الأسبانية، مثلا، المقيمة بشكل مريح فى الداخل لم تضطر إلى مغادرة مدريد، فإن الأمر على النقيض من ذلك بالنسبة لمن يريد العثور على الحكومة البرتغالية، إذ يتعين عليه الآن أن يذهب إلى الفاس، وهى أكثر المدن بعدا عن الساحل إذا رسم خط مستقيم انطلاقا من لشبونة بحيث يكون أفقيا تقريبا ومستعرضا. وتتوالى الصراعات بين اللاجئين الذين يعانون من سوء التغذية وقلة الراحة، فضلا عن الشيوخ الذين يموتون، والأطفال الذين يبكون ويصرخون، والرجال العاطلين عن العمل، والنساء اللاتى يتحملن مسئولية الأسرة كلها، وتتعاقب كذلك الكلمات الشريرة، والفوضى، والاعتداءات، وسرقات الملابس والأغذية، وعمليات الطرد والهجوم، ومن كان يتصور أن نوعا من الفجور والدعارة قد انتشر وحول هذه المخيمات إلى بيوت بغاء جماعية، إنه خزى، وقدوة سيئة للأطفال الأكبر سنا، الذين وإن كانوا لا يزالون يعرفون من أباهم ومن أمهم، فإنهم يجهلون أى أطفال يشرعون هم أنفسهم في صنعهم، وأين ومع من. إن أهمية هذه السمة عن القضية أقل بالطبع مما تبدو لأول وهلة، نظرا لأن المؤرخين اليوم لا يظهرون اهتماما كبيرا بكل ما يمس الفترات التى، لسبب أو لآخر، تمثل نقاط تشابه، كما هو الحال هنا، لا شك أن الممارسة الحرة للغريزة الجنسية، هى فى نهاية الأمر أفضل ما يلائم المصالح العميقة للبشرية والإنسان. فى فترات الأزمة، حيث الأخلاق تقهر كلا منهما بشكل عام، لكن بما أن الفرضية محل جدال سوف نتابع، إذ تكفى مجرد الإشارة لإرضاء تدقيق واهتمام المراقب الحيادى.

ومع ذلك يوجد وسط هذه الفوضى وهذا الارتباك واحة سلام، هؤلاء الكائنات السبعة الذين يعيشون فى حالة انسجام تام، امرأتان وثلاثة رجال وكلب وحصان، وإن كان هذا الأخير يكتب العديد من مبررات الشكوى التى يمكن أن تكون لديه فيما يتعلق بتوزيع المهام بشكل خاص، لأنه يقوم وحده بجر عربة محملة، سينتهى كل ذلك فى نهاية الأمر بأن ينتظم ذات يوم. تشكل المرأتان والرجلان زوجين، وإنهما سعداء ، الرجل الثالث فقط ليس له شريك، لكن نظرا لسنه، قد لا يكون هذا النقص صعبا عليه، أو على الأقل لم يلحظ بعد، فيما يتعلق به، أيا من علامات العصبية الظاهرة التى تكشف عن غزارة فى إفراز الغدد. أما بالنسبة للكلب، فإننا نجهل ان كان يبحث عن إشباع آخر ويجده، عندما يذهب للبحث عن طعام، وإن كان الكلب من أكثر الحيوانات حبا للظهور فى هذا المجال ، فإنه يوجد بينهم بعض الأفراد المحتشمين بشكل خاص، شريطة ألا تراود أحدا فكرة تعقبه، فهناك أنواع فضول منحرفة ومن واجبنا ردعها. ربما ما كان لهذه الملاحظات على العلاقات والسلوكيات أن تتميز بهذا القدر من الاهتمام بالجنس لو لم يظهر الزوجان اللذان تكونا أفراطا فى إظهار مشاعرهما، نظرا لجدة هواهما أو لشدة هذا الهوى، إلا أن ذلك لا يعنى، ولنحدد ذلك، قبل أن يساء بهما الظن، إنهما يقضيان وقتهما فى العناق وتبادل القبل، فلقد امتنعا عن ذلك حتى الآن، لكنهما لا يستطيعان إخفاء الهالة التى تحيط بهما أو التى يشعاها، فلقد رأى بيدرو اورس، منذ عدة أيام، إشراق نار هذا الجمر، من أعلى التلة. وهنا، على أطراف الغابة حيث يعيشون من الآن فصاعدا، بعيدين بالقدر الكافى عن القرى لكى يتخيلوا أنهم وحدهم، وقريبين منها بالقدر الكافى لكى لا يتحول التزود بالمؤن إلى عملية صعبة، كان فى مقدورهم أن يؤمنوا بالسعادة ، لو أنهم لا يعيشون تحت

تهديد الكارثة الأرضية، ودون أن يدرى أحد لكم يوم من الآن. لكن يمكن القول إنهم يستغلون ذلك الوقت، كما نصح بذلك الشاعر، caupediem، إن ما يميز هذه الحكم اللاتينية القديمة هو ما تحتويه من عالم كامل من التورية والمعانى المزدوجة والثلاثية ، بصرف النظر عن المعانى الكامنة وغير المحددة ، لأن ترجمة هذا التعبير ستكون مثلا ، «استفد بالحياة» ، وهو ما يعطى شيئا صغيرا وغثا وباهتا لا يستحق حتى الجهد المبذول للعثور عليه . لذلك فإننا نصر على أن نقول caupediem ، ونشعر أننا مثل آلهة قررت أن تتخلى عن أن تكون خالدة لكى يمكنها الاستفادة من الوقت ، بالمعنى الحرفى للتعبير .

كم من الوقت تبقى ، لا أحد يعرف . وتعمل محطات الإذاعة والتليفزيون أربعا وعشرين ساعة متواصلة ، لم تعد هناك نشرات أخبار تبث فى ساعة محددة ، يتم قطع البرامج فى كل لحظة لقراءة آخر الأخبار وتتوالى الأنباء ، إننا على مسافة ثلاثمائة وخمسين كيلو مترا ، على بعد ثلاثمائة وسبعة وعشرين كيلو مترا ، علمنا توا أنه تم إخلاء جزر سانتا ماريا وساو ميجل تماما ، ويجرى إجلاء آخر السكان على جناح السرعة ، إننا على بعد ثلاثمائة واثنى عشر كيلو مترا ، لقد بقت مجموعة صغيرة من العلماء الأمريكيين الشماليين فى قاعدة لاجس التى لن يغادروها إلا فى اللحظة الأخيرة ، بالطريق الجوى بالطبع ، لكى يتمكنوا من مشاهدة التصادم من أعلى ، إننا نقول تصادما فقط دون أى نعت له ، ولم تتم الاستجابة للحكومة البرتغالية التى كانت تأمل أن ينضم عالم برتغالى للمجموعة بصفة مراقب، لم يتبق سوى ثلاثمائة وأربعة كيلومترات ، و يناقش المسئولون عن البرامج الثقافية والمنوعات فى التليفزيون والإذاعة ما الذى يتعين تقديمه ، مع أخذ خطورة الموقف فى الاعتبار ، يقول البعض ، موسيقى كلاسيكية ، ويرد آخرون بأن

الموسيقى الكلاسيكية تولد الإحباط ، وأن من الأفضل تقديم موسيقى خفيفة ، وأغنيات الثلاثينيات الفرنسية الخفيفة ، وأغانٍ عاطفية برتغالية ، وأغانٍ إسبانية جنوبية من ملقة وأشبيلية ، والكثير من موسيقى الروك ومن الموسيقى الشعبية ، لكن التقليديين يحتجون بأن هذه الموسيقى المرحة ستصدم وتؤذى الناس الذين يعيشون ساعات حرجة فعلا ، ويزعم المؤمنون بالحداثة أن المارشات الجنائزية ستكون أسوأ ، ولا يتم اتخاذ قرار ، خطوة للأمام ، وخطوة للخلف ، وشبه الجزيرة مستمرة فى التقدم ، لم يتبق سوى مائتين وخمسة وثمانين كيلو مترا .

كان يتم استخدام مذياع چواكيم ساسا بحرص وتقتير ، لا يزال هناك بعض البطاريات الجديدة ومن الأفضل الاقتصاد فى استخدامها ، لا أحد يعرف ما يدخره المستقبل لنا ، إنه تعبير شعبى من تلك التعبيرات التى تستخدم كثيرا ، لكن فى هذه الحالة بالذات يمكن الرهان تقريبا على ما سيكون عليه هذا المستقبل، موت ودمار ، ملايين الجثث ، ونصف شبه الجزيرة مغمور فى المحيط . وسرعان ما تصبح الدقائق التى لا يعمل فيها المذياع غير محتملة ، صار الوقت قابلا للمس، لزجا ، يقبض الزور ، وبالرغم من أن المسافة لازالت بعيدة ، إلا أن المرء يظن فى كل لحظة أنه يستشعر الصدمة ، من يستطيع تحمل مثل هذا التوتر ، يدير جواكيم ساسا المذياع Euma casa, portuguesa com certeza é com ceuteza uma casa portuguesa ,

هكذا يغنى صوت الحياة العذب ، Donde vas de manton de Mamila donde vas con el Mojo clavel,

نفس السعادة ، الحياة نفسها ، لكن بلغة أخرى ، يطلق الجميع عندئذ تنهيدة ارتياح ، لقد اقتربوا من الموت مسافة عشرين كيلو مترا لكن لا يهم ، لم

يتم بعد إعلان الموت ، ولم تظهر جزر الأزور في مجال الرؤية ، «غنى ، صغيرتى ، غنى» .

ويجلسون تحت ظل شجرة ، لقد انتهوا توا من تناول الطعام ، إنهم يشبهون البدو الرحل بطريقتهم وملابسهم ، قدر كبير من التحولات فى زمن قليل ، إن هذا ما يقود إليه نقص وسائل الراحة ، الملابس متسخة ومغضنة ، وذقون الرجال لم تحلق منذ عدة أيام ، لاداعى لتوبيخهم ، فالمرأتان أيضا لم يعد لشفتيهما سوى اللون الطبيعى ، الباهت بسبب الهموم ، ربما تضعان مساحيق التجميل من جديد فى اللحظة الأخيرة لاستقبال الموت بشكل لائق ، لكن هذه الحياة التى توشك على نهايتها لا تستحق الاهتمام . واستندت ماريا جافيرا على كتف جواكيم ساسا ، وأخذت يده ، وانحدرت دمعتان بين رموشها ، لم يكن ذلك خوفا مما سيحدث ، ولكنه الحب الذى صعد حتى عينيها . وجذب خوسيه أنايسو جوانا كاردا بين ذراعيه ، وقبل جبهتها ثم جفونها التى تنغلق ، لو كان من الممكن أن تتبعنى هذه اللحظة حيثما أذهب ، أنا لا أطلب المزيد ، فقط تلك اللحظة ، ليس بالذات هذه اللحظة المعنية الآن ، الأخرى التى سبقتها ، والتى سبقت السابقة ، تلك التى يتم تمييزها بالكاد من هنا ، لم أحتفظ بها حين كنت أعيشها ، والآن فات الأوان . نهض پيدرو أورس ، وابتعد ، إن شعره الأبيض يلمع فى الشمس، فهو يحمل أيضا هالته من الضوء البارد . وتبعه الكلب . خافضا رأسه ، لن يذهبا بعيدا . فهم حاليا يبقون معا أطول فترة ممكنة ، لا أحد منهم يريد أن يكون وحيدا لحظة حدوث الكارثة . ويشعر الحصان بالسعادة بالرغم من الإرهاق الكبير للسير الطويل ، فهو كما يؤكد ذلك العلماء ، الحيوان الوحيد الذى يجهل أنه سيموت . إنه يمضغ شوفانه ، ويهز نفسه لكى يتخلص من النعرة (★) ويكنس بشعر ذيله

★ ذبابة كبيرة تلسع أنثاها الإنسان والحيوان وتمص دمهما .

الطويل كفله الابقع ، والأرجح أنه يجهل أنه كان من المفترض له أن ينهى أيامه منتفخ الرئة فى اسطبل منهار نصف مظلم ، وسط نسيج العنكبوت والروث ، حقيقى أن مأساة البعض قد تكون مصدر سعادة لآخرين ، حتى إذا كان ذلك لبعض الوقت .

مر النهار ، وأعقبه آخر ومر هو أيضا ، تبقى مائة وخمسون كيلو مترا . وينمو الشعور بالخوف مثل ظل أسود، والرعب أشبه بفيضان يبحث عن نقاط الضعف في السد، ينخر فى أساساته وينتهى بأن يحطمها ، والناس الذين ظلوا حتى الآن هادئين تقريبا فى الأماكن التى استقروا فيها ، أدركوا أنهم الآن قريبون جدا ، من الساحل ، على مسافة سبعين أو ثمانين كيلو مترا ، وبدأوا فى الانتقال ، لأنهم كانوا يتخيلون أن الجزر ستشق الأرض قبل أن تصل إليهم ، وأن البحر سيكتسح كل شئ . وقمة بركان بيكو أشبه بالشبح ، من يدرى قد ينشط البركان نتيجة للتصادم ، «لكن لا يوجد أى بركان على جزيرة بيكو» . ولم يلق هذا التفسير اهتماما أكثر من غيره ، وبالطبع سرعان ما غدت الطرق مشبعة ، كان كل تقاطع مثل عقدة يستحيل فكها ، وبعد قليل أصبح من المستحيل التقدم أو التراجع ، كانوا أشبه بالفئران ، ونادرا ما كانوا يقبلون بالتخلى عن منقولاتهم الفقيرة التى كانوا ينقلونها من أجل محاولة إنقاذ حياتهم فى الحقول الهادئة . ولدعم هذه الموجة وإعطاء القدوة الطيبة ، تركت الحكومة البرتغالية أمان القاس لكى تذهب لتقيم فى ايڤورا ، وذهبت حكومة أسبانيا لتسكن فى لوون بشكل مريح تماما ، وبدأت من هناك فى بث بيانات قام بتوقيعها رئيس الجمهورية هنا وملك المملكة هناك كل من جانبه ، لأننا نسينا ، وهو أمر مؤسف ، أن نقول إن الرئيس والملك تقاسما كل عذابات حكوماتهما المتبادلة ، وإن لم نكن قد صححنا هذا السهو ،

لكان لزاما علينا أن نفعل ذلك الآن، لأن كلا منهما عرض أن يذهب للقاء الجماهير التى فقدت صوابها فاتحا لهم ذراعيه ، ويمنحهم حياته فداء ، نتيجة لحركة عنف أو حادث ، وسيقول كل منهما مرة أخرى «أيها الأصدقاء ، أيها المواطنون ، الخ ، الخ » ، لا يا جلالة الملك ، لا ياسيادة الرئيس ، لن تفهم ذلك جماهير فى حالة هلع فضلا عن أنها جاهلة ، لابد أن يكون المرء متحضرا ومثقفا جدا لكى يتوقف عند رؤية ملك أو رئيس فى وسط الطريق فاتحا ذراعيه ، ليعرف ماذا يريد . لكن كان هناك آخرون ، استداروا ليصرخوا فى سورة غضب «الموت أفضل من الحياة بهذه الطريقة ، لننهى هذا الأمر» ، وظلوا ينتظرون وهم ينظرون إلى الجبال الساكنة فى الأفق ، وندى الصباح ، والزرقة العميقة لسماء بعد ظهر حار ، والليل المزين بالنجوم ، ربما تكون آخر ليلة ، لكن عندما تحين الساعة لن أدير عينى .

وعندئذ ، وقع الحدث . فعلى بعد خمسة وسبعين كيلو مترا تقريبا من الطرف الشرقى لجزيرة سانتا ماريا بدأت شبه الجزيرة فى الإبحار نحو الشمال ، دون أن يكون هناك شئ ينبئ بذلك ، ودون الشعور بأية هزة ، وخلال عدة دقائق ، أفلت ملايين الأشخاص المرعوبين فى كل من أسبانيا والبرتغال من الموت ، وإن كانوا يجهلون ذلك ، بينما كان المراقبون فى كل المعاهد الجغرافية فى أوروبا وأمريكا الشمالية يحللون ، وهم غير مصدقين ، البيانات التى تم استقبالها من الأقمار الصناعية ، ويترددون فى إعلانها ، وأثناء تلك الدقائق ، خاض البعض ، الذين كانوا يتمنون الموت ، مشاجرات فاجعة ، بينما انتحر آخرون ، لأنهم لم يعودوا يحتلمون إحساسهم بالخوف . وكان البعض يطلب العفو والمغفرة لخطاياهم ، فى حين اعتبر آخرون أنه لم يعد هناك وقت للتوبة ، فكانوا يسألون الرب والشيطان أن يدلاهم إلى آثام جديدة يمكنهم اقترافها بعد ، ووضعت بعض النساء وهن

يتمنين أن يولد طفلهن ميتا ، وعلمت أخريات أنهن حوامل فى طفل لم يفكرن قط أن يكون لهن ، وعندما دوت فى العالم صرخة شاملة ، «لقد نجوا ، لقد نجوا» ، رفض البعض تصديق ذلك واستمروا فى البكاء على نهايتهم القريبة ، لكن سرعان ما لم يعد هناك شك ، وأقسمت الحكومات على ذلك بكل النغمات ، وقدم العلماء التفسيرات ، وكان يحكى أن النجاة نتجت عن تيار بحرى قوى تم إحداثه اصطناعيا ، وثار جدل واسع حول من وراء هذا التيار البحرى ، هل هم الأمريكيون الشماليون أم السوفييت .

وانتشرت الفرحة، وملأت كل شبه الجزيرة بالضحكات والرقصات، خاصة الشريط العريض الذى تجمع فيه ملايين النازحين، وكانت السلطات المسئولة تعلق قائلة، «لحسن الحظ أن الأمر حدث فى وضح النهار، عند وقت الغداء بالنسبة لمن كان لديهم ما يأكلونه، وإلا لساد اضطراب وفوضى مرعبان»، لكن سرعان ما ندمت هذه السلطات على ذلك الرأى المتسرع لأن بمجرد التيقن من صحة النبأ، أخذ الآلاف والآلاف من الناس طريق العودة ، وتعين أن يتم نشر، وبشكل قاس، الافتراض بأن شبه الجزيرة قد تعود مرة أخرى إلى مسارها الأصلى، وإن كان نحو الشمال قليلاً، لكن لم يصدق الجميع ذلك، خاصة وأن قلقا جديداً تسلل خلسة إلى أذهان الناس، حيث كانوا يرون مدنهم وقراهم المهجورة ، المدينة الكبيرة والمدينة الصغيرة والقرية التى عاشوا فيها، والشارع الذى كانوا يسكنون فيه، والمنزل ، المنزل ينهبه أشخاص موطدو العزم، لا يصدقون حواديت العجائز، ويتحملون الاخطار المفترضة، اشخاص معتادون، نظراً لمهنتهم، على القيام كل ليلة بقفزة موت ثلاثية، ولم تكن تلك الرؤى نتاج خيال مريض، لأن كل اللصوص والنشالين وكل الدنيئين القدامى والمحدثين كانوا يتسكعون ويحومون فى هذه

النواحى المهجورة، آخذين كل أنواع الاحتياطات، لكن كل أهدافهم غير الشريفة قابعة فى رؤوسهم ، وكان أمر الجماعة الذى انتشر بينهم هو، «من يصل أولا يخدم نفسه، وسيبحث التالى عن منزل آخر، لا مجال للخديعة سيكون هناك منازل للجميع ومن الأفضل ألا يستسلم أحدهم لإغراء منزل ماريا جافيرا ، لأن لدى الرجل الموجود فى الداخل بندقية صيد محشوة ولن يفتح الباب إلا لصاحبة المكان ليقول لها، لقد سهرت على ممتلكاتك، والآن تزوجينى»، إلا إذا كان قد نام على جبل الصوف الأزرق منهكا من ليالى السهر ومتعبا، ويكون بذلك قد أضاع حياته كرجل.

لقد برهن سكان جزر الأزور على قدر كبير من الحيطة والحذر، حيث لم يرجعوا مباشرة إلى جزرهم وبيوتهم ، ولنضع أنفسنا مكانهم، لقد ابتعد الخطر المباشر ، هذا حقيقى، لكنه لايزال يحوم دائما فى الأنحاء، وكأنه نسخة جديدة من قدر الطين وقدر الحديد، فيما عدا، والفرق كبير، انهم لم يستطيعوا أن يصنعوا بفخار هذا المكان سوى أوانٍ صغيرة، لم تتوافر الكمية الكافية لصنع قدر لقارة، وحتى إذا وجد ذلك القدر فلقد انتهى به الأمر، على أية حال، بالغرق وكان يسمى اطلنطس، ولابد ان يكون المرء غبيا حقا كى لا يتعلم من التجربة، أو من ذكراها ، وكلاهما باطل، لكن ما يبقى الأفراد الخمسة تحت الشجرة حيث يوجدون ليس إحساس الحيطة أو الحذر، الآن وقد شرع الجميع فى السير نحو سواحل البرتغال وجاليزا، نوع من العودة المنتصرة المصحوبة بفروع الأشجار والورود وبجوقات موسيقية وغنائية وألعاب نارية، وأجراس تدق عند مرورهم، تعود الأسر إلى بيوتها، قد ينقصها أشياء لكن الحياة عادت معهم، وذلك هو الأهم، الحياة، المائدة حيث يتناولون الطعام، والسرير الذى ينامون فيه، والذى سيشهد هذه

الليلة، للابتهاج الخالص، أكثر لقاءات الحب سعادة فى العالم. وتحت الشجرة، حيث ينتظر العربة والحصان الذى استعاد قواه، كان الأشخاص الخمسة الذين بقوا فى المؤخرة ، ينظرون إلى الكلب، وكأن النصيحة أو الأمر يجب أن يأتى منه، «أنت الذى أتيت لا أحد يعرف من أين، أنت الذى ظهرت لى يوما، آتيا من بعيد، مرهقا جداً لدرجة أنك لم تبد أية مقاومة، أنت من مررت عندما كنت أشير لهؤلاء الرجال إلى المكان الذى خدشت الأرض فيه بعصا ونظرت إلينا، انت الذى كنت تنتظرنا إلى جوار السيارة التى تركناها تحت السقيفة، وأنت من كان فى فمه خيط من الصوف الأزرق، وكنت دليلنا فى كل تلك الطرق والدروب، أنت الذى ذهبت معى إلى البحر وعثرت على المركب الحجرى، قل لنا أين يجب أن نذهب، وضح لنا ، بحركة بإيماءة بإشارة، طالما أنك لا تعرف النباح، لأن لا أحد منا يريد العودة إلى منزل الوادى، فذلك سيكون بالنسبة لنا جميعا بداية العودة النهائية، فالرجل الذى يريد أن يتزوجنى سيقول لى، «سيدتى، تزوجينى»، وسيقول لى رئيس المكتب الذى أعمل به، «احتاج إلى هذه الفاتورة»، وزوجى سيقول لى، «أخيرا عدت»، وسيقول لى والد اسوأ تلميذ، «يا استاذ، اضربه قليلا» وستقول لى زوجة كاتب العدل التى تشتكى من الصداع ، «اعطنى اقراصا للصداع النصفى»، قل لنا اذن أين يجب أن نذهب انهض وتقدم ، وسيكون ذلك مصيرنا.

ورفع الكلب الذى كان ممددا تحت العربة رأسه، وكأنه سمع اصواتا، ووقف فجأة وركض نحو بيدرو اورس، الذى أخذ رأسه بين يديه وقال له «سأصحبك معى، لو رغبت فى ذلك»، الكلمات فقط هى ما نطق به الرجل.. لم تقل ماريا جافيرا، صاحبة الحصان والعربة شيئا بعد، لكن جوانا كاردا نظرت الى خوسيه انايسو الذى فهم نظرتها، «قرروا ماتشاءون،أنا لن أعود». عندئذ قالت ماريا

جافيرا بصوت عالٍ وواضح ، «هناك وقت للإقامة ووقت للرحيل، إن وقت العودة لم يحن بعد»، وسأل جواكيم ساسا ، «إلى أين الذهاب»، إلى أى مكان بلا قصد، «لنذهب من الناحية الأخرى من شبه الجزيرة، اقترح بيدرو اورس، لم اشاهد جبال البرانس ابداً»، «ولن تشاهدها اكثر هذه المرة لأن نصفها بقى فى اوروبا اشار خوسيه انايسو، «لا يهم فالعملاق يعرف من اصبعه»، واحتفلوا بالقرار، لكن ماريا جافيرا قالت: «لقد قادنا الحصان وحده حتى هنا، لكنه لا يستطيع إكمال الرحلة وحده، فهو عجوز وعربة النقل صنعت لكى يجرها حصانان . أما بحصان واحد فانها تصبح عربة كتعاء» اذن سأل جواكيم ساسا ، «يجب العثور على حصان آخر، لن يكون من السهل العثور على خيول فى هذا المكان بالإضافة الى اننى اعتقد ان الحصان يكلف غاليا، ولن يكون لدينا المال الكافى بالطبع لذلك.»

وبدت المعضلة بلا حل لكن سنشاهد إثباتا إضافيا على لين عريكة الذهن البشرى، فمنذ بضعة ايام رفضت ماريا جافيرا صراحة فكرة المبيت فى بيت مهجور، ولايزال صدى الدرس يرن فى اذان من يتذكرونه، وإذا بها الآن، وقد غدت الضرورة هى القانون، تعلن انها مستعدة لادانة حياة كاملة من الطهارة الاخلاقية، شريطة ألا ينتقد احد تهاونها ، «لن نشتريه، وانما سنسرقه،» تلك هى كلماتها شخصيا، وجاء دور جوانا كاردا لكى تحاول تصحيح ما قيل، بطريقة غير مباشرة حتى لا تصدم حساسية ماريا جافيرا، «انا لم اسرق شيئا ابداً فى حياتى». وهبط صمت ثقيل، كان عليهم ان يعتادوا على القوانين الاخلاقية الجديدة، وقام بيدرو اورس بالخطوة الأولى، وذلك على نقيض العادة التى تريد ان يكون الكهول المحنكين اكثر احتراما للقانون العتيق، حيث قال، «إننا لا نسرق ابداً أى شىء فى حياتنا، انما يحدث ذلك دائما فى حياة الآخرين»، وقد يمثل ذلك مبدأ اساسيا

لاحد الفلاسفة الكلبيين*، بالرغم من انه ليس سوى اثبات بسيط لحقيقة واقعة، وابتسم بيدرو اورس مخادعا، لكن الكلمات قد قيلت ، «جيد جدا، لقد تقرر الأمر، سنسرق حصانا لكن كيف سيتم ذلك، هل نجرى قرعة لمعرفة من الذى سينطلق فى الحملة» وقالت ماريا جافيرا «على انا ان اذهب انكم لا تعرفون شيئا عن الخيول وستعجزون عن احضار واحد»، «ارافقك اذن» قال جواكيم ساسا، «لكن لو استطاع الكلب ان يأتى معنا فسيكون الوضع ممتازاً، إذ يمكنه الدفاع عنا فى حالة مقابلة أى اشخاص خطرين».

وفى تلك الليلة خرج ثلاثتهم من المخيم وتوجهوا نحو الشرق ، حيث قد تتاح فرص أكبر للعثور على ما يبحثون عنه، نظراً لأن المنطقة ظلت هادئة نسبيا. وقبل المغادرة قال جواكيم ساسا، «اننا لا نعلم كم سيستغرق ذلك، انتظرونا هنا»، ورد خوسية انايسو قائلا، «بالتفكير جيدا فى الأمر، أليس من الأفضل ان تعودا بسيارة كبيرة تتسع لنا جميعا، بما فى ذلك الامتعة والكلب»، «لا توجد سيارة من هذا النوع، المطلوب شاحنة، فضلا عن اننى اذكرك انه لا توجد شاحنة واحدة فى حالة تسمح لها بالسير، ثم هناك الحصان لا يمكن تركه هكذا»، «الفرد للجميع والجميع للفرد» هكذا صرخ قديما الفرسان الثلاثة، الذين كانوا اربعة، وهم حاليا خمسة، باستثناء الكلب»، و«الحصان»..

ومضت ماريا جافيرا وجواكيم ساسا فى طريقهما، يتبعهما الحيوان الذى يشم الرياح ويتفحص الظلال .. ان هناك شيئا عبثيا فى هذه الحملة، البحث عن حصان، واعلنت ماريا جافيرا، «قد يستطيع بغل ان يقوم بالمهمة ايضا».. دون ان

---

* المذهب الكلبى مذهب فلسفى يقول باحتقار العرف والتقاليد والرأى العام والأخلاق السائدة.

تعرف ان كان هناك حيوان من هذا النوع على مسافة خمسة فراسخ، من الاسهل بدون شك العثور على بقرة لكن لا يمكن ربط بقرة وحصان معا بعربة نقل، ولا حمار على أية حال، لانه نظرا للحمولة فى هذه الحالة بالذات، سيكون الأمر هو جمع ضعف إلى آخر بهدف الحصول على قوة واحدة وذلك لا يحدث إلا فى الامثال والحلم مثل حكمة المهد المصنوع من اغصان الصفصاف التى سبق ذكرها. لقد سارا وسارا وكانا يتركان الطريق فى كل مرة يلمحان فى ثغرة بين الحقول مساكن واكواخ لمزارعين ، لانه لو وجدت خيول فستكون هناك، فاننا نحتاج لحيوان جر، وليس لحصان سباق او حصان خباب.. وكاانت الكلاب تبدأ فى النباح بمجرد اقترابهم، ولكنها سرعان ما كانت تهدأ.. ولن يعرف احد ابداً ما هى مواهب هذا الكلب، كان اكثر الحراس صخبا وهياجا يغدو فجأة اخرس، ليس لان الحيوان المتوحش القادم من العالم الآخر قد قتله، لان فى هذه الحالة كانت ستسمع اصوات صراع وانات ألم، كان من الممكن ان يقال ان الصمت كان صمت قبور لولا ان احدا لم يمت فى الحقيقة.

كان الفجر قد بزغ وكانت ماريا جافيرا وجواكيم ساسا لايستطيعان تحريك أقدامهما إلا بالكاد لفرط ما كانا منهكين، وقال، «لابد ان نجد مكانا لكى نرتاح» لكنها اصرت «لنبحث، لنبحث» وبحثا بكفاءة عالية حتى انتهيا بان عثرا على ما يريدان، لأنهما عثرا عليه ولم يكتشفاه، وتم ذلك بأبسط طريقة فى العالم، كانت السماء قد انجلت، وتحول الليل الأسود فى الشرق إلى زرقة عميقة، عندما سمعا، عند مستوى ادنى من الطريق، صهيلا مكتوما ، معجزة لطيفة، إنه هناك، وذهبا الى المكان ووجدا حصانا أبقع، لم يكن الله هو الذى وضعه هناك لاثراء قائمة معجزاته ، لكن صاحب الحيوان الشرعى، الذى قال له البيطار، «ضع له هذا

الدهان على الجرح واتركه ينام فى العراء، افعل ذلك ثلاث ليال متتالية ، ابتداء من يوم الجمعة، وإذا لم يشف الحصان اعيد لك نقودك وافقد الاسم الذى احمله»، لابد من العثور سريعا على سكين لقطع الحبل، فلا يمكن نقل حصان مقيد، لكن ماريا جافيرا تعرف كيف تتكلم مع هذه الحيوانات، فالبرغم من عصبية الحيوان الذى لم يتعرف على تلك التى تقوده، فإنها نجحت فى ان توجهه نحو ظل الاشجار وهناك، معرضة نفسها لخطر ان يدوس عليها او ان تحصل على ضربة حافر قوية، نجحت فى فك عقدة الحبل الخشن، بشكل عام تربط العقدة فى مثل هذا الموقف بحيث يسهل فكها، لكن ربما يجهل الناس فى هذه المنطقة هذا العلم، ولحسن الحظ، فهم الحصان انه يراد تحريره، والحصول على الحرية طيب فى جميع الاحوال حتى لو كان المجهول فى الانتظار.

وعادا سالكين طرقا غير مباشرة، وكانا يعتمدان أكثر من أى وقت على موهبة الكلب لكى يحذرهما عند حدوث اى اقتراب مشبوه ويخلصهما من أية ورطة عند ظهور جيرة غير مرغوب فيها، وعندما اشرق النهار تماما، كانا قد ابتعدا جدا عن مكان السرقة، وبدآ يقابلان أناسا فى الحقول وعلى الطرق، لكن لم يكن أحد يعرف الحصان، وحتى إذا عرفوه، فلم يكن بمقدورهم.. التعرف عليه، بسبب نقص الانتباه بدون شك، ولفرط ما كانت اللوحة بريئة ورائعة، وكأنها من القرون الوسطى، تتشكل اللوحة من آنسة جالسة على أحد جانبى الرهوان ، وفارس مترجل يتقدمها ويمسك الحيوان باللجام، الذى لم ينسيا لحسن الحظ ان يأخذاه، وكان كلب الحراسة يكمل هذه الرؤية الفاتنة التى كانت تبدو كحلم فى عيون البعض فى حين كان يرى فيها البعض، الآخر علامة على تغير طريقة الحياة، ويجهل كلا الفريقين ان الامر يتعلق بلصين شريرين من لصوص الخيول، وإذا

كان صحيحا ان المظاهر خادعة، فإننا نجهل فى كثير من الأحيان انها تخدع مرتين، وهو ما يمثل سببا ممتازا للثقة فى انطباعاتنا الأولى وعدم التقصى ابعد من ذلك، ولهذا السبب سيقول العديد من الناس اليوم، «لقد رأيت اماديس واوريان هذا الصباح، كانت تركب حصانا وهو مترجل، وكان يرافقهما كلب»، «بالتأكيد لم تكن اماديس واوريان لم ير أحد قط كلبا معهما لقد رأيتهما وهذا يكفى، هذه الشهادة تساوى مائة»، «لكن لم يكن هناك ذكر لأى كلب ابدا فى حياة وغراميات ومغامرات هذين الاثنين»، «اذن يجب اعادة كتابة حياتهما ، مرات ومرات قدر ما يكون ذلك ضروريا لادخال كل شىء فيها»، «كل شىء»، « قدر المستطاع».

وصلا الى المخيم فى بداية العصر، وتم استقبالهما بالعناق والضحكات. وألقى الحصان الابقع نظرة جانبية على الحصان الاشقر الذى كان يتنفس بجهد، «لديه جرح، جاف تقريبا، فى الكفل، لقد وضعوا عليه دهانا بدون شك وتركوه فى الخارج لمدة ثلاث ليال، ابتداء من يوم الجمعة، انه علاج ناجع»..

بينما يعود السكان الى منازلهم وتستعيد الحياة ببطء مجراها الطبيعى، كما يقال عادة، انتشرت المناقشات والجدل بين العلماء حول اسباب انجراف شبه الجزيرة فى اللحظة الاخيرة، حين كان يبدو انه لا يوجد شىء يمكن ان يمنع الكارثة .

وتعددت الاطروحات، وكانت جميعها متناقضة عمليا فيما بينها، مما ساهم فى جعل العلماء المجادلين غير قابلين للجبر رياضيا.

تصر الاطروحة الأولى على ان الاتجاه الجديد لشبه الجزيرة اتجاه طارىء وعرضى بشكل مطلق، نظراً لأن هذا الانجراف الأخير يكون بدقة زاوية قائمة مع الاتجاه السابق، وأن أى تفسير يفترض مسبقا حدوث فعل ارادى، سيكون غير مقبول، فضلا عن انه لن يعرف لمن يعزى هذا الفعل الارادى، فلا احد سيجازف، فى الحقيقة، بادعاء ان كتلة ضخمة من التراب والحجر يتحرك عليها عشرات الملايين من الاشخاص يمكن ان تنتج، بعملية جمع بسيطة أو ضرب متبادلة، ذكاء وقدرة يستطيعان ان يتعرفا بمثل هذه الدقة، التى قد يود البعض وصفها بأنها شيطانية.

وتزعم أطروحه أخرى أن تقدم شبه الجزيرة أو لمزيد من الدقة، سيرها، وسنفهم حالا لماذا تم استخدام هذه الكلمة، تم فى كل مرة طبقا لزاوية قائمة، وهو ما يسمح، طبقا لواقع الحال، بالإقرار بالاحتمال المذهل وهو عودة شبه الجزيرة إلى نقطة بدايتها، وذلك بعد سلسلة متوالية، أو بشكل أدق، مجموعة من الدفعات التدريجية ، التى ستكون ابتداء من لحظة معينة اقل من ملليمترية، إلى أن يحدث الانطباق والاستواء النهائى والتام.

تفترض الأطروحة الثالثة وجود مجال مغناطيسى على شبه الجزيرة أو ظاهرة أخرى مماثلة، بحيث يكون رد فعله عند اقتراب جسم غريب ضخم بما فيه الكفاية

هو انطلاق عملية تنافر ذات طبيعة خاصة جدا، فكما رأينا، لا يعمل هذا التنافر في الاتجاه المعاكس، للحركة الأصلية أو النهائية، لكنه على النقيض من ذلك يحدث انزلاقا، مقارنة بطريقة عمل السيارة، لكن الافتراض لم يحدد إذا كان ذلك الانزلاق في اتجاه الشمال أو الجنوب.

وأخيرا الأطروحة الرابعة، وهي أكثرها هرطقة وبدعة، فهي تعتمد على قوى ما وراء النفس* وتؤكد هذه الأطروحة أن شبه الجزيرة أفلتت من الاصطدام بفضل شعاع موجه تشكل من تركيز رغبة النجاة والفزع لدى السكان المكروبين، على واحد من عشرة من الثانية. وهذا التفسير، الذى اكتسب شعبية كبيرة، اصبح اكثر شعبية عندما عقد المدافع عنه مقارنة مع ما يجرى في مجال الفيزياء ، فى محاولة لجعل العملية فى متناول الاذهان غير المثقفة للسكان، حيث اوضح كيف ان سقوط الاشعة الشمسية على عدسة محدبة الوجهين تجعل هذه الاشعة تتجمع في نقطة أو البؤرة ، مما يحدث النتائج المعروفة من الحرارة والحرق والنار، وبالتالى فإن التأثير المكثف للعدسة له مواز واضح فى قوة الفكر الجماعي، شمس عشوائية، التى تستطيع أن ترتفع فى فترة الازمة، الى ذروة من القوة والقدرة إذا ما تم تنبيهها وتركيزها . ولم تصدم أحدا فظاظة هذا التفسير، بل على العكس تماما، لقد اقترح البعض معالجة كل الظواهر النفسية والذهنية والروحية وتلك الخاصة بالارادة والخلق، من الآن فصاعدا طبقا لمفاهيم الفيزياء، حتى وإن كان ذلك بطريقة القياس فقط، أو باستقراء ناقص. وتجرى حاليا دراسة الأطروحة وتطويرها ويهدف البعض الى تطبيق مبادئها الاساسية على الحياة اليومية، خاصة على عمل الأحزاب السياسية والمنافسات الرياضية، لكى لا نذكر سوى هذين المثالين المبتذلين.

---

* تتعلق بالظواهر النفسية غير المعروفة علميا.

غير أن المتشككين يصرون على أن الإثبات الحقيقى لكل هذه الافتراضات، فهى مجرد افتراضات، سيتحقق فى غضون بضعة أسابيع، إذا احتفظت شبه الجزيرة باتجاهها الحالى الذى سيجعلها تنزلق بين جرين لاند وايسلندا، وهى اراض غير مرحبة بالنسبة للبرتغاليين والاسبان المعتادين على عذوبة وعفوية مناخ معتدل يميل للحر أغلب العام. لو كان لابد أن يحدث مثل هذا الامر فإن الخلاصة المنطقية الوحيدة التى يمكن استخلاصها من ما تم رؤيته حتى الآن، أن هذه الرحلة، وبعد تفكير، لم تكن تستحق العناء.. ومن ناحية اخرى، فإن ذلك قد يكون أو سيكون طريقة مفرطة فى التبسيط لتناول المسألة، نظرا لأن كل رحلة تتضمن العديد من الرحلات الأخرى، فلا توجد رحلة تتلخص فى ذاتها، وإذا بدا لنا للوهلة الأولى أن احدى هذه الرحلات لا معنى لها بحيث نعتقد أن من حقنا أن نقرر أنها كانت لا تستحق العناء، فان الحس المشترك الذى يتم حجبه فى كثير من الأحيان نتيجة الكسل أو التعصب، يطلب أن نتأكد من أن الرحلات التى احتوتها هذه الرحلة أو القارة قد تبين فى نهاية المطاف أنها لم تكن مفيدة بالدرجة التى تجعلها جديرة بالعناء. إن كل هذه الاعتبارات مجتمعة تجعلنا نأخذ على عاتقنا وقف اصدار القرارات النهائية والتخمينات الأخرى.. إن الرحلات تتوالى وتتراكم مثل الأجيال وبين الحفيد الذى كنته والجد الذى ستكونه، أى أب من المحتمل أن تكون، ربما تكون أبا سيئا لكنه ضرورى.

قدر خوسيه انايسو المسار الذى ينتظرهم، إذا ارداوا تفادى المنحدرات الواسعة لجبال كنتابريك، فعليهم أن يسلكوا طرقا جانبية، وابلغهم بالنتائج، «ان المسافة من بالاس دى رى، حيث نوجد الى فالا دوليد، حوالى اربعمائة كيلو متر، ومن هناك حتى الحدود، انا آسف فعلى هذه الخريطة لاتزال هناك

حدود، اربعمائة كيلو متر اخرى، اجمالا ثمانمائة كيلو متر، انه سفر طويل بحصان يمشى الهوينى»، «حصان واحد، لا، لقد انتهى ذلك ، ولن يكون السير بطيئا ولكن عدوا، صححت «ماريا جافيرا، عندئذ قال جواكيم ساسا، «مع حصانين لجر العربة» وتوقف عند هذا الموضع من الجملة مع تعبير من يرى نورا داخل جمجمته ذاتها، وقهقه ضاحكا،«ما اعجب ذلك، لقد تركنا سيارة حصانين وها نحن سنسافر بحصانين آخرين، اقترح ان نسمي العربة، من الآن فصاعدا حصانين، فعلا وقانونا، كما يقال باللاتينية، على ما يبدو ، انا لم اتعلم اللاتينية على اية حال، اعرف ذلك بالسماع فقط، كما كان يقول احد اجدادى الذى كان يجهل ايضا لغة اسلافه يأكل الحصانان الشوفان خلف العربة، لقد التأم تماما جرح الحصان الاشقر، وإذا كان الحصان الابقع لم يسترد شبابه فانه استعاد قواه، واصبحت هيئته افضل كثيرا، انه يرفع رأسه أقل من الآخر لكنه لن يظهر بمظهر سيء فى المقرن»، وبعد عاصفة الضحك العام، جدد جواكيم ساسا سؤاله ، كنت اقول اذن، مع حصانين كم كيلو مترا سنقطع فى المتوسط فى الساعة؟»، وأجابت ماريا جافيرا ، «حوالي ثلاثة فراسخ»، «أى خمسة عشر كليو مترا طبقا للبيانات الحديثة»، «هذا هو»، «عشرة ساعات بمعدل خمسة عشر كليو مترا فى الساعة يعطي مائة وخمسين كيلو مترا، اى اننا سنصل فالادوليد فى اقل من ثلاثة ايام، وبعد ثلاثة ايام اخرى سنكون فى البرانس، سيتم الأمر سريعاً».

اتخذت ماريا جافيرا هيئة واجمة واجابت، «انه برنامج جيد، خاصة إذا كان المطلوب هو نفوق الحيوانات فى اقرب وقت»« «لكنك قلت»، «لقد قلت خمسة عشر كيلو مترا، لكن ذلك فى ارض منبسطة، وفى جميع الاحوال لن تسير الخيول قط

عشر ساعات فى اليوم»، «مع بعض الراحة»، «لحسن الحظ انك لم تنس الراحة»، وكان يستشعر من لهجة ماريا جافيرا الساخرة انها على وشك ان تغضب.

فى مثل هذا النوع من المواقف، وحتى لو كان الامر لا يتعلق بالخيول، يغدو الرجال متواضعين تماما، انها حقيقة تجهلها النساء فى اغلب الاحيان ، ولا يلاحظن إلا مايبدو لهن انه الغيظ الذكرى، ورد فعل السلطة المهانة، وهكذا تنشأ الخلافات واللبس، بينما قد يكون السبب المحتمل لكل ذلك هو رداءة الجهاز السمعى للبشر، وبشكل خاص للنساء اللاتى تتباهين رغم ذلك بان لهن سمعا مرهفا جدا، وغمغم جواكيم ساسا، «انا لا اعرف شيئا عن الخيول، لقد كنت فى سلاح المشاة»، ويتابع الآخرون المباراة الكلامية وهم يبتسمون، فالمسألة ليست خطيرة، والخيط الازرق اقوى رباط فى العالم، كما سنكتشف ذلك بعد قليل.. وقالت ماريا جافيرا، «الحد الأقصى سيكون ست ساعات يوميا إذا استطعنا ان نقطع ثلاثة فراسخ فى الساعة، وإلا فاننا سنكتفى بما تستطيع الخيول القيام به» ، وسأل خوسيه انايسو، «سنسافر غداً»، «إذا كان الجميع موافقين» اجابت ماريا جافيرا ثم وجهت كلامها الى جواكيم ساسا بصوتها الانثوى، «ماذا ترى»، واجاب وقد هدأ غضبه فجأة، «موافق» وابتسم.

لقد قيموا فى تلك الليلة ممتلكاتهم من النقود، كم اسكودة، وكم بيزيتا، وبعض النقود الاجنبية التى تمكن جواكيم ساسا من الحصول عليها قبل مغادرة بورتو، كان ذلك منذ بضعة ايام فقط وكأنه حدث منذ قرون، انها فكرة مجردة من اى ابتكار او طرافة، ان الامر كذلك بالنسبة لبعض الافكار لكنها لا تقاوم، مثل اغلب الاشياء العادية، لقد نفد تقريبا ما حملوه معهم من طعام عند مغادرة منزل ماريا جافيرا ، ولابد من التزود مرة اخرى بالمؤن، ولن يكون ذلك سهلا مع

الفوضى التى تسود مجال الاعاشة والتموين، وهذه الجماهير المفترسة التى لا تترك شيئا على طريق مرورها، ولا حتى قلب الكرنب، ناهيك عن عشش الدجاج التى نهبت، وكان ذلك ثمرة احتجاج المحتاجين عندما طلبت منهم مبالغ طائلة مقابل دجاجة صغيرة وهزيلة وعندما بدأ الموقف ينضبط، انخفضت الاسعار قليلا، لكن دون ان تصل الى مستواها الاصلى، انها القصة نفسها دائما، فالاسعار لا تعود ابداً إلى ما كانت عليه، المشكلة الآن انهم يحتاجون كل شىء، وحتى لو استمروا فى الطريق الضال فان السرقة ستكون صعبة ، ان حالة الحصان كانت حالة خاصة جدا، فلولا انه كان يعانى من جرحه لكان الآن يزين اسطبله ويساعد صاحبه القديم فى اعماله، بينما لا يعرف هذا الاخير عن مصير حيوانه إلا شيئا واحدا، هو ان خسيسين وكلبا ذهبوا به ، كما تشهد بذلك آثار الاقدام . يقال دائما ويعاد ان لكل مصيبة جانبها الحسن، ويؤكد هذا القول العديد من الناس، أو اكدوه بحيث لابد ان يكون الأمر متعلقا بدون شك بحقيقة عامة، ابتداء من اللحظة التى نهتم فيها بالتمييز بعناية بنصيب الخير ونصيب الشر والذين مقدر لهم هذا النصيب او ذاك . عندئذ اعلن بيدرو اورس «لابد من العمل لكسب بعض النقود» ، كانت الفكرة تبدو منطقية، لكن بعد وضع قائمة المهن ، تم التوصل الى الخلاصة التى كان يتعين توقعها، الا وهى ، إذا كانت جوانا كاردا لديها شهادة فى الآداب إلا انها لم تقم بالتدريس من قبل ، لقد بقيت فى البيت منذ زواجها، بالإضافة إلى أن الاهتمام بالأدب البرتغالى فى إسبانيا سيكون محدودا بالضرورة ، خاصة ان لدى الإسبان اسباب انشغال اخرى، أما بالنسبة لجواكيم ساسا فلقد سبق ان اعلن انه ينتمى لسلاح المشاة، وهو يعنى بذلك انه جزء من الكم الصغير المهمل من موظفى المكاتب ، انه نشاط نفيس، لا أحد يشك

فى ذلك، لكن فى فترات السلام الاجتماعى حيث تتم معالجة الاعمال العادية، ان بيدرو اورس طوال حياته يحضر الأدوية، وكان يعد برشام كينين لحظة تعارفنا عليه ، وللاسف نسى ان ينقل صيدليته معه، وإلا لكان بإمكانه أن يقدم استشارات عامة ، ويكسب من ذلكمالا لابأس به،لأن فى هذه المناطق الريفية من يقول صيدلى يقول طبيب. أما خوسيه انايسو فهو مدرس ، ويقول ذلك يكون قد قيل كل شىء، دون الحديث عن حقيقة انه يوجد الآن فى بلد يملك جغرافيا مختلفة وتاريخا مختلفا، إذ كيف يفسر للصغار الاسبان أن الجوياروتا كانت انتصارا بينما اعتادوا هم نسيان أنها كانت هزيمة ، ولم يبق سوى ماريا جافيرا، هى الوحيدة التى تستطيع أن تذهب للبحث عن عمل فى المزارع ، والوحيدة القادرة على أن تقوم بهذا العمل فى حدود قواها ومعارفها، وهى محدودة.

ونظروا إلى بعضهم البعض دون ان يعرفوا كيف ستكون حياتهم، وقال جواكيم ساسا مترددا ، «إذا كان سيتعين علينا ان نتوقف بشكل منتظم لكسب قليل من المال، فاننا لن نبلغ البرانس ابدا، فالمال الذى يتم الحصول عليه بهذه الطريقة لا يدوم أبدا، إذ يتبدد بمجرد كسبه، قد يكون الحل فى محاكاة الغجر، أعنى الذين يذهبون من مكان الى آخر ، انهم يعيشون من شىء ما» ، أكان ذلك سؤالا، أم شكا، ربما تنزل الهبة الالهية بالنسبة لهؤلاء الغجر من السماء مباشرة، وأجاب بيدرو اورس لانه قادم من أراضى الجنوب حيث يكثر الغجر، «البعض يبيع الخيول والبعض الآخر يبيع ملابس فى الاسواق وآخرون يبيعون مباشرة فى البيوت ، وتقرأ النساء الكف» ، «لا نريد سماع اى حديث عن الخيول ، يكفى هذا الحصان لخزينا فضلا عن انه عمل لا نفهم فيه شيئا .. أما بالنسبة لقراءة الكف فمن الافضل الا يطلب منا ذلك» ، «ناهيك عن انه يتعين البدء بشراء الخيول قبل بيعها، وما لدينا من نقود لا يكفى لذلك، طالما اننا اضطررنا لسرقة

هذا الحصان» وساد الصمت ، كيف ، لا يعلم أحد، ثم عندما كف الصمت ، قال جواكيم ساسا، الذى اتضح انه يفكر بشكل عملى اكثر من باقى المجموعة ، «لا أرى سوى مخرجا وحيدا للموقف ، لنشترى ملابس من احد تجار الجملة، ويوجد احدهم بكل تأكيد فى اول مدينة نمر بها، ثم نبيع الملابس فى القرى، بربح معقول، وسأتولى مهمة المحاسبة» . بدت لهم الفكرة جيدة، وكان لابد من التجربة لعدم توافر الافضل، بما ان ليس فى مقدورهم ان يكونوا مزارعين ولا صيادلة ولا مدرسين ولا تجار خيول، سيكونون بائعين جوالين، بائعين دوارين، يبيعون ملابس رجال وملابس نساء واطفال ، لا يوجد ما يشين فى ذلك ، وبإدارة العملية بشكل جيد سيسمح لهم ذلك بالحياة.

وبعد رسم خطة حياتهم ذهبوا للنوم، والآن حان الوقت للحديث عن كيف نظموا انفسهم داخل العربة، التى اصبح اسمها من الآن فصاعدا، «حصانان»، ينام بيدرو اورس فى الجزء الامامى بالعرض، على فراش ضيق من القش يكفيه بالكاد، ثم جوانا كاردا وخوسيه انايسو فى اتجاه الطول، فى الحيز الجانبى الخالى. الذى لا تشغله الاشياء التى حملوها معهم، والشىء نفسه بالنسبة لماريا جافيرا وجواكيم ساسا ولكن فى الجزء الداخلى قليلا.. وتشكل الملاءات المعلقة نوعا من الفصل الرمزى، فالحياء كبير، ولو ارادت جوانا كاردا وخوسيه انايسو، اللذان يحتلان وسط العربة، ان يخرجا اثناء الليل، فانهما يمران الى جوار بيدرو اورس الذى لا يغضب لذلك، انهم هنا يتقاسمون الازعاج مثلما يتقاسمون الباقى. وستسأل الاذهان الفضولية التى حبتها الطبيعة ميلا واضحا للمكر ، «متى اذن يطلقون العنان للقبلات والاحضان والعناق» . لنقل ان العشاق وجدوا طريقتين لاشباع رغباتهم الجسدية اللذيذة ، يذهب كل عاشقين الى الحقول بحثا عن مكان هادىء ومنعزل او يستغلان الابتعاد المؤقت . والمتعمد لرفاقهما ،

الذين لا يحتاجون لكلمات ، فبعض العلامات لا تخدع إلا إذا رفض فهمها، وهنا ، قد يكون المال ناقصا، لكن ليس المشاركة.

لم يرحلوا مع الفجر كما كان يريد المذهب الشعرى، فلماذا الاستيقاظ منذ الفجر طالما ان كل الوقت اصبح الآن ملكهم ، لكن لم يكن ذلك هو السبب الوحيد ولا الأقوى، ففى الواقع لقد تلكأوا فى الاستعداد واللبس والتزين، حلق الرجال لحاهم وتزينت النساء، وتم تفريش الملابس ، وحملوا إلى ركن مهيأ، فى أيكة دلوا مملوءا بماء من النهر واغتسلوا الواحد تلو الآخر، ولا يعلم احد إذا كان الازواج قد تجردوا من ثيابهم ، فلم يكن هناك شهود . وكان بيدرو اورس آخر من اخذ حمامه، واصطحب معه الكلب وكأنهما اثنين من الحيوانات المجنونة، نكاد نقول إنهما كانا يضحكان بنفس القدر، ويشقلب الكلب بيدرو اورس، والاخير يرش الكلب، وصاح فلان كان يمر من هناك، «يجب الا يعرض رجل فى هذه السن نفسه للسخرية العامة بهذا الشكل ، كان عليه ان يحترم نفسه اكثر من ذلك، انه عجوز بما يكفى لذلك». لم يبق اثر للمخيم، بالكاد بعض التراب المدعوس ، وطبطبة الماء تحت الاشجار، ورماد بين الاحجار المغطاة بالسواد، وسيكنس أول ريح كل ذلك، وسيسطح أول مطر غزير التربة، ويخفف الرماد.. ان الاحجار وحدها هى التى ستشهد بان اشخاصا مروا من هنا، وقد تستخدم إذا لزم الامر فى صنع موقد آخر.

كان يوما جميلا للسفر. نزلوا الى الطريق، تاركين سفح الارتفاع الصغير حيث أقاموا، وماريا جافيرا تقود العربة، لا تريد أن تعهد لأحد بالزمام، إذ يتعين معرفة التحدث الى الخيول، وهناك احجار ووديان ووهاد ، ولو انكسر محور، فستكون النهاية، لا نتحدث عن المصائب، لم يتفاهم بعد الحصان الاشقر بشكل جيد مع الحصان الابقع، يبدو ان آل يتشكك فى ثبات عرقوب بيج، بمجرد ربطه

مع رفيقه، إلى الشد نحو الخارج، وكأنه يريد أن يبتعد عنه، مما يضطر آل إلى تعويض ذلك ببذل جهد اضافي، وتراقب ماريا جافيرا مناوراتهما، وعندما سيصلون إلى الطريق ستعيد بيج إلى النظام، وبموازنة المعاملات الطيبة، وضربات السوط وألعاب الزمام، ستنجح فى تقويم عيب بيج. إن جواكيم ساسا هو الذى اخترع لهما هذين الاسمين بيج وآل، لأن هذين الحصانين ليسا مثل حصانى السيارة، المتقاربين جدا من بعضهما ويرددان الشئ نفسه وفي نفس الوقت، بحيث لا يمكن التمييز بينهما، فى حين يختلف هذان الاثنان فى كل شئ، اللون والسن والقوة والهيئة، والطبع، بحيث يكون من المبرر تماما تمييزهما ومنح كل منهما اسما، «لكن بيج يعنى خنزير بالإنجليزية، وآل قد يكون اختصار الفريد مثلا» قال خوسيه أنايسو محتجا وأجاب عليه جواكيم ساسا، «اننا لسنا لدى الإنجليز، وبيج يعنى Pigarso* وآل هو alezan * وأنا الأب الروحى لهما»، تبادلت جوانا كاردا وماريا جاڤيرا الابتسامات أمام صبيانية رجليهما، وبشكل غير متوقع انطلق بيدرواورس قائلا، «لو كان الأمر يتعلق بمهرة وحصان ويكون لهما طفل، لكان من الممكن تسميته بيجال»، إن من يعرفون الثقافة الأوروبية قد ينظرون إليه مذهولين، كيف بحق الشيطان تذكر بيدروأورس بيجال، لكن سوء التفاهم نابع منه، هناك دائما مصادفات، وبعض أنواع الجناس الناجحة بشكل خاص ليست سوى الثمرة اللاإرادية للصدفة، أن بيدرواورس يجهل تماما بيجال.

لم يقطعوا خلال هذا النهار الأول سوى سبعين كيلو مترا، أولا لأنه لم يكن مطلوبا اجهاد الخيول بعد راحة طويلة مثل التى عرفوها، كان الأول محموما والآخر ينتظر قرارات تأخرت، كما كان يتعين عليهم المرور بمدينة لوجو، وهى

★ أحد سكان مدينة بيج.

★ حصان أشقر.

خارج طريقهم قليلا، فى الشمال الشرقى، لكى يتزودوا فيها بالبضائع التى ستسمح لهم بالحياة واشتروا الصحيفة المحلية للتعرف على آخر الانباء، وكانت صورة لشبه الجزيرة هى أكثر الأشياء المؤثرة التى رأوها فيها، وإن كانت متأخرة بيوم عن الواقع حاليا، وكان الانتقال نحو الشمال واضحا، وأشير إليه بشكل تعليمى برسم مصحح، لم يعد هناك أى ظل للشك، كانت الزاوية قائمة تماما، أما بالنسبة للأطروحات الشهيرة التى سبق تلخيصها ، فإن الصحيفة لم تقل عنها الشئ الكثير ، أما فيما يتعلق بموقف الصحيفة ذاتها فإنه يلاحظ نوعا من التشكك، الصحى ربما، نتيجة لخيبات أمل قديمة بدون شك، لكن إرجاعه أيضا إلى ضيق الرؤية المعروفة للمراكز الحضرية الصغيرة فى الأقاليم.

وفى محلات الملابس الجاهزة، ترددت المرأتان طويلا، إذ كان يقع على عاتقهما بالطبع اختيار المجموعة، وكان جواكيم ساسا إلى جوارهما يقوم بالحسابات، ترددتا بالنسبة للمعايير التى يتعين اتباعها، هل يجب شراء ملابس شتوية للشتاء الذى يقترب أم العمل فى المدى المتوسط، للربيع القادم، «أعتقد أنه لايقال فى المدى المتوسط ولكن على المدى المتوسط»، صححت جوانا كاردا، وأجاب عليها جواكيم ساسا بجفاء، «إن ذلك نقوله فى المكتب، فى المدى القصير والمتوسط والطويل». واتضح أن تأثير احتياجاتهم الشخصية كان حاسما فى القرار النهائى، كان جليا أنهم جميعا يرتدون ملابس خريفية غير لائقة، وكان مستحيلا ألا تستسلم ماريا جافيرا وجوانا كاردا لبعض الاغراءات الشخصية، لكن بعد وزن الأمور جيدا، توصلوا إلى أن البضاعة التى تم الحصول عليها واحتمالات المستقبل التى تقدمها أقرب إلى أنا تكون طيبة، شريطة أن يكون الطلب عند مستوى العرض. أبدى جواكيم ساسا بعض القلق، «لقد أنفقنا أكثر من نصف النقود التى كانت معنا، وخلال أسبوع من الآن إذا لم نسترد نصف هذا النصف ستكون لدينا مشاكل، لأن فى موقف مثل موقفنا، بدون رأس مال جارى وبدون إمكانية اللجوء

للاقتراض المصرفى، يصبح من الضرورى حسن إدارة المخزون والتطابق التام بين الخصوم والأصول، بدون اختناق إلى أعلى أو إلى أدنى». «كان ذلك هو حديث جواكيم ساسا، بسلطة المدير المقبولة عن طيب خاطر من الآخرين، عند أول توقف قاموا به بعد مغادرة لوجو.

لقد فهموا جميعا أن تجارتهم لن تجرى على بحر من الورود عندما اضطرتهم مشترية موهوبة فى فن المساومة إلى خفض سعر جونلتين إلى حد إلغاء أى ربح، وشاء الصدفة أن تكون جوانا كاردا هى البائعة ، واعتذرت للمجموعة. ووعدتهم أن تكون ، فى المستقبل ، أشد التجار العاملين فى شبه الجزيرة شراسة، وذكرهما جواكيم ساسا مجددا «إذا لم ننتبه، سنفلس ، ولن تكون لدينا بضاعة ولا نقود، ولا يتعلق الأمر بإعاشتنا فقط، فلدينا ثلاثة أفواه أخرى، الكلب والحصانان»، ورد عليه بيدرواورس «ان الكلب يتدبر أمره وحده»، «نعم، هذا ما حدث حتى الآن، لكن إذا عاد يوما بخفى حنين من الصيد، وذيله منخفض، وليس لدينا ما نقدمه له ليأكله، ما الذى سنفعله»، «سأعطيه نصف نصيبى»، «موقفك جميل جدا، لكن يجب أن يكون شغلنا الشاغل هو زيادة الثراء وليس اقتسام الفقر»، «فى هذه الحالة بالذات، لا ينبغى أخذ كلمة الثراء والفقر حرفيا، لأنه فيما يتعلق بنا فإننا الآن أكثر فقرا مما نحن فى الحقيقة، إن الموقف غريب، إننا نعيش وكأننا قررنا أن نكون فقراء»، وقالت جوانا كاردا، «لو كان الأمر يتعلق باختيار، لا اعتقد أنه كان اراديا، إنها الظروف، لكننا لا نقبلها كلها، نقبل فقط تلك التى تخدم أهدافنا الشخصية، إننا مثل الممثلين، أو إننا لسنا سوى شخصسات مسرحية، وتساءلت: إذا عدت عند زوجى، مثلا، من سأكون، الممثل خارج دوره أو شخصية مسرحية تلعب دور الممثل ، وأين سيكون موقعى بين الاثنين» استمعت لها ماريا جافيرا، صامتة، وانطلقت الآن فى بداية محادثة جديدة، وكأنها لم تفهم جيدا ما قاله الآخرون. «يولد الناس كل يوم، ويتوقف عليهم وحدهم أن يستمروا فى أن يحيوا اليوم مثل

الأمس أو أن يستعيدوا فى البدء اليوم الجديد، هذا اليوم الآن»، «لكن توجد التجربة، كل ما نتعلمه مع الوقت»، قال بيدرواورس مذكرا، «نعم، إنك على حق قال خوسيه أنايسو، لكننا نعيش حياتنا بشكل عام كما لو لم تكن لدينا تجربة سابقة، أو أننا لا نستخدم سوى جزء من هذه التجربة، الجزء الذى يسمح لنا بالاستمرار فى أخطائنا زاعمين التفسيرات ودروس التجربة، لقد جاءتنى الآن فكرة قد تبدو لكم ضربا من العبث، وربما تفسيرا لا منطقيا، قد يكون تأثير التجربة أهم بكثير لمجموع المجتمع عنه بالنسبة لكل أفراده، إن المجتمع يستفيد من تجربة الجميع ، لكن لا أحد يريد ، أو يعرف أو يستطيع أن يستفيد بالكامل من تجربته الشخصية».

وظلوا يتناقشون فى هذه القضايا المثيرة للاهتمام، تحت ظل إحدى الاشجار، ساعة الغداء، وهو غذاء بسيط كما يليق بمسافرين لم ينهوا بعد طريقهم ، وإذا كان بعض الناس يعتبرون هذا البحث فى غير محله، نظرا للمكان والظروف، فإننا تذكرهم أن تعليم وثقافة المسافرين يسمحان لهم بشكل عام، دون اقتراف أخطاء مشينة، بإقامة حوار يمثل مضمونه فى الواقع عددا من العيوب، وذلك من وجهة نظر أدبية بحتة تهدف إلى ظاهر حق لا يقل دقة، غير أن كلامنا، بغض النظر عن قدراته، قام أو قال، ولو مرة فى حياته على الأقل، اشياء أعلى بكثير من طبيعته ووضعه ، ولو أمكن نزع الناس من رتابة الحياة اليومية التى يفقدون فيها كل محيط ، أو لو نجح هؤلاء الناس فى أن يجبروا أنفسهم على أن ينتزعوها من فخاخها وسجونها ، فكم من العجائب سيتمكنون من تحقيقها، وكم من الجوانب الأساسية للمعرفة سيكونون قادرين على تبادلها. لأن كلا منا يعرف أكثر بكثير مما يعتقد ، وكل واحد من الآخرين يعرف أكثر بكثير مما نرغب فى الاقرار به. لقد تجمع خمسة أفراد هنا لأسباب غير تقليدية ، وبالتالى سيكون مدعاة للدهشة ألا ينجحوا فى أن يقولوا لبعضهم أشياء تخرج عن المعتاد.

نادرا ما تشاهد سيارة فى هذه النواحى ، تمر من وقت لآخر شاحنة كبيرة مسئولة عن تموين السكان، وهى تحمل مواد غذائية اساسا، لأن مع كل هذه القصص، من الطبيعى أن يختل نظام التجارة المحلية بعض الشئ، يوجد نقص فى بعض الأشياء ثم فجأة توجد زيادة، لكن كل ذلك مغتفر ، إذ يجب ألا ننسى أن الإنسانية لم تجد نفسها أبدا فى موقف مماثل، بالنسبة للابحار، لقد أبحرت لكن على متن سفن صغيرة. يسير العديد من الناس على الأقدام، وآخرون يركبون الحمير، ولو كانت الأرض أقل وعورة لشوهد عدد اكبر من الدراجات. إن طبيعة الناس، هنا طيبة، بشكل عام، فهم مسالمون، لكن قد يكون شعور الحسد هو الشعور الوحيد الذى لا يختار طبقة اجتماعية بعينها والذى يظهر فى النفس البشرية بأعلى تكرار، ولذلك فإن عربة الحصانين كانت تثير طمعا نهما عند مرورها فى المشهد ، لحظة ما تكون الظروف صعبة للغاية، ولقد تكرر ذلك أكثر من مرة. كان فى إمكان أية مجموعة عنيفة ومصممة أن تتغلب بسهولة على شاغلى العربة، فأحد الرجال مسن، والآخران ليسا شمشون ولا هرقل، أما المرأتان فستكونان فريسة سهلة، بمجرد هزيمة رفاقهما، صحيح أن ماريا جافيرا امرأة تستطيع أن تقاوم رجلا لو تسلحت بجمرة، كان من المحتمل تماما ألا يفلت المسافرون قط من هجوم غادر، سيتركهم فى حالة هزيمة تامة، المرأتان يائستان ومغتصبتان، والرجال مجروحون ومهانون، لكن كان هناك الكلب، الذى كان يخرج من تحت العربة عندما يرى أحدا يقترب، وسواء كان فى المقدمة أو فى الخلف، أثناء التوقف أو السير، كان بشدقه الساقط مثل شدق الذئب يحدق بعيونه ذات النار الباردة فى المارة الأبرياء فى أغلب الأحيان، وإن كان فزعهم لا يقل عن فزع الاشرار. ولو أخذ فى الاعتبار كل ما فعله هذا الكلب حتى الآن، فإنه يستحق

تماما لقب الملاك الحارس، بالرغم من التلميحات المتكررة عن أصله الجهنمى المزعوم ، وبالاحتماء بسلطة التقاليد المسيحية وغير المسيحية، يمكن الاعتراض دائما بأن الملائكة تم تمثيلهم فى كل الأزمنة بأجنحة، لكن فى الحالات التى لا يحتاج فيها الملاك للطيران ، وهى كثيرة، ما الضرر الذى يمكن أن يحدث إذا ظهر فى شكل مألوف مثل شكل كلب، ولن يضطر إلى النباح، وهو مالا يناسب جوهره الروحى على أية حال، ولنقر إذن، وهو أقل ما يمكن عمله ، أن الكلاب التى لا تنبح هى ملائكة تباشر عملها.

وعند هبوط الليل، خيموا على ضفاف نهر مينهو، على مقربة من قرية صغيرة اسمها بورتومارين، وبينما كان خوسيه أنايسو وجواكيم ساسا يرحلان ويعالجانا الحصانين، ويعدان النار، ويقشران البطاطس ويقطعان الخضراوات، كانت المرأتان، فى حراسة بيدرواورس وملاكهم الحارس، تستفيدان من آخر ضوء للنهار لكى يطرقا بعض أبواب القرية ، وبسبب اللغة ، كانت جوانا كاردا لا تفتح فمها ، من المحتمل على أية حال أن تكون صعوبات الاتصال هى التى خدعتها أول مرة، لكنها حفظت الدرس للمستقبل، فهو الحيز الوحيد الذى يمكن تصحيح الأخطاء فيه . لم تكن العمليات سيئة، لقد باعوا بسعر طيب، وعندما عادوا إلى المخيم، كان من المكن أن يتصوروا أنهم فى منزلهم، النارمثبتة جيدا بين الاحجار، والفانوس المعلق فى العربة يكون نصف دائرة من الضوء فى الحيز الخالى، وكان دخان الطهى واضحا.

وبينما كانوا يتناقشون بعد العشاء حول النار. سأل جواكيم ساسا، وقد انتابه إلهام مفاجئ، «من أين يأتيك هذا الاسم جافيرا، وما معناه»، وأجابت ماريا جافيرا، «طبقا لما أعرفه، لا أحد يحمل هذا الاسم ، أمى حلمت به عندما كنت

داخلها، كانت تريد ان يكون اسمي جافيرا ، فقط، لكن أبى اراد أن يسميني ماريا أيضا، وبقى الاسم هكذا، ماريا جافيرا»، «أنت لا تعلمين إذن ماذا يعني»، «لقد جاء اسمي من حلم»، «إن الأحلام تعني دائما شيئا ما»، «لكن ليس الاسم الذى يأتي من حلم ، والآن قولوا لى اسماءكم»، وقال الواحد تلو الآخر اسمه ، وعندئذ قالت ماريا جافيرا التى كانت تحرك النار بجذوة، «إن الاسماء التى نحملها ما هى إلا احلام، وإذا حلمت باسمك فبمن سأحلم».

لقد تغير الجو، إنها صيغة مثالية الايجاز ، فهى تخبرنا بطريقة غير مؤذية أو حيادية بشكل موضوعى، أنه إذا كان قد تغير فذلك بأن أصبح رديئا، إن السماء تمطر مطرا ناعما لخريف فى بدايته ، مطر يثير الرغبة فى التنزه فى الحقول بحذاء برقبة وواقى مطر قبل أن تغدو التربة مبللة تماما، لاستقبال تراب الماء الرقيق على الوجه ، والاستمتاع بحزن الخلفيات الضبابية فى الأفق، وحزن أول الأشجار التى فقدت اوراقها وتبدو عارية فجأة، ومرتجفة من البرد، كأنها تلتمس الملاطفة ، وهناك بعض الأشجار التى تثير الرغبة في ضمها إلى القلب ، وقد استولت على المرأة شفقة رقيقة ، وتبدو عند الاقتراب من قشرتها المبللة كأنها وجه بللته الدموع .

لكن غطاء العربة يرجع إلى العصور الأولى للأغطية ، عندما كانت التكنولوجيا لا تهتم كثيراً بعدم نفاذيه الماء ، وبالرغم من أنها كانت متينة فيما يتعلق بكل ما هو نسيج وحبكة ، كان ذلك قرنا ومكانا صنعا لاناس قادرين على أن يتركوا ملابسهم تجف على أجسادهم، مع كوب من العرق كوقاية وحيدة، ولم يكن هذا الكوب متاحا دائماً . أضف إلى ذلك مرور الفصول، وجفاف الألياف، وبلى الخياطات وستتوصلون إلى النتيجة التالية، إن الغطاء الذى نزع من السيارة لا يمكنه أن يكون علاجا لكل هذه الأوجاع ، ومن ثم فإنها تمطر داخل عربة الحصانين واستمرار هذا المطر يكذب تأكيد جواكيم ساسا، الذى كان يزعم أن الخيوط المبتلة تزداد سمكا، مما يؤدى إلى تقليل المسافة الفاصلة بينها ، وهو تأثير لا يمكن إلا أن يكون إيجابيا ، المهم هو القدرة على انتظار حدوث ذلك. لا يوجد، نظريا، ما هو أصح من هذا الرأى، لكن الدليل العلمى شيء آخر تماما، ولو أنهم لم يهتموا ببرم وحماية المراتب لتعذر عليهم النوم عليها عما قريب.

وعندما تزداد شدة المطر وتسنح الفرصة ، يحتمى المسافرون تحت الجسور ، إلا أنها نادرة على هذا الطريق فهى مجرد طريق محلية تقع خارج محاور الطرق الكبرى، التى تتخطى الطرق الثانوية ، لكى تتفادى التقاطعات وتطلق العنان للسرعة، وأثناء أحد الأيام التالية، عنت لخوسيه أنايسو فكرة شراء طلاء أوورنيش يمنع تسرب الماء، لكن كان الطلاء الوحيد المتاح، وهو قرمزى صارخ، لا يكفى حتى لتغطية ربع الغطاء، وكانت لدى جوانا كاردا فكرة أفضل وأعقل بكثير، وهى حياكة قطع كبيرة من البلاستيك معا حتى تشكل غطاء، ثم تكرار الشىء نفسه بعد ذلك للحصانين ، وبما أنها كانت تتوقع ألايتاح لهم العثور، على بعد ثلاثين كيلو مترا فقط، على طلاء من نفس اللون لا يسرب الماء، فالأفضل أن تتجول العربة عبر العالم الفسيح بغطاء ملون بألوان براقة، أخضر وأصفر ، برتقالى وأزرق ، بنفسجى، أبيض على أبيض ، بنى ، بل وربما أسود، وتبعا لوحى الفنان ، سيتم تزيينه بخطوط ودوائر ومربعات ، أما الآن فإن السماء تمطر.

بعد حوارهم الموجز وغير القاطع عن معنى الأسماء ودلالة الأحلام ، انصب موضوع النقاش الجديد على الاسم الذى سيكون من المناسب إطلاقه على الحلم الذى هو الكلب، تفرقت الآراء، ولا شك أننا نعرف من قبل أن الآراء ليست فى الحقيقة سوى مسألة ذوق، بل لنقل ان الرأى هو للوهلة الأولى التعبير العقلانى عن الذوق . واقترح بيدور أورس اختيار، «فيدل (*)» أو «بيلوت(**) »، وهى أسماء ريفية وتقليدية وكلاهما ملائم تماما ومبرران إذا ما أخذت فى الاعتبار الميزات المعنوية، والأخلاقية للحيوان، فهو دليل معصوم من الخطأ ويتميز بأمانة لا تشوبها

★ وفى.

★★ دليل.

شائبة، وتتردد جوانا كاردا بين «متربص» و «مقاتل»، اسمان لهما تناغم عدوانى ولا يبدو عليهما أى تطابق مع الشخصية التى اقترحتهما ، لكن للنفس النسائية أغوار يصعب سبرها .

أما بالنسبة لماريا جافيرا ، فلقد اقترحت ، وهى نصف خجلانة من فكرتها ، تسميته «الملاك الحارس»، مع أنها لا تستطيع تفسير سبب ذلك، وهى ليست المرة الأولى التى يصادفها مثل هذا الموقف ،، ويبدأ وجهها يحمر وهى تقول هذا الاقتراح وتشعر بمدى ما سيثيره من سخرية مناداته باسم الملاك الحارس، خاصة وسط الناس ، حيث سيرون أمامهم ، بدلا من كائن نورانى يرتدى رداء ابيض لامعا، ويعلن حفيف الأجنحة عن قدومه ، كلبا مثيرا للرعب ، مغطى بالوحل وبدم آخر أرنب، ولا يحترم سوى أسياده ، إذا كان هؤلاء هم أسياده فعلاً. وأراد جواكيم ساسا أن يكبح انفجار الضحكات الذى أعقب اقتراح ماريا جافيرا ، وذلك بأن اقترح أن يسموا الكلب «كونستنت(*)» ، كان يتذكر أنه قرأ هذا الاسم فى أحد الأعمال «لا أتذكر حاليا شيئاً لكن (كونستنت) إذا كنت قد فهمت معنى هذه الكلمة جيداً ، يشمل كل ما ذكرناه، وفى ، ودليل، ومتربص ، ومقاتل، وحتى ملاك حارس. لأنه لو لم تكن إحدى هذه الصفات ثابتة ودائمة ، فإن الوفاء يضيع والدليل يفقد طريقه، والمتربص يهجر موقعه ، والمقاتل يستسلم ، والملاك الحارس يسمح لنفسه أن ترشوه الفتاة التى كان عليه حمايتها ضد الإغراءات» ، وصفق الجميع، مع أن الحل الأفضل برأى جواكيم ساسا هو ببساطة تسميته «كلب» فنظرا لأنه الوحيد من نوعه هنا، فلا مجال قط لاختلاط النداءات والردود، سوف يسمونه إذن «كونستنت» لكن كل هذا الجهد الذى بذل فى التعميد كان غير ذى

★ ثابت.

نفع، لأن الحيوان يرد على كل الأسماء التى تطلق عليه بمجرد أن يفهم أن الكلمة ، أيا كانت ، موجهة له ، حتى وإن كان يطفو فى ذاكرته أحيانا اسم آخر «اردون» اسم لم يتذكره أحد. إن من أعلن ذات يوم، على نقيض رأى ماريا جافيرا ، أن الاسم ليس سوى حلم، كان على حق.

إنهم يسلكون طريق سان جاك القديم دون أن يعرفوا ذلك، ويعبرون مناطق ذات أسماء محملة بالأمل أو بذكريات سيئة ، يتوقف كل شىء على الحوادث التى عاشها المسافرون فى تلك الأزمنة البدائية فى هذه المناطق ، ساريا، وساموس، أو ڤيلا فرنكا دل بيرزو، والأخيرة هى المفضلة ، ففيها يستطيع أى زائر مريض أو منهك أن يذهب ليطرق باب كنيسة القديس، ويفوز بنفس الغفران الذى كان سيحصل عليه لو ذهب إلى سان - جاك دى كمبوستل ، وهو ما كان يعفيه من الذهاب إلى هناك. إن للعقيدة حلولها التوفيقية منذ تلك الأزمنة، لكن ذلك لا يمثل شيئاً مقارنة بما يحدث الآن حيث الحلول التوفيقية أكثر مدعاة للمكافأة عن العقيدة ذاتها ، هذه العقيدة أو أىَ عقيدة أخرى، لكن هؤلاء المسافرين يعرفون على الأقل أنهم إذا كانوا بدون رؤية جبال البرانس ، فعليهم أن يذهبوا إليها ويلمسوها بالأصبع ، لأن القدم لا تكفى فهى أقل حساسية، أما بالنسبة للعينين فإنهما تخدعان أكثر بكثير مما نعتقد ، بدأ المطر يهطل بغزارة أقل فى قطرات متفرقة توقفت تماما فى نهاية الأمر، لم تصف السماء ، وهبط الليل بسرعة أكبر، إنهم يخيمون تحت الأشجار لكى يحتموا من زخات مطر أخرى محتملة ، على الرغم من الدور الايبيرى الذى قاله بيدرو اورس «من يحتمى تحت شجرة يبتل مرتين» ، إنها نسخةِ برتغالية معدلة. لم يكن من السهل إشعال النار، لكن مهارة ماريا جافيرا تغلبت فى النهاية على مقاومة الخشب المبتل ، الذى كان يطقطق ويفور عند الأطراف وكأنه يصب عصارته ، أكلوا بقدر، وإن كان بما يكفى لكى لا

تئن معداتهم فى وسط الليل ، لأن كما يعلمنا مثل آخر، «من نام بدون عشاء ، قضى الليل يحرك أردافه» ، إنها الصيغة الاصلية ، تعشوا داخل العربة، على ضوء اللمبة التى كانت تدخن، كان الجو ثقيلا ، الملابس مبتلة ، والمراتب مبرومة وموضوعة فوق بعضها ، وكل ممتلكاتهم الأخرى مكدسة، إن مثل هذا المنظر يعد ضربة خنجر لكل ربة بيت ماهرة، لكن كما أن الأشياء السيئة لا تدوم، فلقد انتهى المطر بأن توقف، وبمجرد ظهور أول شعاع شمس، ستبدأ مباشرة عملية تنظيف كبيرة، فيتم فك المراتب لكى تجف حتى أصغر قشة فيها، ونشر الملابس على الشجيرات وعلى الأحجار، وعند الذهاب لجمعها ستكون لها تلك الرائحة الساخنة الطيبة التى تتركها الشمس حيث تمر، وأثناء كل ذلك الوقت، ستقوم المرأتان، مكونتان لوحة أسرية جميلة ، بضبط وحياكة الأشرطة البلاستيكية الطويلة التى ستحل كل مشاكلهم المائية المجد والبركة لمن اخترع التقدم .

لقد ظلوا يثرثرون ، متراخين وكسالى مثل من يتعين عليهم قتل الوقت انتظاراً لساعة النوم، عندئذ قطع بيدرو أورس ماكان هو نفسه يحكيه ليقول . «لقد قرأت قديما، لم أعد أعرف أين. أن المجرة التى ينتمى إليها نظامنا الشمسى تتجه نحو كوكبة نجوم نسيت أيضاً اسمها ، وأن هذه الكوكبة من النجوم تتجه بدورها نحو نقطة معينة من الفضاء، كنت أود أن أكون أكثر دقة لكن ذاكرتى لم تحتفظ بكل التفاصيل، فى النهاية ، ما كنت أريد أن أقوله، أنه كما رأينا ، فإننا هنا نسير على شبه الجزيرة ، وشبه الجزيرة تبحر فى البحر، والبحر يدور مع الأرض التى ينتمى إليها، والأرض تدور حول نفسها . وبينما هى تدور حول نفسها فإنها تدور أيضا حول الشمس ، والشمس تدور حول نفسها ، ويتجه كل ذلك مجتمعا نحو كوكبة النجوم الشهيرة، إننى أتساءل إذن لو لم نكن نحن أقصى نقطة لهذه السلسلة من الحركات داخل الحركات ، فأود أن أعرف ما يتحرك داخلنا وأين يذهب، لا، أنا لا أتكلم عند الميكروبات والبكتريا ، تلك الكائنات الحية التى تعيش

داخلنا ، إنني أتكلم عن شيء آخر، شيء يتحرك وربما يجعلنا نتحرك كما تتحرك وتحركنا كوكبة النجوم والمجرة والنظام الشمسي والشمس والأرض والبحر وشبه الجزيرة وعربة الحصانين .

ما هو اسم ما يحرك كل ذلك من طرف السلسلة إلى الطرف الآخر، لكن يحتمل أن تكون هذه السلسلة غير موجودة وأن يكون الكون مجرد حلقة، دقيقة جداً حتى تبدو أنها تتلخص فينا وفيما داخلنا أو فيما نحن داخله ، ولكنها فى الوقت نفسه كبيرة جداً بحيث يمكنها احتواء أكبر أبعاد الكون، أى الكون ذاته، ما هو اسم ما سوف يعقبنا»، «إن غير المرئى يبدأ مع الانسان». تلك كانت إجابة خوسيه انايسو المدهشة والتى قالها دون تفكير .

وتتساقط على الغطاء قطرات ماء كبيرة متباعدة ، وقد انزلقت من ورقة إلى ورقة، وتسمع فى الخارج حركات بيج وآل تحت الغطاء الواقى من المطر الذى لا يغطيهما بالكامل، هذا هو النفع الحقيقى للصمت ، ألا وهو سماع أن ما يقال ليست له أهمية.. إن كل فرد من الموجودين هنا يعتقد أنه مضطر لأن يشارك بمعرفته فى هذا المجمع العالى، لكن يخشى الجميع أن يفتحوا أفواههم وأن يروا أن ما يخرج منه، ليس ضفادع الأسطورة، لكن مجموعة من الترهات الأونطولوجية عن الكائن ، وإن كان من المسموح الشك فى ملاءمة مثل هذه الكلمة فى مثل هذا الإطار الخشن المكون من العربة، وقطرات المطر والحصانين، دون نسيان الكلب النائم، ولأنها أقلهم تعليما ، كانت ماريا جافيرا هى أول من تكلم، «يمكن تسمية غير المرئى الله»، لكن هناك نبرة تساؤل ما فى جملتها ، وهو أمر مثير للفضول، «او ارادة» اقترح جواكيم ساسا ، «أو ذكاء»، أضافت جوانا كاردا ، «أو تاريخ» جاءت الخاتمة من خوسيه انايسو، أما بيدرو اورس، فلم يكن لديه أى اقتراح يقدمه، واكتفى بطرح السؤال ، ويخطيء من يعتقد أن ذلك أسهل ، فعدد الاجوبة التى تنتظر الاسئلة لا حصر لها .

إن الحكمة تعلمنا أنه يتعين وقف بحث موضوعات معقدة بهذا القدر قبل أن يبدأ كل مشارك فى قول اشياء مختلفة من تلك التى سبق أن تقدم بها وليس ذلك لأن من الخطأ تغيير الرأى، وإنما لأن الاختلافات تتنوع لدرجة أنه قد يحدث، وهو ما يحدث عادة، أن تعود المناقشة إلى نقطة بدايتها دون أن يلاحظ المشاركون ذلك. وفى الحالة التى تعنينا، فإن الجملة الأولى الملهمة التى قالهاخوسيه انايسو، بعد أن جالت بين الأصدقاء، انتهت إلى الخلاصة العادية التى تقول بعدم القدرة على رؤية الله وهى خلاصة واضحة وأكثر من جلية، أو إلى الإرادة أو الذكاء وربما إلى التاريخ، وإن كان ذلك أقل وضوحا وعادية. ويقاوم خوسيه انايسو النعاس، وهو يجذب إليه جوانا التى تشتكى من البرد، يريد أن يفكر فى فكرته، ومعرفة إذا كان التاريخ فعلا غير مرئى، وإن كان الشهود المرئيون للتاريخ يكسبونه إمكانية رؤية كافية، وهل إمكانية الرؤية النسبية للتاريخ ليست سوى مجرد غطاء، مثل الملابس التى يرتديها الرجل الخفى، والذى يبقى خفيا بالرغم من تلك الملابس. لم يواصل طويلاً هذه البهلوانيات الذهنية، وذلك لحسن الحظ، لأنه قبل أن يغرق فى النوم مباشرة، كان تفكيره يتمرن فى تمييز الفرق الموجود بين غير المرئى واللامرئى، وهو فرق واضح لمن يفكر قليلا، لكنه لا يمثل أية أهمية خاصة فى الحالة التى تعنينا، وفى ضوء النهار، تصبح كل هذه البلبلة أقل أهمية بكثير. وبما أن سماء هذا الصباح صافية وبلا غيوم، والشمس اشرقت دون أن تضايقها السحب، وأن ذلك سيستمر على ما يبدو، فإن الفلاسفة الليليين تبددوا تماما، ويتركز كل الاهتمام الآن على حسن سير العربة عبر شبه الجزيرة، ولا يهم كثيراً إن كانت الأخيرة تندفع فوق الماء أو لا، فحتى لو كان طريق حياتى يجب أن يقودنى إلى نجمة فإن ذلك لا يعفينى من أن أجوب طرق العالم.

وفى عصر اليوم نفسه، وبينما كانوا يتفرغون لمشاغلهم، علموا أن شبه الجزيرة، بعد أن بلغت فى خط مستقيم نقطة معينة شمال جزيرة كورفو، الواقعة

أقصى شمال جزر الآزور، يهدف هذا الوصف الموجز إلى توضيح أن الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة، أى رأس تاريفا ، كانت تقع على خط طول آخر ، إلى الشرق أكثر، إذن عند شمال الطرف الشمالى لكورفو ، ولمزيد من الدقة، عند بونتا دوس ترسايس ، كنا نقول إذن إن شبه الجزيرة، بعد أن رسمت المسار الذى حاولنا شرحه توا، استأنفت بعد ذلك مباشرة جولتها فى اتجاه الغرب، وسلكت اتجاها موازيا لطريقها الأصلى، أى، ولكى نتأكد من أننا نفهم بعضنا جيداً، أنها صعدت بعكس التيار عدة درجات . لقد شهدت هذه المرحلة انتصار واضعى الاطروحة القائلة، بالانتقال فى خط مستقيم منكسر بزوايا عمودية، والمدافعين عنها، وإن لم نشهد حتى الآن حركة تؤيد افتراض العودة إلى نقطة البداية، على أية حال، لقد عرض هذا الافتراض على أنه اثبات للاسمى أكثر من تأكيد متوقع للاطروحة العامة، والتى لا تستبعد اطلاقا حدوث عمليات تقهقر وتراجع، وكان لابد من الإقرار بأن شبه الجزيرة، التى تحمل حاليا اسما آخر لن نقوله هنا، عملاً بالأحوط، لتفادى الانفجارات القومية والكارهة للأجانب ، والتى ستكون مأساوية نظراً للظروف الحالية، لم تتوقف أبدا عن التجوال إلى الآبد على كل بحار الأرض، مثل الهولندى الطائر الذى جاء ذكره مرات عديدة .

وفى القرية التى توقف فيها المسافرون، لم يكن أحد قد عرف بعد بهذه الخلافات، كانوا يعرفون فقط أن الولايات المتحدة الأمريكية أعلنت ، على لسان رئيسها نفسه، أن البلدان التى تصل إليها تستطيع أن تعتمد على المساندة والتضامن المعنوى والمادى للأمة الأمريكية الشمالية، «إذا استمر إبحاركم حتى تصلوا إلينا، فسيتم استقبالكم بأذرع مفتوحة» ، لكن خفف من تأثير هذا التصريح ذى المغزى والأهمية غير العادية ، سواء من وجهة النظر الإنسانية أو الجغرافية الاستراتيجية، الهياج المفاجىء الذى أصاب وكالات السفر فى العالم كله، التى حاصرها عملاء يريدون السفر إلى كورفو بأسرع ما يمكن ، دون

الاهتمام بالوسائل ولا بالنفقات، ولماذا، «لأن شبه الجزيرة إذا لم تغير اتجاهها فإنها ستمر أمام جزيرة كورفو ، وهو منظر لا يقارن بحركة صخرة جبل طارق الضئيلة لحظة انفصال شبه الجزيرة عنها، تاركة إياها لأمواج البحر» .إن ما سيمر الآن أمام عيون المحظوظين، الذين سينجحون فى الحصول على مكان صغير فى النصف الشمالى من الجزيرة، هو كتلة ضخمة، لكن بالرغم من ضخامة شبه الجزيرة، فإن الحدث لن يدوم طويلاً، يومين على الأكثر، لأنهم لن يتمكنوا، نظرا للشكل الخارجى الخاص لهذا الطوف ، إلا من مشاهدة الطرف الجنوبى منه، ولو سمح الوقت بذلك، أما الباقى ، فسيمر بعيداً عن الأنظار ، نظرا لتقوس الأرض، تصوروا الإمكانية المتاحة لو كان الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة مقطوعاً على شكل زاوية قائمة ، بدلا من شكله المزوى البارز هذا، لا أعرف إن كنتم تتابعون الرسم، ولو ظلت السرعة عند خمسين كيلو مترا فى اليوم، فإن العرض كان سيدوم عندئذ ستة عشر يوما طويلا، أى أجازة كاملة. ومهما يكن، فإن هناك احتمالات قوية أن تشهد جزيرة كورفو تدفقا للنقود لم تشهده الجزيرة من قبل، وهو ما دفع السكان إلى إحضار اقفال للأبواب، ومراتيج وأجهزة إنذار ، وحدادين لتركيب كل ذلك.

ينزل رذاذ خفيف من وقت لآخر ، وفى أسوأ الأحوال زخات مطر سريعة، لكن الجو جميل أغلب الوقت، فالسماء صافية والسحب عالية، ولقد تم تركيب غطاء البلاستيك الكبير، بعد أن تمت حياكته وتقويته، والآن بمجرد أن ينذر المطر بالهطول، يتم إيقاف العربة، وفى ثلاث حركات ، فرد، ومد، ثم تسوية وترتيب ، يصبح الغطاء محميا، وفى داخل العربة، فإن المراتب أجف من أى وقت مضى، واختفت رائحة العفونة والرطوبة، وأصبح داخل العربة النظيف والمنظم بيتا حقيقيا. لكن يبدو واضحا الآن كمية المطر التى هطلت فى هذه النواحى. الأرض شديدة البلل ، ويتعين الانتباه والاحتراس جداً، وعدم توريط العربة دون إجراء

سير مسبق للتربة الموجودة على حافة الطريق، لأن العربة لو غرزت فإن إخراجها من هناك سيتطلب عملا هرقليا ، إذ لا يساوى الحصانان والثلاثة رجال والمرأتان جرارا واحدا. لقد تبدل المنظر الطبيعى، واصبحت الجبال والتلال وراءهم. وتتلاشى التموجات الأخيرة، وظهر أمام عيونهم سهل يبدو بلا نهاية، وفوقه سماء شاسعة حتى أنها من فرط الدهشة تثير الشك فى أن تكون قطعة واحدة، إن لكل مكان، إن لم يكن لكل شخص، السماء الخاصة به بدون شك، قد تكون أكبر أو أصغر، أعلى أو أكثر انخفاضا، وها هو اكتشاف كبير نعم ياسيدى ، إن السماء مثل عدد لا نهائى من القباب التى تتعاقب مزينة بترصيع، ان تناقص التعبيرات والكلمات ليس سوى ظاهرى، يكفى النظر إلى السماء، وعندما بلغت عربة «الحصانين» قمة ربوة بدا الأمر وكأن الأرض لن ترتفع قط حتى نهاية الأيام، وبما أنه أمر عادى أن تنتج أسباب مختلفة أثارا متماثلة، فالشعور بالانبهار واللهاث على هذه الأرض المسطحة أشبه بالوجود فجأة على قمة ايفرست ، وليقل لنا من ذهب إلى هناك لو كان حدث له ما حدث لنا على هذه الأرض المسطحة .

لقد حسب بيدرو حساباته جيداً، لكن حسابات صاحب العمل مختلفة تماما، لنقل على الفور إن ذلك البيدرو لا علاقة له بأورس، إن الراوى نفسه يجهل على أية حال من هو هذا الشخص، فى العادة يقال إن بيدور أجرى حساباته عندما تكون هذه الحسابات خاطئة، وهى طريقة شعبية ساخرة تعنى أنه لا يتعين على البعض أن يقرر فيما يقع إنجازه على عائق آخرين. بمعنى أنه لو كان جواكيم ساسا قد أخطأ باقتراحه مائة وخمسين كيلو مترا من السير يوميا ، فإن ماريا جافيرا لم تكن صائبة أيضاً عندما خفضت هذا الرقم إلى تسعين كيلو مترا، إن البقال يعرف كيف يبيع، والخيول تعرف كيف تجر، وكما يقال، أو كما كان يقال ، فإن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة، فإن سرعة الحصان العجوز قد خفضت سرعة الحصان الأكثر شبابا، إلا إذا كان يجب أن يفسر ذلك بشفقة هذا الأخير، وطيبة

روحه ، واحترامه الإنساني ، لأن استعراض قوته في مواجهة من هو أضعف منه يعد علامة انحراف أخلاقي، لقد اعتبرت كل هذه الكلمات ضرورية لتفسير بطء تقدم العربة عما كان مقررا لها، لكن الاختصار ليس فضيلة مطلقة، إن الإسهاب قد يؤدى أحيانا إلى الإرباك والحيرة، هذا حقيقي، لكن كم مرة ربحنا بالتحدث أكثر مما هو ضروري، إن الحصانين يتقدمان بإيقاعهما الخاص، إذا جعلهما سائق العربة يسرعان الخطى فإنهما يطيعان نزوته أو إرادته لكن بالتدريج، وبطريقة بارعة، بحيث لا يلاحظها أحد، يخفض بيج وآل من سرعتهما ، كيف يتصرفان للقيام بذلك بتلك الطريقة شديدة التناسق، إنه سر غامض، فلم يسمع أحد أن أحدهما قال للآخر، «أبطيء قليلاً» ، ولا أن الآخر أجاب، «بعد هذه الشجرة هناك» ...

لحسن الحظ أن المسافرين ليسوا متعجلين ، في البداية عند مغادرتهم الأراضي الجاليزية مباشرة ، والتي أصبحت بعيدة الآن ، كانوا يعتقدون أن لديهم مواعيد يتعين احترامها ، وخط سير لابد من اتباعه ، حتى أنهم كانوا يشعرون بإحساس ما بالاستعجال ، وكأن على كل منهم أن يذهب لإنقاذ ابيه من المقصلة والوصول قبل أن يترك الجلاد شفرة المقصلة تسقط. لا يتعلق الأمر هنا بأب ولا بأم، إننا نجهل كل شيء عن آبائهم وأمهاتهم ، باستثناء والدة ماريا جافيرا، وهي مجنونة ولم تعد موجودة في لاكوروني ، إلا إذا كانت قد عادت إليها بعد زوال الخطر. لم يكشف لنا شيء فيما يتعلق بالأمهات الآخريات والآباء الآخرين . القدماء والمحدثين وعندما يصمت الابناء يجب عدم طرح الأسئلة أو إجراء، أي تحقيق من أي نوع ، لأن كلامنا ، في نهاية المطاف ، يبدأ وينهي العالم، شريطة ألاينال تصريح مماثل من روح العائلة، وأهمية الإرث، ونقاء الاسم، وفي غضون أيام قلائل ، تحول الطريق إلى عالم خارج العالم، مثل أي إنسان، في الوقت الذي ينتمي فيه إلى العالم، يكتشف أنه هو ذاته عالم، الأمر ليس صعبا على الإطلاق ،

إذ يكفى أن يخلق المرء الفراغ حول نفسه ، مثل هؤلاء المسافرين، الذين يسافرون وحدهم، فى الوقت الذى يسافرون فيه معا، ولذلك فإنهم ليسوا فى عجلة ، ولذلك أيضاً كفوا عن حساب ما تم قطعه من الطريق ، إن توقفوا فلكى يعملوا أو يرتاحوا ، وليس من النادر أن يرغبوا فى التوقف دون مبرر إلا هذا النزوع الذى يريد ألا يضيع المرء الوقت فى البحث عن الأسباب، طالما أنها موجودة بالفعل، ينتهى الأمر بنا جميعا بأن نصل إلى حيث نريد، المسألة كلها مسألة وقت وصبر، فالأرنب البرى أسرع من السلحفاة، ومن ثم سيكون أول من يصل بدون أدنى شك، شريطة الا يقابله صياد، ولا بندقية فى الطريق .

لقد تركوا سهل ليون الخالى، ودخلوا فى تييرا دى كمبوس ويجتازونها الآن، ولقد ولد فى هذه المنطقة وكبر المبشر الشهير الاخ جرونديو دى كمبازاس الذى قام الأب إسلا، الذى لا يقل عنه شهرة، برواية خطبه وأفعاله بدقة كبيرة، تأديباً للخطباء المطنبين ، والرواة السادرين وصناع الأقول المأثورة المتشنجة ، والكتاب الهاذيين ، لكن للأسف لم نستفد من الدرس، بالرغم من وضوحه التام، لنوقف إذن هذا الاستهلال الهاذى عند منبته، ولنقل ببساطة إن المسافرين سيناموا هذه الليلة فى قرية اسمها فيلالار، غير بعيدة عن تورو، وتوردزيلاس وسيمنكاس، وكلها أماكن تمس من قرب التاريخ البرتغالى ، بسبب معركة أو معاهدة أو وثيقة ما . وبما أن خوسيه أنايسو مدرس، فإن هذه الأسماء تجد لديه صدى سهلا ، لكنه لا يستطيع الحديث بالتفصيل فى الموضوع ، فعلمه التاريخى عام جداً وبدائى ، ويزيد بالكاد من حيث التفاصيل عن علم مستمعيه ، سواء البرتغاليون أو الاسبان، الذين تعلموا بالضروة شيئاً عن سيمنكاس ، وتورو، وتورد زيلاس ، ولم ينسوه تماما، إذ يتوقف كل شيء على وفرة المعلومات والاهتمام القومى الذى توليه كتب التاريخ المدرسية فى الوطنيين . لكن لا أحد هنا يعرف شيئاً عن فيلالار، إلا

بيدرو اورس، بالرغم من أنه أصلا من الأراضى الأندلسية ، فإن لديه معرفة من سافر فى جميع الحقب عبر شبه الجزيرة، ولا يوجد تناقض بين هذا الافتراض وبين ما صرح به عند دخوله لشبونة ، قبل ذلك بشهرين، حين قال إنه لا يعرف لشبونة ، فببساطة، من الممكن أنه لم يتعرف عليها، كما لن يتعرف عليها الآن مؤسسوها الفينيقيون وسكانها الرومان، وأسيادها القوطيون ، أما المسلمون فربما لا تـــزال لديهم فكرة مبهمة عنها، فى حين أنها تبدو للبرتغاليين أكثر غموضا كل مرة .

إنهم يجلسون أزواجا حول النار، جواكيم وماريا، خوسيه وجوانا ، بيدرو وكونستنت، الليل بارد بعض الشيء، لكن السماء صافية ورائقة، لا تشاهد نجوم كثيرة لأن القمر ارتقع مبكراً فى السماء، ويغمر بضوئه الحقول المحروثة، وبيوت ڤيلالار القريبة من هناك ، والتى لم يعترض قاضيها، وهو رجل سمح الطباع، على أن يقيم أفراد القافلة الاسبانية البرتغالية على مقربة من القرية، بالرغم من أن المهنة التى يمارسونها، بدو وباعة جائلين فى آن واحد ، تدخل فى منافسة مباشرة مع التجارة المحلية المتخصصة فى هذا النوع من البضائع ، إن القمر ليس شديد الارتفاع ، ولكن له هذا الشكل المحبب لنا، قرص مضىء ملهم لأبيات الشعر السهلة والأحاسيس البسيطة ، منجل من الحرير يترك دقيقا صافيا يتسرب منه على المنظر الطبيعي المعروض . ونقول عندئذ ، «ما أجمل ضوء القمر»، محاولين ألا نلقى بالا لرعشة الخوف التى تتملكنا عندما يظهر على تقوس الأرض الكوكب الضخم، الأحمر ، المنذر . وبعد آلاف وآلاف السنين ، لايزال القمر الوليد، يبدو لنا، حتى يومنا هذا ، كإنذار ، وإشارة النهاية، ولحسن الحظ ان قلقنا لايدوم إلا قليلا، لقد صعد الكوكب ، وهو الآن أبيض وصغير ، نستطيع اخيرا تنفس

الصعداء. وتشعر الحيوانات أيضا بالقلق، فعندما ارتفع القمر ، توا ، ظل الكلب ينظر إليه، مشدودا ومتصلبا ، ولو كانت أحباله الصوتية موجودة ، لبدأ فى النباح والعواء بدون شك، لكن انتصب كل جسده وكأن يدا مثلجة مرت على فقرات ظهره عكس اتجاه الشعر . واثناء اللحظات المماثلة ، يغادر العالم محوره، ويصبح مفهوما أن لاشىء بات أكيدا ، وإذا كان من الممكن التعبير تماما عما يستشعره المرء ، وبغياب بليغ لأى صور بلاغية، يمكن القول «لقد نجونا من خطر داهم».

سوف نعرف الآن ما هى حكايات فيلالار تلك التى يعرفها بيدرو اورس ، يقارب العشاء على نهايته، وترقص النار فى الهواء الساكن، وينظر إليها المسافرون بتأمل ، مادين نحوها الأيدى وكأنها للتبرك أو الاستسلام ، هناك سر قديم فى علاقتنا مع النار، لانه حتى مع وجود السماء فوق رؤوسنا ، فكأننا موجودون، نحن والنار، داخل الكهف ، أو المغارة أو الرحم الأصلى . إنه دور خوسيه انايسو فى غسل الاوانى والاطباق، لكن ليس هناك ما يدعو للعجلة، فالساعة يسودها سلام وتكاد تكون عذبة، يمر ضوء اللهب على الوجوه التى لوحها الهواء الطلق ، ولقد اتخذ لونهم اللون الذى تعطيه لهم الشمس عند شروقها، ان للشمس طبيعة اخرى، فهى حية ، ليست ميتة مثل القمر ، ذلك هو كل الفرق.

ويقول بيدرواورس ، «ربما لاتعرفون ذلك، لكن لقد وقعت فى ضواحى فيلالار معركة كبيرة منذ وقت طويل جدا ، فى عام ١٥٢١، وترجع أهميتها إلى نتائجها أكثر من عدد ضحاياها ، لو كان الذين خسروها هم الذين انتصروا ، لكان الأحياء حاليا قد ورثوا عالما آخر». ان خوسيه انايسو يعرف جيدا المعارك الكبرى التى تركت بصماتها على التاريخ، ولو طلب منه فجأة ذكر بعضها، كان سيقول دون تردد عشرة أسماء ، مبتدئا بشكل تقليدى بماراثون وترموبيل ، وبدون

الاهتمام بالتسلسل التاريخى، اوسترليتز وبورودينو، المارن ومونت كاسينو، الاردين والعلمين، بواتييه والقصر الكبير وايضا الجو باروتا، التى لاتمثل شيئا بالنسبة للعالم وان كانت كل شيء بالنسبة لنا ، قد خرجت كل هذه الأسماء مقترنة فى شكل ثنائى بدون سبب معين، وقال خوسيه انايسو فى النهاية ، «لكننى لم اسمع قط عن معركة فيلالار».

وشرح بيدرواورس قائلا ، «حسن ، دارت هذه المعركة عندما قادت جماعات إسبانية تمردا ضد الامبراطور شارل كنت ، وهو اجنبى، لكن ليس بالذات لانه كان اجنبيا، ففى تلك الأزمنة كان عاديا تماما بالنسبة للشعوب ان يروا ملكا يتكلم لغة أخرى يحل عندهم ، فالقضية لم تكن تهم سوى البيوت الملكية التى كانت تراهن ببلادها وبلاد الآخرين، لانقول فى لعب الورق ولا النرد ، ولكن تبعا لمصالح الأسرة المالكة ، وذلك بواسطة مقايضات التحالفات التى يعقدونها والزيجات التى يرتبطون بها ، لذلك من الخطأ القول بأن الجماعات ثارت ضد الملك الدخيل، ولاتذهبوا ايضا إلى تخيل أنها كانت حرب الفقراء الكبرى ضد الأغنياء ، من يمكنه تصور ان كل ذلك ، واشياء كثيرة أخرى أيضا، بمثل بساطة الحديث عنها، الحقيقة ان النبلاء الإسبان لم يعجبهم اطلاقا ان يتم توزيع المناصب العديدة على الاجانب الذين كانوا يرافقون الامبراطور، وكان أول قرار للأسياد الجدد هو زيادة الضرائب ، وهو ما يمثل علاجا ناجعا لتمويل النفقات والمغامرات ، وبالتالى كانت توليد هى أول مدينة تتمرد، وحذت حذوها المدن الأخرى، تورو ، ومدريد ، وافيلا ، وصوريا ، وبرجوس ، وسلامنك ، ومدن كثيرة أخرى أيضا ، لكن دوافع البعض كانت مختلفة عن دوافع البعض الآخر ، لقد كانت تتلاقى أحيانا ، نعم أيها السادة، لكنها كانت تتناقض أيضا ، وإذا كان ذلك ينطبق على المدن ، فإن الأمر

كان أسوأ مع السكان ، إذ إن بعض الفرسان كانوا يدافعون عن مصالحهم وطموحاتهم فقط، ولذلك كانوا يبدلون معسكرهم تبعا لاتجاه الريح والمنفعة ، وبما ان الشعب شارك فى كل ذلك، فإنه كان يدافع عن مواقعه الخاصة، بالطبع ، لكنه كان يدافع ايضا وبشكل خاص عن مصالح الآخرين، إن الامور تسير بهذا الشكل منذ أن أصبح العالم عالما ، ولو ان الشعب شيء واحد لكان الأمر ممتازا ، غير أن الوضع ليس كذلك، ومن الصعب جدا ادخال هذه الفكرة فى رأس الناس ، دون الحديث عن حقيقة ان هذا الشعب يتم خداعه فى احيان كثيرة، فكم مرة يصوت نوابه ، المسئولون عن تمثيله فى البرلمان، بمجرد وصولهم إلى هناك ، نقيض ما أراده موكلوهم، سواء نتيجة إغراء أو تهديد، الشيء غير العادى، إنه بالرغم من الاختلافات والتناقضات ، تمكنت الجماعات من تنظيم مليشيات والدخول فى حرب ضد جيش الملك ، وغنى عن البيان انهم انتصروا فى معارك وهزموا فى اخرى ، وهنا فى فيلالار، خسروا آخر المعارك ، لماذا؟، لنفس الاسباب المعتادة ، اخطاء ، وعدم كفاءة وخيانات، وجنود ملوا انتظار رواتبهم وتركوا المعركة ، ودارت المعركة، كسبها البعض وخسرها البعض الآخر، ولم ينجح أحد فى أن يعرف بدقة عدد سكان البلدة الذين ماتوا هنا ، وطبقا للحسابات الحديثة، فان العدد ليس كبيرا ، البعض يقول الفين، بينما يؤكد آخرون انهم لم يزيدوا عن ألف بل وأقل من مائتين ، ليس معروفا ، ولن يعرف ابدا ، إلا إذا طرأت فكرة لأحدهم ان يحفر ارض هذه المقبرة ذات يوم لكى يحصى الجماجم المدفونة، لان عد العظام الأخرى سيزيد الأمر تشويشا ، ولقد تمت محاكمة ثلاثة من زعماء الجماعات فى اليوم التالى ، وحكم عليهم بالإعدام وتم فصل رؤوسهم فى ساحة فيلالار ، وكان اسمهم خوان دى باديلا، من توليد، وخوان براڤو، من سجوفى، وفرنشيسكو مالدونادو ،

من سلامنك، هذه هي معركة فيلالار، التي لو كان انتصر فيها من خسروها، لكان تغير مصير إسبانيا، ومع ضوء قمر مثل الذى لدينا الآن، كيف يمكن تخيل ما كان عليه ليل ونهار المعركة، كانت السماء تمطر ، والحقول تغمرها المياه، وكانوا يتقاتلون في الوحل ، وطبقا للحسابات الحديثة لم يمت عدد كبير ، متفق عليه، لكن بود المرء ان يقول ان وزن هؤلاء الموتى القليلين الذين سقطوا فى الحروب القديمة اكبر فى التاريخ من وزن مئات الآلاف وملايين الموتى الذين سقطوا فى معارك القرن العشرين، فقط ظل ضوء القمر كما هو، فهو يضىء فيلالار كما يضىء «اوسترليتز» أو «ماراثون»، أو «القصر الكبير»، اضاف خوسيه انايسو ، وسألت ماريا جافير ا، «ما هى تلك المعركة؟» ، واجاب خوسيه انايسو ، «لا اتصور كيف كانت ستصبح البرتغال اليوم، لو انهم كسبوها بدلا من خسارتها»، وقال بيدرواورس ، «لقد قرأت فى أحد الكتب ان ملككم دون مانيول شارك في هذه الحرب»، «فى الكتب الدراسية التى استخدمها ، لم يذكر أن البرتغاليين كانوا فى حرب مع الاسبان فى هذه الفترة»، ان من اتوا لم يكونوا برتغاليين بمعنى الكلمة، لكن خمسين ألف محارب صليبى اعارهم ملككم إلى الامبراطور»، ورد جواكيم ساسا، «آه حسن ، خمسون ألف محارب صليبى للجيش الملكى، كان لايمكن للجماعات إلا ان تخسر ، ان المحاربين الصليبيين هم المنتصرون دائما».

فى هذه الليلة ، حلم الكلب كونستنت انه نبش التربة وأخرج عظاما على ارض المعركة، وكان قد جمع مائة وأربعا و عشرين جمجمة عندما غاب القمر واظلمت الأرض . وعاد الكلب عندئذ إلى النوم. وبعد ذلك بيومين، ذهب الصبية الذين كانوا يلعبون لعبة الحرب فى الحقول لمقابلة قاضى البلدة، ليقولوا له إنهم وجودا تلا من رؤوس الموتى فى أحد حقول القمح، ولم يفهم احد قط كيف امكن وجود هذه

الجماجم مجتمعة هناك . لكن نساء فيلالار لايقلن إلا خيرا عن البرتغالين والاسبان الذين مروا فى عربتهم ، ورحلوا فى وقت سابق، «هؤلاء الناس ، أشرف من شاهدناهم يمرون فى الناحية واكثرهم أمانة ، سواء فيما يتعلق بالسعر أو النوعية».

كان أسلافنا يقولون ، إن امتلاك القليل يساعد على الإتقان ، وكانوا على حق، فلقد استخدموا وقتهم ، على أية حال ، بشكل جيد ، وحكموا على الأحداث الجديدة فى ضوء الأحداث القديمة، إن خطأنا نحن ، المعاصرين، هو الإصرار على تناول دروس العصور القديمة بتشكك وارتياب . لقد اعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أن شبه الجزيرة ستحل على الرحب والسعة، ولم يعجب ذلك كندا، وهو ما كان يتعين توقعه لأن الكنديين أدركوا أن شبه الجزيرة ، إن لم تغير اتجاهها، فإنهم سيقومون بدور المضيف ، وسيكون هناك اثنان «اراضٍ جديدة» بدلا من واحدة ، ان سكان شبه الجزيرة ، المساكين ، لايعرفون ما ينتظرهم ، برد قاتل، وتجمد، الميزة الوحيدة بالنسبة للبرتغاليين ، هى أنهم سيوجدون على مقربة أكبر من سمك المورة الذى يحبونه كثيرا، سيخسرون الصيف ولكنهم سيكسبون كميات السمك.

وسارع الناطق باسم البيت الأبيض لكى يوضح أن الأسباب الإنسانية هى الدافع أساسا وراء تصريح الرئيس ، ولا يجب تفسير ذلك على أنه رغبة فى السيطرة السياسية ، لاسيما ان بلدى شبه الجزيرة ، وإن كانا منجرفين على المياه، فإنهما لم يكفا عن كونهما مستقلين وصاحبى سيادة ، وسينتهى الأمر بهما ذات يوم ان يتوقفا ، وعندئذ سيكونان من جديد مثل البلدان الأخرى ، وأضاف، «ومن جانبنا فإننا نضمن لكم علنا ان روح حسن الجوار التقليدية بين الولايات المتحدة وكندا لن تتأثر بأى شكل بالظرف الحالى، ولإثبات حسن النوايا الامريكية الشمالية للحفاظ على صداقة الأمة الكندية الكبيرة ، فإننا نقترح عقد مؤتمر ثنائى يهدف إلى بحث الجوانب المختلفة لما سيشكل الخطوات الأولى لجماعة دولية جديدة تتكون من الولايات المتحدة وكندا والبلدين الايبيريين ، وذلك فى اطار هذا التحول

المثير والخطير للشكل السياسى والاستراتيجى للعالم، وسيشارك البلدان الايبيريان فى هذا الاجتماع، بصفة مراقبين ، نظرا لأن تقاربهما المادى ليس كافيا حتى الآن بما يسمح لنا بالتفكير فى إمكانية تحقيق تكامل.

وأعلنت كندا علنا أنها راضية عن هذه التوضيحات، لكنها أبانت أنه من غير المناسب تنظيم هذا المؤتمر الفورى لأنه قد يخدش الكرامة الوطنية للبرتغال واسبانيا نظرا للشروط المقترحة لعقده ، واقترحت بدلا منه مؤتمرا رباعيا لدراسة التدابير التى يتعين اتخاذها فى حالة حدوث صدمة شديدة، فى اللحظة المحددة التى سترسو فيها شبه الجزيرة على السواحل الكندية . وعلى الفور اعلنت الولايات المتحدة قبولها، وحمدت الله سرا لانه خلق جزر الآزور . لأن شبه الجزيرة لو لم تنحرف إلى الشمال ، ولو كانت حركتها قد سلكت منذ انفصالها عن اوروبا خطا مستقيما دائما ،فان نوافذ لشبونة كانت سرعان ما ستفتح ، بكل تأكيد، على أطلنتك سيتى ، وبالانتقال من تفكير إلى آخر ، خلصوا إلى أنه كلما زاد انحراف شبه الجزيرة إلى الشمال ، كان ذلك أفضل بالنسبة للولايات المتحدة، لكن تصوروا مدن نيويورك، وبوسطن ، وبروفيدنس ، وفيلادلفيا، وبالتيمور ، وقد تحولت إلى مدن داخلية، وانخفاض مستوى المعيشة الذى سينجم عن ذلك، ولامجال للشك فى أن التصريح الأول للرئيس كان متسرعا بعض الشىء. وأثناء تبادل المذكرات الدبلوماسية السرية، التى اعقبتها لقاءات سرية بين سلطات الحكومتين، اتفقت الولايات المتحدة وكندا على أن أفضل حل، إذا كان هناك مثل هذا الحل، هو إيقاف شبه الجزيرة عند نقطة على طريقها، بحيث تكون قريبة بما يكفى لإفلاتها من التأثير الاوروبى وبعيدة فى الوقت نفسه بما يكفى لكى لاتزعج المصالح المباشرة أو غير المباشرة للكنديين والامريكيين الشماليين، وتم الاتفاق ، على اية

حال ، على البدء فورا فى دراسة إدخال التعديلات الضرورية على قوانين الهجرة، وتشديد النصوص الحمائية بشكل خاص ، حتى لايتصور الإسبان والبرتغاليون انهم يستطيعون الدخول عندنا كما يحلو لهم ، بحجة اننا سنكون جيرانا فى طابق واحد.

واحتجت حكومتا البرتغال واسبانيا على ما تبديه هذه القوى من نفور وكراهية تجاه مصيرهما ومصالحهما ، وبدت الحكومة البرتغالية ، حكومة الإنقاذ الوطنى، الأكثر احتدادا . وبفضل مبادرة من الحكومة الاسبانية، تم اجراء اتصالات بين بلدى شبه الجزيرة ، من اجل تحديد سياسة مشتركة تهدف إلى الاستفادة بأفضل ما يمكن من الوضع الجديد ، غير انهم، فى مدريد، يخشون من أن تحضر الحكومة البرتغالية هذه المفاوضات ولديها قصد خفى، وهو المطالبة ، فى المستقبل القريب، بتحقيق منافع خاصة من قربها الحميم من السواحل الكندية أوالشمال امريكية ، طبقا للظروف . ويعرف البعض ، أو يعتقدون أنهم يعرفون ، ان بعض الاوساط السياسية البرتغالية تنظم حركة لصالح تفاهم ثنائى مع جاليزا، وإن كان ذلك يتم بصفة غير رسمية ، وهو ما لايعجب إطلاقا بالطبع السلطة المركزية الاسبانية ، فهى غير مستعدة للسماح بأية محاولات انضمامية★، حتى وإن كانت مستترة، بل يذهب البعض إلى حد أن يقولوا بسخرية خشنة ، «إن شيئا من ذلك ما كان ليحدث لو كانت البرتغال تقع من الناحية الأخرى من البرانس »، أو أكثر من ذلك، «لو ان البرتغال بقيت متشبثة لحظة التصدع»، ويعملون على إشاعة ذلك، ويضيف البعض ، «إن الاقتصار على بلد واحد كان سيمثل طريقة طيبة للتخلص من هذه الصعوبة الكامنة فى ان يكون المرء ايبيريا، لكن يخطىء الاسبان فى هذه النقطة بالذات لان الصعوبة ستبقى ، ولن نقول أكثر من ذلك. ويجرى حساب

★ نظرية سياسية نادى بها الوطنيون الايطاليون بعد عام ١٨٧٠، وهى تهدف إلى ضم المناطق التى يسكنها أبناء جنسهم ولغتهم، والتى كانت خاضعة لدول أجنبية.

الأيام المتبقية قبل ان تكون سواحل العالم الجديد فى متناول النظر، وتجرى دراسة خطط العمل لكى تبلغ القوة التفاوضية ذروتها فى أكثر اللحظات ملاءمة، لاقبل ولابعد، انها القاعدة الذهبية للفن الدبلوماسى .

و تستمر شبه الجزيرة فى ابحارها نحو الغرب ، غير مبالية بإشاعات كواليس المكائد السياسية ، حتى أن المراقبين من كل نوع ، مليونيرات وعلماء، الذين اقاموا على جزيرة كورفو فى الصف الأول، اذا جاز التعبير ، لكى يشاهدوا الجزيرة اثناء مرورها، كانوا قد رحلوا مرة أخرى ، وكان المنظر غير عادى، لنقل فقط أن طرف شبه الجزيرة مر فى عرض البحر على بعد خمسمائة متر من جزيرة كورفو، أو أكثر قليلا ، وأحدث اضطرابا عنيفا للامواج ، وكأنه مقطع من إحدى أوبرات فاجنر، لكن أفضل تشبيه هو الشعور بالوجود فى البحر على متن قارب صغير ومشاهدة الكتلة الضخمة لناقلة بترول بدون حمولة تمر على بعد امتار ، وغاطس السفينة فوق مستوى الماء ، فى النهاية، كان الجميع مذهولين ، وقد انتابهم دوار، وكادوا يركعون، ولنتب ألف مرة عن بدعنا وافعالنا السيئة، وكانوا على وشك الصراخ ، «الله موجود» إن تأثير الطبيعة الفظة جبار إلى هذه الدرجة على ذهن البشر ، حتى لو كانوا متحضرين.

لكن بينما تلعب شبه الجزيرة بذلك دورها فى حركات الكون، كان المسافرون قد تجاوزوا مدينة بورجوس ، وتجارتهم مزدهرة لدرجة أنهم قرروا ان يسلكوا الطريق السريع بالعربة «حصانان» لكى يتقدموا بسرعة أكبر . وبعد ذلك بقليل ، بعد تجاوز مدينة جاستيز، سيستأنفون السير على الطرق القروية التى تؤدى إلى القرى الصغيرة، وعندئذ ستستعيد العربة بيئتها الطبيعية، عربة يجرها حصانان على طريق قروى ، ولاعلاقة لذلك باستعراض البطء المزعج والشاذ الذى استسلموا

له على طريق مخصص للسرعات الكبيرة، بخطوات كسولة لاتتجاوز سرعتها خمسة عشر كيلو مترا فى الساعة وذلك عندما لايكون هناك انحدار ويكون مزاج الحصانين طيبا . لقد تغير العالم الايبيرى لدرجة أن شرطة الطرق ، التى تشاهد كل ذلك ، لاتوقف أحدا، ولا توزع غرامات ، ورجال الشرطة الجالسون على دراجاتهم البخارية القوية ، يلوحون لهم مودعين ، ويسألونهم ، إن وجدوا من الناحية الصحيحة ، لمعرفة ما يعنيه الطلاء الأحمر لغطاء العربة. ان الجو جميل ، فلم تمطر منذ عدة أيام ، ولولا تلك الريح الخريفية الباردة وقرب الجبال العالية، لكان من الممكن تصور أن الصيف قد عاد . وذات مرة، عندما كانت المرأتان تشكوان من الهواء القارس ، ألمح خوسيه انايسو ، بلا إلحاح ، إلى عواقب التعرض الزائد للمناخ عند خطوط العرض القريبة من القطب ، بل ذهب إلى حد أنه أعلن ، «إذا انتهى بنا الأمر بالتوقف فى الأرض الجديدة فإن رحلتنا ستنتهى، لأنه لابد أن يكون المرء من الاسكيمو لكى يعيش فى الهواء الطلق فى ظل هذا المناخ»، لكنهما لم تولياه أى اهتمام ، لانهما لم تريا الخريطة .

وربما لأن حديثهما لم يكن عن البرد الذى تشعران به ، لكن عن برد أكثر يمكن ان يستشعره شخص آخر ، ليس هما، بالطبع ، فهما تجدان كل ليلة الراحة والتسلية قرب رجليهما شريطة ان تسمح الظروف بذلك، وخلال النهار ايضا ، فكم من المرات ، كان رجل وامرأة يرافقان بيدرواورس على المقعد الأمامى بينما كان الاثنان الآخران راقدين ، بعد أن أشبعا حاجة الرغبة المفاجئة أو المؤجلة وهما نصف عراة رجل وامرأة، ويتركان خطوات الحصانين تهدهدهما . وعندما يكون معروفا أن خمسة أشخاص يسافرون فى هذه العربة، وهم موزعون بين الجنسين بالنسب المعروفة ، كان يمكن مع قليل من تجربة الحياة تخمين ما يجرى تحت

الغطاء بمجرد مشاهدة ترتيب المجموعة على المقعد الأمامى ، فلو كان الرجال الثلاثة ، مثلا ، موجودين هناك ، يمكن الرهان ان المرأتين مشغولتان فى أعمال منزلية، اعمال حياكة اساسا ، أما إذا، كما سبق القول ، كان هناك رجلان وامرأة، فان المرأة والرجل المتبقيان قد استعادا بعض الحميمية، حتى وإن كانا غير متجردين من ملابسهما ولايفعلان سوى الثرثرة. لم تكن تلك هى الترتيبات الممكنة الوحيدة، بالطبع، لكن لايتذكر أحد أنه رأى امرأة فى المقعد الأمامى مع رجل غير رجلها، لأن الموقف سيكون هو نفسه تحت الغطاء ، وكان لابد من تفادى ذلك، بسبب ما يمكن أن يقال . وكانت هذه الترتيبات قد استقرت تلقائيا ، فلم تكن هناك ضرورة لعقد مجلس العائلة للتداول حول طريقة حماية الأخلاق داخل العربة وخارجها، وبالتالى ، نجم عن ذلك وبتأثير رياضى محتوم أن بيدرواورس كان يسافر دائما على المقعد الأمامى ، إلا عندما كان الرجال الثلاثة يرتاحون فى آن واحد ، ويأتى عندئذ دور النساء فى القيادة، أو عندما يصعد أحد الزوجين إلى المقعد الأمامى بعد إشباع غرائزهما بينما يكون الزوج الآخر ، تحت الغطاء، وقد باتا فى حميمية نسبية تماما، لايقترفان أى فعل يمكن أن يضايق أو يجرح أو يثير بيدرو اورس الراقد على فراشه الضيق المصنوع من القش والموضوع بالعرض، وكانت ماريا جافيرا تقول لجوانا كاردا ، «مسكين بيدرو اورس» بينما كان خوسيه انايسو يشير إلى برد «الأرض الجديدة» وميزة أن يكون المرء من الاسكيمو، ووافقتها جوانا كاردا «مسكين بيدرو اورس» .

كانوا غالبا ما يخيمون قبل هبوط الليل، فهم يحبون ان يختاروا موقعا جيدا ، قرب الماء ، وعلى مرأى من قرية إن أمكن ، وإذا أعجبهم مكان بشكل خاص كانوا يستقرون فيه ، حتى لو كانت لاتزال هناك ساعتان أو ثلاث ساعات على الغروب،

لقد وعى الجيمع درس الحصانين وكان ذلك لمصلحتهم جميعا، بالنسبة للحيوانات فإنهم يمرحون الآن أكثر ، أما البشر ، فلقد تخلصوا من هذا العيب البشرى، ألا وهو العجلة ونفاد الصبر . لكن منذ ان قالت ماريا جافيرا فى ذلك اليوم ، «مسكين بيدرو اورس» ، أحاط جو مختلف بالعربة وبمن فيها . ويدعو ذلك للتفكير لأننا لوتذكرنا فإن جوانا كاردا وحدها هى التى سمعت هذه الكلمات ، وعندما كررتها بدورها لم يسمعها سوى ماريا جافيرا وحدها، وبما أن الأمر لم يكن يتعلق بحوار عاطفى وأنهما احتفظتا بتلك الكلمات لنفسيهما ، لابد اذن من الاستدلال من ذلك بأن الكلمة بمجرد نطقها تدوم فترة أطول من الصوت والنغمات المكونة لها، فهى تتنزه ، غير مرئية وغير مسموعة لكى تحافظ على سرها الخاص، وكأنها بذرة مختفية تحت التربة تنبت بعيدا عن العيون ، إلى أن تدفع الدبال فجأة ساقا ملفوفة نحو الداخل وتنفرد ببطء ورقة مجعدة، ويظهران للنور ، كانوا يقيمون المخيم، ويحلون الحصانين ، ويفكون طقمهما ، ويوقدون النار ، أفعال وحركات يومية كانوا جميعا ينفذونها بكفاءة متساوية ، تبعا للمهام اليومية الموكلة لكل منهم. لكن على نقيض ما اعتادوا عليه منذ البداية، كانوا لايتكلمون قط، ولو قيل لهم ، «لم تقولوا كلمة واحدة منذ أكثر من عشر دقائق»، كانوا سيندهشون جدا بالطبع ، وسيدركون عندئذ فجأة الطبيعة الخاصة لهذا الصمت، أو كانوا سيردون، مثل من لايريد الاعتراف بحقيقة واضحة ويبحث عن تبرير غير مجد، «يحدث ذلك أحيانا، لكن لايمكن في الحقيقة أن يظل المرء يتكلم طوال الوقت». لكن إذا نظروا إلى بعضهم البعض فى هذه اللحظة، لكانوا قد رأوا على وجه كل منهم ، كما فى المرآة، حيرتهم الذاتية ، وضيق من يعرف ان التفسيرات هى كلمات فارغة. غير أنه لابد من تسجيل ، أن النظرات التى تتبادلها ماريا جافيرا مع جوانا كاردا،

تحمل تعبيرات واضحة تماما لهما لدرجة ان كلا منهما لاتحتمل طويلا نظرة الأخرى ولا تلتفتان إلى بعضهما.

كان بيدرو اورس قد اعتاد بمجرد انتهاء العمل ، ان يبتعد عن المخيم بصحبة الكلب كونستنت، وكان يقول إنه سيتعرف على المناطق المحيطة بالمكان. ودائما ما كان يغيب طويلا، ربما بسبب مشيته البطيئة ، أو لأنه كان يقوم بلفات كبيرة ، وربما لأنه كان يظل جالسا لمدة طويلة على حجر ينظر إلى غروب النهار ، بعيدا عن مرأى رفاقه ، وأثناء أحد تلك الأيام الماضية، قال جواكيم ساسا ، «انه يريد أن يكون وحده ، فهو يبدو حزينا»، وابدى خوسيه انايسو ملاحظته قائلا، «لو كنت مكانه ، لربما فعلت مثله ».

كانت المرأتان قد انتهيتا من غسيل الملابس وتقومان بنشرها على حبل مثبت بين تقويسه العربة وفرع شجرة، لقد سمعتا كل شيء ولم تردا ، لأن هذا الحديث لم يكن موجها إليهما. ولم تقل ماريا جافيرا لجوانا كاردا ، «مسكين بيدرو اورس»، إلا بعد ذلك بعدة أيام ، عندما أثيرت مسألة برد «الارض الجديدة».

انهم وحيدون، من الغريب ان يعطى اربعة أشخاص مجتمعين إحساسا بانهم وحيدون، انهم ينتظرون ان ينتهي اعداد الحساء، لايزال هناك ضوء كثير ، ولشغل الوقت ، يراجع جواكيم ساسا وخوسيه انايسو حالة طقمى الحصانين ، بينما تراجع المرأتان حسابات مبيعاتهما خلال النهار ، والتى سيقوم المحاسب جواكيم ساسا بتسجيلها فى الدفاتر . ابتعد بيدرو اورس واختفى وسط الأشجار ، منذ عشر دقائق ، والكلب كونستنت فى إثره كالعادة . الآن ، لايشعر المرء بالبرد ، قد يكون الهواء الخفيف الذى يمر هو آخر نسمة خريفية دافئة ، ذلك على الأقل ما يستشعره المرء مقارنة بتلك الأيام القارسة . وقالت ماريا جافيرا ، «يجب شراء

مرايل، لم يتبق منها الكثير»، وأثناء ذلك رفعت رأسها ونظرت إلى الاشجار ، وانتاب جسدها الجالس اندفاع عام ، الحركة الاولى التى يتم كبحها فى أول الأمر، ثم الاستسلام لها بعد ذلك ، كان لايسمع شيء سوى الصوت الأجش لرعى الحصانين ، عندئذ نهضت ماريا جافيرا وابتعدت فى اتجاه الأشجار حيث اختفى بيدر واورس . ولم تنظر إلى الخلف ، حتى عندما سألها جواكيم ساسا ، «اين تذهبين؟»، لكن السؤال ذاته لم يتم فى الحقيقة التعبير عنه ، لقد توقف فى منتصف الطريق ، لأن الرد ، الذى كان قد سبق السؤال ، لايقبل أى رد عليه. وبعد بضع لحظات ، ظهر الكلب وذهب ليتمدد تحت العربة . ابتعد جواكيم ساسا لبضعة امتار، كان يبدو عليه أنه يدرس بعناية كبيرة التلال البعيدة. أما خوسيه انايسو وجوانا كاردا فكانا لاينظران لبعضهما.

واخيرا عادت ماريا جافيرا عند هبوط الليل . عادت وحدها. اقتربت من جواكيم ساسا لكنه ادار لها ظهره بعنف . وخرج الكلب من تحت العربة واختفي. اشعلت جوانا كاردا الفانوس . ورفعت ماريا جافيرا الحساء من على النار، وصبت زيتا فى المقلاة ، و انتظرت حتى يسخن ، واثناء ذلك كسرت بضعة بيضات وضربتها بعد اضافة حلقات صغيرة من نوع من السجق الاسباني شديد البهارات ، وبدأت تنتشر بسرعة فى المكان رائحة كانت كفيلة في ظروف أخرى ان تجعل أفواههم تتحلب . لكن جواكيم ساسا لم يأت لتناول طعامه ، لقد نادت عليه لكنه لم يرد . لقد تبقى طعام. لم يكن لجوانا كاردا وخوسيه انايسو اية شهية، وعندما عاد بيدرو اورس ، كان المخيم غارقا فى الظلام، وكانت آخر الجمرات قد استهلكت . رقد جواكيم ساسا تحت العربة ، لكن الليل أصبح باردا ، فقد وصلت من ناحية الجبال كتلة هواء بارد ، بدون ريح.. وعندئذ طلب جواكيم

ساسا من جوانا كاردا، ان تذهب لترقد إلى جوار ماريا جافيرا ، ولم ينطق اسمها ولكنه قال «اذهبى لترقدي إلى جوارها، سأبقى مع خوسيه» ، وبما ان الفرصة بدت له مواتية ، فقد أضاف بسخرية ، «لايوجد خطر، نحن فى صحبة طيبة، ليس هناك ما يخشى منه من الاختلاط». وصعد بيدرو اورس عند عودته إلى المقعد الامامى، ولايعرف لماذا تدبر الكلب امره لكى يصعد معه ، لقد كانت المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك.

لقد قضى بيدرو اورس كل نهار اليوم التالى على هذا المقعد . وإلى جواره، خوسيه انايسو وجوانا كاردا ، وفي داخل العربة ، ماريا جافيرا ، وحدها. كان الحصانان يتهاديان . وعندما يقرران من تلقاء نفسيهما أن يسرعا الخطى ، كان خوسيه انايسو يخفف من اندفاعهما المفاجىء . كان جواكيم ساسا يسير على قدميه، بعيدا وراء العربة . فى ذلك اليوم لم يقطعوا سوى بضعة كيلومترات . كان الوقت منتصف العصر عندما أوقف خوسيه انايسو العربة فى مكان بدا مثل توأم المكان السابق، وكأنهم لم يرحلوا أو كأنهم رسموا دائرة كاملة وعادوا إلى المكان نفسه مرة أخرى، حتى الاشجار متشابهة . لم يظهر جواكيم ساسا إلا بعد ذلك بكثير ، عندما كانت الشمس تغرب في الافق . وابتعد بيدرو اورس ، عندما رآه يقترب ، واخفته الأشجار على الفور، وتبعه الكلب . كانت النار مشتعلة عاليا، إلا أن الوقت مبكر جدا لتحضير العشاء، الحساء جاهز ، على أية حال ، وهناك بيض وسجق متبقيان من اليوم السابق . وقالت جوانا كاردا لماريا جافيرا، «لم نشتر المرايل، ولم يتبق سوي اثنتين فقط» . وقال جواكيم ساسا لخوسيه انايسو، «سأرحل غدا ، سأسترد نصيبى من المال ، بين لى اين نحن على الخريطة ، لابد أن هناك سككا حديدية فى الناحية». عندئذ نهضت جوانا كاردا وابتعدت فى

اتجاه الاشجار حيث اختفى بيدرو اورس مع الكلب، ولم يسأل خوسيه انايسو ، «أين تذهبين» . وبعد لحظات ظهر الكلب وذهب ليرقد تحت العربة . ومر الوقت . وعادت جوانا كاردا ، وهي تجذب بيدرو اورس الذى كان يقاوم ، كانت تجذبه بلطف وكأن الأمر لايحتاج لإلحاح كثير ، أو كأن الامر يتعلق بقوة مختلفة . وصلا أمام النار ، كان بيدرو اورس خافضا رأسه ، وتراقص اللهب غير المستقر يبدو كأنه يحرك شعره الأبيض المشعث فوق رأسه ، وعندئذ قالت جوانا كاردا ، وقميصها خارج سروالها، وادركت ، بينما هى تتكلم، انها غير مهندمة ، فعالجت ذلك بطريقة طبيعية تماما، وبدون ادنى ذرة نفاق ، ودون أن تتوقف عن الحديث، «ان العصاة التى خدشت بها الأرض لم تعد لها اية قوة خاصة ، لكنها لاتزال قادرة على رسم خط آخر هنا ، وبهذه الطريقة، فإن هذا الخط سيسمح لنا بمعرفة من يقف فى جانب ومن يقف فى الجانب الآخر ، طالما اننا لانستطيع جميعا ان نبقى في نفس الجانب»، قال جواكيم ساسا ، «الامر لايعنينى»، انا راحل غدا»، وقال بيدرواورس، «انا الذى سيرحل»، وعندئذ قالت جوانا كاردا، «نستطيع ان نفترق بالطريقة نفسها التى تجمعنا بها ، لكن لو كان من الضرورى العثور على مذنب لتبرير هذا الفراق، فلا تبحثان عنه لدى بيدرو اورس ، ان المذنبتين، إذا كان لابد من استخدام هذه الكلمة، هما نحن الاثنتان ، ماريا جافيرا وانا ، ولو كنتما تريان ان ما فعلناه يتطلب تفسيرا ، فإننا اذن فى الخطأ منذ اليوم الأول للقائنا» ، قال بيدرو اورس ، «انني راحل غدا» ، وقالت ماريا جافيرا ، «لن ترحل اننا سنفترق جميعا إذا رحلت، لأنه لن يكون بمقدورهما تقبلنا، ونحن ايضا ، وليس ذلك لاننا لم نعد نحب بعضننا البعض ، لكن ببساطة لاننا لم نفهم بعضنا البعض» . نظر خوسيه انايسو إلى جوانا كاردا ثم مد فجأة يديه نحو

النار كما لو كانتا قد بردتا، وقال، «انا سأبقى» . وسألت ماريا جافيرا ، «وانت، تريد الرحيل أم البقاء؟»، لم يرد جواكيم ساسا على الفور ، كان يداعب رأس الكلب الذى اقترب ، ثم لمس بأطراف اصابعه عقده المصنوع من الصوف الأزرق ، وعمل الشيء نفسه مع السوار الذى كان فى ذراعه ، ثم قال ، «سأبقى لكن بشرط»، لم يكن فى حاجة إلى أن يقول المزيد ، وتكلم بيدرو اورس ، «انا كهل ، رجل عجوز تقريبا، لقد بلغت هذه السن التى يصعب تعريفها، لكننى عجوز أكثر منى شابا»، «ليس بهذا القدر على ما يبدو»، وابتسم خوسيه انايسو ، لكنها كانت ابتسامة حزينة، هناك بعض الاشياء ، تحدث فى الحياة ، ونظرا لطابعها الخاص جدا، لا يمكن تكرارها ، ظن الآخرون انه سيواصل حديثه، لكنه ادرك انه قال كل شيء ، هز رأسه وابتعد لكى يمكنه البكاء . ومن المستحيل معرفة إذا كان قد بكى كثيرا أم قليلا ، لانه لكى يبكى لابد أن يكون وحده . لقد نام الجميع فى هذه الليلة داخل العربة ، لكن الجروح كانت لا تزال تنزف، ظلت المرأتان معا، وكذلك الرجلان اللذان تعرضا للخيانة، أما بيدرو اورس ، فنام دفعة واحدة ، انه منهك ، لقد كان يريد ان يميت جسده بالتعذيب الذاتى ، وذلك بالسهر ، لكن الطبيعة كانت اقوى.

لقد استيقظوا مبكرين ، مع العصافير ، بمجرد شروق الشمس ، وكان بيدرو اورس أول من خرج ، من مقدمة العربة، ثم جواكيم ساسا وخوسيه انايسو من الخلف وأخيرا المرأتان، وكأن كلا منهم وصل من عالم مختلف ويتقابلون جميعا هنا لأول مرة. فى البداية كانوا ينظرون إلى بعضهم بالكاد ، يختلسون النظر، وكأن رؤية وجه فى اكتماله امر غير محتمل بالنسبة لهم، ويتجاوز بكثير ما تبقى من قواهم الضعيفة ، الآن بعد أن خرجوا من أزمة تلك الأيام الأخيرة . وبدأت ،

بعد القهوة الصباحية، تسمع بضع كلمات هنا وهناك، نصيحة، طلب أو أمر تمت صياغته بحذر شديد ، لكن ستطرح الآن أول مشكلة دقيقة ، ألا وهي كيف سيتم تنظيمهم داخل العربة ، مع الأخذ فى الاعتبار المتغيرات المعقدة التى وردت على تنظيم المجموعات ، كما سبق أن أتيحت لنا فرصة شرح ذلك . ان يجلس بيدرو اورس على المقعد الأمامى ، جيد جدا ، لكن الرجلين والمرأتين لايمكن تفريقهم والخلاف بينهم لايزال ساخنا ، تصوروا قليلا الموقف الكريه والملتبس لوسافر جواكيم ساسا وخوسيه انايسو على المقعد الأمامى ، ما نوع الحديث الذى يمكن ان يدبروه مع بيدرو اورس ، لكن فى الحالة المعاكسة ، أى لو أن ماريا جافيرا وجوانا كاردا ، هما اللتان تصعدان فى المقدمة ، فإن الأمر سيكون أسوأ، ما الذى يمكن ان تقولاه للسائق ، وما نوع الذكريات التى يمكن تبادلها، بينما الزوجان تحت الغطاء يقضمان اظافرهما وهما يتساءلان ، «ماالذى يمكن ان يحكوه لبعضهم؟»، ان مثل هذه المواقف قد تدفع للضحك عند مراقبتها من الخارج، لكن هذه الرغبة تفارقنا بمجرد تخيل ان يكون المرء غارقا فى التوتر العصبى المخيف الذى يتخبط فيه هؤلاء الناس . لحسن الحظ هناك حل لكل شىء، الموت فقط لم يجد حله بعد . لقد جلس بيدرواورس على المقعد الأمامى وامسك بالزمام فى يده، منتظرا ان يحسم الآخرون أمرهم ، عندما قال خوسيه انايسو ، وكأنه يوجه كلامه إلى أرواح الهواء غير المرئية، «اسبقونا بالعربة ، سنسير قليلا جوانا وأنا»، «نحن أيضا» ، قال جواكيم ساسا. هز بيدرو اورس الزمام ، وتحرك الحصانان، وارتجا مرة أخرى رجة مقنعة أكثر ، لكنهما لا يستطيعان السير بسرعة أكبر ، حتى لو أرادا ذلك ، فالطريق يصعد بين الهضاب التى ترتفع على اليسار بشكل مطرد، وفكر بيدرو اورس، «اننا على

خاصرات★ جبال البرانس»، لكن هـدوء هذه المرتفعات يجعل من الصعب تصديق ان الانفعال الخطير يمكن ان يكون قد حدث هنا . يسير الزوجان وراء العربة، كل زوج منفصل عن الآخر بالطبع ، لان ما يمكن لرجل وامرأة ان يقولاه لابد ان يقال بدون شاهد.

ان الجبال لاقيمة لها بالنسبة للتجارة ، وهذه الجبال أكثر من أى جبال أخرى. اذ يضاف إلى قلة السكان فى هذه المناطق الجبلية الوعرة رعب السكان هنا الذين لم يعتادوا بعد على فكرة ان جبال البرانس فقدت تكملتها من هذا الجانب ، وفقدت من الناحية الأخرى ما يدعمها ، ان هذه القرى شبه خالية، بل ان بعضها مهجور تماما ، ويتولد احساس كئيب من صوت عجلات العربة على الطرق المرصوفة ، عندما تمر بين الأبواب والنوافذ التى لاتنفتح ويفكر بيدرو اورس ، «كنت افضل ان أكون فى جبال نفادا»، وامتلأ صدره بالحنين ، أو بالأنورانزا ، لكى نستعمل الكلمة القشطالية لمجرد التفكير فى هذه الكلمات السحرية المدهشة . إن كانت هناك فائدة ما يمكن جنيها من مثل هذا الخراب، فإنها ستتمثل بالنسبة للمسافرين فى امكانية النوم أخيرا فى هذه البيوت التي هجرها اصحابها، بعد كل هذه الليالى من عدم الراحة والاختلاط، ان الامر لاعلاقة له بأى تلميح إلي الحدث الخاص جدا والحديث جدا الذى انقسمت حوله الاذهان وتفاهمت حوله الاطراف المعنية الرئيسية . ان اصحاب المنازل وإن كانوا قد اخذوا معهم ممتلكاتهم واموالهم فى هجرتهم الجماعية فانهم تركوا الاسرة ، انهم بشكل عام لايأخذون الاسرة . اننا بعيدون جدا من ذلك اليوم الذى رفضت فيه ماريا جافيرا بحزم اقتراح النوم فى بيت غريب، المهم ألايكون ذلك التساهل المفاجىء علامة انحلال اخلاقى ، لكنه بالأحرى نتيجة دروس التجربة القاسية.

★ خاصرة الجبل هى ملتقى قمة متوسطة الارتفاع بقمة رئيسية

سيقيم بيدرو اورس وحده فى أحد هذه المنازل ، أى منزل يختاره ، بصحبة الكلب ، ولو انتابته رغبة فى نزهة ليلية ، يستطيع الخروج والدخول كما يحلو له ، ولن ينام الرجلان الآخران بعيدا عن نسائهما هذه الرة ، ان جواكيم ساسا وماريا جافيرا، وخوسيه انايسو وجوانا كاردا ، سينامان أخيرا معا ، لقد قالا لبعضهما بلاشك كل ما يتعين عليهما قوله، وربما يستمران فى الحديث معا جزءا كبيرا من الليل ، غير انه لوظلت الطبيعة البشرية على ما هى عليه ، فمن الطبيعى ان يتقارب رجل وامرأة نتيجة لحنان متسامح ، ولحب تلقائي ، ويساعد على ذلك التعب والضجر، ثم يتبادلان قبلة أولى خجلة ثم ليبارك من جعلنا بهذا الشكل ، يصحو الجسد ويلتمس الجسد الآخر ، إنه جنون ، نعم ، هو نوع من الجنون، فلاتزال الندوب تختلج لكن هالة النور تكبر ، وإذا كان بيدرو اورس يتمشى فى هذه الساعة على التلال ، فسيرى منزلين فى القرية يتألقان مما يجعله يشعر بالغيرة بدون شك ، وربما تمتلىء عيناه ، مرة أخرى ، بالدموع، غير أنه لن يعرف أن العشاق الذين تصالحوا يبكون فى هذه اللحظة بالذات ، وقد اختلط شجن سعيد بشغف انطلق وتحرر. إن غدا سيكون يوما آخر، ولن يكون لمعرفة من سيسافر فى العربة . ومن على مقعد السائق اية اهمية ، فكل الترتيبات أصبحت ممكنة من جديد ، فلاشىء منها محل التباس.

ان الحصانين منهكان ، فالمنحـدرات لاتنتهى ، ذهب خوسيه انايسو وجواكيم ساسا للقاء بيدرو اورس ، وسألاه بكثير من الـذوق والحذر، إذ لايتعين خلط هذه الأسباب مع الأخرى، إذا كان ماراَه من البرانس يكفيه أم أنه يريد الاستمرار نحو الارتفاعات العليا، وأجابهما بيدرو اورس ان ما يجذبه ليست هى الارتفاعات بالذات وانما نهاية الأرض ، وإن كان لايجهل أن تلك النهاية هى دائما البحر نفسه الذى يتم

تتم مشاهدته ، «لذلك لم نذهب إلى دوناسنيا ، إذ ما أهمية رؤية شاطىء مقطوع إلى نصفين ، والوجود على رأس من الرمال تحيط به المياه من الجانبين»، «لكننى لا اعرف إن كان الحصانان سيتمكنان من الذهاب إلى ارتفاع كاف لكى نتمكن من رؤية البحر» ، قال خوسيه انايسو ، «لن نحتاج إلى الصعود إلى ارتفاع ألفين أو ثلاثة آلاف متر ، بافتراض أن هناك طرقا ممهدة للوصول إلى القمة ، لكننى كنت أود حقا الاستمرار فى الصعود إلى أن نرى شيئا ما » . فردوا الخرطية ، وقال جواكيم ساسا ، « من المفترض أننا هنا » ، وتمشى بإصبعه بين نفاسكيه وبورجى ، ثم انتقل نحو الحدود ، «لا يبدو أن المكان مرتفع جدا فى هذا الجانب ، فالطريق يحازى نهرا ، الاسكا ثم يتركه لكى يستمر فى الصعود ، وعندئذ يتعقد الأمر ، ومن الناحية الأخرى توجد قمة يزيد ارتفاعها على الف وسبعمائة متر» ، وقال خوسيه انايسو ، «توجد ، لا ، كانت توجد» ، « نعم بالطبع ، كانت هناك قمة، سأطلب مقصا من ماريا جافيرا لقص الخريطة عند الحدود» ، وقال بيدرو اورس، «لنجرب هذا الطريق ، وإذا غدا شديد الصعوبة بالنسبة للحصانين ، سنعود على اعقابنا» .

ولبلوغ هدفهم لزم يومان ، وفى الليل ، كانوا يسمعون عواء الذئاب فى التلال ، ويشعرون بالخوف . كان سكان السهول، يفهمون فى النهاية الخطر الذى يتهددهم إن اقتربت الحيوانات المفترسة من المخيم ، كانت ستبدأ بقتل الحصانين ثم بعد ذلك يأتى دورهم فى حين لم تكن لديهم أبسط الأسلحة للدفاع عن أنفسهم . قال بيدرو اورس ، «إننى اعرضكم لمخاطر ، فلنعد على اعقابنا» ، لكن ماريا جافيرا اجابت ، «لنستمر ، سيدافع الكلب عنا» ، «لا يستطيع كلب أن يواجه سربا من الذئاب» ، لاحظ جواكيم ساسا ، «هذا الكلب يستطيع» ، ومهما بدا ذلك غريبا لمن يعرف هذا الموضوع أفضل من الراوى ، كانت ماريا جافيرا على حق ، لأن الذئاب

اقتربت ذات ليلة ، وأخذ الحصانان المرعوبان فى الصهيل ، وكان سماعهما يثير الحزن ، كانا يشدان بكل ما أوتيا من قوة على الحبال التى كانت تربطهما ، وكان الرجال والنساء يبحثون عن مكان يحتمون فيه من الهجوم ، وكانت ماريا جافيرا الوحيدة التى لا تزال تقول ، بالرغم من ارتجافها ، «لن تأتى» ، وتكرر ، «إنها لن تأتى» ، كانت النار مشتعلة عاليا ، كانوا يحافظون عليها هكذا فى ليلة الأرق تلك، ولم تقترب الذئاب أكثر من ذلك ، وكان الكلب يبدو وكأنه يكبر فى دائرة الضوء ، وبتأثير الظلال المتحركة بدا رأسه ولسانه وأسنانه وكأنها تضاعفت ، وهم بصرى، وتضخم جسمه وانتفخ بشكل مفرط ، وكانت الذئاب تعوى دائما ولكن من خوفهم الذئبى .

كان الطريق مقطوعا ، مقطوعا حقيقة ، بالمعنى الحرفى للكلمة . كانت الجبال والسهول على اليمين واليسار تتوقف فجأة طبقا لخط شديد الوضوح مثل قطع السكين أو فجوة سمائية . لقد ترك المسافرون العربة وراءهم ، فى حراسة الكلب ، وكانوا يتقدمون بخوف وحذر . وكان هناك ، على بعد حوالى مائة متر تقريبا ، مركز جمارك . ودخلوا كانت لا تزال هناك اثنتان من الآلات الكاتبة ، وبإحداهما ورقة منزلقة فى الاسطوانة ، وهناك كتيب جمارك مكتوب فيه بضع كلمات . كان هواء بارد يدخل من النافذة المفتوحة ويحرك الأوراق على الأرض. وكان هناك ريش طيور . وقالت جوانا كاردا، إنها نهاية العالم» ، وأجاب بيدرو اورس، «حسن، فلنذهب لنرى كيف انتهى» . وخرجوا ، وكانوا يتقدمون بحذر ، حريصين على تفادى الشقوق فى الأرض ، فهى قد تعنى عدم استقرار التربة ، إن خوسيه انايسو هو الذى ذكر هذا الاحتمال ، لكن الطريق كان ناعما ومستمرا ، مع وجود بعض حالات قليلة من عدم الانتظام ترجع إلى البلى . وعلى بعد عشرة امتار من الحافة قال جواكيم ساسا ، «من الأفضل ألا نقترب ونحن واقفون ، بسبب الدوار

سأذهب إلى هناك على أربع» . انحنوا وتقدموا ، وهم متكئون أولا على الأيدى ثم على الركب . وفى النهاية كانوا يتقدمون زحفا ، ويشعرون بقلبهم يدق من الخوف والقلق ، ويغطي جسدهم العرق بالرغم من البرد الشديد ، كانوا يشكون ، فى نواتهم ، فى أنهم سيتمكنون من الوصول إلى حافة الهاوية ، لكن لا أحد منهم كان يريد أن يظهر أنه ضعيف ، وعندئذ ، وجدوا أنفسهم وكأنهم فى حلم ، ينظرون إلى البحر ، من على ارتفاع ألف وثمانمائة متر تقريبا ، كان الانحدار يسقط عموديا ، والبحر يلمع ، وتبدو الأمواج صغيرة فى عرض البحر ، والزبد الأبيض ، هدب من الزبد ، وكانت امواج المحيط تضرب الجبل وكأنها تريد دفعه . وصاح بيدرو اورس متحمسا فى الم مبتهج ، «إنها نهاية العالم» ، كان يكرر كلمات جوانا كاردا وكرروها جميعا ، وقال الصوت المجهول ، «يا إلهى، السعادة موجودة ، وهى ربما ليست سوى ذلك ، البحر والنور والدوار» .

العالم ملىء بالمصادفات ، وإن لم يتزامن شىء معين مع شىء آخر بالرغم من أنه قريب منه ، فإن ذلك ليس مبررا لنفى المصادفات ، إنه يعنى ببساطة أن التزامن المعنى ليس واضحا للعيان . ففى اللحظة المحددة التى كان المسافرون ينحنون فيها على البحر ، توقفت شبه الجزيرة : لم يلحظ أحد منهم ذلك ، فلم يحدث أى ارتجاج فرملة ، ولا أية اشارة عنيفة لفقدان التوازن ، ولا أى احساس بالصلابة . ولم يعرفوا النبأ المذهل إلا بعد ذلك بيومين ، بعد أن نزلوا من الارتفاعات الرائعة ، ووصلوا إلى أول مكان مأهول ، لكن بيدرو اورس أعلن ، «إذا كانوا يؤكدون أن شبه الجزيرة توقفت ، فإن ذلك حقيقى بكل تأكيد ، لكن الأرض مازالت تهتز ، هذه هى الحقيقة ، إننى ابرهن على ذلك بنفسى وبالكلب» . وكانت يد بيدرو اورس تستند على فقرات ظهر الكلب كونستنت».

نشرت صحف العالم أجمع ، الصورة التاريخية التى تبين شبه الجزيرة ، وربما يكون من المناسب أكثر تسميتها جزيرة ، وهى ساكنة وسط المحيط ، وتحافظ تقريبا على موقعها بالنسبة للجهات الأصلية التى تتحكم وتوجه الكون ، بحيث تقع بورتو دائما شمالى لشبونة وغرناطة جنوبى مدريد ، منذ أن وجدت مدريد ، والباقى طبقا للتطابقية نفسها ، ولقد أفردت بعض الصحف صفحتها الأولى لهذه الصورة . ولم تجد قدرة التخيل لدى الصحفيين سوى حيلة العناوين الضخمة ، نظرا لأن أسرار الانزلاق الچيولوچى ، أو الأفضل لغز بنية القشرة الأرضية وما ينشأ فيها من تغيرات بفعل القوى الباطنة ، ظلت مطلسمة كما كانت فى أول يوم . لقد قل ضغط الرأى العام ، لحسن الحظ ، وكف الدهماء عن طرح الأسئلة ، كانت تكفيهم الإثارة الناجمة عن الاقتراحات والافتراضات المباشرة وغير المباشرة التى تثيرها العناوين الرائعة للصحف «ولدت اطلنطس جديدة» ، «تحرك بيدق على رقعة شطرنج العالم» ، «علامة وصل بين أمريكا وأوربا» ، «سبب للشقاق بين أوروبا وأمريكا» ، «ساحة حرب المستقبل» ، لكن العنوان الذى احدث أقوى تأثير جاء من صحيفة برتغالية ، وكتب بهذه الطريقة ، «من الضرورى وضع معاهدة توردز يلاس جديدة» ، ويمثل هذا العنوان فى الحقيقة كل بساطة العبقرية ، لقد فحص صاحب هذه الفكرة الخريطة ولاحظ أن شبه الجزيرة تقع على بعد ميل تقريبا من الخط الذى كان فى الفترة المجيدة يقسم العالم إلى جزءين قطعة صغيرة لى ، وقطعة صغيرة لك ، وتمت الحيلة .

وفى مقال افتتاحى بدون توقيع ، طرح اقتراح أن تتبنى دولتا شبه الجزيرة استراتيچية مشتركة ومتكاملة تضمن لهما موقعا جديدا فى ميزان السياسة العالمية ، حيث البرتغال متجهة إلى الغرب ، نحو الولايات المتحدة ، واسبانيا متجهة نحو الشرق ، أى إلى اوربا . وساندت صحيفة اسبانية ، لم ترد أن تكون أقل ابتكارا ، أطروحة ذات طابع إدارى تجعل من مدريد المركز السياسى لكل هذه

الآلية ، بحجة أن العاصمة الإسبانية تقع تقريبا فى المركز الهندسى لشبه الجزيرة، بالرغم من أن ذلك ليس صحيحا ، ويكفى النظر للخريطة ، لكن هناك أشخاصا لا ينظرون إلى الوسائل لبلوغ غاياتهم . ولم تقتصر جوقة الاحتجاجات على البرتغال ، لقد ثارت المناطق التى تتمتع بالحكم الذاتى فى اسبانيا ، بدورها ضد هذا الاقتراح ، الذى اعتبر مظهرا إضافيا للمركزية القشطالية . ورصد من الجانب البرتغالى انبعاثا مفاجئا لدراسات التنجيم والدراسات الباطنية ، وهو امر كان يتعين توقعه ، ولم يتمكن من إيقافه سوى تغير جذرى فى الموقف ، وإن كانت الظاهرة قد استمرت طويلا . بما فيه الكفاية لكى تنفد كل نسخ كتاب «تاريخ المستقبل» للأب انطونيو ڤيرا وكتاب «التنبؤات» لبندارا ، بصرف النظر عن كتاب «رسالة» لرناندو بيسوا ، الغنى عن الذكر .

أما من وجهة نظر السياسة العملية ، فكانت المشكلة التى يتم بحثها فى المستشاريات الأوروبية والامريكية تتعلق بمناطق النفوذ ، بمعنى معرفة إن كان يتعين على شبه الجزيرة ، أو الجزيرة ، بالرغم من المسافة ، أن تحافظ أولا على روابطها الطبيعية مع أوروبا ، أم أنه يتعين عليها بالأحرى أن تتبع مشروعات ومخططات ومصير الأمة الأمريكية الشمالية الكبيرة ، بدون أن تقطع تماما علاقاتها بأوروبا . وكان الاتحاد السوفييتى ، بالرغم من أنه لا يأمل فى التأثير بطريقة حاسمة على الموضوع ، لا يكف عن التذكير بأنه لا يمكن تقرير أى شىء بدون مشاركته فى المناقشات ، وكان يستفيد من ذلك من أجل تعزيز الأسطول الذى كان يرافق منذ البداية ، الأوديسا الهائمة ، وهو ما كان يجرى ، بالطبع ، تحت بصر القوى الأخرى ، الأمريكية الشمالية ، والبريطانية والفرنسية .

وفى إطار هذه المفاوضات ابلغت الولايات المتحدة البرتغال ، عبر سفيرها شارلز ديكنز ، الذى طلب مقابلة رئيس الجمهورية بشكل عاجل ، أنه لم يعد فى

الوقت الحالي ما يبرر استمرار وجود حكومة انقاذ وطني ، وقد زالت الأسباب، «التي أدت إلى تشكيل هذه الحكومة ، وهي أسباب ، إذا سمحتم لي سيدى الرئيس بالتعبير عن رأيي ، محل جدل شديد» . وتم معرفة هذه العجلة بطرق ملتوية ، وذلك على نقيض قواعد السياسة السليمة ، لأن دوائر الرئاسة المعنية لم تصدر أى بيان ، ولم يدل السفير عند خروجه من الاجتماع بأى تصريح ، مكتفيا بإعلان أن حديثه مع الرئيس كان صريحا وبناء . لكن كان ذلك كافيا لكي تثور الأحزاب ، التي ستضطر للخروج من الحكومة في حالة إعادة تشكيلها أو إجراء انتخابات عامة ، ضد التدخل غير المحتمل من قبل هذا السفير المتصلف ، ويقال ، «يرجع الأمر إلى البرتغاليين في حل المشكلات البرتغالية الداخلية» ، وكان يضاف بسخرية قاسية، «كون أن السيد السفير كتب دافيد كوبر فيلد ، لا يسمح له أن يحضر لإصدار الأوامر في وطن الشعر والشعراء . وكان الأمر عند هذه النقطة عندما تحركت شبه الجزيرة من جديد ، دون إنذار سابق .

كان بيدرو *اورس* على حق عندما قال ، وهو عند سفح *البرانس* ، «لقد توقفت ، نعم ، لكنها مازالت تهتز» ، ولكي لا يكون وحده الذى يؤكد ذلك ، وضع يده على ظهر الكلب كونستنت ، واهتز الحيوان ايضا ، وتمكن الرجلان والمرأتان من مشاهدته ، وكرر بذلك التجربة التي قام بها جُواكيم ساسا وخوسيه انايسو ، تحت شجرة الزيتون الكوردوفيل ، في الأراضي القاحلة بين اورس وفنتا ميسنا . ولكن الحركة لا تتجه حاليا ، نحو الغرب ولا الشرق ، ولا الجنوب ولا الشمال ، إن شبه الجزيرة ، وللدهشة والذهول العام والعالمي ، تدور حول نفسها في اتجاه شيطاني ، أى في اتجاه عكس عقارب الساعة ، وهو ما جعل السكان البرتغاليين والاسبان يشعرون بدوار عندما زادت الحركة ، مع أن سرعة الدوران لم تكن

مثيرة للدوار بأية حال . وأمام هذه الظاهرة الغريبة ، قطعا ، والتى تطرح للبحث من جديد وبشكل مطلق كل قوانين الفيزياء ، وبشكل أكثر دقة قوانين الميكانيكا التى خضعت لها الأرض حتى الآن ، توقفت المفاوضات السياسية ، وحيل المكاتب والممرات ايضا ، وكذلك التكتيكات الدبلوماسية سواء كانت من نوع ضربة الخنجر أو نقطة الماء . لنعترف ، على أية حال ، أنه لم يكن سهلا على الإطلاق الاحتفاظ بالهدوء ورباطة الجأش ، عندما يكون معروفا مثلا أن طاولة مجلس الوزراء وكذلك الشارع والمدينة والبلد وشبه الجزيرة كلها بكاملها تشبه آلة تدور ببطء ، مثلما يحدث فى الحلم. وكان بعض الأفراد شديدى الحساسية يقسمون أنهم يشعرون بالحركة الدائرية ، مع إقرارهم بأنهم لا يلحظون حركة الأرض فى الفضاء ولإثبات ما يقولون ، كانوا يفردون أذرعتهم لكى يتمالكوا أنفسهم ، لكن ينتهى بهم الأمر بالسقوط ويظلون هكذا ، ظهورهم على الأرض ، وينظرون إلى السماء التى تدور ببطء ، وإلى النجوم والقمر ليلا ، والشمس أيضا من خلال نظارات سوداء ، لكن بعض الأطباء اعتبروا أن الأمر يتعلق بمظاهر هستيرية .

ولم يخل الأمر ، بالطبع من المتشككين الأكثر راديكالية ، هل تستطيع شبه الجزيرة أن تدور حول نفسها ، لا، إن ذلك مستحيل تماما ، تنزلق نعم ، من الممكن ، ومقبول ، فانزلاقات الأرض معروفة ، وما يحدث لمنحدر من الأرض عندما تمطر السماء بغزارة يمكن أن يحدث لشبه الجزيرة، حتى وإن كانت السماء لا تمطر، لكن الدوران المذكور يعنى أن شبه الجزيرة تدور الآن على محورها نفسه ، وهو أمر ليس مستحيلا فقط من الناحية الموضوعية والذاتية ، لكنه يهدد ، عاجلا أو آجلا ، بأن يجعل النواة المركزية تنفجر ، وعندئذ ستنساق شبه الجزيرة مع التيار ، بدون أية وسيلة للثبات ، وسنصبح تحت رحمة القدر . إلا أن هؤلاء الناس

كانوا ينسون أن الدوران يمكن أن يتم فقط فى شكل صفيحة منزلقة على صفيحة أخرى ، وأن هذا النضيد ★ الصفائحى يتكون ، كما يدل على ذلك اسمه ، من صفائح متراصة ، ولو كان الالتحام بين الصفيحتين ضعيف فإن إحداهما يمكنها أن تنزلق تماما على الأخرى مع الاحتفاظ ، نظريا بالطبع ، بدرجة ما من الالتصاق تمنع الانفصال التام ، وكان المدافعون عن هذه الفرضية يؤكدون أن «ذلك هو ما يجرى الآن» ، ولإثبات هذه الفرضية أرسلوا إلى قاع المحيط رجال الضفادع البشرية مرة أخرى ، وغاصوا إلى أقصى عمق استطاعوا الوصول إليه فى هذه المنطقة السحيقة من المحيط ، كما قام ارشميدس بالرحلة أيضا وكذلك سيانا بالإضافة إلى مهندس يابانى اسمه معقد ، وكانت نتيجة كل هذه الجهود أن الباحث الإيطالى فتح كوة المركب عند خروجه من الماء وكرر أمام ميكروفونات تليفزيونات العالم كله الجملة الشهيرة «لا يمكنها أن تتحرك ، ومع ذلك فإنها تتحرك» . لم يكن هناك أدنى محور مركزى ملتو مثل الحبل ، كما لم تكن هناك أية صفيحة ، لكن الجزيرة كانت تدور بعظمة وسط المحيط الاطلنطى ، ومع استمرار دورانها أصبح من المتعذر بشكل مطرد التعرف عليها ، «هل عشنا حقا هنا؟» ، كان هذا هو التساؤل ، فالساحل البرتغالى بالكامل مائل نحو الجنوب الغربى ، وما كان فى السابق الحد الشرقى القديم للبرانس يتجه نحو ايرلندا . وأصبح تحليق الطيران التجارى العابر للأطلنطى فوق شبه الجزيرة إجباريا ، وإن كان يتعين الاعتراف بأن الفائدة من ذلك لم تكن كبيرة ، لعدم وجود مرجع ثابت وهو أمر لا غنى عنه ليتسنى مقارنة الحركة. لا شىء ، فى الحقيقة ، مثل الصورة التى التقطها وبثها القمر الصناعى ، لقد كانت الصورة المأخوذة من على ارتفاع شاهق

★ حجر مبتلر ينفلق إلى طبقات

هى الوحيدة التى تعطى فكرة صحيحة لمدى اتساع الظاهرة .

واستمرت هذه الحركة شهرا . وبالنظر إلى الكون انطلاقا من شبه الجزيرة فإنه كان يتحول ببطء . كانت الشمس تشرق كل يوم من نقطة مختلفة فى الأفق ، أما بالنسبة للقمر والنجوم فكان يتعين البحث عنها فى السماء ، لم تعد حركتها الانتقالية الذاتية حول مركز درب اللبانة تكفى لتحديد موقعها ، حيث يوجد الآن تلك الحركة الأخرى التى كانت تحول الفضاء إلى جنون من الأضواء المتغيرة ، كما لو أن الكون من أوله إلى آخره يجرى عملية إعادة تنظيم ، بعد أن قرر ، بلاشك ، أن الكون السابق لم يعط نتائج طيبة ، وجاء يوم غربت فيه الشمس فى المكان ذاته الذى كانت تشرق منه عادة ، فى الزمن الطبيعى ، وغنى عن البيان أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحا ، وأن كل ما حدث مجرد ظاهر الأمر ، فالشمس لا يمكنها أن تغير مسارها فهى تدور فى مدارها المعتاد ، كان البسطاء عندئذ يدللون على صحة ما يقولون ، «معذرة ، سيدى العزيز ، لكن الشمس كانت تدخل فى الصباح من النافذة الامامية ، فى حين أنها تدخل الآن من مؤخرة المنزل ، ولتتفضل بأن تشرح لى ذلك بطريقة مفهومة» . وكان العالم لكى يشرح ذلك يقوم بعرض صور ويرسم رسوما، ويفرد خريطة للسماء، والمتلقى لا يتذمر أو يعترض ، لكن الدرس كان ينتهى بالرجاء التالى ، «سيدى الدكتور ، من فضلك ، افعل شيئا بحيث تشرق الشمس من جديد على مقدمة البناية» . وبعد استنفاد جميع الوسائل والعلم ، كان الاستاذ يقول ، «لا عليكم ، لو دارت شبه الجزيرة دورة كاملة ، فسترون الشمس مثلما كانت فى السابق» ، لكن التلميذ المرتاب ، كان يجيب ، «اتعتقدون إذن أن كل ذلك ليس له سوى هدف واحد ، أن يظل كل شىء كما كان عليه» . وفى الحقيقة لم يكن الأمر كذلك .

كان من المفروض أن نكون فى فصل الشتاء ، لكن الشتاء الذى كان يبدو أنه على الأبواب ، قد تراجع ، ليست هناك كلمة أخرى . لم يكن الفصل شتاء ، ولا خريفا أيضا ، وليس ربيعا على أية حال ، وبالطبع لم يكن صيفا . كان فصلا معلقا ، دون زمن ، كما لو أننا موجودون فى بداية العالم عندما لم تكن الفصول وتوقيتاتها قد استقرت بعد . كانت العربة تتقدم ببطء بمحاذاة سفح الجبال ، ويقيم المسافرون فى الوقت الراهن فى الأماكن التى يتوقفون فيها ، وكان يثير انبهارهم بشكل خاص ، منظر الشمس التى كفت عن الشروق فوق البرانس لكى تبزغ من البحر ، باعثة أولى أشعتها على خاصرة الجبل وحتى القمم الثلجية . وهناك ، فى إحدى هذه القرى أدركت كل من ماريا جافيرا وجوانا كاردا أنهما حاملان. لم يكن فى المسألة ما يدهش ، بل يمكن القول إن هاتين المرأتين فعلتا كل شيء للوصول إلى ذلك، فطوال تلك الشهور والأسابيع استسلمت كل منهما لرجلها بسخاء صحى، بدون أى حذر أو احتياط من جانب أو آخر . أما بالنسبة لتزامن الحدثين ، فيجب ألا يدهشنا ذلك أيضا ، فالأمر لا يعدو أن يكون إحدى المصادفات التى تجعل العالم منظما ، ومن المفيد من وقت لآخر ، أن يتم اظهار إحدى هذه المصادفات بشكل واضح لإقناع المتشككين . لكن ، الموقف محرج، وهو أمر ظاهر للعيان ، ومصدر الحرج هو أن الصعوبة القائمة فى الفصل فى حالتى إثبات أبوة كل منهما لا تقل التباسا عن الأخرى . فلولا زلة جوانا كاردا وماريا جافيرا ، اللتين ذهبتا عبر الغابة والدغل بحثا عن الرجل الوحيد ، تدفعهما إلى ذلك الشفقة أو إحساس آخر أكثر تعقيدا ، حيث اضطرتا بالفعل إلى التوسل إليه لكى يدخل فيهما ، وهو يرتجف من الانفعال والتوتر ، ويصب طاقته قبل الأخيرة ، فلولا هذه الواقعة الوجدانية والحماسية والتى لا تحمل سوى القليل من البعد الشهوانى ، لما كان هناك أدنى شك فى حقيقة أن ابن ماريا جافيرا هو ابن

جواكيم ساسا ، وأن الوالد الفعال لابن جوانا كاردا هو خوسيه انايسو. لكن فى تلك الأثناء ظهر بيدرو اورس ، وإن كان من الأصح القول إن الغاويتين ظهرتا فى طريقه ، وإن الأدب غطى وجهه من الخجل . وقالت ماريا جافيرا ، «لا أعرف من هو الأب» ، معطية بذلك القدوة، «وأنا أيضا» ، قالت جوانا كاردا التى تبعتها لسببين ، السبب الأول لكى لا تكون أقل جرأة وجسارة ، والسبب الثانى ، لتصحيح الخطأ بالخطأ ، وذلك بجعل الاستثناء قاعدة .

لكن هذه الحديث ، أو أى حديث آخر حتى وإن كان أكثر براعة ، لا يجنبهما القضية الرئيسية الآن، ألا وهى إعلام خوسيه انايسو وجواكيم ساسا ، وكيف سيكون رد فعلهما عندما تخبر كل منهما رجلها ، وبأى وجه ، «إننى حامل» . لو كانت الظروف مختلفة ، لكانا قد جنا من الفرح ، كما يقال عادة ، وربما بعد زوال الصدمة الأولى ، سيعبر الوجه والنظرة عن الابتهاج المفاجىء الذى يغمر روحيهما، لكن سرعان ما سيعبس الوجه وتكفهر النظرة ، إن الأمر ينذر بمشاحنة مريعة ، اقترحت جوانا كاردا ألا تقولا شيئا ، ومع مرور الوقت ستستدير بطناهما وستنتهى قوة الأمر الواقع بتهدئة الحساسيات ، والشرف المهان ، والغيظ المستثار ، لكن ماريا جافيرا لم تكن مع هذا الرأى ، فلقد بدا لها مثيرا للأسف أن تكون نهاية حركة الشجاعة والسخاء للجميع التى قامت بها هى هذا الجبن الهش المتمثل فى الإخفاء والنفاق ، وهو ما يعد اسوأ من التواطؤ الضمنى . وأقرت جوانا كاردا ، «إنك على حق ، من الأفضل أخذ الثور من قرونه» ، ولم تدرك ما قالته، إن ذلك هو خطر الجمل الجاهزة ، عندما لا نولى اهتماما كافيا بالسياق.

وفى اليوم نفسه ، نادت كل واحدة من المرأتين رجلها على حدة وتمشت معه فى الحقول ، هناك حيث المساحات الشاسعة التى تحول أكثر الصرخات غضبا وألما إلى همسات ، ولهذا السبب الحزين لا تصعد أصوات الرجال إلى السماء

أبدا، وهناك ، قالت كل منهما لرجلها بصراحة ، كما قررتا ، «أنا حامل ولا أعرف إن كان هذا الحمل منك أم من بيدرو اورس» . وكان رد فعل كل من جواكيم ساسا وخوسيه انايسو كما هو متوقع تماما ، انفجار للغضب، وألم حاد ، وحركات عنيفة بالذراعين ، كان لا يستطيع أحدهما أن يرى الآخر لكن حركاتهما كانت متماثلة ، وكلماتهما كذلك ، «ألا يكفيك ما جرى ، وها أنت الآن حامل ، ولا تعرفين من» ، «كيف تريدني أن أعرف ، لكن لن يكون هناك مجال للشك يوم أن يولد الطفل» ، «لماذا؟» ، «بسبب أوجه الشبه» ، «آه نعم ، لكن تصورى لو لم يشبه أحدا سواك» ، «لو كان يشبهني ، ويشبهني أنا فقط ، فذلك لأنه سيكون طفلى ، وليس طفل أحد آخر» ، «وفضلا عن ذلك ، تسخرين منى» ، «أنا لا أسخر، فهذا شيء لا يمكن أن أفعله» ، «والآن ، كيف ستحل هذا الموقف» ، «إذا كنت قد استطعت أن تقبل بأننى نمت مرة مع بيدرو اورس ، فتقبل إذن الانتظار تسعة شهور قبل اتخاذ أى قرار ، لو كان الطفل يشبهك ، فهو ابنك إذن، ولو كان يشبه بيدرو أورس ، فإنه سيكون طفله ، وسيكون من حقك رفضه وأنا معه ، إذا كان ذلك ما تبتغيه ، أما بالنسبة لكونه قد يشبهنى أنا وحدى ، فلا تعتمد على ذلك ، هناك دائما إحدى قسمات الوجه تنتمى لفصيلة أخرى» ، «وبيدرو أورس ، ماذا سنفعل معه ، هل سنقول له » ، «لا ، فخلال أول شهرين لن يلحظ شيئا ، وربما لأكثر من ذلك أيضا ، نظرا لطريقة ملابسنا ، القمصان الكبيرة والمعاطف الواسعة» ، «اعتقد أنه من الأفضل عدم الكلام عن كل ذلك ، وإننى أعترف أنه ستضايقنى للغاية رؤية بيدرو أورس ينظر إليك ، ينظر إليكما ، على أنه فحل الخيل المحنك» ، هذه الكلمات نطق بها خوسيه انايسو الذى يملك اللغة بشكل أفضل ، أما جواكيم ساسا فكانت له طريقة تعبير أكثر ابتذالا ، «ستزعجنى كثيرا

رؤية السيد بيدرو أورس يبدو مثل الديك فى قنه» . وهكذا قبل الرجلان ، وقد هدآ، الفعل الشائن ، يدعمهما الأمل فى أنه ربما سيكف عن كونه كذلك يوم أن يتضح بالطريق الطبيعى اللغز الذى لا وجه له حاليا .

أما فيما يتعلق ببدرو أورس ، الذى لم يعرف قط ماذا يعنى أن يكون للإنسان اطفال ، فلم يمر في رأسه أن بذوره يمكن أن تنبت في جسد النساء ، صحيح أن الإنسان لا يتمكن أبدا من معرفة كل عواقب أفعاله ، وفيما حدث مثال طيب على ذلك ، وتندثر الذكرى السعيدة للحظات التى عاشها وتأثيرها . التخصيبى المحتمل، الذى كان لا يزال تافها، يظل محجوبا عن عينيه، ومخفيا عن معرفته، مع أنه إذا بلغ غايته وتأكد، فإنه الأهم بالنسبة له من كل الباقى، على أية حال، فان بيدرو اورس ليس ضريرا تماما، اذ يبدو له جليا الاضطراب الشديد الذى طرأ على انسجام الأزواج، فهناك بينهما نوع من المسافة، لا يمكن الحديث عن برود، انما هو أقرب لأن يكون نوعا من التحفظ لكن بلا عداء، وإن كان مولدا لفترات صمت طويلة، لقد بدأت هذه الرحلة بشكل طيب تماما والآن وكأنهم استنفدوا كل الكلمات أو أن أحدا لا يجرؤ بعد على نطق الكلمات الوحيدة التى سيكون لها معنى، «انتهى الأمر، لقد مات ما كان حيا»، اذا كان الأمر يتعلق بذلك فعلا»، كما يمكن ان تشتعل نار الاشواق الأولى من جديد، ربما مع الوقت، ويجعلهم ينسوننى»، لذلك، كان بيدرو اورس ، فى كل مرة يتوقفون فيها فى مكان، يستأنف نزهاته الكبيرة فى المناطق المحيطة بالمكان، إن المسافات التى يستطيع هذا الرجل مشيها، شىء لا يصدق.

ذات يوم، وكانوا فى ذلك الوقت قد تركوا وراءهم التموجات الأولى لتكوينات الجبال التي تعلن من بعيد جدا عن جبال البرانس، غامر بيدرو اورس بالسير فى طرق منعزلة، وكان على وشك الاستسلام لإغراء ألا يعود الى المخيم مرة اخرى،

هذا النوع من الافكار الذى يأتى الى الذهن عندما يكون الانسان منهكا، ووجد رجلا فى نفس سنه تقريبا، ان لم يكن اكثر لفرط ما كان يبدو عليه التعب والانهاك، جالسا على حافة الطريق ليرتاح، والى جواره يقف حمار يحمل على ظهره بردعة وسلالا، ويقطع بأسنانه الصفراء العشب الاشقر، فالوقت ، كما سبق ان قلنا، لم يكن مناسبا اطلاقا لازهرار جديد او يجعله يظهر بالصدفة، وكان هاوى الكنايات سيقول لقد ضلت الطبيعة طريقها، ويلتهم الرجل قطعة خبز كبيرة جافة، بدون أى شىء عليها، انه بكل تأكيد فى اقسى درجات الفقر، متشرد بدون مائدة ولا سقف، لكن يبدو عليه السلام والوداعة، ولا يبدو عليه اللؤم أو الشر اطلاقا، ان بيدرو اورس ، على اية حال، ليس وجلا او فزعا بأى شكل من الأشكال، ولقد اثبت ذلك بشكل واسع خلال نزهاته الطويلة عبر مساحات غير مأهولة، حقيقى أن الكلب لا يفارقه ابدا، ولمزيد من الدقة، لقد تركه مرتين، لكن كان ذلك ليتركه مع صحبة أفضل، بدافع كتمان صرف .

حيا بيدرو اورس الرجل «مساء الخير» ، واجاب الآخر «مساء الخير» ولاحظت آذان كل منهما طريقة النطق المألوفة، لهجة الجنوب، وبالتحديد لهجة الاندلس ، لكن الرجل ذا الخبز الجاف داخله الشك من رؤية رجل وكلب فى هذه الأنحاء البعيدة عن أى عمار، وكأنهما قد تم إسقاطهما هناك من طبق طائر، وجذب اليه بحرص، لكن دون ان يخفى حركته، قضيبا حديديا كان ملقىً على الارض ، لاحظ بيدرو اورس الحركة وقلق الرجل، لابد ان وقوف الكلب ساكنا ينظر إليه، ورأسه منخفض، قد أثار قلقه، «لا تخش، الحيوان وديع، لا أعنى أنه وديع حقيقة، لكنه لا يهاجم إلا لو ظن أن سوءا يراد به»، «وكيف يعرف ما يفكر فيه الناس»، «هذا سؤال حسن، كنت أود أن أتمكن من الرد عليه، لكننى أنا ورفاقى لم ننجح فى فهم

من هو هذا الكلب أو من أين جاء»، «كنت اعتقد انك تسافر وحدك، او انك تسكن قريبا من هنا»، «انني اسافر مع أصدقاء، لدينا عربة يجرها حصانان، وبسبب الأحداث، خرجنا الى الطريق ولم نغادره حتى الآن، انك اندلسى، لقد تعرفت على لهجتك، «أنا من اورس، في اقليم غرناطة، و«انا من زوفر، فى اقليم هيولفا»، «سعيد بمعرفتك»، «انا السعيد» ، «اتسمح بان اجلس بجوارك»، «اجلس حيث يحلو لك ، لا أستطيع أن امنحك أكثر مما أملك، خبز جاف»، «اشكرك، لقد اكلت من قبل مع رفاقى»، «من هم»، «صديقان وزوجتاهما، هما الاثنان واحدى المرأتين برتغاليون، والمرأة الأخرى من جاليزا»، «وكيف تعرفتم؟»، «آه،إ نها قصة طويلة جدا يصعب ان ارويها لك الآن».

ولم يلح الآخر، لقد فهم انه لا يجب عليه ان يفعل ذلك، وقال «لابد انك تتساءل لماذا أوجد هنا، بما انى اصلا من إقليم هيولفا»، «فى هذه الأوقات يغدو من الصعب مقابلة احد يوجد حيث كان دائما»، «انا مولود فى زوفر واسرتى هناك، ان كانت قد بقت هناك، لكن عندما بدأوا يقولون ان اسبانيا انفصلت عن فرنسا، قررت ان اذهب لرؤية ذلك بأم عينى»، «ليست اسبانيا، ولكن شبه الجزيرة الايبيرية»، «كما تشاء»، «ولم تنفصل شبه الجزيرة عن فرنسا وانما عن اوروبا، قد يعتقد انه الشيء نفسه، لكن هناك فرقا»، «انا لا افهم شيئا فى هذه الفروق الدقيقة، كنت اريد فقط رؤية ذلك»، «وماذا رأيت؟»، «لا شئ، لقد وصلت الي جبال البرانس، ولم ار سوى البحر»، «اننا ايضا لم نر شيئا اخر غير ذلك»، «لم يكن هناك لا فرنسا ولا اوروبا، وفى رأيى، ان الشيء الذى لم يعد موجودا يماثل تماما الشيء الذى لم يوجد قط، وكان جهدا ضائعا قطع كل هذه الفراسخ بحثا عن شيء لم يعد موجودا»، «اعتقد انك بذلك تعترف خطأ»، «اى خطأ»، «قبل ان

تنفصل شبه الجزيرة عن اوربا، كانت اوروبا موجودة وكانت توجد حدود، ويذهب الناس من جانب ومن آخر، يعبر الاسبان ويعبر البرتغاليون، وكان الاجانب يأتون، ألم يأت سياح عندكم ابدا»، «بلى، احيانا، لكن لا يوجد هناك ما يمكن مشاهدته»، «ان هؤلاء السياح كانوا يأتون من اوروبا»، «لكن ان لم اكن قد رأيت اوروبا قط، عندما كنت اعيش فى بلدتى زوفر، والآن وقد غادرت زوفر، لا ارى اوروبا ايضا، اين الفارق اذن»، «انا لم اذهب ايضا الى القمر ابدا ومع ذلك فإنه موجود»، «لكننى ارى القمر، لقد انحرف طريقه بعض الشىء لكننى اراه»، «ما اسمك»، «يسموننى روك لوزانو، فى خدمتك»، «اسمى بيدرو اورس»، «انك تحمل اسم الارض التى ولدت فيها»، « انا لم اولد فى اورس وانما فى فنتا ميسنا، القريبة منها جدا»، «اتذكر فى بداية رحلتى اننى قابلت رجلين برتغاليين كانا ذاهبين الى اورس»، «من يدرى لعلهما هما»، «اود جدا ان اعرف ذلك» «رافقنى ولن يكون لديك اى شك»، «طالما انك تصر فأنا موافق، اننى وحيد منذ وقت طويل جدا»، «انهض ببطء لكى لا يعتقد الكلب أنك تريد به شرا، وسأعطيك عصاك» ، حمل روك لوزانو بقجته على كتفه، وجذب الحمار، وابتعدوا جميعا، سار الكلب الى جوار بيدرو اورس ، أليس من المفترض ان يكون الامر كذلك دائما، حيث يوجد انسان يجب ان يكون معه دائما حيوان ما، ببغاء واقف على كتفه، ثعبان كوبرا ملفوف حول معصمه، جعران على ثنية ملابسه، وعقرب اقدامه تزينها الكرات، وكان يمكن اضافة وقملة على رأسه لولا انها تنتمى الى النوع الممقوت من الطفيليات وغير المحتمل حتى فى هيئة حشرة ، بالرغم من ان لا ذنب لها فى ذلك، المساكين، فتلك هى ارادة الله .

وطبقا للايقاع المتغير الذى تبنوه، فلقد دخلوا بعمق فى كتالونيا، وكانت

تجارتهم تزدهر، لقد كانت بالفعل فكرة الانطلاق فى هذا الفرع من الأعمال فكرة ممتازة، وتتم حاليا مشاهدة عدد أقل من الناس على الطريق، وهو ما يعنى انه بالرغم من ان شبه الجزيرة تواصل حركة دورانها، فإن الافراد قد استأنفوا من جانبهم عاداتهم وسلوكياتهم المألوفة، لو كان من المناسب منح هذه التسمية للعادات والسلوكيات القديمة. ولم تعد هناك قرى خالية، وان كان من المستحيل أن يقسم أحد ان كل منزل استعاد ساكنيه الاوائل، بعض الرجال موجودون هناك من نساء أخريات، وبعض النساء موجودات هناك مع رجال آخرين، والاطفال مختلطون، فالحروب والهجرات الكبيرة تحدث دائما آثارا مماثلة وفى ذلك الصباح اعلن خوسيه انايسو فجأة أنه يتعين عليهم اتخاذ قرار بالنسبة لمستقبل المجموعة، وقد بدا مستبعدا الآن اى خطر ارتطام او ارتجاج، وكان الافتراض الأكيد، او على الاقل المرجح ، فى رأيه ، هو ان تستمر شبه الجزيرة فى الدوران مكانها، وهو ما لا يجب ان ينجم عنه اى ضرر فيما يتعلق بالحياة اليومية للافراد، باستثناء انهم لن يتمكنوا من تذكر الموضع الذى كانت تقع فيه الجهات الاصلية، وهو امر لا أهمية له على أية حال، اذ لا يوجد قانون يقول باستحالة الحياة بدون الشمال، لكن الآن بعد ان رأوا البرانس، وكانت رؤية البحر من مثل هذا الارتفاع فرحة كبيرة، «كان ذلك مثل رؤيتها من الطائرة»، قالت ماريا جافيرا، وصحح خوسيه انايسو، كرجل صاحب خبرة، قائلا، «لا يمكن المقارنة، فامام نافذة الطائرة لايشعر المرء بالدوار، فى حين أننا هناك لو لم نتشبث بكل قوانا، كان يمكن ان نرمى بانفسنا فى البحر عن طيب خاطر». واعلن خوسيه انايسو، وكان ذلك خلاصة انذاره الصباحى، «لابد عاجلا او آجلا من اختيار مكان للوصول، انكم لا تريدون بالطبع قضاء باقى حياتكم على الطريق»، وكان جواكيم ساسا من

رأيه، ولم ترغب المرأتان فى ابداء رأيهما، لأنهما كانتا تشكان فى ان هناك مبررا خفيا وراء هذه العجلة المفاجئة، فقط بيدرو اورس، ذكر على استحياء، ان الأرض لا تزال تهتز وان لم يكن ذلك علامة على ان رحلتهم لم تنته بعد، فإنه يريد اذن ان يعرف السبب الذى دفعهم للقيام بهذه الرحلة. فى ظل ظروف أخرى، كانت حكمة هذه الحجة، حتى ولو كان مشكوكا فيها، كفيلة بالتأثير على الأذهان، لكن لابد من الأخذ فى الاعتبار حقيقة أن جروح الروح، اذا كان الامر يتعلق بها فعلا، عميقة، لذلك فان كل ما يقوله بيدرو اورس الآن قد يخفى مصلحة مستترة، ذلك هو ما يمكن قراءته فى عيون خوسيه انايسو بينما يقول ، «بعد العشاء مباشرة، سيقول كل واحد منا ما يعتقده فى الموضوع ان كان يتعين العودة الى البيت أم الاستمرار كما فى السابق، وسألت جوانا كاردا ببساطة، «اى بيت؟».

وهاهو بيدرو اورس يصل الآن مع رجل آخر، يبدو عليه بالنظر اليه من هنا انه عجوز، ومحظوظ ايضا، لأن فيما يتعلق بمشكلات السكنى المشتركة فان لدينا مايكفينا، ويجر الرجل حمارا مبردعا، وهو أفضل شئ بالنسبة للحمير على الطريقة القديمة، لكن لون هذا الحمار الفضى نادر، ولو كان اسمه بلا ترو فانه يستحق اسمه، تماما كما يستحق الفرس البليد اسم روسينانت. يقف بيدرو اورس على الخط غير المرئى الذى يرسم حدود المخيم، يجب ان يقوم بشكليات تقديم الزائر والتعريف به، وهو ما يجب القيام به دائما خارج جدار السور، انها قواعد لا يحتاج المرء الى ان يتعلمها، فالانسان التاريخى داخلنا يقوم بها وحده، وحدث ذات يوم ان اردنا دخول القصر بدون اذن وحق علينا التأديب. واعلن بيدرو اورس بتفخيم، «لقد قابلت هذا الرجل من موطنى واحضرته لكى يتناول معنا طبق حساء»، هناك نوع من المبالغة فى كلمة موطنى تلك، لنعذره، ففى اوروبا، حاليا،

يشعر برتغالى من مينهو وآخر من النتجو بالحنين الى نفس الوطن، واذا كان فى السابق يفصلهما خمسمائة كيلومتر، فان ستة آلاف كيلومتر تفصلهما الآن عن الوطن.

لم يتعرف جواكيم ساسا وخوسيه انايسو على الرجل الا ان الامر كان مختلفا مع الحمار، فيما عدا الخطأ، ان فيه شيئا مألوفا ومن السهل التعرف عليه، وليس فى ذلك ما يدهش، فالحمار لايتغير فى غضون بضعة شهور قليلة، فى حين لو كان الانسان متسخا واشعث الشعر، ولو نمت لحيته واصبح اكثر نحافة او سمنة، ولو امسى اصلع بعد ان كان له شعر، فان زوجته نفسها سيتعين عليها تجريده من ملابسه لكى ترى اذا كانت العلامة الخاصة موجودة دائما فى نفس مكانها، واحيانا قد يكون ذلك بعد فوات الأوان، فلقد استهلك كل شىء ولا يكفى الندم لجنى فاكهة المغفرة. وقال خوسيه انايسو، مذعنا لقواعد حسن الضيافة، «اهلا بك، لتجلس الى جوارنا، وان وددت نزع بردعة الحمار، فلا تتحرج ، هناك ما يكفى من التبن له وللحصانين»، وكان الحمار يبدو اكثر شبابا بدون البردعة والسلال، ولقد وضح الآن انه يتكون من نوعى فضة، احداهما غامقة والاخرى فاتحة، وكلتاهما ممتازة، وربط الرجل الحمار، ونظر الحصانان شزرا الى القادم الجديد، وهما يتشككان فى امكانية ان ينفعهما فى شىء ، فهو ضعيف جدا من حيث البنية ويصعب ربطه فى العربة لكى يجرها . وعاد الرجل نحو النار، وقبل ان يجذب اليه الحجر الذى سيكون بمثابة المقعد له، قدم نفسه، «اسمى روك لوزانو، وان ابسط تقنيات القص تعفينا من تكرار الباقى. وكان خوسيه انايسو على وشك ان يسأله لو كان الحمار له اسم، وهل اسمه بلا ترو مثلا، لكن الكلمات الاخيرة التى نطق بها روك لوزانو، كانت هى نفسها، «لقد جئت لكى ارى اوروبا، قد

اجبرته على ان يصمت ، ورفعت ذكرى مفاجئة اصبعها فى ذاكرته، وغمغم، انني اعرف هذا الرجل»، وكان الوقت قد حان لذلك، غير ان الامر سيكون جارحا ان يحتاج المرء الى حمار لكي يتعرف على الناس. وكانت حركات مماثلة تحرك ذهن جواكيم ساسا، الذى قال ، وهو متردد، «لدى انطباع اننا تقابلنا من قبل، منذ بعض الوقت»، واجاب روك لوزانو، «وانا ايضا، اتذكر اثنين من البرتغاليين التقيت بهما فى بداية رحلتى، لكنهما كانا يركبان سيارة ولم يكن معهما نساء»، وقالت ماريا جافيرا، «ان العالم يدور دورات كثيرة، ياسيد روك لوزانو، ونفقد فيه ونكسب العديد من الأشياء، بحيث من الممكن ان يفقد المرء سيارة حصانين ويكسب عربة يجرها حصانان، وامرأتين بالاضافة الى رجل»، واضافت جوانا كاردا، «ولم نر كل شيء بعد»، لم يفهم بيدرو اورس ماكانت تلمح اليه وكذلك روك لوزانوا، على نقيض خوسيه انايسو وجواكيم ساسا، اللذين لم يعجبهما ابدا هذا التلميح لأسرار الجسم البشرى، والنسائى بالذات.

لقد تم التعارف ، وتبددت الريب، كان روك لوزانو هو ذلك المسافر الذى التقيا به وسط سلاسل جبال مورينا وأراسينا، والذى كان يتجه بصحبة حماره بلا ترو نحو اوروبا التى لم يرها فى النهاية، لكن النية كانت موجودة، وهو ما ينقذنا. وسألت جوانا كاردا، «واين ستذهب حاليا؟»، «الآن، اعود الى البيت، فكون أن الأرض قامت بكل هذه الدورات، لا يعنى أنه لن يكون فى نفس المكان»، «الارض»، «لا، البيت، والبيت يوجد دائما حيث توجد الأرض»، وبدأت ماريا جافيرا فى ملء الصحون بالحساء الذى اضافت اليه قليلا من الماء ليكفى الجميع، واكلوا فى صمت، فيما عدا الكلب الذى كان يجر عظمة بانتظام، وحيوانات الجر والنقل التى كانت تمضغ وتجتر التبن، وكان يسمع من وقت لآخر طقطقة حبة فول جافة، لا

تستطيع هذه الحيوانات ان تشكو من سوء المعاملة، مع الأخذ في الاعتبار الصعوبات في الوقت الراهن.

وسيتعين على مجلس العائلة ، المدعو الى الانعقاد هذه الليلة، ان يحاول الآن ايجاد حل لإحدى هذه الصعوبات الخاصة جدا ، ولا يمثل وجود غريب اى حرج، على العكس طالما ان روك لوزانو قال انه عائد الى منزله، ونحن، ماذا سنفعل، هل سنستمر بلا قصد، مثل الغجر، نشترى ونبيع الملابس، أم نعود الى العمل، والى البيت، والى حياة منظمة، لأنه حتى لو لم تتوقف شبه الجزيرة ابدا، فان الناس يعتادون ذلك في النهاية، مثلما اعتادت البشرية ان تعيش على ارض في حالة حركة دائمة، اننا حتى عاجزون عن تخيل كم هو صعب العيش في حالة اتزان على لعبة دوارة تطن، وتدور حول حوض أسماك بداخله قيصانة الشمس، وقال الصوت المجهول، «سامحني ان كنت اصحح لك، لا توجد قيصانة شمس، أما قيصانة البدر★. فنعم ، وليس قيصانة الشمس»، «حسن جدا، لن اصر، لكن خسارة ألا تكون موجودة»، ولخص خوسيه انايسو الأمر قائلا ، «للأسف لا يمكن الحصول على كل شيء، فالحرية ورغد العيش لا يجتمعان، ان الحياة الجوالة لها سحرها، لكن اربعة جدران صلبة مع سقف فوقها تمثل حماية افضل من غطاء عربة عرضة للاهتزازات والثقوب»، وقال جواكيم ساسا، «سوف نبدأ بمرافقة بيدرو اورس الى منزله، ثم»، وترك جملته معلقة لا يعرف كيف يواصل حديثه، وعندئذ تدخلت ماريا جافيرا، وقالت بوضوح ما ينبغي ان يقال ، «حسن جدا، سنترك بيدرو اورس في صيدليته، ثم نواصل السير نحو البرتغال، وسيبقى خوسيه انايسو في مدرسته، في منطقة اجهل اسمها، ثم نتابع بعد ذلك نحو ما كان يسمى شمالا، وسيتعين

★ نوع من الأسماك يعيش في البحار الدافئة ويتخذ جسمه شكل قرص مفلطح، وقد يبلغ طوله مترين

على جواناكاردا ان تختار اذا كانت تريد البقاء في ايريرا، عند أبناء عمها، ام تفضل العودة الى ذراعي زوجها في كويمبرا، وبعد حل هذه المشكلة، سنتوجه الى بورتو وسنترك جواكيم ساسا امام باب مكتبه، ان رؤساءه قد عادوا بالطبع من بنافيل، وأخيرا سأعود وحدي الى منزلي حيث ينتظرني رجل ليتزوجني، وسيقول لى انه بقى لكى يحرس ممتلكاتي في غيابي، «والآن ياسيدتي تزوجيني»، وسأشعل هذه العربة بجمرة وكأنني أحرق حلما، ثم ربما أتمكن من دفع المركب الحجرى الى البحر وان ارمى نفسى داخله».

ان النطق بمثل هذا الحديث دفعة واحدة يقطع انفاس من يتكلم ولا يترك قط لمن يسمعه فرصة لكي يتنفس.. ولقد ظلوا صامتين دقيقة، ثم ذكرهم خوسيه انايسو، «اننا نسافر فعلا على طوف من الحجر»، واجابت ماريا جافيرا، «انه واسع جدا بحيث يصعب ان نشعر باننا ملاحون»، وعلق جواكيم ساسا مبتسما، «رد فصيح، كما ان حقيقة اننا نسافر في الفضاء فوق العالم لم تجعل منا رواد فضاء ايضا». وساد الصمت مرة اخرى، ثم جاء دور بيدرو اورس ليعلن، «لنأخذ الامور واحدا تلو الآخر، يستطيع روك لوزانو ان ينضم الينا، وسنعيده الى عائلته التى لابد انها تنتظره في زوفر، ثم بعد ذلك سنقرر ما سنفعله بحياتنا»، «لكن لا يوجد مكان للنوم في العربة»، قال خوسيه انايسو، «ارجو الا يمثل ذلك مشكلة لكم، ان لم يكن لديكم اسباب اخرى لرفض صحبتي، فأنا معتاد ان انام في العراء، يكفي ألا تمطر السماء، والآن، مع وجود العربة، سأنام تحتها وسيكون ذلك وكأن لدى سقف كل ليلة، واعترف لكم، اذا أردتم معرفة كل شيء لقد بدأت أمل من الوحدة».

وفي اليوم التالي، استأنفوا الطريق. وبيج وأل يرغيان ويزبدان على حظ

الحمير، فالحمار يجرى وراء العربة، وهو مربوط بها بطريقة مرتخية وقد تخلص من حمله، وأصبح عاريا، كما جاء الى العالم، بلونه الفضى المضئ الجميل، ويتحدث صاحبه مع بيدرو اورس ، على المقعد الامامى، عن شئون الحياة، ويتناقش الازواج تحت الغطاء، ويسير الكلب امام العربة. كمرشد لها، وبمعجزة تقريبا، عاد الانسجام بين لحظة واخرى للرحلة. بعد التشاور الاخير، امس، رسموا خطا للسير ، لا شئ محددا بشكل صارم، وانما لكى لا يكون التقدم على غير هدى، فى البداية سيتم الهبوط نحو تراجون، والسير بمحاذاة الساحل حتى فالنسي ثم يدخلون بعد ذلك نحو الكاسيت حتى قرطبة، واشبيلية، والوصول اخيرا الى زوفر، بعد اقل من ثمانين كيلومترا، وهناك سنقول، «هاهو روك لوزانو يعود من مغامرته الكبيرة، لقد رحل فقيرا، وعاد فقيرا، ولم يكتشف اوروبا، ولا الدورادو أيضا،» ليس بالضرورة ان يجد الشخص كل ما يبحث عنه، لكن الخطأ لايقع دائما على عاتق من يبحث ، فلقد حدث كثيرا أن قيل لنا، عن خبث أو جهل، إن هناك شيئا حيث لم يوجد شئ، وسوف نراقب من بعيد كيف يتم استقباله، «جدى العزيز، ابى العزيز، زوجى العزيز، يالالاسف انك عدت، لقد اعتقدت انك مت فى مكان مهجور ، وان الذئاب التهمتك»، اما الباقى فلا يمكن قوله بصوت عال.

وعندئذ سينعقد مجلس العائلة مرة اخرى فى زوفر، والآن، اين سنذهب، وماذا سنقول عندما نصل، اين، ولماذا ، ومن اجل من ، «لو كنت تعرف مسبقا الاجابة، فإنك تكذب فى هذه الاجابات»، الصوت المجهول عبر عن نفسه للمرة الثانية فى غضون وقت قصير.

عندما أكملت شبه الجزيرة نصف دورة بالتمام ، وهي تدور وتلف حول نفسها من الشرق نحو الغرب ، بدأت تسقط . في هذه اللحظة بالتحديد ، وبالمعنى الحرفي للكلمة ، بقدر ما يمكن للاستعارات الحاملة للمعنى الحرفي أن تكون دقيقة، فان البرتغال وإسبانيا انقلبتا على ظهرهما . ولنترك للإسبان ، الذين استخفوا دائما بمساعدتنا ، مسئولية وعبء وصف تحولات مظهر الحيز المادى الذي يعيشون فيه ، بأفضل مايعرفون أو يقدرون عليه ، ولنقل ، فيما يتعلق بنا ، بالبساطة والتواضع اللذين ميزا دائما الشعوب البدائية ، إن الجرف ، الذى كان يقع منذ العهود السحيقة فى جنوب الخريطة ، أصبح ، فى هذه الدقيقة غير الطبيعية ، في أقصى شمال البرتغال . إنه «شيء لا يصدق لكنه حقيقى» ، كما يعلمنا ذلك حتى الآن أيضا أحد آباء الكنيسة ، وليس لأنه حي ، فلقد مات كل آباء الكنيسة ، ولكن لأن الدرس الذي قاله لايزال يتردد فى كل ساعة ويتم استخدامه ، وذلك لخدمة المصالح الآلهية كما للمنافع البشرية . ولو ان القدر اراد أن تتوقف شبه الجزيرة فجأة فى هذا الوضع . لكانت العواقب الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية للأمر ، دون نسيان السمة النفسية ، التى لا تولى دائما الاهتمام الكافى ، كنا نقول إن العواقب ، في تعددها وآثارها ، ستكون عنيفة وجذرية ، وفى كلمة واحدة ستكون كونية. يكفى مثلا التذكير بأن مدينة بورتو الشهيرة ستجد نفسها فجأة وقد حرمت من لقبها العزيز وهو عاصمة الشمال ، بدون مرجع منطقى أو طوبوغرافي ، وإذا كان ذلك فى عيون بعض المواطنين العالمين نوعا من النظرة الريفية وضيق الأفق، فليتخيل هؤلاء قليلا ما الذى يمكن أن يحدث لو أصبحت ميلانو فجأة فى جنوب ايطاليا ، فى كالابر ، وأن يبدأ سكان كالابر فى الازدهار فى تجارة وصناعة الشمال ، علما بأن مثل هذا التحول ليس مستحيلا ، نظرا لما حدث لشبه الجزيرة الأيبيرية .

لكن ، كما قلنا ، لقد دام ذلك دقيقة بالكاد . وسقطت شبه الجزيرة ، لكن الدوران لم يتوقف مع ذلك . غير أنه من المناسب ، قبل مواصلة الحديث ، ايضاح المعنى الذى يتعين منحه للفعل «سقط» فى هذا السياق ، وليس المقصود بالطبع مفهومه المباشر ، مفهوم سقوط الأجسام الثقيلة ، لأنه لو أخذت الكلمة بمعناها الحرفى ، لكان معنى ذلك أن شبه الجزيرة تغرق الآن . لكن إذا كانت مثل هذه النكبة أو أخرى مكافئة لها ، لم تحدث خلال أيام الابحار تلك ، التى عرفت كما كبيرا من المحن ، وحيث لامسنا مرات عديدة جد الكاردثة ، فإنه سيكون قمة سوء الحظ فى الحقيقة أن تنتهى الأوديسا بعملية غرق مطلق . لقد استسلمنا من قبل إلى أن أوليس لم يصل فى موعده على الشاطىء لكى يقابل حبيبته الرقيقة نوزيكا، بالرغم من الصعوبة الجمة لذلك على نفوسنا ، لكن ليسمح للبحار المتعب أن يرسو على الأقل على جزيرة الفياسيين ، وإن لم يكن في هذه الجزيرة ففى اية جزيرة اخرى ، المهم أن يتمكن من وضع رأسه على ذراعيه ، طالما لا يستطيع أى صدر نسائى أن يستقبله . لنطمئن . أن شبه الجزيرة لا تغرق في البحر القاسى، إننا نقسم على ذلك ، ولو أن مثل هذه الكارثة حدثت ، لكانت شبه الجزيرة قد اختفت بالكامل ، ومعها أعلى قمم البرانس نتيجة عمق الأغوار هنا .

إن شبه الجزيرة تسقط ، نعم ، لا يمكن قول ذلك بشكل مختلف ، لكنها تسقط نحو الجنوب ، لأننا بهذا الشكل نقسم خارطة نصفى الكرة الأرضية ، إلى فوق وتحت ، وأعلى وأسفل ، وإلى أبيض وأسود للتعبير بطريقة مجازية ، وكان يتعين أن يدهشنا أن البلدان التى تقع تحت خط الاستواء لا تستخدم مع ذلك خرائط معكوسة ، وإن كانت هذه الخرائط ستعطى الصورة التكميلية للعالم التى تغيب عنه، وسيكون ذلك عدلا . لكن تبقى الأمور على ماهى عليه ، ولها هذه القوة

الفريدة ، وحتى التلميذ الصغير يفهم الدرس من أول مرة ، بدون مزيد من الشر ، وسيؤكد لنا ذلك قاموس المرادفات ، الذى يستخف به بلا روية ، ينزل نحو الأسفل يعنى يسقط ، وأنها فرصتنا الكبيرة ألا يغرق هذا الطوف الحجرى ، وتبقبق مائة مليون رئة ، وتختلط مياه نهرى التاج وجاد لكيڤير بالمياه المرة للمحيط اللانهائى .

يوجد دائما من يؤكدون أنه ليس حقيقيا أنه لا غنى عن الشعراء ، وأنا أسأل ما الذي كان سيحدث لنا لو لم يكن الشعر هناك لمساعدتنا على فهم إلى أى مدى تكون الأمور التى نصفها بأنها واضحة هى فى الحقيقة قليلة الوضوح . وبالرغم من أن كما كبيرا من الصفحات قد كتب ، فان المادة السردية انحصرت حتى الآن فى وصف رحلة محيطية ، غير عادية فى الحقيقة ، وحتى فى هذه اللحظة المثيرة حيث تستأنف شبه الجزيرة طريقها ، نحو الجنوب الآن ، مع استمرارها في الدوران دائما حول محورها الخيالى ، يبدو واضحا ، انه لولا أن جاء إلهام الشاعر لنجدتنا ، والذى قارن دوران شبه الجزيرة ونزولها بالطفل الذى يقوم بأول نزول فى حياته داخل بطن أمه ، لكنا عاجزون عن تجاوز واثراء هذا البيان العادى للوقائع . إن التشابه رائع ، مع أنه يتعين علينا انتقاد هذا القبول بإغراءات خلع الصفات البشرية على جميع الأشياء ، وهو الاتجاه الذي يرى كل شىء ويحكم على كل شىء بأن له علاقة بالإنسان ، كما لو كانت الطبيعة لا هم لها سوانا . لو اعترفنا ، ببساطة ، بأن خوفنا اللامتناهى هو الذى يقودنا إلى جعل العالم عامرا بصور تشبه ما نحن عليه ، أو ما نعتقد أننا عليه ، لو اعترفنا بذلك فإن كل شىء سيغدو أسهل بكثير على الفهم ، إلا إذا كان الأمر نقيض ذلك ، وهذا الجهد المتسلط على الشعور والفكر ، ليس إلا ابتكارا ناجما عن الشجاعة ، أو مجرد

عناد من يرفض ألا يوجد حيث يوجد فراغ ، وألا يعطى معنى لما ليس له معنى . من المحتمل ألا نكون نحن من يستطيع ملء هذا الفراغ ، وأن ما نسميه معنى ليس سوى مجموعة صور زائلة ، بدت لنا متناسقة في لحظة معينة ، عندما حاول الذكاء ، الذى انتابه الرعب ، أن يدخل فيها العقل ، والنظام ، والاتساق.

وفي أغلب الحالات ، يكون صوت الشعراء صوتا غير مفهوم ، ومع ذلك تتضمن هذه القاعدة استثناءات ، كما يتضح فى هذه الحادثة الشعرية ، حيث تم التعليق على الاستعارة الموفقة بكل الطرق الممكنة وكررتها كل الأفواه ، فيما عدا افواه الشعراء الآخرين الذين لم ينضموا إلى هذا الحماس الشعبى ، ولا يوجد ما يدهش فى ذلك لو تم الإقرار بأن هؤلاء الشعراء ليسوا معصومين من الحسد والغيظ ، وهى مشاعر بشرية جدا ، وكانت إحدى النتائج الأكثر إثارة لهذه المقارنة الملهمة هى انبعاث الفكر الرحمى ، والسائل العصبى الخاص بالأمومة، وكلاهما قد بدلتهما التغيرات التى طرأت على الحياة الأسرية نتيجة للحداثة ، وبالعودة إلى الأحداث المعروفة ، فان لدينا أسبابا قوية للاعتقاد بأن جوانا كاردا وماريا جافيرا كانتا رائدتين في هذا المجال ، وإن كان ذلك بطريقة بارعة وطبيعية، بدون قرار أو حساب . وحتما كانت النساء هن المنتصرات . ففى نهاية الأمر ، كانت أعضاؤهن التناسلية ، ولتغفروا لنا الفظاظة التشريحية ، هى التعبير المصغر والمضخم فى آن واحد لميكانيكا الكون الطاردة ، كل هذه الآلية التى تباشر عملها بالاستخلاص ، هذا اللاشيء الذى سيصبح كل شيء، ذلك العبور المتصل من الصغير إلى الكبير، من النهائى إلى اللانهائي . وعند الوصول إلى هذا الموضع بالتحديد ، لم يعد المفسرون والشراح يعرفون ماذا يقولون بعد ذلك، وهو أمر غير مدهش ، فالتجربة علمتنا كثيرا إلى أى مدى تغدو الكلمات قاصرة كلما اقتربنا مما يفوق

الوصف ويصعب التعبير عنه ، إننا نريد أن نقول «حب» واللغة لا تكفى ، نريد أن نقول «أزيد» ونقول «لا أستطيع» ، نريد نطق كلمة النهاية ونفهم أننا عدنا إلى البداية .

لكن ، في الحركة المتبادلة بين العلة والمعلول ، جاءت نتيجة أخرى ، هى فى الوقت نفسه عامل وفعل ، لتخفف من حدة المناقشات وجعلت الجميع تقريبا يتبادلون الابتسامات والتهاني . فيما بين ساعة وأخرى ، وسنأخذ فى الاعتبار المبالغة المتضمنة فى هذا النوع من الصيغ العجولة ، اكتشفت جميع النساء ، أو تقريبا كل النساء الخصبات ، أنهن حوامل ، بالرغم من أنه لم يلاحظ أى تغيير مهم فى ممارسات منع الحمل ، فالأمر يتعلق بالطبع بالرجال الذين كانوا يعاشروهن بطريقة منتظمة أو عرضية . ونظرا لما وصلت إليه الأمور فإن ذلك لم يفاجىء أحدا . لقد مرت عدة شهور منذ أن انفصلت شبه الجزيرة عن أوروبا ، وتم قطع آلاف الكيلو مترات وسط بحر مفتوح تماما ، وكاد أن يصطدم الوحش الضخم بجزر الأزور المذعورة ، ولم يحدث ذلك كما رأينا ، لكن الرجال والنساء الذين اضطروا للهروب من ناحية واخرى ، كانوا يجهلون ذلك ، كما يحدث ألف شيء آخر ، الشمس التى يتم ترقبها من اليسار وتظهر من اليمين ، والقمر أيضا، وكأن تقلبه منذ أن انفصل عن الأرض لم يكن يكفيه ، والرياح التى تعصف من كل جانب ، والسحب التى تهرع من كل الآفاق وتدور فوق رؤوسنا المنبهرة ، نعم منبهرة ، لأنه يوجد فوقنا ضوء نابض بالحياة كما لو أن الإنسان لم يعد ، أخيرا ، فى حاجة إلى الاهتمام بضروراته الحيوانية ويستطيع أن يعاد من جديد ، كاملا وصافيا ، إلى عالم قد تشكل حديثا ، نظيف وجماله بكر، طالما أن كل ذلك قد حدث ، وأن الشاعر البرتغالى ، الذى ذكرناه منذ قليل ، قد قال إن شبه الجزيرة

عبارة عن طفل تكون اثناء السفر وانه ، كما لو كان موجودا داخل رحم مائى ، قد رجع إلى البحر لكى يولد ، كيف يمكننا أن نندهش عندما يتم اخصاب الأرحام البشرية للنساء ، وربما يكون الحجر الكبير الذى ينزل نحو الجنوب هو الذى خصبها ، هل نعرف إن كان هؤلاء الأطفال هم حقا أطفال لرجال ، لماذا لا يكون أبوهم هو بالأحرى قاطع البحر الضخم الذى يدفع أمامه الأمواج ويخترقها ، مياه هامسة ، وأنفاس وتنهدات الرياح .

لقد علم المسافرون بهذا الحمل الجماعى من المذياع ، وكذك من الصحف ، ولم يرغب التليفزيون فى ترك الموضوع يمر ، فبمجرد إيقاف امرأة فى الشارع يضعون لها الميكروفون تحت انفها ، ويتم الانقضاض عليها بالأسئلة ، كيف حدث ذلك ومتى ، وما الاسم الذى ستعطيه للمولود ، وكانت الصغيرة المسكينة تحمر وتتلعثم والكاميرا تلتهمها ، وإن كانت لم تذكر الدستور فلأنها كانت تعرف أن الآخرين لن يأخذوها مأخذ الجد . كان يلاحظ عودة نوع من التوتر بين شاغلي العربة ، وإن كانت كل نساء شبه الجزيرة حوامل ، فإن هاتين المرأتين لا تفتحان فمهما عن وضعهما، إن صمتهما مفهوم ، لأنهما لو اعلنتا أنهما حاملتان هما أيضا ، فإن بيدرو أورس كان سيتمنى حتما أن يسجل نفسه على قوائم الأبوة ، وماكان الانسجام الذى تم استعادته بألم فى المرة الأولى يحتمل صدمة ثانية . لذلك، اعلنت جوانا كاردا ، ذات مساء وهما تقدمان العشاء للرجال ، بلهجة لا تخلو من الإغاظة الباسمة، «أتدركون ، أن كل نساء إسبانيا والبرتغال حوامل ، ونحن لا شيء» . ولنتقبل تلك الدقيقة من النفاق ، ولنتقبل أن يتظاهر خوسيه انايسو وجواكيم ساسا ، بغيظ الرجال الذين يرون قدرتهم الإخصابية محل جدل، الأسوأ أن يكون من المحتمل إصابة هذا التهكم لهدفه ، لأنه إذا كان حقيقيا أن

المرأتين حاملتان ، فانه لا يقل صحة أن لا أحد يعرف ممن . ومع كل هذه الاسئلة، فان الهزل لم يخفف من الجو ، ومع مرور الوقت ، سيتم إدراك أن ماريا جافيرا وجوانا كاردا كانتا فى النهاية حاملتين فعلا ، فى حين أنهما كانتا تؤكدان عكس ذلك ، ماهى التفسيرات التى ستقدمانها ، إن الحقيقة تنتظرنا دائما ، ويأتى يوم لا نستطيع الإفلات منها .

وظهر وزيرا البلدين على شاشة التليفزيون ، وكانا محرجين بشكل واضح، بالرغم من أن الحديث عن الانفجار الديموغرافى ، الذى سيحدث فجأة فى شبه الجزيرة بعد تسعة أشهر من الآن ، ليس فيه ما يحرج ، حيث سيولد اثنا عشر أو خمسة عشر مليون طفل فى آن واحد تقريبا ، ويصرخون معا نحو النور ، وتتحول شبه الجزيرة إلى دار للولادة ، والأمهات سعيدات والآباء مبتسمون ، فى الحالات التى يتوافر فيها بالطبع اليقين . بل يمكن انطلاقا من ذلك الحصول على نتائج سياسية ، ولعب ورقة الديماجوجية ، والمناداة بالتقشف باسم مستقبل أولادنا ، والتحدث بإسهاب عن التماسك القومى ، ومقارنة هذه الخصوبة مع عقم باقى العالم الغربى ، لكن من المستحيل منع أى فرد من أن يشعر بالرضا لفكرة أنه لكى يحدث مثل هذا الانفجار الديموغرافى ، لابد أن يكون هناك بالضرور انفجار تناسلى ، فلا أحد فى الحقيقة يستطيع الاعتقاد بأن الإخصاب الجماعى كان ذا طبيعة خارقة للطبيعة . وهاهو رئيس الوزراء يتكلم عن التدابير الصحية التى يتعين اتخاذها ، وعن الخطة القومية المساعدة فى مجال التوليد ، وعن تعيين وتوزيع فرق من الأطباء والقابلات ، فى اللحظة المناسبة ، ويقرأ على وجهه تناقض مشاعره ، حيث يتصارع التعبير الرسمى مع رغبته فى الضحك ، ويشعر المشاهدون أنه فى كل لحظة على وشك أن يقول ، «يابرتغاليات ويابرتغاليون ،

سنجنى من هذا الموقف فائدة كبيرة ، آمل لو أن استمتاعكم كان كذلك أيضا ، لأن صنع أطفال بدون لذة الشهوة هو أسوأ العقوبات» . ويستمع الرجال والنساء، ويتبادلون النظرات والابتسامات ، إذ يعرف الجميع أنهم فى هذه اللحظة بالتحديد، يتذكرون تلك الليلة ، وذلك اليوم ، وتلك الساعة ، حيث حركهما اندفاع مفاجىء ، واقتربا من بعضهما ، وفعلا ما يجب أن يكون ، تحت سماء تدور ببطء ، وتحت شمس مجنونة ، وقمر مجنون ، ونجوم مزوبعة . كان يمكن الاعتقاد ، لأول وهلة ، أن كل ذلك لم يكن سوى حلم ووهم ، لكن عندما بدأت بطون النساء تبرز ، كان لابد من الإقرار بأنه لم يكن حلما .

ووجه رئيس أمريكا الشمالية أيضا كلمة إلى العالم ، لكى يعلن أنه بالرغم من تغير اتجاه شبه الجزيرة ، نحو مكان مجهول ، إلى الجنوب أكثر ، فإن الولايات المتحدة لن تتخلى أبدا عن مسئوليتها تجاه الحضارة والحرية والسلام ، لكن شعوب شبه الجزيرة لا تستطيع الآن وقد دخلت في مناطق نفوذ متضاربة ، نكرر، لا تستطيع ، أن تعتمد على مساعدة مساوية لتلك التى كانت تنتظرهم عندما كان يبدو أن مستقبلهم أصبح لا ينفصل عن الأمة الأمريكية . تلك كانت التصريحات ، تقريبا ، التى أدلى بها أمام مستمعى العالم . غير أنه ، فى سرية مكتبه البيضاوى، وعلى حدة ، قال الرئيس لمستشاريه ، وهو يقلب قطعة ثلج فى كأسه ، «لو أنهم جنحوا نحو القطب الجنوبى ، لانتهت همومنا ، إلى أين سنذهب إذا بدأ العالم يتسكع من ناحية إلى أخرى ، سوف يتعذر علينا وضع أية استراتيجية ، ما فائدة القواعد التى نمتلكها . مثلا ، على شبه الجزيرة ، مافائدتها بالنسبة لنا فى الوقت الراهن ، سوى قذف حزمة صواريخ على طيور البطريق . عندئذ أبدى أحد المستشارين ملحوظة أن الاتجاه الجديد ليس سيئا لهذه الدرجة ، فبعد فحص كل

شيء جيدا ، «إنهم ينزلون بين افريقيا وامريكا اللاتينية ، سيدى الرئيس» ، «نعم، هذا الاتجاه يمكن أن يكون مفيدا ، لكن من الممكن أيضا أن يزيد من عصيان هذه المنطقة» ، وأثارت هذه الفرضية المزعجة قلق الرئيس الذى ضرب الطاولة بيده فى نفاد صبر ، مما جعل صورة السيدة الأولى الباسمة تقفز . وانتفض مستشار عجوز خوفا ، وألقى نظرة دائرية خاطفة وقال ، «احذر ، سيدى الرئيس، من يدرى ماهى المضاعفات المحتملة لضربة مماثلة» .

لم تعد شبه الجزيرة على شكل جلد الثور المسلوخ ، لكنها تبدو كحصاة ضخمة لها شكل إحدى تلك الأدوات المصنوعة من الصوان التى كان يستخدمها رجال ماقبل التاريخ ، وهى منحوتة بصبر ودقة حتى تصبح أداة عمل ، فالجزء العلوى مصمت وسميك لاستقبال تجويف اليد ، أما الجزء السلفى فمنحوت على شكل قرن للتمزيق والحفر والقطع ووضع العلامات والرسم ، وأيضا للجرح والقتل، لأننا لم نتعلم بعد الإفلات من هذا الإغراء . لقد توقفت حركة دوران شبه الجزيرة، إنها تنزل الآن عموديا في اتجاه الجنوب ، بين افريقيا وامريكا الوسطى، كما يفترض أن يكون مستشار الرئيس قد قال ذلك ، ويبدو شكلها الخارجى توأما للقارتين اللتين تحاذيهما ، وإن كان ذلك يبدو غير معقول للذين مازالوا يحتفظون فى عيونهم بوضعها القديم على الخريطة، تظهر البرتغال وجاليزا فى الشمال ، وتحتلان كل العرض من الغرب إلى الشرق ، ثم تبدأ الكتلة الكبيرة تضيق ، وتكون بروزا على اليسار ، الأندلس وڤالنس ، ويجىء ساحل الكنتابريك على اليمين بينما يقع حاجز البرانس على نفس الخط ، والطرف المدبب من الحجر ، أى مقدمة السفينة القاطعة ، هى رأس كروس ، التي تم سحبها من مياه البحر المتوسط نحو أعالى البحار ، بعيدا جدا عن سماء موطنها ، لقد كانت جارة لبلدة سيربير ، تلك المدينة الفرنسية الصغيرة التى سبق ذكرها فى بداية هذه الرواية .

إن شبه الجزيرة تنزل لكنها تنزل ببطء ، ويتوقع العلماء، وإن كان بحذر ، أن الحركة ستتوقف قريبا ، ويعتمدون فى ذلك على البداهة العامة التى تقضى بان، إذا كان الكل ، بكونه كذلك ، لا يتوقف ابدا ، فان الاجزاء المكونة له تتوقف احيانا، والحياة البشرية ، الثرية جدا بإمكانيات المقارنة ، كما يعرف كل منا ، هى الاثبات على صحة هذه المسلمة . وبمجرد صدور هذا الاعلان العلمى ، ولدت لعبة

القرن ، إنها فكرة بزغت عمليا فى نفس اللحظة فى العالم اجمع وتتلخص فى إقامة نظام رهان مزدوج على اللحظة والمكان اللذين ستتوقف فيهما الحركة ولمزيد من الفهم سنقترح الفرضية التالية ، الساعة السابعة عشرة وثلاثة وثلاثون دقيقة وتسعة وأربعون ثانية ، بالتوقيت المحلى للمراهن ، بالطبع ، واليوم والشهر والعام ، وكذلك الإحداثيات مع الاكتفاء بالاشارة إلى خط الطول بالدرجات والدقائق والثوانى ، مع اعتبار راس كروس ، التى سبق ذكرها ، مرجعا لذلك . وبلغ مجموع الرهان ثلاثة تريليونات دولار ، وإذا توصل شخص لهاتين النتيجتين، أى اللحظة المحددة والمكان الصحيح ، وهو أمر غير وارد طبقا لحساب الاحتمالات، فان هذا الشخص ذا البصيرة شبه الآلهية سيجد نفسه على الفور على رأس أكبر ثروة يمكن جمعها على سطح الأرض ، التى رأت مع ذلك ثروات أخرى . ومن المفهوم أنه لم توجد أبدا لعبة أكثر إثارة للرعب من تلك اللعبة ، لأن مع كل دقيقة تمر ، ومع كل ميل يقطع ، يتناقص عدد المراهنين الذين يحتمل فوزهم، وإن كان لابد من الإشارة إلى أن عددا كبيرا من المستبعدين يراهنون من جديد، وبذلك تنمو الثروة التى بلغت أرقاما فلكية . ولم ينجح جميعهم ، بالطبع ، فى الحصول على المال اللازم للرهان الجديد ، ومن الواضح أن عددا منهم لم يجد مخرجا سوي الانتحار من الإفلاس . إن شبه الجزيرة تنزل نحو الجنوب تاركة وراءها كمية من الموتى ، وهى بريئة منهم ، فى حين ينمو فى بطن نسائها تلك الملايين من الأطفال الذين أوجدتهم ببراءة .

إن بيدرو أورس قلق ومهموم ، يتكلم قليلا ، ويمضى الساعات خارج المخيم ، ويعود منهكا ، ولا يأكل شيئا ، وعندما يسأله رفاقه إن كان مريضا يجيب ، «لا ، لا، أنا لست مريضا» ، بدون أى ايضاح . ويخص روك لوزانو بأحاديثه النادرة ،

وهى دائما نفس الأحاديث عن موطن احدهم أو الآخر ، حتى يخيل أنهما لا يعرفان موضوعا غير ذلك ، ويتبعه الكلب اينما ذهب ، وكأن توتر الرجل انتقل إلى الحيوان ، الذى كان من قبل هادئا جدا . وقال خوسيه انايسو لجوانا كاردا ، «إذا كان يتصور انه سيكرر قصته ، قصة الرجل المسكين الوحيد المهجور مع المرأة المحسنة التى تعزيه بإراحة غدده شديدة الامتلاء ، فإنه يكون واهما تماما» ، واجابت جوانا كاردا بابتسامة ولكن بدون ابتهاج ، «انك انت الواهم ، إن ألم پيدرو أورس ، لو كان موجودا ، مختلف تماما» ، «مابه» ، «أنا لا أعرف ، لكننى أؤكد لك أن ذلك لا علاقة له بأى تجدد للاشتهاء من جانبه ، إن المرأة تشعر بذلك»، «إذن ، يجب التحدث معه ، وإرغامه على الكشف عما فى قلبه ، فقد يكون مريضا فعلاً» ، «ربما ، لكن ليس مؤكدا» .

إنهم يسيرون على امتداد جبل الكاراز ، وسيعسكرون اليوم فى ضواحى قرية اسمها ، طبقا لما تقوله الخريطة ، بينسرڤيدا . وعلى المقعد الأمامى ، يقول بيدرو أورس لروك لوزانو، «من المكان الذى نحن فيه ، لم يتبق لنا كثير حتى ندخل اقليم غرناطة ، شريطة ان نتجه من هذا الجانب» . «إن أرضى لازالت بعيدة» . «سننتهى بالوصول إليها» ، «سأصل إليها ، لكن أود أن اعرف إن كان ذلك يستحق العناء» ، «لن تعرف ذلك إلا بعد الوصول ، اهمز قليلا الحصان الأبقع ، إنه لم يعد يضبط الخطوة» . وهز روك لوزانو الزمام ، ولمس بطرف السوط كفل الحصان، لمسة أقرب للمداعبة ، واطاع بيج وعدل سرعته، وكان الأزواج يتناقشون بصوت منخفض، داخل العربة ، تقول ماريا جافيرا ، «ربما يود أن يعود إلى موطنه ولا يجرؤ على قول ذلك لنا لأنه يخشى ان يسىء الينا بهذا التصرف» ، «محتمل» ، أجابت جوانا كاردا مسلمة بهذا الرأى ، «يجب ان نصارحه بأننا

نتفهم موقفه ولا نجد خيرا فى ذلك ، فنحن في النهاية لم نقسم أو نوقع عقدا للباقى من حياتنا ، إننا أصدقاء ، وسنظل أصدقاء ، وسنعود ذات يوم لزيارته» ، وغمغت جوانا كاردا، «لنأمل ألا يكون السبب شيئا آخرا» ، «ألديك فكرة أخرى» ، «لا ، مجرد هاجس» ، «أى هاجس» ، سألت ماريا جافيرا ، «إن بيدرو أورس سيموت» ، «كل الناس ستموت» ، «نعم لكنه سيكون الأول» .

تقع قرية بينسرفيدا بعيدا عن الطريق الرئيسى ، لقد ذهبوا إليها لأعمالهم التجارية ، واشتروا بعض المؤن ، وغيروا مخزونهم من المياه ، وبما أن الوقت كان لا يزال مبكرا ، استأنفوا طريقهم . وإن كانوا لم يبتعدوا كثيرا ، فعلى مسافة ليست بعيدة كانت هناك كنيسة صغيرة ، اسمها توروشيل ، وهى مكان لطيف جدا لقضاء الليل ولقد توقفوا عندها ، نزل بيدرو أورس من المقعد الأمامى ، وعلى عكس عادتهما ركض خوسيه أنايسو وجواكيم ساسا ، اللذان قفزا من العربة بمجرد توقفها ، ليساعداه ، وقال بيدرو أورس وهو يضم الأيدى الممدودة ، «ماذا يعنى ذلك ، ياأصدقائى ، لم أصبح عاجزا بعد»، ولم يلحظ أن الكلمة ملأت فجأة عيون الاثنين الآخرين بالدموع ، يوجد دائما فى أعماق قلب هذين الرجلين ألم الشك ، لكنهما يستقبلان فى أذرعهما الجسد المنهك الذي يستسلم ، بالرغم من التصريح المتسم بالكبرياء ، وتحين دائما لحظة حيث لا يبقى للكبرياء سوى الكلمات ولا يعد إلا كلمات . وضع بيدرو أورس قدمه على الأرض ، وخطا بضع خطوات ثم توقف، وارتسم على وجهه وكل شخصه تعبير ذهول كأن ضوءا باهرا قد شل حركته ، وبهره ، وسألت ماريا جافيرا ، التى اقتربت ، «ما الذى يجرى»، «لا لشيء ، لا شيء» ، وسألت جوانا كاردا ، «هل تشعر بتعب» ، «لا ، إنه شىء آخر» . وانحنى ووضع راحتى يديه على الأرض، ثم نادى على الكلب كونستنت،

ووضع يده على راسه ، ومررا صابعه على طول عموده الفقرى ، وعلى ظهره وكفله، لم يتحرك الكلب ، وكان يضغط على الأرض كما لو كان يريد أن يغرس فيها أقدامه . لقد تمدد بيدرو أورس ، الآن ، بطوله على الأرض ، وكان رأسه الأشيب يستند على باقة من الأعشاب ينبثق منها فروع مزهرة ، لأن هناك زهورا فى هذا الفصل الذى من المفترض أن يكون الشتاء ، وركعت جوانا كاردا وماريا جافيرا إلى جانبه ، وامسكتا يديه، «ماذا بك ، قل لنا إن كنت تشعر بألم» ، وكان يشعر فعلا بألم ما ، كان يشعر بألم كبير جدا ، إذا كان ذلك هو تفسير التعبير الذى ارتسم على وجهه ، كان يفتح عينيه ، ويحدق فى السماء والسحب التى كانت تمر، لم تكن ماريا جافيرا وجوانا كاردا فى حاجة لأن ترفعا رأسيهما لكى تريا هذه السحب ، لقد كانت تندفع ببطء فى عينى بيدرو أورس كما كانت أنوار شوارع بورتو تتتابع فى عينى الكلب ، منذ زمن بعيد ، فى اية حياة ، والآن نحن جميعا معا ، مجتمعين ، بالاضافة إلى روك لوزانو ، الذى لديه تجربة الحياة والموت ، ويبدو الكلب وكأنه منوم مغناطيسيا بنظرة بيدرو أورس ، فهو يحدق فيه ، ورأسه منخفض، وشعره واقف كما لو كان عليه مواجهة كل جماعات ذئاب العالم ، وعندئذ قال بيدرو أورس بوضوح ، كلمة بكلمة ، «لم أعد أشعر بها ، الأرض ، لم أعد أشعر بها» ، واعتمت عيناه ، ومرت سحابة رمادية بلون الرصاص ، فى السماء ببطء ، ببطء شديد ، وأسبلت ماريا جافيرا بأصابعها الخفيفة جدا أجفان بيدرو أورس ، وقالت ، «لقد مات» ، عندئذ اقترب الكلب وولول ، كما يقال عن أى شخص إنه يولول .

إن رجلا يموت وماذا بعد . وأصدقاؤه الأربعة يبكون ، إن روك لوزانو ، الذى لم يعرفه إلا منذ وقت قليل ، يفرك عينيه بغضب بقبضتيه المغلقتين ، وولول الكلب

مرة واحدة ، وهو واقف إلى جوار الجسد ، وعما قليل سيتمدد ويضع رأسه الضخم على صدر بيدرو أورس ، «لكن لابد من التفكير وتقرير كيفية التعامل مع الجثمان» ، قال خوسيه انايسو، «لننقله إلى بينسر ڤيدا ، ونتصل بالسلطات ، لا نستطيع أن نفعل له أكثر من ذلك» ، وتذكر جواكيم ساسا ، «لقد قلت لى ذات يوم إن قبر الشاعر ماشادو لابد أن يكون تحت شجرة زيتون ، فلنفعل ذلك لبيدرو أورس» ، لكن الكلمة الأخيرة كانت لجوانا كاردا ، «لافى بينسر ڤيدا ، ولا تحت شجرة ، سنعيده إلى ڤنت ميسنا ، سندفنه هناك حيث ولد» .

يرقد بيدرو أورس على فراشه المصنوع من القش ، والموضوع بالعرض ، وإلى جانبه المرأتان تمسكان بيديه الباردتين ، تلك اليدان القلقتان نفسهما اللتان لم تكدا تعرفان جسدهما ، والرجال جالسون على مقعد الخوذى ، ويقود روك لوزانو الحصانين ، اللذين كانا يعتقدان ان بإمكانهما أخيرا أن يرتاحا ، وهاهما على الطريق من جديد ، فى قلب الليل ، لم يحدث لهما من قبل شىء مماثل أبدا ، ربما يتذكر الحصان الأشقر ليلة أخرى ، كان ينام وحلم أنه ربط لعلاجه بالدهان وهواء الليل العليل من جرح مؤلم ، وعندئذ جاءت امرأة ورجل فى طلبه ومعهما كلب ، وخلصاه من قيوده ، ولم يعد يعرف إذا كان الحلم قد بدأ أم انتهى عند ذلك . يمشى الكلب تحت العربة وتحت بيدرو أورس ، وكأنه يحمله ، لفرط الحمل الذى يشعر أنه يثقل على كاهله . وهناك فانوس مضاء ، معلق فى قوس العقد الذي يسند غطاء العربة فى المقدمة . عليهم أن يقطعوا أكثر من مائة وخمسين كيلو مترا .

يشعر الحصانان بالموت وراءهما وليسا فى حاجة إلى سوط آخر . إن صمت الليل ثقيل لدرجة أن دوران العربة على أرض الطرق القديمة الوعرة يسمع بالكاد، ويبدو صوت مشية الحصانين السريعة خافتا وكأن أقدامهما ملفوفة بأقمشة . لن

يكون هناك قمر . انهم يسافرون وسط الظلام الدامس ، ظلام الليلة الأولى من كل الليالى قبل أن يقال «ستخلق شمس» . إن ماريا جافيرا وجوانا كاردا تبكيان منذ أن بدأت الرحلة . لقد اعطت كل منهما جسدها الرحيم لهذا الرجل الذى مات ، وبأيديهما جذبتاه نحوهما ، وساعدتاه ، وربما تكون الأطفال التى تكبر فى بطنهما والتى يجعلها النحيب ترتعش هم اطفاله، «ياإلهى ، ياإلهى ، كم ترتبط أمور هذا العالم فيما بينها ، اننا نرتكب أكبر الاخطاء جميعا إذا اعتقدنا أننا نقطع ونصل عندما نريد ذلك ، بإرادتنا وحدها ، وكم من الدروس علمتنا نقيض ذلك ، خط على الأرض ، وسرب من الزرازير ، وحجر ألقى فى البحر ، وخيط من الصوف الأزرق، لكن يطلب من العميان أن يروا ، ويتعب المرء رئتيه من فرط الكلام والصياح فى أناس صم وقساة القلوب .

كانت السماء لاتزال داكنة عندما وصلوا إلى قنت ميسينا . وخلال كل الرحلة ، حوالى ثلاثين فرسخا ، لم يقابلوا أحدا . وكانت قرية أورس ، النائمة ، مثل الشبح، والمنازل أشبه بجدران متاهة ، النوافذ والأبواب مغلقة ، وكان قصر السبعة ابراج ، يبدو فوق اسطح البيوت وكأنه خيال غير مادى . وكانت المصابيح العامة ترتجف مثل نجوم توشك على الأفول، وتبدو أشجار الساحة ، وقد اختزلت إلى جذوعها وبعض الفروع السميكة ، وكأنها بقايا غابة متحجرة . مروا أمام الصيدلية ، لم تكن هناك حاجة لأن يتوقفوا هذه المرة ، التعليمات الخاصة بخط السير لا تزال حاضرة فى ذاكرتهم ، «استمروا فى خط مستقيم» ، والكلام موجه لماريا ، «استمرى لمسافة ثلاثة كيلو مترات بعد آخر البيوت، هناك جسر صغير إلى جواره شجرة زيتون ، سأكون هناك بعد قليل . ووصل» . وبعد المنعطف الأخير لحوا المقابر ، الجدران البيضاء والصليب الضخم . كانت البوابة مغلقة ، ولابد

لهم من فتحها عنوة . ذهب خوسيه أنايسو ليبحث عن عتلة ، وأدخل طرفها بين مصراعى البوابة ، لكن ماريا جافيرا امسكت ذراعه، «لن ندفنه هنا» . وأشارت إلى التلال البيضاء فى اتجاه كوڤادوس روزايس ، هناك حيث عثروا على جمجمة أقدم أوروبى ، الذى كان يعيش منذ أكثر من مليون عام ، وقالت ، «سيرقد هناك ، ربما كان سيختار هو هذا المكان» . وقادوا العربة إلى أبعد ما يمكنها الوصول إليه ، ولا يستطيع الحصانان التقدم إلا بالكاد ، كانا يجران الأقدام فى التراب . لم يشهد أحد الجنازة فى ڤنت ميسينا ، فالبيوت كلها مهجورة وأغلبها منهارة . ولا يكاد المرء يميز ظل الجبال الوعرة فى الأفق ، تلك الجبال التى رآها رجل أورس قبل أن يموت ، لا يزال الوقت ليلا ، وبيدرو أورس مات ، وبقيت سحابة قاتمة فى عينيه ، لا شىء أكثر .

وعندما توقفت العربة عن التقدم ، اخرج الرجال الثلاثة الجثمان . وامسكت به ماريا جافيرا من جانب ، وتقبض جوانا كاردا بيدها على عصاتها من فرع الدردار . وتسلقوا التلة ، إنها منبسطة فى جزعها العلوى ، وتتفتت الأرض الجافة تحت أقدامهم ، وتنزل المنحدر بسرعة ، ويتأرجح جسد بيدرو أورس ، وكاد أن يفلت منهم ويجرهم معه ، لكنهم نجحوا فى رفعه حتى قمة التلة ، وضعوه على الأرض ، وكان العرق يغطيهم ولونهم أبيض من التراب ، إن روك لوزانو هو الذي سيحفر له القبر ، لقد طلب أن يتركوه يقوم بهذا العمل ، والأرض تتفكك بسهولة ، وتقوم المعزقة مقام العتلة بالنسبة له ، والأيدى بدلا من المجرفة . وتنجلى السماء فى الشرق ، وأصبح ظل الجبال المبهم أسود . ويخرج روك لوزانو من الحفرة ، ويمسح يديه ، ويركع وينزلق تحت الجثمان ، ويأخذ خوسيه انايسو بيدرو أورس من ذراعيه ويرفعه جواكيم ساسا من قدميه ، ويضعوه ببطء فى القبر ، الحفرة

ليست عميقة ، لو عاد علماء الانثروبولوچيا ذات يوم إلى هنا لن يصعب عليهم العثور عليه ، وستقول ماريا دولور، «هاهي جمجمة» ، وسيلقى المسئول عن فريق التنقيب نظرة ، «لا أهمية لها ، يوجد الكثير منها» . وغطوا الجثمان ، وقاموا بتسوية التربة لكي تختلط مع الأرض حولها ، لكنهم اضطروا إلى إبعاد الكلب الذى كان يريد نبش القبر بمخالبه . ثم غرزت جوانا كاردا عصاة الدردار على ارتفاع رأس بيدرو أورس، «إنها ليست صليبا ، كما ترون ، وليست علامة موت ، إنها فقط عصاة فقدت قوتها الخاصة ، لكن مازال يمكنها تقديم خدمات متواضعة، أن تكون ساعة شمسية لصحراء متكلسة ، وربما شجرة سوف تولد من جديد، «لو تقدر عصاة جافة مغروزة فى الأرض على صنع معجزات ، وأن تتجذ، وتحرر عيون بيدرو أورس من السحابة القاتمة ، فإن السماء ستمطر غدا على الحقول .

وتوقفت شبه الجزيرة . لقد ارتاح المسافرون فى هذا المكان ذلك اليوم ، وأمضوا الليلة وصباح اليوم التالى . وفى لحظة رحيلهم ، بدأت السماء تمطر . نادوا على الكلب ، الذى لم يبتعد عن القبر طوال هذه الساعات ، لكنه لم يأت . وقال خوسيه أنايسو، «إنه أمر طبيعى ، فالكلاب لا ترغب فى ترك أصحابها ، بل إنهم يتركون أنفسهم أحيانا يموتون» . لكنه كان مخطئا. لقد نظر الكلب «اردنت» إلى خوسيه أنايسو ثم ابتعد ببطء ، ورأسه منخفض . ولم يروه ثانية أبدا . وتستمر الرحلة . سيبقى روك لوزانو فى زوفر ، سيطرق باب بيته ، «لقد عدت» ، إنها قصته ، سيقوم أحد بحكايتها ذات يوم . وسيواصل هؤلاء الرجال والنساء طريقهم ، نحو أى مستقبل ، أى وقت ، أى مصير . إن عصاة الدردار خضراء ، وربما ستزهر فى العام القادم .

أحدث إصدارات روايات الهلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦١٠	تل الهوى	يوسف أبو رية	أكتوبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١١	قط وفار	جونتر جراس	نوفمبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١٢	الكائن الظل	إسماعيل فهد اسماعيل	ديسمبر ١٩٩٩	٥,٠٠
٦١٣	طيور العنبر	ابراهيم عبد المجيد	يناير ٢٠٠٠	٨,٠٠
٦١٤	خمرية	أمين العيوطى	فبراير ٢٠٠٠	٥,٠٠
٦١٥	القلق السرى	فوزية رشيد	مارس ٢٠٠٠	٧,٠٠
٦١٦	فئران بلا جحور	أحمد ابراهيم الفقيه	ابريل ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦١٧	خزانة الكلام	جميل عطية ابراهيم	مايو ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦١٨	بوح الأسرار	محمد جبريل	يونيه ٢٠٠٠	٥,٠٠
٦١٩	صالح هيصه	خيرى شلبى	يوليه ٢٠٠٠	٧,٠٠
٦٢٠	غريبان فى قطار	باتريشيا هايسميث	أغسطس ٢٠٠٠	٨,٠٠
٦٢١	حكمة العائلة المجنونة	فؤاد قنديل	سبتمبر ٢٠٠٠	٦,٠٠



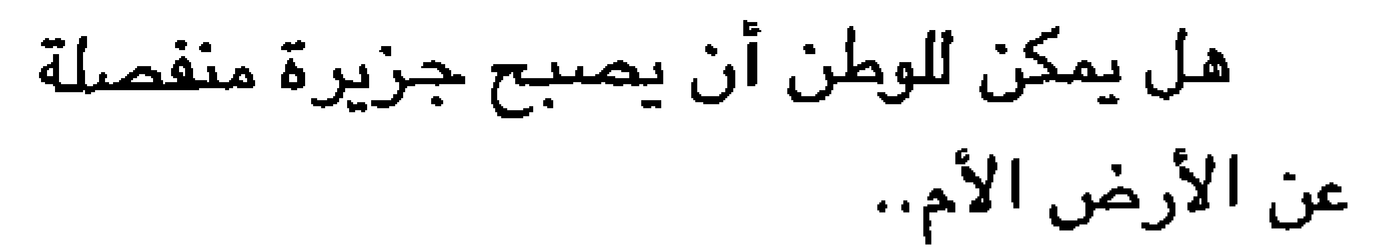
خوسيه ساراماجو

* روائى برتغالى حائز على جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٩٨ مولود فى مدينة ازينهاجا عام ١٩٢٢

* عمل صحفيا فى العديد من الصحف والمجلات البرتغالية حتى بلغ الثامنة والخمسين.

* بدأ الكتابة فى سن متأخرة حيث احترف الكتابة عام ١٩٨٠ بروايته «مرفوع من الأرض»، ومن رواياته الأخرى «الطوف الحجرى» ١٩٨٦ و«تاريخ حصار لشبونة» ١٩٨٩ و«انجيل يسوع» ١٩٩١.

* نشرت ترجمة روايته «عام وفاة ريكاردوريس» فى روايات الهلال يناير ١٩٩٩.



هل يمكن للوطن أن يصبح جزيرة منفصلة عن الأرض الأم..

هكذا تصور خوسيه ساراماجو وطنه البرتغال، وكأنه يتخلص من سطوة أوروبا عليه، فراحت تطوف فوق مياه المحيط، بطوله وعرضه، حيث افريقيا، أو نحو أمريكا اللاتينية، لا أحد من فوقها يعرف أين ستتوقف، ولا متى سوف ترسو، وفوق هذه الجزيرة، تعيش نماذج انسانية تصير بطلة للرواية، منها الحسناء جوانا التى تبحث فوق اليابسة عن مصباح لا ينطفئ قط. وجواكيم صاحب القدرات الخارقة، والذى يرمى حجرا يطير دون سقوط، لقد فقد الحجر وزنه وظل يقاوم الجاذبية الأرضية إلى الأبد.

هى رواية أساسها البشر الغرباء، يؤمنون بأهداف متناقضة ... فنحن البشر، مهما كانت سماتنا، فلابد أن هناك خيوطا تدفعنا للتلاقى مع الآخرين.

الطوف الحجرى .. رواية نالت جائزة نوبل، وتستحق القراءة.

رقم الايداع : ٢٠٠٠/٩٥٧٦
I.S.B.N
977 - 07 - 0904 - 2


روايات مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه
روايات مصرية للجيب
لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢
Bibliotheca Alexandrina
0725346